سلسلة صرخة الإنقاذ رقم (١)

(مذكرات ع. م. أو موسى)

صفحات من تاريخ اليقظة الإسلامية في الصومال

«رؤية من الداخل»

إعداد: عبد القادر محمود أو موسى الصومالي

بسم الله الرّحمن الرّحيم

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة

المقـــدّمـــة

الحمد لله حمد الشاكرين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، محمد بن عبد الله، سيد العرب والعجم المبعوث إلى جميع الأمم، وعلى آله وصحبه، أعلام الهدى، ومصابيح الدجى، ومن تبعه إلى يوم الدين. وبعد:

فهذه هي مذكراتي في الحركة الإسلامية التي سميتها «صفحات من تاريخ اليقظة الإسلامية في الصومال» ضمن سلسلة «صرخة الإنقاذ رقم١» تلك الصرخة التي أرسلتها إلى كل المهتمين بالعمل الإسلامي.

كان الكاتب جزءا من الحركة الإسلامية التي تكوّنت في أواخر الستينات، وأقرب إلى التيار العام الذي استوعب كل الاتجاهات الإسلامية، فكثير من الإسلاميين الصوماليين كانوا يعدونه أنه من أبناء الحركة الإسلامية الذين راقبوا وتابعوا التطورات التي أحدثت هذه الصحوة المباركة؛ فألحّ البعض أن يكتب مذكراته في تاريخ تلك اليقظة في الصومال، لكشف الجوانب الغامضة من هذا التاريخ، ولتقديم ما وعته الذاكرة من صور وما اختزنته من تجارب، فهم كانوا في حاجة إلى شخصية يمتلك الكثير من المعلومات عن الكثير من القضايا الشائكة.

وإنّ لكل تاريخ خفايا لم تكتشف بعد، مما يسميها المؤرخون ب «خفايا التاريخ» فقبل الطلب ليقدم الزبدة التاريخية التي يعتبرها «كنوزا مخفية» وكان يرى في سطور تلك التاريخ والوقائع دروسا «صامتة» عظيمة الأثر؛ لكنه فكر كثيرا في الموضوع وتردّد عن قبول هذا المطلب في أول الأمر لأسباب زمنية، وخوفا من أن يضع الفكرة قبل أوانها وفي غير محيطها. فلما شاهد الحال الحاضرة لم يسعه إلا كشف

أستار الماضي واظهارها من عالم الاخفاء. وإذا سأله سائلٌ، لماذا أخفيتم تلك الكنوز التاريخية إلى الآن وإلى حوالي نصف قرن؟ وبما أنه سؤال وجيه، يحاول الكاتب إجابتها، وهو أنه كان أمام الفئة العقبات التالية:-

أولا: ما ابتلي به العمل الإسلامي من نزاع وجدال، وما أدى ذلك الجدل من التفرق والتحزب، وكنا ننتظر حتى تهدأ أصوات العداء، وتختفي المشاحنات بين الدعاة.

ثانيا: رؤيتنا أن الأمة الإسلامية عامة والصومالية خاصة غير مؤهلة حتى الآن للاستفادة من التجارب السابقة، بل انتشرت فينا طبيعة الارتجالية والاعتماد على اكتشاف الذات ثمّ الحكم على الناس بمنظاره، والتعلم من جرِّب وحاول أو تهوُّر به وليكن ما يكون!.

ومنذ زمن قديم من تاريخ المسلمين، العقلية الإسلامية أصبحت تكره دراسة تجاربها واستخلاص العبر منها ككراهيتها لبدعة «النقد الذاتي» ثم تكفيرها كل من يقدم النقد إليها. لكن ما دام هناك في زماننا قيادات قاموا خطوات أرهقت أرواحا، وسالت – بسوء التخطيط- فيها أنهارا من الدماء الزكية التي كان ينبغي أن يدخَّر لمعارك حقيقية، ثمَّ تركوا آلاما لا تطاق، فلماذا لا يتحملون النقد الحادّ الذي نقدمه إليهم؟، وبالعكس إذا كان هناك من يفتي دائما بما يرضي المخططين الغربيين وعملائهم، ويلقي بالقداسة والمبالغة على فكره وعمله مع أنه متهم بأنه كثير اللين والمجاملة مع الغربيين والعملاء، ثم يوجه نقده الحاد إلى إخوانه في الدين، ومن ثمّ يفرِّق الفئة الواحدة إلى فئات متضاربة، ولم يحسن توحيد الأمة، أليس من المنطق أن يتحمّل النقد؟.

ثالثا: متابعتنا لمحاولات أخرى التي رأينا فيها تناقضات عجيبة في روايات مزورة وأخرى مزيفة؛ فكنا مبهورين من تلك التناقضات والتزييف التاريخي الذي ابتلي بالعمل الدعوي ، وأسكتنا عن المشاركة للأسباب التالية:-

أولا: لأننا كنا على يقين أن الله سبحانه سيكشف الحق من الباطل في يوم يقوم الناس لرب العالمين.

ثانيا: ولأننا كنا نعتقد أن العالم اليوم معادٍ للمؤمنين جميعا، وأن الفتن الداخلية هي القوة الباطشة الهادمة، ومن ثمّ كان قرارنا يرفض مشاركة أي نزاع في داخل العمل الإسلامي تحت الحكم العدائي، كما كنا نعتقد أن إفراغ طاقة العداء في الخارج يأتي دائما بأعظم النتائج في الداخل.

ثالثا: كنا نتساءل كيف نعرض تلك التاريخ لأناس لم يسمعوا من هذه اليقظة إلا الوشاية التي لم يألوا جهدا في ترديدها ونشرها.

فلما تصفحنا في كتب التاريخ وجدنا فيها روايات متناقضة، وأشياء نسبت لغير أصحابها، وأشياء أضيفت وهي لم تحدث، ولا يستطيع أحد في كثير منها أن يقول أين الصدق وأين الكذب؟ بل علينا أن نأخذها على علاتها منسوبة إلى الرواة أو المؤرخين، فانبهرنا ودهشنا فعلا عند مطالعتنا التاريخ «العمل الجليل» الذي قدمته المشيخة «علماء الجرح والتعديل» ومصدر دهشتنا كثرة الروايات الموضوعة والضعيفة في تلك المرحلة التي كانت «مرحلة الازدهار» علما بأن هذا الزمن كان خير القرون، وفي داخل الحكم الإسلامي!.

وما دام علماء التاريخ أثبتوا أن الوثائق المزورة في تاريخ البشر أكثر من الوثائق الصحيحة، وأنه حتى الكتب السماوية لم تسلم من هذا التزوير، وجدنا أن التزوير التاريخي طبيعة بشرية ظالمة، والإنسان بطبعه ظلوم، فعفونا من جانبنا المزوِّرين، وتنازلنا من الاستغراب ثم تجرَّأنا أن نقول كلمتنا.

إن الرعيل الأول من هذه اليقظة ما كانوا يرون في زمنهم الأول لأيٍّ أهمية في تسجيل الأنشطة التي كانوا يقدمونها لهذه الدعوة، بل كان الواحد منهم حريصا على إخفاء ما يقدمه من أعمال، وما يتعرض له من أذى، احتسابا لله وتأجيلا أجرها ليوم القيامة. وإن من أسباب ذلك الغموض التاريخي المذكور، أنَّ اليقظة المذكورة، كانت تعمل جل أزمنتها تحت السرية، وكانت تقدم خدماتها في ظلمات الليل، كما كان جل تحركاتها يبتدئ عند ما يحل الظلام.

بعد التفكير شرح الله صدر الكاتب أن يبذل جهدا حول الموضوع، لعل الفكرة تنير الطريق أو ينفع الله بها آخرين، وحاول أن يلقي الحجر على المياه الراكدة لتحريكها في تموجات متتابعة. ويسأل الله أن يمكنه من توضيح هذه الحقيقة، كما يسأله سبحانه يقظة ترينا العواقب وتكشف لنا الحقائق. ولم يدفع الكاتب على هذا التأليف إلا الرغبة الملحّـة للحصول على عقول تملك بمفاهيم الانسجام، والوصول إلى وحدة إسلامية تتجاوز الصراعات التنظيمية لتواجه الحركة الإسلامية الخطر الحضاري المضاد، فالذين يفهمون التاريخ فهما دقيقا إذا سلطوا الضوء على التاريخ يضفي عليها أضواء كاشفة تزيل اللبس وتوضح جوانب الموضوع.

يحاول في هذا البحث أن يضع القارئ في خضم تلك التاريخ؛ ليرى روعة الكفاح في ظل التوحيد، ويعيش مع الشباب المسلم في صراعهم مع الطاغوت عند النظام والأهل والمدرسة والشارع، وصمودهم أمام الصعاب والمغريات، وفي وسط أعاصير السياسة والأفكار.

والمقصود باليقظة الإسلامية هنا، هي اليقظة الإيمانية التي أيقظت الشباب المثقف في ذلك الزمن، وقدمت برنامج دعوي عالي الهمة، فنجحت بتغييرات جذرية لحياة كثير من المثـقـفــين، وتركت بصمات ونتائج مذهلة!!. ومن نتائجها: إخراج عدد كبير من الدعاة بانتماءاتهم المختلفة. وقديما قالوا: «إن رجال الدين في كل الأمم كانوا هم المسيطرين في الخفاء على القوة المؤثرة على الناس».

وبما أن الكاتب عاش وشارك مع هذه اليقظة في زمن عافيتها التي يعتبرها زمن سعادتها، وكان مراقبا بعمق في زمن الاضطراب الذي بدأ هجومه كعاصفة في أواخر السبعينات وبداية الثمانينات من القرن نفسه، وذلك بعد التحاق كثير من أعضاء اليقظة بجامعات في العالم العربي بنت فلسفاتها وأهدافها ونظمت مناهجها وتطبيقاتها حول «قيم المذهبية» و «الطائفية» و «الاقليمية» وباستشارة مؤسسات التربية الأجنبية وربيبتها الوطنية المقلدة لها، فنقلت خمائر المذهبية إلى الساحة الإسلامية في البلاد، فأفرزت جماعات مستوردة لكنها متناثرة متضاربة متزاحمة، وكتلا ممزقة، وجماعات حاملة فيروسات هذه القيم، وأبرزت الخلافات المذهبية والحزبية، فأشاعوا فيهم التمذهب والتحزب والتنافر والتباغض والتباعد، بدل التكاتف والتعاون الذي كان متداولا في زمن العافية؛ فكان لهم أصدقاء يحبونهم لفضلهم وأدبهم وكان يروقهم منظرهم ويؤنسهم محضرهم؛ فأصبحوا منافسين أقوياء ناقلين وسيلة مقدسة من التطرف النجدي، حاملين مشاعر الخصام أو الاقصاء، وقد زاده النجاح شدة وضخامة

ومجال ربحه بحزبه وفكرته المحدودة ويضيق الدنيا ، وقد يكره النصر لفكرته لو تحقق على يد غيره. ومهما يكن أعتقد أنه من الممكن استعادة العافية مرة أخرى خلافا لما يراه البعض، وليس على الله ببعيد.

أحاول مستعينا بالله تصوير جوانب من هذا التاريخ كما حدثت بالفعل، وأكشف للقارئ عن بعض الحقائق المجزأة، سأكشف بإذن الله حقيقة ما جرى في هذه الحقبة من التاريخ حسب رؤيتي طبعا، لتكتمل الصورة التي أريد إبرازها لدى الداعي، ليأخذ العبرة والعظة من الماضي، ولأودعها أمانة في عنق الحاضر والمستقبل. فإذا كان الهدف هو نصرة الإسلام فيمكننا إذن أن نتحمّل مرارة النقد، بل وقسوته أحيانا؛ لتبصرة الأجيال الحالية أو المقبلة بنتائج التجارب بتجرُّد وأمانة، ولذلك نحن نطلب الصبر والتحمُّل من أعداء الصراحة.

وهذا البحث دعوة لتشريح تاريخ صحوتنا من جديد، إذ رأينا أن الظروف الحالية توجب علينا توضيح تطوراتها، وبأن نشرحه بعلم وإنصاف خير من أن نتركه لمن يشرحونه بجهل وإجحاف. فالعمر قليل ولا يحتمل تجارب كثيرة خاطئة، وذلك يوجب علينا أن نأخذ التجارب ممن سبقنا، إذ لا يكره تاريخه إلا من فقد أصالته. فإذا كان التاريخ مجيدا اشتـدّ شوقه بقدر أمجاده، وإذا أتى على الإنسان حين من الدهر واهتـزّ مجده، اشتد أكثر وأكثر شوقه إلى سالف مجده، أما إذا كان ذلك التاريخ ذا نفع وتجربة وفائدة لم يعد لشوقه حدود!.

ستبدو الدراسة حافلة بذكر ما وقع في المسيرة القديمة من أخطاء، أو هي نتاج سنوات عديدة من التجارب، كي لا تتكرر في أنشطتنا القادمة، ولم أقصد ذكر هذه الأخطاء شتما ولا تشهيرا ولا نقدا، إنما قصدت نصحا والله من وراء القصد، وما ذاك إلا بغية الوصول إلى الانسجام وتقوية الروابط، ومحاولة

معالجة ذلكم الفيروز الملعون (التفـرق). ولو أردت التشهير لتكلمت عليه يوم كان الخلاف في عنفوانه وكنت مراقبا من بعيد، بل بالعكس اخترنا يومها السكوت وكف اللسان، وحفظ القلب والعقل من طوفان الأفكار والنزاع.

وأحيط الجميع علما أنه ليس على كتابة هذا التاريخ أية ضغوطات مادية كانت أو سياسية أو حزبية أو مذهبية بل أظن – والله أعلم- أنها متحررة من مثل هذه الضغوطات، ليس الكاتب مديرا لهيئة، وليس مليونيرا يحفظ ثرواته، كما أنه ليس مريدا لشيخ يريد حفظ هيبته وهندامه، ولتلك الأسباب كلها، قد يكون ممن تجب عليهم قول الحقيقة. فدارت حوادث التاريخ فأصبحت فيما بعد مسألة «العمل الموحد» هدفا بعيد المنال في أنظار البعض، ومستحيلة المنال في أنظار الآخرين.

والسؤال الوجيه الذي يفرض نفسه هو، كيف تكون مسألة العمل الموحّد مستحيلة وهي شرط لعزنا ونصرنا، وأيضا قد أمرنا الله سبحانه تحقيقها ونهانا عن ضدها. قال تعالى: ﴿ **وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ** ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ، أليس من غير المنطق أن يكلفنا الله سبحانه بالمستحيلات؟، ألم يقل سبحانه ﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ٢٨٦** ﴾ [البقرة: ٢٨٦]

والهدف من هذه المراجعة التاريخية للعبرة وللتربية وللتصحيح، وليست مجرد تسجيل الأحداث والوقائع، فليس التاريخ كما يقال مجرد سرد الأحداث، لكنه استحياء الماضي لكي يكون له دور في سير عجلة التاريخ في الحاضر والمستقبل، وأن العلماء الذين يدرسون التاريخ يستطيعون إعادة بناء مشاهد الماضي ويجعلونها حية. ومن هنا تأتي ضرورة جلاء الحتمية التاريخية، والمراجعة الجريئة، والتحليل الصّريح، الذي يكشف لنا الأسباب المفرقة التي تجلب الذل والويلات والاحتلال دائما.

كما لم نقصد بهذا العرض إلا لتقوية الروابط الإيمانية. فالتاريخ دراسة علمية قيِّمة، يتلقى المؤرخ منها معلومات غزيرة، تكسبه مرونة فكرية، وتجعله أكثر تفهما لروح الواقع المحيط الذي تابع هو تطوراته، وذلك يستوجب على المستفيدين أن يتلقوا منه تلقي المتعلم وليس تلقي المتحجر المكابر.

لا يبكي الكاتب على الماضي، مع أنه يتحسّر على أيام زمان، تقول العامة في مصر «الله يرحم أيام زمان يوم كانت البيضة بمليم»!. يقول: ما أجمل تلك الأيام التي كانت الدعوة تتكلم بصوت قويٍّ منسجم رغم القلة ورغم المحنة، لا يبكي على تلك الأيام الجميلة، ولكنه يحب أن ينوِّر الطريق القديم للسالك الجديد، ولا يريد أن يجمل الأحداث التي واجهته، بل يحاول قدر الإمكان، أن يقف على العثرات والأخطاء لأهميتها التربوية، معتقدا أن التاريخ يجب أن يسجل تحت بند التربية؛ لأنها مليئة بكنوز من التجارب، وهي سجل الإبداعات البشرية، وهي دراسة علمية غنية بعصور مديدة من التجارب، كماهي عبارة عن «جامعة» يستفيد الانسان منها الحكمة والخبرة والتجربة بطريقة غير مؤلمة، وبخلاف التجارب الأليمة كالقتال والدمار والانفجار أو الانتحار، والتاريخ من أهم المواد لو كان لها مدرسوها الأكفاء وخبراؤها النجباء.

حاول الكاتب أن يلتزم الدقة في نقل الخبر لأهميته، فقد ثبت من خلال الخبرة التاريخية «أن القادرين على التزام الدقة في نقل الأخبار وعدم مزجها بالتحليل الشخصي قلة نادرة من الناس» وأن التمسك بالاعتدال والتوازن في الشخصيات المعاصرة عمل صعب ودقيق جدا، كما قالوا قديما: «آفة التاريخ رواتها».

إن مراجعتي للتاريخ أكسبتني أن أتابع المجريات مهما تفاقمت المؤامرات، وتعددت وسائل المكر والمكـيدة، ومهما اختلفت المفاهيم، وتلبست الأمور عند كثير من إخواننا وأصدقائنا، ومن هنا يجب تسليط الأضواء على الوقائع والأحداث لينكشف الغموض المغطى عليه، ومن ثم سيؤدي إلى فصل الأفكار عن الأشخاص، وعندئذ سيموت الخلل الفكري، أو ستموت الميكروبات الفكرية في أماكنها، ويتخلص الجسم من علته، ثم تتخلص الأنشطة من عللها. ومن فضل الله عليّ وعلى غيري – حسب تقويمي- أن سلم عقلي من التأثرات السلبية التي ابتلي بها كثير من الناس في هذه الفترة التاريخية المليئة بالشبهات والمغريات.

للتاريخ دائما طاقة محدودة لكتم الأسرار؛ فالحاجة ماسّة في كل زمن، من يقوم بدور كشف «الشعوذة التاريخية» وكشف التاريخ من الستار الكثيف التي تركتها الأجيال الماضية، وبالتالي تعرية العفاريت الملثمة في بعض الأحداث، والمختبئة تحت الظل؛ لينكشف الغموض الذي أدى إلى افتراء التاريخ الذي أحدثه ويحدثه من ليس أهلا لهذا الزمن أو ذاك.

أما عند ما يكلفني الموقف أن أفتح جرحا، فليعذرني القارئ؛ لأني ما أردت إلا لتمريضه وتنظيفه من الخلايا الميتة ليتحمل المضاد الحيوي، أو لتخفيف آلامه في المستقبل، وإنما الأعمال بالنيات، وذلك منطق التعامل مع المشاكل أو الأمراض، و لكي لا يضيع الحق بين الجميع، وأيضا لتوضيح بعض الأمور المختلف عليها، وإبراز الإيجابيات للاستفادة والسلبيات للوقاية، معتقدا أن الدعاة إلى هذا الدِّين، لن يحققوا ما يطمعون إليه، إلا إذا اعترفوا بأخطائهم الماضية وبيّـنوا أسبابها، ثم يرسخوا على الضوابط التي

تمنع من تكرارها، ومن ثم يتوبوا من زلاتهم القديمة. والمؤرخ الذي لا يفتح الجرح التاريخي ويداوي السطح يُعتبر عند بعض المؤرخين عدوا بثوب صديق.

ومن الممكن أن تكون جذور الأزمات الحالية مدفونة في الماضي، وفي هذه الحالة نحن في حاجة إلى القدماء، واعتبارهم عباقرة في علاج المواقف الصعبة، وإظهار جوانب عظمة الرعيل الأول التي لمّعت وسط ظلمات الأمس الكئيب. أما الاستغناء عن القدماء أو الخبراء آفة، أبتلي به العمل الدعوي عند كثير من المهتمين بالعمل الإسلامي، والذين اعتادوا إطفاء المصابيح القديمة، مما أدى ويؤدي دائما إلى تكرار التخبط.

مهما يكن التعبير الذي أقدمه للقارئ مقبولا أو مردودا عنده، أرجوا أن أساهم في حل المشاكل، أو إزالة عقبات من الطريق، وأن آخذ دورا ما: يحرك ركودا، أو يوقظ راقدا، أو يصحح خاطئا، أو يستدرك فائتا، أو يساهم وعيا، أو يعرض معلومات خافتة ينقذ الدين وأهله. وإن استطعت أن أضيف صفحة نـــيِّـرة إلى صفحات التاريخ اليقظة الإسلامية الصومالية أستثير بها الدعاة؛ فقد بلغت غاية أمنيتي، وإلا فإنما الأعمال بالنيات. وحتى لو استخدمت أساليب حادة في بعض الأحيان؛ فإني حاولت أن تكون بـنّاءة، وبأسلوب أظن أن القارئ المنصف سيتقـبّـلها؛ لأن تراثـنا الاسلامي مليء بالنقد الحادّ.

وأخيرا أدعو أولئك الذين أساءوا بتشويه هذا التاريخ – عن قصد أو عن جهل–، أن يتوبوا من زلاتهم وافتراءاتهم؛ كي لا يحفظ لهم التاريخ بهذه النقيصة، ولا تحفظ لهم في سجلات أعمالهم السيئة. كما أدعوهم إلى التعامل مع الأحداث التاريخية بعلم وموضوعية وحيادية.

وإذا كان المهندسون يقيمون الأبنية ويشـيِّدون المنـشآت؛ فإن المسلمين اليوم في أمسِّ الحاجة إلى خبراء العلاقات العامة الذين يقيمون الصِّلات الودية، وينشدون الرضى أو التأييد. وليست هذه المعلومات الواردة في هذه السلسلة وهذا الكتاب بالذات إلا محاولة لمشاركة هذا البناء الاجتماعي الهام، أو محاولة بناء سـدٍ إسلامي قوي، وما هو إلا جهد متواضع قابل للنقد والتوجيه.

في بداية هذا البحث كنت أتخيل كأني سألقيها كمحاضرة في مؤتمر تضامني عام، يشارك فيها جميع الفئات الإسلامية في الصومال باختلاف انتماءاتهم، وكان خيالا وجدانيا تحقق فيما بعد إلى كتابة سلسلة «صرخة الإنقاذ» من رقم (١– ٤) ، كما أرجوا أن يقرأها القارئ جميعا لتكتمل له الصورة المطلوبة، وأسأل الله العلي القدير أن يجعل هذه السلسلة مساهمة فعّالة في طريق الوحدة الإسلامية.

وعلى أية حال أستطيع أن أقول دون أدنى مبالغة، أنَّ كل المحاولات التي سبقتنا إلى المساس بالموضوع لم تلجها إلى الجوانب أو العمق التي ولجناها، وإن تلك الجوانب المجهولة هي التي دعتنا ببحثها وتقديمها إلى القرّاء. وبما أننا نعتبر تلك السلسلة دراسة عملية تضامنية ، نوصي للقارئ الكريم أن يتعمَّق في «النزاهة الفكرية» المعروضة فيها ، ويتجنب من «المطالعة الخاطفة» أو ا لسريعة ، خوفا من أن لا يستشف ما في هذه السلسلة من جوانب عميقة ، لأننا تعرضنا لقضايا حركية يصعب فهمها ومتابعتها إلا من كان له المام بالعمل الحركي أو الدعوي ، وعند المراجعة تجعلني أشعر بها كما يشعر القارئ الجديد الذي يطلع عليها لأول مرة ، بل تعجبني المراجعة وربما تضحكني.

ربّما يرى البعض أني توسّعت سلبا في «العاصفة السلفية» ولعل القارئ يرى أنها نقطة الضعف لأهداف الكتاب الذي يجعل الوحدة والتضامن أولى اهتماماته، صاحبني هذا الشعور لأول مرة؛ لكنني في الأخير

قصدته عمدا معتقدا أن توضيح تلك المسألة لها أبعاد في مواجهة التفرق وتوحيد العمل الإسلامي. ملاحظة أخرى سيتلقى القارئ في هذه السلسلة قلة الاهتمام بالراوي والإحالة، وقد يعتبره - والأكاديمي معه - من مآخذ السلسلة، لكن صبّ الاهتمام كله ب «الدراية» و «المغزى» مقصود من الكاتب خلافا لثقافة الزمن النمطية، إضافة إلى ذلك أن الكاتب ليس أكاديميا متمرنا بل أقرب إلى الدروشة والطبيعة .

وبما أن البحث ليس موجها إلى العامة، إنما إلى أولئك المهمومين بأمر الإسلام والمسلمين، مخاطبا لهم، باحثا عن همومهم، مساعدا إياهم على تجاوز عثراتهم، وموجَّه أيضا إلى الحركات اللاتي أحاطت بنفسها هالة من المقدسات، وبما أنه يتعرض لقضايا يعتقد البعض أنه من المقدسات ذات الحساسيات في ظل جهامة دينية مفتعلة، نتوقع بحملة من التكفير والتبديع والتجهيل لا أول لها ولا آخر، ولكن الحقيقة تعلو وغالبة مهما ظهرت على الأعين أنها مغلوبة في زمن ما. ونقدِّم إلى القرّاء ذلك الجهد المتواضع الذي سجَّلناه من سنوات عديدة من التجارب، ومن الفوائد التي كانت تمر خاطرنا في ساعات الصفا.

أما ما جاء في هذه الكتاب من أخطاء أو نواقص فعلى كاتب هذه السطور وحده تقع تبعاتها، فإن أصبت فالحمد لله وإن أخطأت فأستغفر الله العظيم، وأسأله سبحانه أن يثيب كل من دلني على خطإٍ من أخطائي العديدة، ولا أعتبر نفسي فوق مستوى النقد، كما أرحِّب بصدر واسع اختلاف وجهات النظر، ولذلك نطلب ونرحِّب من كل أخ يطلع هذا الكتاب أن يكتب لنا ملاحظاته. وهكذا قدَّمت جهدا لكتابة هذا الموضوع حتى غدا - حسب تقويمي- كتابا جميلا ممتعا للقارئ والمستمع. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وإغلاقا لهذا الفصل من النزاع التاريخي يتطلب من بعض العاملين في الساحة إلى توبة حقيقية، علما بأن التوبة الفكرية تأتي دائما قبل التوبة العملية.

والله ولي التوفيق. والسلام.

إعداد: عبد القادر محمود أو موسى الصومالي

وكان الفراغ من تنسيقه وتنقيحه بتاريخ ٢ نوفمبر ٢٠١٥م

*****

التمهيد

الصومال كانت دائما أمّة مرصودة

قيل عن أصل الصومال أنه شعب عميق، جذوره من شجرة يصعب على أيِّ شخص خلعها، ولعل هذا القول كان فيه جزء من الحقيقة؛ لأن اهتمام القوى المتصارعة في هذه المنطقة وتقسيم أرضه وتفريق شعبه، ومواجهة أنفته، ومحاولات القوى الغربية للحيلولة بين وحدتها لهو أمر جدير بالدراسة، مع أنها كانت خطة استعمارية عامة لتفتيت القارات إلى كرتونات ودويلات ضعيفة مما يساعد على ابتلاعها وذوبانها وأخيرا استعبادها وتنصيرها. وهكذا وجّه الغرب جهده وفكره لمحاربة الأمم مستخدما القاعدة الاستعمارية المعروفة «فرِّق تسُـــد».

وعند مراجعتنا في مذكرات كمال صلاح الدين (مندوب مصر في المجلس الاستشاري الأممي) الذي اغتالته عملاء الاستعمار في مقديشو بتاريخ ١٦ ابريل عام ١٩٥٧م بتخطيط غربي ، ثمنا لجهاده في سبيل تعزيز التعريب وتعليم اللغة العربية ، وبجهاده ومواجهته على تغريب الصومال وكتابة لغتها بالحروف اللاتينية، حيث أطلق عليه الرصاص في ١٦ أبريل ١٩٥٧م، نجد من تلك المذكرة مؤشرات تفهمنا الوضع الذي كان قائما في ذلك الزمن، والتكالب على المائدة الصومالية.

قال: في مذكراته أنه اختار الصومال كبلد نائي، وأراد أن يستريح من الصراعات الدولية والعمل الدبلوماسي الشاق الذي أتعبه في فلسطين المرصودة من القوة العالمية، والتي عمل فيها كسفير في فترة من الزمن، عاش فيها مع السيد أمين الحسيني في دوامة الصراع والتي بسببها أبعد من القدس، ثم أرسِل

الى الصومال كسفير ؛ فواجه فيها معركة دبلوماسية أكثر اهتماما من فلسطين المحتلة، وأنه اندهـش اهتمام القوى المتصارعة على هذا البلد الفقير قليل السكان، وقليل الامكانية، وكان يرى أن هذا البلد غير قادر على استيعاب الضغوط الدولية والمؤامرات التي تحيط به من جهات متعددة، والقوة المفرطة التي تواجهه أو تتصارع عليه.

- فأمريكا والحبشة كان لهما أجندتهما المشتركة وهي اعتبار الصومال جزءا لا يتجزّأ من الحبشة، وهي السياسة التنفيذية الفاعلة اليوم، حتى أن بعض السياسيين لا يستحيون أن يكرروا نتعاون مع جارتنا وإخواننا الايثوبيين لمطاردة الإرهابيين الصوماليين أو الإسلاميين.
- وبريطانيا كان لها أجندتها الخاصة، كانت تحاول توحيد الصومال ثم اعتبار الصومال الكبير عضوا في رابطة «كومنولث» أو الدول الأنجلوفونية.
- والاتحاد الأوروبي كان له أجندة سياسية أخرى برؤية أوروبية مغايرة لأجندة بريطانية.
- والاتحاد السوفييتي كان له سياسته الخاصة ومطلبه الإلحادي كقوة كبرى ينافس الغرب سياسيا وفكريا واقتصاديا.
- والصين كانت في الحلبة ولها أحزابها المؤيدة لمشروعها الإلحادي المخالف أو المتعاطف لأجندة السوفييت.

- والصوماليون القوميون كان لهم حلمهم السياسي تحرير البلاد وتوحيده، وأطلقوا شعار «الصومال الكبير» ذي الخمسة النجوم، وكان مصطلحا أخلفته بريطانية بعد الحرب العالمية الثانية ، واستطاعت أن تستقطب ولاء الصوماليين في وحدة أمتهم الكبيرة، ولذلك شرعت في الترويج لتلك الفكرة ، إضافة إلى ما كانت تهتم باستخدام مواني الصومال كقواعد خلفية لتغذية رجالها في عدن باللحوم ومنتجات الصومال آملة من ذلك وراثة الممتلكات الإيطالية والفرنسية، ثمَّ أخذت سياسة انتقامية وبدأت تهدي ا لأراضي الصومالية إلى كل من الحبشة وكينيا كهدية مجانية كسمسار مهزوم يصافق ما لا يملك.
- والصوت الإسلامي أو الوطني المتعاطف مع الشريعة ومع العالم الإسلامي كان له دويُّه المسموع، وكانت معركته موجهة إلى قضيتين هامتين:-

أولا: تعريب الأمة الصومالية ورفض تغريبها.

ثانيا: كانت هناك أصوات لا يستهان تدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وتحرير البلد من تبعية الدول الاستعمارية وخاصة قوانينه ودساتيره وثقافته. وإن تلك الفئات أو الأحزاب كلها كان لهم أحزابهم ونوابهم ونواديهم في المجتمع.

ويصور لنا الأستاذ إبراهيم حماش محمود في موضوع التعريب في كتابه «الصومالية بلغة القرآن» والذي ظهر في مارس عام ١٩٦٢م ، فتعرَّض المؤلف إلى البواعث والدواعي لاختيار الحروف العربية لكتابة اللغة الصومالية على حسب المعركة التي كانت قائمة حينها، وواجه بحجج قوية قائلا:

إنَّ **اللغة الأمهرية** – التي كانت في الحلبة كبديل من البدائل- ليست لغة ثقافية، فلم تكتب بها علوم ولا آداب، كما أنها لغة ميتة مقصورة على بلاد الحبشة لا تتعداها حتى إلى أقرب البلاد إليها، علاوة على أنَّ دراستها لم تبلغ بعد المرحلة العالية من التعليم.

أما **اللاتينية** فعلاقة الصومال بها علاقة استعمار، فالاستعمار هو الذي أتى بها إلينا، وفرض علينا دراستها فرضا، واليوم وقد تخلصنا من شبح الاستعمار السياسي وجب أن نتخلص من آثاره ورواسبه، **واللاتينية** تذكرنا دائما بأعمال الاستعمار، وبقاء سيطرته علينا فكريا وغير فكري، فضلا عن أنَّ التبشير والكنائس ترعى اللاتينية وتروِّجها في بلادنا، وتدعوا إلى الارتداد عن الدين الإسلامي تحت ظروف الاغراء واستغلال الحاجة إلى المال، ولا فائدة من اختراع كتابة جديدة تستغرق تسويتها وبحث حروفها سنوات طويلة في هذا الوقت الذي نريد أن نسابق ا لزمن في السير إلى الأمام، كما أن هذه الحروف الجديدة تكلفنا القيام بأعمال وجهود صعبة لسنا في حاجة إليها (إشارة إلى العثمانية وغيرها).

ولذا اخترنا لكتابة لغتنا حروفا جاهزة معدة للاستعمال بأدواتها وآلاتها ومطابعها وسائر حاجاتها الأخرى، وعلى هذا فإنَّ الحروف العربية هي أنسب الحروف لكتابة لغة الأم للأسباب التالية:-

١- إنَّ شعبنا مسلم يحتاج دائما إلى دراسة الدين وقراءة القرآن الكريم بلغة الدين وهي العربية ودراسة الدين واجبة بنص الدستور. **قلت** كان بندا رائعا وحكيما لأنه مادام المسلمون على صلة وثيقة باللغة العربية فإنها ستظل مرتبطة بالإسلام وبالقرآن ، وستظل متمسكة بفكرة الوحدة الإسلامية الكبرى.

٢- إن كل الأقطار الصومالية إلى العربية أقرب منها إلى أيِّ ثقافة أو لغة أخرى، فالعربية موجودة ومألوفة على حدٍ سواء، بها يتلى القرآن في الكتاب «الدكسي» ، وبها تدارس أحكام الشريعة الإسلامية وسنة النبي الكريم.

٣- إنَّ كتابة الصومالية بالحروف العربية يجعلنا على صلة وثيقة بالثقافة الإسلامية بسبب التشابه الخطي بين الكتابتين.

٤- إنَّ وعينا بالقرآن وبالحديث الشريف يظل باقيا دائما في ذاكرتنا طالما نكتب الحروف العربية، بخلاف أيِّ لغة أخرى، فقد يؤدي هذا على مر السنين إلى الابتعاد التدريجي عن لغة ديننا.

٥- إنَّ اللغة العربية تعتبر ضمن اللغات الحية في العالم ومن هنا كان من السهل الحصول على مطابعها وسائر أدوات الكتابة بها بيسر وسهولة، الأمر الذي يوفِّر لنا مجهودات ضخمة ونفقات باهظة يتحتم علينا القيام بها لو أننا شرعنا في اختراع حروف جديدة.

٦- إن أي مثقف صومالي لابدَّ أنه تعلم مبادئ العربية وعرف كتابتها، وعلى هذا يمكنه أن يكتب لغته بنفس الحروف التي تعلمها في «الدكسي» وهو صغير وبذلك يُوفِّر على نفسه المجهود الذي يضيعه في تعلم لغة أخرى لا يتكلمها هو ولا شعبه.

٧- إن هناك شعوبا إسلامية تكتب لغتها بالحروف العربية مثل الباكستان وايران والملايو وغيرها لنفس السبب.

٨- إن اختيار الكتابة العربية يجعل علاقتنا مع العالم الإسلامي باقية ودائمة باعتبارها لغة المسلمين أكثر مما لو أخذنا كتابة حروف أخرى.

٩- لو كتب الصومالية باللاتينية لاحتجنا إلى جيش يعدُّ بالآلاف من المعلمين الأجانب هذا وفضلا عن أنَّ ذلك يحمل الخزانة الصومالية نفقات باهظة جدا تجعل من الصعب تحقيقها وتحتاج لفترة طويلة جدا تستغرق أكثر من ثلاثة أجيال؛ لأنَّ تكون مفهومة بمراجعتها وقواميسها....إلخ.

١٠- لو اختيرت حروف غير العربية في كتابة الصومالية فمعنى هذا أن الطفل في المدارس الابتدائية

سيقتصر في دراسته عليها؛ لأنَّه لا يمكن أن يقوم بدراسة لغتين في وقت واحد في مرحلة الطفولة، كما يقول التربويون، ومعنى هذا أننا سنخسر الأطفال عن دراسة الدين الإسلامي بالعربية أي أن الجيل التالي سيكون بعيدا عن الدين الإسلامي، **وهذا ما يهدف إليه الاستعمار!**.

وبعد إعلان ما أطلقناه الحرية عام ١٩٦٠م كان هناك عملاء وأحزاب ونواب برلمانيون، ووكلاء أخرى كل ينادي بهذه المشاريع الاستعمارية حتى وصلت الأحزاب والمنظمات العميلة إلى أرقام خيالية، وإذا كان هناك احتياج إلى من يتولَّى عملا رئيسيا في البلاد، فإن الاختيار كان يقع دون تردد على عملائه.

وكان ذلك من نتائج الاستعمار الذي فر ض ثقافته على الدولة المغلوبة، بعد أن أنهى حركة التكتلات الإسلامية التي كانت تدعوا إلى الحرية والاستقلال التام.

*****

الأوضاع قبل اليقظة المذكورة

كان الوضع الإسلامي العام في العالم الإسلامي عامة، والصومال خاصة، ضائعا بين جهل أبنائه وعجز علمائه وكيد أعدائه، حسب وصف بعض الكتاب آنذاك، وأصبح في ذهن الأغلبية أن لهم عقيدة أو ديانة وراثية تستعملها عندما يكبر سنك وتقل رغبتك في الحياة، وذلك بعد أن ترك الاستعمار آثار استعماره، وبعد ما أنشْئت في هذه المنطقة البالغة الحيوية «العالم الإسلامي» والصومال منها قيادة مصطنعة عميلة، سيطرت عليهم شهوات أرضية ليس فيها إلا خداع وغرور، تكون وسيلة لتنفيذ المخططات الاستعمارية، وما تحمله من تلك العبودية من مذلة ومهانة وحب العبودية، فنامت الأمة في سبات عميق تحت أرجل الظالمين.

قال الشاعر «أحمد شوقي» الذي عاصر المحنة وحضر نتائج سيطرة الاستعمار:

شعوبك في شرق البلاد وغربها ❋ كأصحاب كهف في عميق سبات

بإيمانـهم نوران ذكـر وسـنة ❋ فـما بالهم في حالك الظلـمات

بالنسبة للصومال، كانت هناك حركات مقاومة جهادية، أبرزها وأكثرها تأثيرا، الثورة الإسلامية الجهادية «الدراويش» التي أوقد نارها السيد محمد عبد الله حسن، والذي جمع الله له من صفات الشجاعة والثبات والعزيمة والغيرة والتضحية ، أكبر حدث فكري أحدث ثورة كبرى ، لتحرير البلاد من ذلك الكافر المغتصب القاهر، تلك الثورة التي قاومت ودوّخت الاستعمار ، واستمرت ٢٥ سنة أحرزت خلالها انتصارات رائعة لازالت تضرب لها الأمثال، وخلّـفت أثرا جهاديا تحريريا قويا في

نفوس كثير من الصوماليين رغم سقوطها والتغلب عليها لأسباب يطول ذكرها، تلك التسمية «الدراويش» كان يطلق الإنجليز على المهدية السودانية التي كانت ترفض هذه التسمية لما فيها من ايجاءات غير كريمة مثل البداوة والتعصب والسذاجة على شكل ما يطلقونه اليوم بالإرهاب ، فكأن الدراويش قالوا نعم نحن الإرهاب مستخدمين كمقاومة التغريب، فحوَّلوه إلى مصطلح جهادي بطولي كريم.

كما خلّـفت الدراسات الإسلامية التقليدية التي لم تنقطع يوما أثرها الروحي والعلمي؛ فلم تخلو المساجد يوما من التلاوة والأذكار ودراسة العلوم الإسلامية من لغة وأدب وفقه وعقيدة وتفسير، وهي الدراسة التي حفظت بأعمالها العلمية والتربوية «هوية الصومال الإسلامية» والارتباط الوثيق بين الإسلام والشعب الصومالي.

البعثتان المصريتان: البعثة التعليمية، والبعثة الأزهرية كان لها مدارسها ومعاهدها في جميع المحافظات، وكان لبعثة الأزهر جهدها التقليدي المبارك التي يتلقى منه الناس تعاليم الدين التي تحفظ للأمة تاريخها وأصلها. ومن عام ١٩٥٢م وهي العام الذي سمح لأساتذة مصريين وشيوخ من الأزهر الشريف بالعمل في الصومال في الحقل العلمي والتعليم الديني ، اتسعت المدارس الإسلامية والعربية حجما وعددا، مما كان له الأثر الكبير في أن تغلق بعض هيئات التبشير أبوابها وترحل من البلاد.

في عام ١٩٦٠م التي أطلق عليه «عام الاستقلال» ارتفعت الأصوات التي تدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، بدلا من القوانين الإفرنجية التي حكمت البلاد في الحقبة الاستعمارية، وكانت آيات الحكم

بكتاب الله مسموعة في بعض الأماكن العامة، وعلى ألسنة بعض الخطباء والوعاظ. وقوله تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة: ٤٤]. كان شعارا في الخطب.

وبالمقابل ترك الاستعمار آثار غزوه المشئوم على العقول والقلوب، كما خلّــف آثارا رهيبة في تخريب عقول المراهقين باسم الحريات، وذلك بعد أن أنشأ في المنطقة عملاءه السياسيين وجنرالاته العسكريين؛ فأفرزت مثــقـفــين يعتبرون التحدث بلغتهم الإسلامية أو القومية «وصمة عار» بينما يعتبرون التحدث بلغة المستعمرين الغازين مفخرة من المفاخر.

ساد الاعتقاد السياسي في الأوساط السياسية في العالم العربي والإسلامي ولم يزل، أنَّ غيبة تطبيق الشريعة الإسلامية عن الشعوب، وإلهاء الشعب بالفساد الأخلاقي، والاغراق في التبعية الغربية من ضرورات الحكم؛ معتبرين أننا في زمن سيطرة الغرب الكافر ولا يحكم إلا من ركب موجته. واعتقدوا أن تلك الإغراق والإفساد هي الفرصة الوحيدة لكي يحكموا بأهوائهم، ولكي يخططوا لوضع يمكن أمريكا والدول الاستعمارية الأخرى من تسريب أعوانها إلى الحكم ليحكموا من الأبواب الخلفية، تلك الدول التي قررت قبل قرنين استبعاد الإسلام عن مجال السياسة الدولية، فقاموا دورهم الموجه لتغريب المجتمع وسلخه عن هويته ، علما أن شهوة الحكم من أقوى الشهوات الآسرة التي يهوِّن على صاحبه ارتكاب الجرائم الكبرى في سبيل تلبيتها. واستغلال عنصر الحكم والطمع به واستغلاله أخبث استغلال وجهاء الغرب خبراء كيف يتصيدون الطامحين إلى الحكم ، ويذيقونه شيئا من حلاوته ، وكيف يثيرون التنازع عليه ، والتفاعل من أجله وممارسته كل رذيلة وكل جريمة في سبيل الظفر به ، والاستئثار بخيراته ، والاستبداد بمقاليده.

وهكذا وعن طريق هؤلاء ، جاء مشروع القذر «فصل الدين عن السياسة» كاستلاب حضاري فرض على الأمة بقوة الحديد والنار مغلوبة على أمرها، مما نعتبره «الخيانة العظمى». وهكذا استقرّ نظام الفصل بين الحكم في الإسلام وبين المسلمين ؛ لأنه يمثل الدرع الواقي الذي يمنع تسرب أعداء الإسلام أو يؤدي أجرائهم إلى سدة الحكم ليبقى لهم المظهر الخادع الذي يغري صاحبه بالتعاظم الفارغ الحقير ، ثم قفزوا إلى الحكم ليكونوا أجراء للأعداء ، وأصبحوا – بفعل القابلية للاستعمار أو التواطؤ له- طلاب سلطة وجلهم اخطبوط يبتز الشعب ويغتال الأمل لمآربه الخاصة، ثم ينفذوا مخططاتهم بدقة تامة على ما يريدون ، فعملوا بين المسلمين رسالة أعدائهم ، وبأسلوب أشد عنفا ، وأكثر وقاحة ، وأعظم تأثيرا ، بحيث يجد كل منهم عشيرة تناصره ، وعصابة تؤازره ، وجماهير تحسن الظن به ، فاجتمعت على طالب حكم رذائل الأخلاق كالكذب والخداع والنفاق وخلاف الوعود ونقض العهود والمواثيق ، والقتل بغير الحق ، واستلاب الأموال بغير وجه مشروع ، وانتهاك بأعراض الناس ، فيتحولون إلى تجار جشعين.

ثمّ انتقلت عدوى هذه الرذائل إلى الشعوب التي لا تمنح أصواتها الانتخابية إلا لحاكم مستبد ، ولا تعطي تأييدها إلا في مقابل أجر معلوم ، أو منافع مادية محدودة . ثمّ فشا الداء عن الدوائر السياسية إلى الأسواق التجارية ، ثمّ إلى داخل الأسرة ، وإلى العلاقات المادية والأدبية بين الأفراد حتى غدت التربية التي تنشأ عليها الأطفال تعتمد على كثير من هذه الأساليب غير الأخلاقية ، وبدأت الأجيال تكتسب من بينها هذه الانحرافات ومارسها في حياتها ، وفقدت هذه الشعوب كنوزا عظيمة من كنوز الأخلاق الكريمة التي توارثتها كابرا عن كابر ، وعمل الإسلام على تأصيلها في نفوسهم وفي أعمالهم .

وعلى تلك الطريقة يتعامل الغربي مع كثير من الحكام بأمرهم ثم بقمع المخالفين، والسكوت عن كل ما يفعلونه من قتل وتعذيب وحبس في حقهم، حتى تخضع الشعوب المسلمة لترضى الفكر الوافد. وهكذا ينادون بالحرية المطلقة، وبالمقابل يقولون «لا حرية لأعداء الحرية» .

هؤلاء هم المجرمون الذين حرّموا الأرض حكم الله وعدله ورحمته، وجعلوا الحكم مصيدة للثراء وقننوا الاستبداد السياسي، ويجب على كل مسلم أن يعلن براءته من المجرمين، وأشهد الله أني بريء منهم. وهكذا كان ولم يزل أصحاب السلطات ينظرون إلى الدين وإلى الأخلاق والقيم بغير المنظار الطبيعي، ولا يتورعون عن تكميم الأفواه الصادقة، وإسكات الأصوات المؤمنة الواعية. وهكذا سيطرت الثقافة الغربية وتوجيهاتها العقول.

أما الثقافة الإسلامية المتداولة في المدارس كانت ملوثة بالشبهات الكثيرة، وألصقت الثقافة الإسلامية التي كانت متداولة في تلك المدارس والجامعات ركاما من الدخيل المليء بالتصورات الفاسدة والروايات الموضوعة، مما جعل الروايات التاريخية على لسان الأعداء كالسيف الذي في أيديهم، يقتلون فيها من شاءوا ويثيرون القلاقل بين الصفوف، وكان التركيز على أزمنة الفتن والحروب التي حدثت في زمن الصحابة بارزا، واستخدموها كآلة يعتمدون على الإشاعات والأكاذيب، وظهر أن طرأ على هذا التاريخ من التحريف والاعراض والبتر والزيادة والتشويه وسوء التأويل، وسلطت الثقافة العدائية في ذلك الزمن على الجيل الأول من المؤمنين.

أدَّى «التفسير الحاقد للتاريخ» دوره المخطط للتاريخ بكفاءة عالية، ونجاح لا مثيل له، وذلك بعد أن سلّط الأضواء على المغالطات التاريخية بالفن المسرحي والدرامي التي تتعلق بالأحداث والتاريخ، وأنها

كانت تشكل فنّا جذّابا، لتلقين التاريخ الزائف أو الحقيقي لتشويه صورته، واعتبار مرحلة الاختلاف والتفرق والهبوط مرحلة ازدهاره، وبمثابة الطعن على الإسلام والمسلمين.

وكان خطورة تدريس التاريخ الإسلامي المشوَّه لتلاميذ لم ينضجوا بعد، على أيدي المبشرين بطريقة حاقدة مضلله، ويتعمد هؤلاء عرض بعض نقاط التاريخ بشكل مغاير للحقيقة، مما يجعل أبناء المسلمين يفقدون كل احترام ماضيهم وأبطالهم واجدادهم، وكانت هذه الممارسة بالغة الخطورة!. كان التركيز على الجوانب السلبية من التاريخ التي كنا نتمنى ألّا تحصل بين الصحابة مثلا أو بين الأمويين وآل البيت. وطريقة الحديث عن التاريخ الإسلامي الحقيقي كانت تشعر الطالب بأنَّ أمة التاريخ السالفة يستحيل بعثها من جديد فهي أقرب إلى الخوارق.

من الآثار الرهيبة التي زرعها الاستعمار على الفئات المثـقـفة، التركيز على تمجيد الثقافة الاستعمارية وحضارتها التي تعتبر الرجل الغربي الأبيض نموذج الشهامة والنبل «جنتلمان» واعتبار الإسلام باليا قديما ورجعيا، ولا يسمون أنفسهم ودينهم الأقدم المحرّف باليا رجعيا، ووجدوا في العالم الإسلامي من يصدق هذا الهراء، ولايزال هذا الفكر الغريب له بقايا في عقول كثيرين من أهل هذه المنطقة حتى اليوم، كما أنه لم يزل يسيطر المنطقة عسكريا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا وإعلاميا ومعلوماتيا. وهكذا كلما سيطر الاستعمار في بلدٍ مسلم تغرب شمس الحقائق ويسود الظلام، وفي هذا الظلام يخرج الأسد من عرينه وتخرج الزواحف إلى السطح وكما تخرج الحياة من جحورها لتلدغ الأحياء. أما إذا سيطر الإسلام تشرق شمس النور فتختفي الهوام والزواحف ويسود العدل. قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرعد: ١٦].

وبما أن بعض المؤرخين الغربيـــين المنصفين، وصفوا نتائج فتوحات الرعيل الأول من المسلمين **معجزة !!**، وأنه ما من حركة حضارية في التاريخ صنعت ما صنع الفتح الإسلامي؛ فإنه لم يفتح الأراضي فقط بل فتح القلوب والعقول أيضا، وأن المدنية الإسلامية هي من المدنيات الشهيرة التي يزدان بها التاريخ العام والتي تغص سجلاته الخالدة بمآثرها الباهرة!!، وأن في التاريخ الإسلامي أمثلة تامة وأقيسة بعيدة في استئجار العمران وتطاول البنيان ورفاهة السلطان وانتشار العلم والعدل والعرفان، إلا أن التاريخ المدروس في ذلك الزمن على المدارس كان مليئا بالشبهات الكاذبة والافتراءات الملفقة، ثم إظهار التاريخ الإسلامي على أنه تاريخ للحروب والقهر والفتن، وسحق للحريات، وسلسلة من المظالم، فأثـرت الحوادث والآراء وسبّب الحروب والاقتـتال، واعتبرت حوادث القتال نوعا من أنواع الصراع على السلطة. لا شك أنها كانت موجة عارمة للتضليل والتحريف وخلفت تأثيرا مؤلما مضللا لا يفقهها إلا من كان موجودا في ذلك الزمن المضلل. على كل حال كان معلومات ذلك الجيل عن الدين والتاريخ مشوّهة ، وكان المنهج الدراسي الذي كانوا يدرسونه على ضوئه يبعدهم إلى حدٍ كبير .

اتهموا النظامين الأخيرين المتمثـلـين للخلافة الراشدة، بأنهما كانا نظامين قائمين على المنفعة والمؤامرات، ويسعى أعداء الإسلام إلى محاولة تشويه تلك الفترة التاريخية محاولين طمس ذلك النور اللامع، ومنع إشعاعه من الوصول إلى الأجيال التي تستضيء به، فتنهض إلى الصعود من جديد. وقد فعل ذلك أسيادهم من قبل، وكأنهم تواصوا به.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢] ، تجرّأوا قبَّحهم الله على نقد الإمام عثمان رضي الله عنه، ذلك الامام الذي قال عنه المؤرخون «عثمان رضي الله عنه كان شخصية متزنة لم تطغ قوته على عدالته ولا سلطانه على رحمته».

إن موقف الاسلام من «العلم التجريدي» و«الرق» و«حقوق المرأة» و«تعدد الزوجات» و «القضاء والقدر» وغيرها كانت من الشبهات المتداولة بغزارة في ذلك الوقت والمثيرة للجدل، ثم ظهر الفن الترفيهي والفيلم المسرح وكان يدور حول قضايا الحب والغرام والجنس والخيانة والبطولة.

اختلقوا أخبارا موضوعة كثيرة، منها ما يتعلق بالنساء، وسلطوا الضوء على الرواية الموضوعة «شاوروهن وخالفوهن» المنسوبة إلى الرسول ﷺ وركزوا على الآثار المتعلقة بالنساء كحديث ناقصات العقل والدين بالنسبة للمرأة، وأن شاعرا من شعراء الاسلام قال:

النساء ناقصات عقل ودين ❋ ما رأيناها لهن رأيا سنيا

ولأجل الكمال لم يجعل الله ❋ تعالى من النساء نبيا

وقالوا إنه دين لا يألف مع الرقي العصري، والمسلمون هم الرجعيون ولا يتقدم الرجعيون، كيف تتقدمون وتريدون الرقي وأنتم متمسكون بأوضاع بالية من القرون الوسطى؟. وكانت الإجابة من العلماء فورية «إنكم تنتسبون إلى أحكام ودين أقدم من ديننا فلم لم تكونوا رجعيين باليين؟؟» ، يقول الكافرون مثل ذلك الهراء وهم يعلمون أن الإسلام ثورة على القديم الفاسد، وجبٌ للماضي القبيح، وقطع كل العلائق مع غير الحقائق.

ومن البلاء العظيم في ذلك الزمن أن يثير الأعداء في ساحة المسلمين علوما كثيرة مسمومة، وأفكارا متباينة، علوما كلها غث هزيل، عصر الهضم ويميت القلب ويورث الشك والحيرة والجدل ويدعو إلى الفسوق والعصيان، نتيجة التركيز على العنف والسحر والاثارة الجنسية والاباحية، التي قامت به عاصفة الأفلام.

أذكر أني حاورت مع أحد المثقفين (فارح محمود ويرح) وكان من أقربائي، وذلك في عام ١٩٦٨م. قال: لماذا لم يرسل الله إلينا رسلا من النساء كما أرسل لنا رسلا من الرجال؟ ولماذا قال الرسول ﷺ «النساء ناقصات عقل ودين؟ »

قلت: ليس من الأدب أن نسأل رب الكون لماذا فعلت كذا؟ لأنه فعّال لما يريد ولا يُسأل سبحانه عما يفعل. وإن قاعدة التكاليف بين الرجال والنساء مطردة في جميع التكاليف الإسلامية ؛ إلا فروعا تستدعيها خصائص التكوين الجسدية والنفسية ، إذ راعى الإسلام في المرأة نسبة استطاعتها بشيء من التخفيف ، التزاما بالعدل الذي تقتضيه الحكمة. وكلما يتعلق في موضوع العقل فالرجال مزودين بخصائص عقلية تؤهلهم لأن يكونوا هم القوّامين ؛ لأن خصائص المثلى رجحان العقل على العاطفة ، وهذا الرجحان متوفر في الرجل غالبا وبصفة عامة أكثر من توافره في النساء. وفي ما يتعلق في نقص عقل المرأة هو أن المرأة بصفة عامة يغلب جوانب العاطفة لديها الجوانب العقلية في معظم أحوالها مهما كانت متمتعة بذكاء وإرادة قوية ، وحينما تنعكس في المرأة هذه الخصائص ، وتكون الجوانب العقلية لديها راجحة عن الجوانب العاطفية ، فإنها تفقد لا محالة جزءا كبيرا من كمال أنوثتها المؤهلة لوظائف اجتماعية لا يحسنها على الوجه الأكمل غيرها. أما إذا أردت الحكمة في نقص الدين عند النساء،

فالرسول عليه السلام علل ذلك «لأن المرأة تمر أياما ولا تصلي». فاقتنع بالجواب واعترف بمنطقية الاجابة. قال: نعم صحيح بعد أن هزّ رأسه. ثم قال: والحقيقة أنه لا ينبغي أن يرسل الله إلى الأمة نبيا لا يستطيع أن يؤمّ الصلاة في بعض الأوقات، وصحيح أنها نقص في الدين!!. هكذا كان الاصغاء جيدا، وأقرب إلى الفطرة، وكانت أجهزة الاستقبال الفطرية في كيان الشخص أعمق وأصفى، يتأثر الفرد بالشبهة لكثرة التزيـيف والتضليل متأثرا بقلة الثقافة الإسلامية والجهل المستطير، لكنه سرعان ما يقـتـنع بالبرهان أو يبهت إن كان من المستكبرين المتبجحين الكافرين.

وقضية المرأة كانت كثيرة التداول عند المثقفين، فقد سيطرت الشبهات عقول الشباب، وكنا نقرأ أيضا حجج العلماء وردهم على تلك الشبهات. ومن الأجوبة الطريفة التي تلقيناها إجابة العلامة أحمد رفيق باشا العثماني، كان سريع الخاطر حاضر الجواب، سألوه يوما في مؤتمر وهو في أوروبا، لماذا نساء الشرق محتجبات في ببوتهن مدى حياتهن؟، فقال: «لأنهن لا يرغبن أن يلدن من غير أزواجهنّ، فأصبحت كصبِّ ماء على وجه السائل، فسكت على مضض كأنه ألغِم الحجر» .

تمجيد الديموقراطية السياسية التي تطلق العنان للحرية الفردية، كانت موضة ذلك العصر، بينما كان التهكم على الملكية عامة، وعلى أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه خاصة والذي اعتبروه أنه ســنّ للإسلام الملكية الاقطاعية وولاية العهد التي تديم الحكم على الأسر المالكة.

كان الصحابي الجليل أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه يرى باجتهاد منه في زمنه، أنّ فتح باب الشورى في انتخاب من يخلفه سيحدث في الأمّة الإسلامية اليوم مجزرة لا ترقأ فيها الدماء إلا بفناء كل ذي أهلية في قريش لولاية شيء من أمور هذه الأمة، وأن ابنه يزيد، يمتاز عليهم بالقوة العسكرية التي تؤيده.

ولا ينبغي أن نلوم أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه في اجتهاده، فقد اجتهد مخافة الفتنة وحرصا على وحدة الأمة، وكان الله من وراء النيات ، وكان صحابيا وأميرا سابقا بمنتهى الدهاء. وهو الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم في شأنه «اللهم اجعله هاديا مهديا واهد به» صحيح الترمذي.

وهو الذي علل الوصية بقوله: «إني لا آمن عليكم الاختلاف» ولم يُخَلِّف وصية توصي توريث الحكم مدى الحياة، كما أنه لم يقنن ولاية العهد على الدوام، بل الخطأ التاريخي يكمن في جعل التوارث في الحكم جزءا من الخلافة، فإذا رأى في زمانه ولاية العهد لابنه للظروف الزمنية، فلماذا لم يغيِّروا بعد وفاته أو بعد فساد حكمه أو انتهاء مدة حكمه ؟ ولماذا لم يؤسسوا لهذا الأمر مؤسسات تحفظ رأس الأمة من ذوق الملوك على المدى القريب والبعيد؟ بمعنى: أن الأخطاء السياسية التاريخية يعود على جميع المسلمين في ذلك الزمن والأزمنة التي بعدها، وكيف نتهمه بتسنين سنة سيئة وهو ليس معصوما، وليس أفعاله سنة في الا سلام؟ رضي الله عنك يا أمير المؤمنين، وكفاك عن المؤرخين المنافقين الضالين، وأدخلك في الفردوس الأعلى، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا. لا شك أن توريث (يزيد) في الحكم أضرت بسياسة المسلمين فيما بعد، ولم يكن مؤهلا ، ولم يكن والده معاوية موفقا في تلك التوصية ، خاصة إذا قرأنا التاريخ من الخلف، واعتبر بعض المسلمين في وقت مبكر تلك التوريث « بدعة هرقطية» ومخالفة ظاهرة بالوراثة المشروعة. وكثير من الناس إذا عمل عملا ثم نظر إليه بعد فترة من الزمن ، وجد ذلك العمل ثغرات وخلل ، وذلك دليل على قصور الانسان وضعفه ، وبعده عن الكمال.

*****

التحديات التي كانت أمام الدعوة

أولا: الشيوعية ودورها الإلحادي

كانت الشيوعية تمثل الفتنة الزمنية المروّجة فيه، وكان لها دويّها كفكرة ناشئة مثالية وحديثة ضد الأديان، وضد الإمبريالية الإقطاعية الاستعمارية، كانت تـنـتـشر انتشارا واسعا في العالم كله، وزحفا هائلا اجتاح العالم كله حتى أصبحت «موضة فكرية» أو «فكرة تقدمية» لأن الفكر العقلاني الإلحادي كان يرى الأديان مجموعة من الأوهام التي صنعها البدائيون، وأن الإسلام دين البداوة والخيمة والقبيلة. وكانت الماسونية والصهيونية اليهودية تساعد وتدعم ذلك الانتشار الرهيب في العالم كله، والعالم الإسلامي بصفة خاصة، في وقت كانت الحركة الإسلامية الوليدة مطاردة في المنطقة.

كانت هذه العلمانية الملحدة، تدعوا إلى الانسلاخ الكامل من كل الأديان، وما جاءت إلا لمحاربة الغيبيات باعتبارها مقومات خرافية أسطورية. وحين يتأثر الانسان بهذه الفكرة الجهنمية، كان يدّعي أنه تحرر من القيود التي ربطت الأديان به عقول البشر، وانتشرت عبارة «الدين أفيون الشعوب» و«خرافة الأديان» وغيرها، واستباحة كل ما يميل إليه الطبع، فأصبحت الفكرة الشريرة التي قادت قطعانا من البشر في واد الإلحاد، وإنكار وجود الله، وتأليه المادة؛ فأدخلتهم في نار جهنم خالدين مخلدين فيها وبئس المصير.

كانت أخبث وأجرم وألعن وألأم فكرة مرّت على البشرية وضللته رغم سخافتها، بل كانت موجة عارمة حوّلت العقلية الانهزامية آنذاك إلى عقلية متشنجة، تدَّعي الشجاعة والجرأة على نقد الثوابت؟،

حاملة حقدا متجذِرا، متمرنة على تقديم الأسئلة التي اعتبروها تعجيزية على العلماء والدعاة، مثل: هل يجوز في عصر العلم والتكنولوجيا أن تقام الحدود البربرية الهمجية كالجلد والرجم وقطع الأيدي؟؟، كيف أؤمن بإله حرّم علينا الطيبات كالخمر والنساء وخوّفنا بغائب لا يعقل؟، يقولون ذلك بعد أن سحقوا وأبادوا ملايين من البشر، ثم يجدون من يصدق ذلك الهراء !!. كانوا يروِّجون أن الأخلاق نسبية، وهي من صنع البشر فيمكن أن تتغيّر بمجرّد الهوى، ومن ثمّ من العبث أن تؤمن دينا يؤمن بما وراء الطبيعة، ولهذا كانوا ينظرون كافة الأديان بنظرة ازدراء واحتقار. ولا شك أنها كانت رغم سخافتها وإجرامها، مقدمة للدّجال الأكبر الذي تتابعت الأخبار أنه سيأتي في آخر الزمان نجانا الله من شره. كان هناك اتفاق ضمني بين العسكرين المتناقضين (الغربي والشرقي) في العالم على نشر الإلحاد بين الشعوب الإسلامية ، والعمل معا على تحويل هذه الشعوب عن أخلاقها وآدابها وفضائل أعمالها. وقد ألحّ القادة اليساريون في العالم على محاربة الدين والأخلاق بالشكل العنيف؛ لينزعوا من أتباعهم كل ما تبقى فيها من وجدان ، وكل ما خلفته الموروثات الفاضلة فيها ، حتى لا تبطئهم عن ارتكاب أية جريمة في الشعوب ، والعمل على اطلاق الوحش البشري (الشيوعي) ليفتك في العالم محققا لمصالح الشيوعي. وهكذا كان قائدي الثورات الالحادية وكل من مسّه مسٌّ من جنون العظمة كماوتستونغ الصيني الذي قال صراحة «إذا كنا عظماء فما فيه الكفاية حتى ننهي سيطرة الإله علينا أن لا نصبح عن أنفسنا آلهة ببساطة ؛ لأننا جديرون فيما يبدو بذلك» .

كانت الأحزاب الشيوعية الصومالية، والتيارات الإلحادية الأخرى، يتلقون الشبهات على الإسلام من المستشرقين والمستعمرين والمنافقين، ويثيرونها في منتدياتهم الثقافية لإسقاط حجية الشريعة،

ومحاربة الدين الإسلامي بأسلوب هجومي مستفز، فترى في كل مكان حزب الشيوعي وحزب الاشتراكي والماركسي هكذا بوقاحة!. وكانوا يرون أن العالم كله يسعى بطريقة «حتمية» أي جبرية ، أن يصبح كله شيوعيا.

وكان الشاب البدوي الصومالي الراعي يأتي من البادية أمِّيا، فيتلقى منحة مجانية عند إحدى دول الشيوعية بواسطة سفرائها، أو إحدى الأحزاب الصومالية الموالية لها، أو أحد مواليها، فيشجعونه على الانغماس في المعاصي **أولا،** فكان يتلقى أقصى درجات الدهشة والتعجب في هذا الجو الاستسلامي تقابله الفاتنات الأوروبيات، والخمر، وينغمس في بحر الشهوات والرذائل ويغرق نفسه في بئر الرذائل ثم ينبهر بالعمائر، والخطوط السريعة، والطائرات، والقطارات، ومن خلال هذا الانبهار يتلقى دروس الإلحاد من الملحدين التائهين المتعالين، فيتجرّأ إلى أبعد حدود، فيفقد دينه بل آدميته؛ فإذا هو إبليس نحيف شرير يستهزئ بالخالق وبالدين، قائلا: أروني الله أين هو؟ وذلك في زمن، كانت الدول تتنافس على الأمة الإسلامية عامة والصومالية خاصة، وكلها تبذل القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، لنشر دينها ولغتها وتشريعها وقوانينها في جميع أقطار الأرض، مؤيدة ذلك بجميع الأساليب التي منها: القهر، والتدمير البري والبحري، وكذلك عن طريق الغزو الناعم أو اللعين الذي اشتهر ب «الغزو الفكري» والذي كان يقوده «قراصنة الأفكار» ليرتد المرتد عن دينه بالتدريج. وبما أن الشباب هم الوقود الأساسي لكل تمرُّد وثورة، وجدوا أن خير أسلوب لجذبهم هو بث الفكر الانحلالي وجذبهم بالشهوات، مما جعل العنصر الشبابي ينجذب إليهم انجذاب الفراش على النار.

ذكروا أن الرئيس الصومالي آدم عبد الله عثمان زار في دولة من الدول الشيوعية، فقالوا له: كعادتهم للزوار نحن لم نتقدم إلا بعد أن اعتبرنا الإله والأديان خرافة وأساطير قديمة. فقال لهم نحن نؤمن إلها واحدا، لكن هناك في الغرب من يؤمن بالتثليث، أو أكثر من إله، وفي نفس الوقت أكثر تقدما منكم بكثير!. كما شاعت في الاتحاد السوفيتي مقالة العجوزة الروسية التي سألت ستالين سؤالا قالت فيه: من فكَّر الشيوعية؟ فقال: العسكر!!، فقالت: فهمت، لو كانت من تفكير العلماء لجرّبوها على الحيوان قبل تطبيقها في الانسان!!. كما كان الناس يكررون ذلك الطالب الذي أفحم معلمه الماركسي الذي قال في فصله لا وجود إلا المرئي ، فقال الطالب هل ترى عقلك، فقال: لا ، فقال: إذن لا عقل لك!!.

كانت الهجمة الثقافية شرسة، أقوى بكثير من الطاقة الفكرية للأمة، ومستواها الاستيعابي، وأثرت في الناس الأيدولوجيات التي تصارعت مع الإسلام فوق أرضه، والشباب المثقف كانوا مفتونين بالغرب إلى حد العشق، وكانت فتنتهم ساذجة، ولا شيء أخطر من العاشق الجاهل كما يقال. وسنرى قريبا كيف تغلب القرآن الكريم الغالب (العزيز) على هذه الثقافة ودحرج مع دجلها الإعلامي، وكيف رسّخ وطهّر قلوبا بزلاله الصافي من خرافتها، فأصبحت هذه الثقافة الإلحادية خرافة من الماضي البغيض التي ظهرت سوءاتها بعد إدبارها.

ومن هنا احتاجت العقلية الإسلامية إلى تحريرها من رواسب الثقافة الجاهلية، لمواجهة التحديات الفكرية الغازية، مثل معركة التشكيك بالقرآن الكريم وجمعه، والمطاعن المزيفة ضده، والشبهات الكثيرة التي قدموها حول القضاء والقدر، وما يتعلق بالرق والمرأة، والتشويهات الهائلة على التاريخ الإسلامي والفتوحات، واعتبار القتال الذي دار بين الصحابة رضوان الله عليهم نوعا من أنواع الصراع

على السلطة كما ذكرنا من قبل، ومحاولة تشويه تاريخ الصحابة وهم أعلم هذه الأمة وأبرّها وأقلها تكلفة وأكثرها إنتاجا ونفعا وإنقاذا. إن في كتب التاريخ والتفسير بعضا من الروايات التي كانت لحركة الاستشراق صيدا ثمينا نفذوا من خلالها إلى عوالم، كانوا يصطنعونها بالتلفيق بين هذه الروايات، فكانت الحركة تتصدى بشكل فكريٍ لما تتعرّض له الساحة الصومالية من استبداد الحركة الشيوعية، ومن غزو الفكري الذي أثر العقول إلى حد خطير. وأخيرا فشلت الشيوعية وتحولت إلى مهزلة ، وإلى مثال للتخلف الفكري.

ثانيا: الثقافة الغربية في الصومال

كانت المدارس تدرس باللغات الثلاثة (العربية، الإيطالية، والإنجليزية) وكانت المكتبات في العاصمة مقديشو مكتظة بالكتب الدراسية غيرها والمطالعة بهذه اللغات المذكورة، وعند كل سفارة مكتب ثقافي تابع لها ومكتبة مجانية للاطلاع، والأدب واللغات كان له دور فعّال في العالم. وكان يعتبر ماركس ولينين اليهوديين، وماو تصتون الصيني، وكيم إيل سونغ الكوري، وجمال عبد الناصر المصري، وكثير من الأدباء الايطاليين كدانتي والبريطانيين كشكسبير وكثير من أدباء العرب العلمانيين وغيرهم، من النجوم اللامعة في ذلك الزمن، وكان لهم ترويج هائل حتى حوَّلت البلاد إلى معرض للفكر المنحرف، وكل من هؤلاء كان له مكتبة خاصة للقراءة والاطلاع أو توزع الكتب مجانا، وكانت تترك على قرّائهم كبرياء الثقافة وزهو الذكاء. محيطين علما إلى الشرور التي تنقل من الغرب إلى الشرق الإسلامي عبر العلوم، وعن مراكز للبحوث أسست من منظور أيدلوجيات زائفة وفهوم سقيمة.

ثالثا: الثقافة الجنسية

أما الثقافة الجنسية وهو الاسم المهذب للزنا أو المثيرات المتنوعة الأخرى كالمخدرات والخمر ومثيلاتها، كانت ومازالت أنها من أسلحة الاستعمار؛ لأنهما يقرضان الأمم قرضا، وإنَّ وباء المخدرات فتكٌ أخطر على الأمة من البندقية والدبابة والصاروخ والقنبلة، وإنَّ اليابانيين استعملوا سلاح «الأفيون» ضد الجيش الصيني حتى هـزموهم.

فالبغاء هو الصورة الجديدة للعبودية، تلك العملية القذرة جعلوها بالدعاية ميزة عصرية تحت مسميات «الحرية الفردية» و «الحاجة البيولوجية» كما اعتبروا ممارسة الجنس قبل الزواج كتقليد تقدمِّي، واعتبار الجنس «عملا» من الأعمال، واشتهر عند المنظمات والوكالات العالمية أن تسمى النساء اللاتي يعملن في البغاء بمسمى «عاملات الجنس» أو «صناعة الجنس» كما يسمون السياحة ب «صناعة السياحة» التي هي مصدر هام من مصادر الدخل، كما أنَّ البغاء ببساطة شغل آخر كالعمل في مصنع غذاء أو مركز اتصالات هاتفية، وللإعلام دور بارز للدفاع عن الدعارة باعتبارها نشاطا اقتصاديا مربحا.

أما الإسلام فقد اعتبر الجنس «متعة» لابدّ من توجيهها في الحلال، وإلا نتائجه مهلكة. فالاعتبار ميل الرجل إلى المرأة وميل المرأة إلى الرجل غريزة وفطرة يجب تنظيمها كما يرضى خالق الغريزة.

وجاء في الحديث: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالزِّنَا، فَإِنَّ فِيهِ أَرْبَعَ خِصَالٍ: يُذْهِبُ الْبَهَاءَ عَنِ الْوَجْهِ، وَيَقْطَعُ الرِّزْقَ، وَيُسْخِطُ الرَّحْمَنَ، وَالْخُلُودُ فِي النَّار» . ومن خطوات المستعمرين تسهيل هجرة البغايا إلى المدن الكبرى ، ومنح الرخص لهنَّ بمزاولة البغاء ، ومضاعفة فتح الحانات ومحلات شرب الخمور بقصد اضعاف الروح الإسلامية ، وانتشار الفساد الخلقي بينهم.

فانتشرت أماكن الرذيلة الجنسية في البلاد، والمخمرات ومسارح اللهو واللعب، ثم ظهرت إعلاميا ما عرف ب «الصحة الجنسية» المقصود بها كيف تمارس المرأة الفاحشة دون أن تحمل. وبعد سيطرة القوات الاستعمارية، انتشرت الملاهي التي تنشر أكثر الأغنيات فاحشة، وأكثر التمثيليات تفاهة التي تدرِّب الشابات بالمثيرات وهتك الأعراض والميوعة ليزيد «الجوعة الجنسية» وليصبح الزنا ميسرا والزواج معسرا، بينما كانت من قبل عارا شديد الوقاحة في المنطقة.

المدن الكبرى في شمال الصومال المعروفة بالصومال البريطاني (أرض الصومال) انتشرت الآفة. في العاصمة هرجيسة مثلا: كان هناك شارع اشتهر ب «شارع الدعارة أو الجنس» وحارة اشتهرت ب «حارة الليرة ». وفي بربرا وبرعو، كان هناك أماكن معلومة لممارسة الدعارة كما كان هناك حارة اليهود. أما عدن المجاورة التي كانت مستعمرة بريطانية فكانت مشهورة بجميع أنواع الفساد والفسق والرذائل والخبائث وكل ما يتعلق بالقذارة كاللواط وغيره.

وقصة «شهيد الرجولة» مشهورة عند الصوماليين، ذلك الرجل البدوي من قبيلة «عيسى» الذي سمع لأول مرة ممارسة عملية القذرة «اللواط» في عدن فاهتزت رجولته، وثارت ثورته وخلع خنجره وقتل نفسه قائلا: ويل للرجولة! ولا حياة بعدها.

من الأحاديث المتداولة عند الصوماليين ، التي اعتبروها يومها نكتة طريفة، أن فتاة بدوية انتقلت من البادية إلى عدن، وانضمت إلى الدعارة، وصل الخبر المزعج إلى أسرتها في البادية، وكانوا يعبِّــرون عن فعلتها بعبارة يستقبحونها أكثر، وهي عبارة عن فعل قذر يتعدى إلى سمعة الأسرة أو القبيلة وشرفها.

لم يستطع الوالد أن يتحمل العارَ الذي جلبتها لهم بنته، فالصوماليون كان لديهم عقوبة اجتماعية قاصية في كثير من القضايا، فشدَّ أزره، لا يريد إلا قتلها أو دسّـها في التراب، دفاعا عن شرف أسرته بل وقبيلته. قالوا: وصل الأب الفقير إلى المدينة «عدن» باحثا بنته التي ضلت ودنست سمعته، فلما وجدها، أكرمته وضيّـفته وأطعمته ألذ الأطعمة، وألبسته أجمل اللباس، ودفعت له مالا وفيرا، فهدأت أعصابه وذهب غضبه، ثم هنـّأها وشكر لها، وأحبّ هذا العمل لبنته الأخرى، ثم قال: هل تجد مكانا لأختك فلانة التي كانت أصغر منك!! فجعلوها مُـثلة مضحكة. أما العاصمة مقديشو أو الجنوب عموما فقد انتشرت الدعارة بصورة جنونية، وكانت ممارستها طبيعية، ولا تتحدث عن حال «جيبوتي» فكان يعتبر محور الشر ومركز الدعارة أو القذارة ومازالت.

والخلاصة: أن الإسلام كان دينا تحالف على محاربته كثير من الأعداء من داخله: كالجهل والفساد والنفاق والوهن. ومن خارجه: كالاستعمار والقهر والغزو الفكري. فكان الطالب والمراهق يسير في حقل ألغام من الانحرافات، وحياته كانت محفوفة بكلاليب الباطل تلتقطه يمنة ويسرة، ومن هنا كانت الحاجة ماسة من يقف ضد الاباحيين والملحدين والمستهترين.

*****

حوار مع ملحد

في سنة ١٩٦٩م، دخلنا مركز قهوة في مقديشوا، ودار الحوار التالي بيننا وبين ذلك الملحد المتغطرس.

شارك معي هذا الحوار الأخ عبد القادر شيخ محمود. التقـينا في داخل المقهى برجل واحد على غير العادة، كانت المقهى عادة مزدحمة بالزبون، سألناه عن سبب قلة الزبون. قال: هرب الجميع خوفا من هذا التيار الكهربائي الذي سقط على الأرض، وكانت المنطقة ممطرة، واستهزأ بهم ورماهم بالجبن.

قال الأخ عبد القادر: الخوف طبيعي قالها باللغة الإيطالية (Naturale) لكن الخوف الحقيقي لا ينبغي الا لواحد فقط ، فهِمَ قصده لأنه كان يعني الواحد «الله» جلّ جلاله.

قال: أقول لك «لا إله والحياة مادة» !!، في حين جبالا من الحيرة كانت جاثمة على صدر الرجل وعقله، فقد صوَّر القرآن تلك التعاسة والشقاء تصويرا دقيقا فقال: ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

قال: عبد القادر شيخ: هادئا وهو يحاوره، هل تستطيع أن تبرهن مقالتك هذه؟

قال: نعم، برهن ذلك كارل ماركس من قبل. وأراد ذلك نوعا من التحدِّي الزائف لإثبات أباطيله! .

قال الشيخ: وماذا قال؟

قال: قال «أرني إذا كان له وجود»

قال الشيخ: معنى كلامك أنك لا تؤمن إلا إذا رأيت بعينيك، أو لمست بيديك أو شممت بأنفك؟

قال: نعم لا أؤمن إلا بما هو مادِّي ومحسوس.

قال: كلامك يتناقض، هل رأيت كارل ماركس هذا؟ أو لمسته أو شممته، كيف آمنت به؟ فـبُهِت الذي كفر وصمَّت صمتا محيرا! فتركناه يلهث خلفنا، ثم قال: آه عرفتكم أنتم من إخوان المسلمين؟ والحرب سجال ودائم بيننا وبينهم، .

حضر اللقاء فيما بعد أحمد معلم جامع الذي كان في ذلك الوقت داعية مفوَّها، وتناولنا الحديث معا، وأخبرنا ذلك الشيوعي أنه جاء من السودان، وحضر المؤتمر السنوي الكبير للحزب الشيوعي السوداني. وكان العلمانيون مصابون ويعانون أمراض الشرق المتخلف وعاداته وثقافته الميتة ، كما كانوا يعانون ثقافة الغرب الوافدة المميتة .

كنا نجـيِّد إفحام المبادئ الهدامة كلها، والشيوعية بصفة خاصة، وكنا نقدِّم لذلك جهدا جبارا في أولى مراحل دعوتنا، كنا نقرأ كتبهم ومجادلاتهم وشبهاتهم كثيرا، ثم نفحمهم بالأدلة العقلية والنقلية، وكنا نفحم هؤلاء الذين كانوا يعانون «العاهات الفكرية». كما كنا ندرك أهمية الحوار بلغة الحقائق العلمية التي لا يمكن لأيِّ ملحد أن يصمد أمامها.

أخيرا تأثرنا نصيحة المفكر الاسلامي الأبرز آنذاك، الأستاذ سيد قطب رحمه الله رحمة واسعة الذي قال: «الشيوعية حقارة عقلية ، ولوثة فكرية ، وعملية وقتية انتحارية ضد العقل والفطرة. ولوثة انكار وجود الله أصلا ونبذ الاعتقاد والتدين اطلاقا، لوثة عارضة وشاذة ومنافية للفطرة ، ولذلك تصطدم نفسها بنفسها وتقاومه الفطرة والفطرة أغلب، بل هي انتحار وعاقبته محتومة ، والمعركة الحقيقية بين الحق والباطل لم تكن قط بين الاعتقاد والإلحاد» انتهى. كما تنبأ بانهيار الرأسمالية الغربية. وقال: «لا تجادلوهم واتركوهم يتخبطون في ترهاتهم، وقدموا دعوتكم التوحيدية إلى الناس صافية نقية كما نزلت غير ملوثة

بردود العواصف الزمنية التي ستزول تلقائيا». وصدق التخمين، وأصبح الإلحاد من الماضي البغيض وعفى عليها الزمن ولم يعد لها أثر. وبفضل تلك النصيحة الفطنة التي أطلقها هذا المفكر الإسلامي الموسوعي، والتي كنا نتذوق منه الإخلاص وطهارة الضمير، صرفنا الذهن عن دراسة ومجادلة الشيوعية كلوثة فكرية لا تستحق كل هذه الجهود .

كان الأخ (عبد القادر شيخ محمود) محاورا من الطراز الأول، ومتمرنا بالنقاش الهادئ المفحم، الذي يلزم الخصم الدليل ويظهره بمظهر السفـيه أو المكابر المتعجرف، وكان أصحاب الترهات الفكرية ينسحبون من الحوار في أول اللقاء. كلام الملحدين كان ينهار بسرعة رغم ضجيجهم الفارغ ، فقد ردّ يوما (الدكتور يوسف حرسي) بعبارة واحدة قاتلة، قال: في حديث له إن زعيم الشيوعية (الماركس) كان يهوديا ، ومصطلح اليهودي عند رجل الشارع في الصومال «رجس من عمل الشيطان» ، وعند سماعه يتعوذون من الشيطان الرجيم. فأصبحت عبارته ضربة مؤلمة على الشيوعية ، فعلق آخر بعبارة ساخرة ، موسى وعيسى أيضا كانا يهوديان. لكن الذين هادوا المذكور في القرآن الكريم يعني انحرفوا عن دين الحق، واتبعوا دينا محرفا فهادوا ، ومن ثم لا يطلق على الأنبياء أنهم تهودوا ، ولكن كانا رسولان مختاران من بني إسرائيل.

*****

نشأة اليقظة الإسلامية الجديدة

المقصود باليقظة الإسلامية الجديدة هنا، هي: الحركة الإيمانية الشبابية، التي بدأت في أواخر الستينات من القرن الماضي، بسبب نجاحها الباهر في تأثير الشباب المثـقف في البلد، وبقوة آرائها، وهي الحركة المؤثرة في زمانها، التي أصبحت ثورة على الأوضاع الفاسدة والعقائد الضالة، ورفعت صوتا قويا عاليا مدويا هـزّ المشاعر، وأحيا العقول، ونوّر القلوب، وكانت ضرورة يحتِّمها الواقع، أو قدرا ساقه الله الي الأمة لإنقاذها من الانحلال. والحقيقة أنه ما من قوة على الأرض يمكنها إيقاف فكرة جاذبة عميقة حان وقتها.

لم تكن اليقظة بدعة مستوردة كما عبّر البعض، بل كانت يقظة وتجديدا وامتدادا من العمل الإسلامي المتواصل. وكانت تسترشد أفكارها من المجددين الإسلاميين القدماء والمتأخرين على حد سواء، ونشأت من الداخل، وليست كما يقال توحيدا طارئا أتى به فلان وعلان!. بل كان للقارئ دورٌ، وللفقيه دورٌ، وللمتعبِّد الصوفي دورٌ، ومدارس اللغة العربية وأدبها التي مهَّدت لفهم الدين دورٌ، وربما للملحد المتغطرس الذي أعلن الفكر المضاد بوقاحة كان له دور ما؛ لأنه كان له مواقف تثير حمية الغافل الركود ، فلو لم تكن شراستهم الفكرية لما ظهر وضوح الرؤية المضادة... وهكذا التغيير كان نتيجة حركة مجتمعة، فإذا وجد قائد الموهوب ذا قدرة باهرة على قيادة المجتمع أو الحركة، وينجح تحريك الطاقة الكامنة في داخل كل انسان يحدث التغيير.... وهكذا كان.

بدأت الحركة بقدر من الله، وذلك بعد ما وصل «الجوع الغامض» إلى نهايته، فالجوعة الفكرية والروحية هي التي اجتذبت الروحانية كاجتـذاب المغناطيس بالحديد، أو اجتذاب الغابات بالأمطار. وإن من رحمة الله سبحانه وتعالى ومن قدره، أن يرسل في كل زمن عواصف « فتنة » تظلم الحياة فيخرج الأسد من عرينه وتخرج الزواحف إلى السطح، تعقبه دائما عواصف « إيمانية » نورانية شبيهة بالعواصف السُّـونامية، لتـزيح الظلمات أو الغمامة التي غطّت على أهل الأرض بعد كل فتنة، ثم يهيئ لها الجوّ الجاذب، فيرسل لها من يتولى نشر الهداية، فإذا الظلمات تزول بسرعة عجيبة، ويحل محلها النور «الهداية» وتصل الحقيقة إلى الأذهان مهما حاصره الإعلام، وهذا دليل على أن روح الإسلام طاقة مبيته في نفس المسلم بل في نفس الإنسان، وستـنفـجر كلما ظن الأعداء أنها خمدت، وستظل تصنع المعجزات.

والمادة المشعلة دائما هي «القرآن الكريم» وهو الدواء المعجز الذي يشفي الصدور ويحرر العقول والقلوب. قَالَ تَعَـالَىٰ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٥٧]. وما من صحوة انفجرت في التاريخ الإسلامي إلا استقت من ذلك البئر العميق والنبع الصافي «القرآن الكريم» وتأثرت ثم تحركت بعد دراسة الكتاب العزيز وبعد تدبُّر آياته الحكيمة.

*****

دور الشيخ محمد عيسى جُدُرِي (Guduri)

تأثّر الرعيل الأول لأول مرة أو بالأحرى – من بين ما تأثر – الدراسة والوعظ والإرشاد الذي كان يطلقها «الشيخ محمد عيسى» لطلبته وللجماهير، كان من قبيلة عثمان محمود، كان عالما باللغة والأدب والتفسير والفقه وعلم السلوك، وقد منّ الله به «عزيزة الشجاعة» التي هي من أكرم الصفات الإنسانية وأليقها، وبسببها قاوم القوانـين الإفرنجـية، ودعا بقوة إلى تطبيق الشريعة السماوية، فكان المحرك الأول أو المشعل المؤثر لهذه الحركة في زمن كان من يطالب بالعودة إلى الشريعة يتعرّض للازدراء، ويتهم بالرجعية والتخلف.

وارتفعت مقاومته في عام ١٩٦٠م الذي أطلقوا عليه عام الاستقلال، وكانت نظريته تتلخص في إلغاء القوانين الاستعمارية التي سماها «قانون الطاغوت» وذلك كان بعد الاستقلال. وقال: ليس من المنطق أن يغادر الاستعمار بلادنا، ثم نقيم قوانينه الكافرة بعد ذهابه، كيف نقبل أن يغادر أرضنا ويخلف فينا القذارة «قوانينه أي جاهليته». والحقيقة أنه لم يكن استقلال حقيقي في الصومال، أو كان الاستقلال ناقصا، وأن جميع الاتفاقيات التي أفضت إلى استقلال الصومال كانت ملغومة وأعطت حيزا كبيرا للمستعمرين تمكنت من خلالها إلى مواقع السيادة.

كان تطبيق الشريعة بعد الحرية الغامضة من الأمور التي كانت قيادات الحركة النضالية (syl) تعتبره من أهداف الحركة ، بل كانت أول وثيقة دستورية لحزب وحدة الشباب الصومالي «أن يكون المحور الأساسي لجهود الحزب ما توحي به الشريعة الإسلامية من توجيهات باعتبار الإسلام الدين الرسمي للدولة الصومالية». وهكذا كان الحزب يوعد للأمة بتنفيذ الشريعة، فكان العلماء يستندون أيضا بهذا

الوعد وبهذا المطلب. لكن الحركة خرجت من حدود الغالبية إلى أن صارت حركة مغلوبة ، ثم نقصت الشجاعة وذهبت الشهامة وقبلت التبعية، فربّى العدو الحكومة وقاد السياسة حتى أخرج عقولا مشوهة، وقلوبا مقلوبة، فانتهت إلى التهاون مع الاستعمار الأجنبي أن تتصور، بل أن يتولى القياديون الاستعمار فضلوا الطريق وبئس ما فعلوا. وهؤلاء هم الذين قبلوا فكرة «الانتداب» الاستعمارية ، والانتداب هو أن ينتدب الجنس الأعلى نفسه ليقوم بمهمة كبيرة «مهمة التربية» وهي رفع هذا المخلوق النازل ليرتفع إلى معارج الانسان الغربي المتطور، وتلك كانت «سلطة الأساطير» التي تحاصر العقل وتشل قدراته على التفكير. ثم سقطت تلك العقول تحت هيلمان دعايته لكنها كلها كانت مبررات وهمية للهيمنة. وهؤلاء الموالين – رغم اشتهارهم بالمناضلين– لا تعدوا مهمتهم أن تكون صورة تامة لمهمة الأعداء ، إلا أنهم يستعلنون بوجه وطني ؛ لأنهم من الأمة أعرافا ونسبا ، وهذا الوجه الوطني لا يستطيع أن يلبسه العدو الأصلي ، لذلك فإن تأثيره يظل أقل وأضعف حينما يباشر مكيدته بنفسه بصورة علنية ، علما بأن الله جل جلاله وضح المسألة بوحي يتلى.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [المائدة: ٨١]

لا شك أنه كان مجموعة من مناضلي وقيادات «حزب وحدة الشباب» كانت ترى مواصلة الكفاح المسلح، وجلاء المحتل عن البلاد دون شروط، وعدم القبول بعروضه ومناوراته السياسية إلى أن يتم تحرير البلاد نهائيا يقوده الحاج محمد حسين حامد وغيره، لكن جهود تلك المجموعة لم تكلل بالنجاح ،

بل غلب عليهم طبقة مثقفة من الحكام بوحي من المستعمر ليخلفوا الاستعمار في الحكم، وفصل من الحركة تلك المجموعة وزجت إلى السجون، وهكذا أصبحت السياسة الصومالية تحركها الأصابع الأجنبية من الأبواب الخلفية.

لم يكن الشيخ محمد عيسى وحده في المقاومة، بل كان كثير من علماء الصومال وبعض التجمعات الإسلامية آنذاك، ينتقدون ويعادون القوانين الإفرنجية، لكن الشيخ كان معلما بارزا من معالم الشجاعة ضد هذه القوانين الكافرة.

في عام ١٩٦١م قاد الشيخ مقاومة جريئة، واستطاع جمع ٥٠٠ توقيع من العلماء والأعيان، وأقنع عبد الله جامع غالب رئيس البرلمان آنذاك، أن يعرض المشروع على البرلمان، فعقد اجتماعا طارئا للمشروع في البرلمان «تطبيق الشريعة الإسلامية وإلغاء القوانين الغربية» أو تبديل القوانين المعمول بها حاليا وإحلال محلها الشريعة الإسلامية . كان عدد البرلمانيين في ذلك الوقت حوالي ١٢٤ نائبا، صوّت اثنان فقط لصالح المشروع. **الأول:** الشيخ على إسماعيل «هبَرْ يونِس» كان عالما متخرجا من الأزهر، يقرأ التفسير في مسجد مرواس، واعتبر التصويت ذاته إجراما، معتبرا جعل الشريعة مادة فوق دستورية لا يجري عليها التصويت، وصرّح أن القضية مقطوعة وليست من القضايا الاختيارية حتى يصوَّت، وأن الله لم يقبل من بني إسرائيل إيمانا حتى يحكموا كتاب الله، فهل يقبل الله منا ما رفض من بني إسرائيل؟، وقرأ على البرلمان قوله تعالى ﴿ **قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾** ﴾ [المائدة: ٦٨] ، وكان فلاسفة العلمانية الأوائل يقننون أن لا دخل للدين لموضوع الاختيار ، فقال توماس

هويز: «إن الكتاب المقدَّس لا يصلح قانونا إلا إذا جعلته السلطة المدنية كذلك» ، كما يقول استينوزا «إن الدين لا تكون قوة القانون إلا بإرادة من له الحق في الحكم (الشعب) ».

أما النائب الثاني الذي صوَّت للشريعة لم أتحقق بعد. بينما صوّت الباقون (١٢٢) ضد المشروع «رفض الشريعة» قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

[السجدة: ٢٢]

والغريب أن البرلمان في ذلك الوقت ١٩٦١م كان جل النوّاب من العلماء التقليديـين، الذين اختارهم الشعب بالفاتحة (١) وذلك بعد أن تمدنوا وتأقلموا وتفرنجوا وتذوقوا المال الحرام، فاشتروا بآيات الله ثمنا قليلا.

وعند ما استلمت النازية الحكم في ألمانيا بقيادة «هتلر» سنَّ القوانين والأنظمة لمكافحة اليهود في ألمانيا وإكراههم على مغادرة البلاد، جاءت ردة فعل اليهود على هذه التدابير الألمانية عنيفة جدا، وبالتحديد في ألمانيا وإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية، ومما لا شك فيه أن الحركة الصهيونية في ألمانيا لعبت دورا استفزازيا في هذا الإطار لتدفع بهتلر والنازية إلى اضطهاد اليهود، وممارسة الملاحقات والمضايقات وحتى التنكيل بهم، ورميهم في السجون بغية اقتلاعهم من ألمانيا وتهجيرهم إلى فلسطين.

ومقابلة مع محمد ياسين علل رفض البرلمان بالشريعة بالملاحظات التالية:-

---

١). كانت الفاتحة علامة ضغط لإجبار نائب البرلمان بالعضوية إذ لم يكن من بينهم من يهتم بها، وكانت القبائل ترى أن العلماء هم المرشحون بالوكالة فيقرأون الفاتحة لقبول المنصب.

قال: علاقة حلف التي كانت بين النازية الألمانية والفاشية الإيطالية، أجبرت موسوليني الفاشي تهجير اليهود من إيطالية بينما حوربت في ألمانيا، فاختار ٢٠٪ من هؤلاء اليهود إلى كل من ليبيا وأريتريا ، أما ٨٠٪ الباقية هُجروا قسرا واختاروا الصومال كإيطاليين وليسوا كيهود، فسيطروا التجارة والزراعة والصناعة، وأسسوا بنوكا فيها مثل بنك «نابولي» وبنك «روما»، وكان لهم مركز الصداقة الإيطالي على طريقة الصداقة الماسونية «كازا دي إيطاليا» (Cassa Di Italia) وكانت هناك شبكة عقدت لنواب البرلمان، فأصبحوا ضحية الماسونية بعباراتها البرّاقة «الأخوة والصداقة والحرية وثقافة الطاعة العمياء» فلكى يجد النائب الدَّين والتمويل من البنوك له ولعائلته وأقربائه عليه أن يملأ الشروط التالية:-

أ: يحوِّل راتبه الشهري إلى إحدى البنوك، بعدها سيتولى سيارة من «الفيات» وفيلا للسكن دينا عليه يدفعها بالتقسيط. وقد كان الزمن كفيلا بحاجتهم إلى المال.

ب: يجب عليه أن يجد توقيعا من وكيل إيطالي « يهودي على الأغلب » من بيت الصداقة الروتاري، وهكذا كان يصبح عضوا في «كازا إيطاليا» سواء علم الشبكة أم لم يعلم. وبهذه الشروط المجحفة كان النواب في قفص «الماسونية الرمزية» فآراءهم كلها مضغوطة ومشترى، ولهذا الأمر كان لقرار البرلمان دور كبير في بيع الفكر والدين. وكانت السياسية الخارجية والداخلية تحركها أصابع أجنبية استعمارية ، لكن الوجوه الظاهرة فقط كانت صومالية المظهر غربية العقل.

لم يتوقف الشيخ محمد عيسى عند هذا الحد، بل شدد حملاته ضد هذا القانون الجاهلي الاستعماري حسب تعبيره، وأطلق الشعار «الشريعة يجب أن تسود» و «الشريعة فوق الجميع» ورفع شعارا قرآنيا دويا آخر هو قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة: ٤٤]،

ونشر المنشورات المعادية لهذه القوانـين الإفرنجـية، وتزامنت حملاته هذه مع إقرار البرلمان لجنة برلمانية عقد في ذلك الوقت «لصياغة الدستور الجديد» وكان المطلوب من اللجنة تجهيز آليات هذه الصياغة خلال ستة شهور، فتزامنت حملاته مع هذه الفترة.

والحقيقة أن الدستور المذكور كان جاهزا ومستوردا، جهّـزه خبراء القانون والمحامون الايطاليون، لكن المطلوب كان التمرير عمّا كان يسمى البرلمان الصومالي وتمويهه أنه قانون صادر من عقول الصوماليين، وحتى لو قرره الصوماليون فإن الدساتير المخالفة للشريعة لا تبرر ذلك، فلا فرق عند الله بين الطاغوت الصومالي واليهودي أو الإيطالي، فلا لون ولا جنس للطاغوت، وهكذا يكررون السيناريوهات دائما، يجهِّزون لنا دستورا، ويحاولون أخذ الشرعية له من البرلمان والأعيان والعلماء المخدوعين، فيتولون كبر الكفر والاجرام. ولم يزل المصطلح «البرلمان» والدستور مصطلحان مضللان حتى اللحظة.(١)

ثم شدد الشيخ حملاته بالمنشورات والخطب النارية ، فأهاج الرعية عليهم، معلنا أن هؤلاء البرلمانيـين المشرِّعـين هم المشركون الحقيقيون مستدلا بقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الشورى: ٢١] ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥] ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٤] وغيرها من آيات الذكر الحكيم.

---

(١) راجع بالتفصيل كتابنا الآخر في تلك السلسلة (المصطلحات وحرب العقول)

وفي خلال إعداد الدستور وصياغته، اضطرت اللجنة القانونية في البرلمان إسكات الشيخ وسجنته بأمر من الحكومة حتى انتهاء مدة الصياغة، فكان الشيخ قابعا في السجن تلك المدة، ثمَّ أكملت اللجنة مهمتها وقرر الدستور الذي أصبح فيما بعد الدستور الدائم للصومال، وذلك بعد تعديله وسحبه من بعض البنود الوقحة والمعادية للدين، خاصة فيما يتعلق ب «حرية الأديان» لإرضاء أو تمويه الزعامات الدينية المعادية للدساتير الغربية الكافرة، فلما أكملت اللجنة البرلمانية صياغتها أفرجوا الشيخ من السجن، ووجد حريته.

ومن الغريب أن تتكرر نفس الصيغة بعد نصف قرن فنجد علماء يبحثون دليلا أو «قيلا» من مصادر الدين لمثل هذا الدستور الشرير، فيحلون الحرام ويقرُّون الدستور المستورد، ويصدرون فتاوى مضللة «غير مخالف الشريعة» وبما أنه قيل لليهود في القرآن ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴿٢١﴾ ﴾ ، فكيف يكون دستورا شرعوا من الهوى غير مخالف للشريعة؟ ، كان عبد الرشيد على (شرم أركي) رئيس الوزراء آنذاك، يعرف الشيخ أصلا وفصلا إذ كانا ينتميان إلى أسرة واحدة (عثمان محمود). وكان الشيخ محمد عيسى يقول رأيت فيما يرى النائم أنَّ خيولا جاهزة للجهاد في سبيل الله تجمعت في فناء مسجد «حاج رجب» الذي كان يرأسه الشيخ، ثمَّ غارت وغازت إلى جميع انحاء العالم.

أما نهاية الشيخ فبعد ما دار الزمن وحصل الانقلاب العسكري عام ١٩٦٩م عـمّ البلاد تقديس الملحدين ك «لينين» و «ماركس» وغيرهما، وكانوا يستقبلون صور ماركس ولينين وزعماء الشيوعية استقبال الملوك وكأنهم ما زالوا أحياء، لأن الطغاة دائما يرتاحون بالإلحاد ، وهؤلاء الملاحدة هم كانوا

روّاد الشيوعية الذين قالوا: أن الأديان معتقدات خرافية. فقام الشيخ في مسجد «أنزلوتي» في يوم الجمعة، وخطب خطبة بليغة مؤثرة. قال فيها: هل سمعتم الملاحدة الجدد الذين ملأ المنطقة تقديسهما. قال: قاوموهم، ألستم مسلمين؟ أين رسولكم محمد ﷺ ؟، أين أبوبكر رضي الله عنه؟، أين عمر أين عثمان، أين علي بن أبي طالب ضي الله عنهم أجمعين؟ وكلاما قويا من هذا الشكل.

كان الشيخ صاحب حدّة وقوة مؤثرة، ومضرب الأمثال للغيرة الدينية، فداهمته المخابرات التي كانت في المسجد، فحملوه على أكتافهم واعتقلوه. كان الجميع يظن أنهم سيحكمونه عليه بالإعدام لكن ما قدر الله وقضى في السجن عامين، ثم أفرج عنه ولم يقم بعدها من المرض حتى مات في مقديشو ١٩٩٠م تقريبا على عمر يناهز السبعين .

*****

نشأة اتحاد الشباب المسلمين

اجتمع عدد من كوادر الشباب المتأثرين بالشيخ محمد عيسى المذكور أو بالأحرى طلبته في اجتماع عام، وتحدثوا في أول لقاء لهم عن أمر الدين، واستعرضوا الأوضاع الراهنة، وخرجوا بفكرة تكوين جمعية مناسبة لأفكار العصر والسياسة العالمية؛ فتكونت طليعة إسلامية استطاعت أن تقدم للناس نقاء الفكر الإسلامي.

وبالفعل بدأت الدعوة بداية طيبة وقوية ونقية، وكانت بحق انبثاقه ويقظة إسلامية عظيمة الأثر في حياة الدعوة الإسلامية في هذا البلد، وكانت هذه البداية من طلبة الشيخ المذكور، أو ممن تأثروا بدراسته وتعليمه ووعظه، وأقبلوا على الإسلام والدنيا عنه في إدبار. ولم يكن هو يشارك في هذه الأنشطة، وكان تجري في معزل عنه ومنفصلة منه بسبب ظروفه الصحية ولزومه على طريقته القديمة.

اختاروا حسن شيخ على المشهور ب «حسن عدَّى» المريحاني قائدا للحركة، وكان من عظماء طلبة الشيخ ، اختاروه من بين المجموعة بعلمه وثقافته الجيدة، ولكنه لم يدم كثيرا وافتتن بالاشتراكية «الشيوعية» التي أصبحت موضة الزمن، بعد أن تشبَّع بأفكارها فاصطادوه، ووقع في الشباك، وبعد الانقلاب العسكري أصبح من كوادر ها.

قاد اليقظة «الشيخ عبد الكريم حرسي» فأصبح مدير الجماعة، وكان هو أيضا من طلبة الشيخ محمد عيسى، نبغ في العلوم الإسلامية والعربية، وأصبح أديبا شاعرا، ولأول مرّة عام ١٩٦٨م تعرّفنا في بيته

كتاب «مقامات الحريري» وكتب أخرى أدبية عالية المستوى، وكان يهتم اهتماما كبيرا في الشعر فكان حاملا لقب «الشيخ» الذي كان يدل على مستوى عال من العلم والثقافة، ثم التحق بمعهد التضامن الإسلامي الذي كانت تموِّله المملكة العربية السعودية، قرأ كتب الإخوان المسلمين الذين قادوا الصحوة الإسلامية في ذلك القرن، والتي كانت بمثابة الثورة الإيمانية التي انفجرت في الثلاثينيات من القرن نفسه، ثم أصبح داعية. فاختار أو استمال من بين ما اختار ابن أخيه «عبد القادر شيخ محمود»، كان آنذاك طالبا في المدرسة الثانوية العامة التي كانت تدرّس فيها اللغة الايطالية، ومن نشطاء الطلبة وقياداتها، وكان يتكلم العربية والإيطالية ولغة الأم بطلاقة، كانا من أسرة معروفة بالتدين.

قدّم عبد الكريم جهدا جبارا على ابن أخيه لإبلاغه الدعوة مطالبا منه أن يأخذ دوره في الدعوة إلى الله، إذ كان يرى ذكائه ونبوغه وفصاحته فقدّم له ولغيره دروسا من القرآن الكريم، وعن المعركة بين الحق والباطل، وفتح الله قلب عبد القادر للهداية، ونجح بإقناعه واستمالته.

استطاع الأخ عبد القادر جمع أكبر عدد ممكن من زملائه في المدارس مستعينا بأنشطته المدرسية، وألحقهم بالدعوة، فأصبح الناشط الأول في الحركة ، وعقدوا جلسات صنعت تاريخا وغيّرت أفكارا، وذلك بعد تأسيس حركة «اتحاد الشباب المسلمين» فالعقول كالمصابيح وباجتماعها يزداد النور.

كان الأخ عبد القادر من كوادر الطلبة في المدارس فأصبح هو المحرك الفعلي لهذه الحركة، مستعينا بأنشطته المدرسية واتصالاته الواسعة في المدارس، بينما عمه الشيخ عبد الكريم أصبح القائد الروحي والفكري لها. وبدأت عملها بالتآخي بين الشباب، بين كل اثنين، فلما كثر العدد توقف التآخي تلقائيا. جعلوا الغاية: تحرير الانسان من كل سلطان غير سلطان الله سبحاته، وتعبيد البشر لخالقهم.

كان التركيز على:-

أولا : معجزة النبي ﷺ «القرآن الكريم» هذه المعجزة التي لم ترتبط بعصر أو أمّة ، وسوف تبقى في تأثيرها وعطائها إلى الأبد، ومن هنا يجب على المسلم دائم الارتباط بقوة هذه المعجزة الربانية.

ثانيا : في « السيرة النبوية » : تمتلئ سيرة الرسول ﷺ بكنوزها وذخائرها تبيّن دقائق من حياته وطرائق تصرفاته في سلمه وحربه وفي علاقاته الخارجية والدولية.

ثالثا : فقه الواقع أو ما كان يطلق يومها «الفقه الحركي » أو المعركة الزمنية ، محيطين علما أنه الواجب على كل مسلم أن يدرس ظروف زمانه الذي يعيش فيه.

قامت الدعوة بانطلاقة واسعة قويّـة، تبشر وتنذر في زمن؛ أصبحت القلوب متعطشة للإيمان؛ فاجتذبت أنوارها الأرواح الظامئة، جاذبية تشبه القوة المغناطيسية مستعينا بخاصة الانجذاب إلى الإسلام، علما بأن الإسلام كدين هو المفجِّر لطاقات الإنسان، فتزاحم الشباب واستنارت وراء أنوارها القلوب التي أحاط الظلام الدامس من كل الاتجاهات، فشكرت الله الذي هداها من الظلمات إلى النور، بينما كثير من زملائهم مازالوا تائهين في الظلمات، إذ لا يعرف قيمة الإيمان إلا من ناله بعد حرمان، فبدأت رسالة «أنقذ أخاك من النار» وتلك الحركة التي سنتحدث عنها هي الحركة التي أضاءت سماء الصومال بالعلم النافع والتجديد المستمر.

ركّز أصحاب الدعوة على تعريف الله وبأسمائه الحسنى وصفاته العلى وما ثبت في كتابه سبحانه، كما ركّزوا على التوحيد والعبودية، وتعريف الإيمان والكفر، وتوقفت تلك المجموعة طويلا عند القاعدة

الأساسية في الدين «لا إله إلا الله» نفيا وإثباتا وأنها أفضل ما قاله الأنبياء. ثم بدأت تعرِّف كتاب الله، وأن الله لم ينزل ليقرأ في القبور وإنما أنزل ليؤمن وينذر ويحكم به.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النساء: ١٠٥] ، وأن رسول الله ﷺ هو القائد المطلق إلى يوم القيامة. وهذا هو المدخل الصحيح والمؤثر لأيِّ عمل إسلامي. كما كانت تركز الإيمان باليوم الآخر.

وجاء في كتاب «روائع الاقبال» الذي عبّر الزمن خير تعبير فقال: «من العجيب أنه لا اتصال لك بالقرآن إلا إذا حضرتك الوفاة ؛ فتقرأ عليك سورة « ياسين » لتموت بسهولة، فواعجبا قد أصبح الكتاب الذي أنزل إليك ليمنحك الحياة والقوة يتلى الآن فقط لتموت براحة وسهولة!». ا.هـ

الطليعة البادئة التي تجمعت لدى قيادتهم، جلهم كانوا من طلبة المدارس والمعاهد، علما بأن الطلبة كانت في ذلك الوقت أبعد الناس عن التدين. رفعت هذه الفئة دعوتها إلى العلن، متحررة من عقدة الوصم بالتخلف والرجعية والبدائية التي شاعت وقتـذاك على التدين والمتدينين، فالمبادئ السليمة لا يجد الناس في تطبيقها ما يحرجهم أو يخجلهم، وديننا ولله الحمد دين كامل، ليس فيه ما يعيب ولا ما نخشى من ظهوره على الناس، بل هو فخرٌ وعزٌ ورحمة وهو دين ذات جاذبية سحرية، واستخدمت هذه الفئة كثيرا من المصطلحات مثل « الإيمان» و « الكفر» و « الفسق» و «الجاهلية» وكان مستوى اللغة يحتم أن يُـفهم المصطلحات بمعناها الحقيقي، فعابت كثيرا وصمة « التقليد والانبهار بالغرب الكافر» ، وأصبحت هذه المصطلحات أكثر وضوحا ونضوجا عند هذا الجيل « جيل الستينات» من القرن العشرين.

وحددت هذه المعالم «موقف المسلم من الجاهلية المعاصرة» ومن «الاستعمار» ومن «الكفار» ومن «شياطين الإنس والجن» ومن «الهوى» ومن الخضوع لغير الله، وتمحيص العلوم التجريدية من شوائب المؤثرات الجاهلية، ومحاربة ما أفرزه الاستعمار والاستبداد في أخلاق المحكومين من ضعف الإرادة، والنكوص عن التضحية، والضجر من المسؤولية، وتأثرهم بالقـبَلية. فالذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء؛ فترسخت تلك المعالم لدى هذا الجيل عقلا وقلبا وشعورا.

وأطلقت كثيرا من شعائر «الكفر بالطاغوت» و «الإيمان بالله» و«توحيد الله سبحانه» و «الطاعة» و«الذكر» و «التلاوة» و «العبادة» و «الدعاء» وغيرها. فكان صوتا قويا يتدفق بالحيوية والنشاط والروحانية، ويحركه في قضايا الإيمان العميق للإسلام؛ فكانت صريحة بأن الإسلام منهج متكامل شامل يشمل العقيدة والشعائر والشرائع، وأنَّ التصور الإسلامي كل متكامل وجسم واحد لا يتجزأ، ولا يقبل التمزق، وكان الشعار المتداول «خذوا الاسلام جملة أو دعوه» ذلك الشعار الذي أطلقه العلماء والشباب فشاع في الفضاء، وهكذا كان الدين مترابطا لا يمكن انفصال أجزائه إلا على طريقة بني إسرائيل الذين آمنوا بعض الكتاب وكفروا ببعض.

*****

كاتب السطور

التحق كاتب هذه السطور بالجماعة عام ١٩٦٨م، وكان هذا الفضل – بعد الله – للأخ الشقيق عبد النور محمود أو موسى الذي حوّلني من معهد «برعو» الأزهري، إلى فرعه في مقديشو في العام الدراسي عام ١٩٦٧م – ١٩٦٨م، بعد حصوله على وظيفة متواضعة من الحكومة وهو يؤثر تعليمي على زواجه ومصالحه الخاصة.

كان لنا زميل في المعهد أكبر منا عمرا وأكثر منا علما، هو السيد: «عبد الرحمن يوسف مجن» من علماء حركة التبليغ الآن، درس العلوم الإسلامية في غرب الصومال (أوجادينيا)، ثم التحق المعهد كعادة كثيرين من أمثاله، فكنا نستفيد منه.

وكانت هموم الإسلام عميقة في أنفسنا، ثمّ تحدثنا معا عن الإسلام والهجمات الفكرية الهدّامة التي سيطرت على عقول كثير من المثقفين الصوماليين، وتطرق الحديث إلى تشاؤمنا الشديد على التفرق الذي ابتلي بالمسلمين، وأنه لو اجتمع العلماء، والدعاة، والأحزاب الدينية وتضامنوا، لأصبحوا قوّة مكافئة للهجمات المتتابعة على الدِّين وأهله.

أذهاننا كانت موجهة إلى علماء المساجد وطلبتهم التقليديين فقهاء وعلماء اللغة وعلماء السلوك، وطلبة الأزهر، ومعهد التضامن الإسلامي، وحركة النهضة، وحزب الله الأعظم الذي كان يدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وغيرهم من المتعاطفين الكثيرين، لم تصل إليّ أخبار اتحاد الشباب المسلمين حتى ذلك الوقت.

جمعنا عددا من طلبة الأزهر لهذا الغرض «الدعوة الى الاعتصام بحبل الله المتين» وعقدنا اجتماعا كبيرا في فناء مسجد «سِـيجالى» في يوم الجمعة بعد العصر على شكل مؤتمر، وعرضنا الفكرة على طلبة المساجد، وقوبلت الفكرة بالـتأييد والترحيب، وتحمّـس الجميع لجاذبية فكرة «التضامن» المدعومة بالنصوص.

كان من بين المجتمعين الأخ «محمود حاج دعالى» من بربرا، كان مثـقـفا ثائرا يتكلم باللغات: العربية والانجليزية بطلاقة إضافة إلى لغته الأم، لقد أحبَّ القرآن في ذلك الوقت، وكان كثير التلاوة للقرآن الكريم، وداعيا مؤثرا يخطب في المساجد والأماكن العامة. كان من عادة الناس آنذاك إذا رأوا متدينا شديد التدين، كانوا يطلقون عليه مصطلح «الصوفي» أي غلبت عليه قوة التدين، وأحيانا يقصدون بالمدح أو القداسة ويحاولون التبرك به، فكأنه مبارك وفي الوقت نفسه غير متزن.

التحق قبل تلك الجلسة باتحاد الشباب المسلمين. فقال: الحركة الحقيقية الفاعلة هي جماعة اتحاد الشباب المسلمين بقيادة عبد الكريم حرسي، فاقترح الانضمام إليهم أولا، ونشرح لهم فكرة «الوحدة» ثم ننطلق معهم إلى الاعتصام المطلوب. قوبلت الفكرة بالتأييد، وتوجهنا بعد المغرب إلى المركز العام للحركة. كنا عددا كبيرا مكوّنا من طلبة الأزهر، وطلبة المساجد، وبعض المتأثرين على الفكرة.

اجتمعنا مع قيادات الحركة في المركز العام للاتحاد، وقد ملأنا المركز كله، وجدنا رجالا يحملون فكرة الإسلام بقناعة وحرارة واندفاع. دار الحديث حول توحيد جهد المسلمين، عملا بقوله تعالى ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران:.] ، انتهت الجلسة بالموافقة التامة، وبالاتفاق والتوحيد بدءا بالانضمام إلى الحركة أولا، ثم ندعو الآخرين إلى الوحدة المطلوبة.

اللقاء التاريخي

ومادام الكاتب كان صاحب الفكرة ومحرِّكها الفعلي، اختاروه أن يكون الوحيد الذي سينضم إلى لجنة الشورى للجماعة وكيلا من المجموعة الجديدة، ومن يومها أصبح عضوا في لجنة الشورى، وقدر الله وما شاء فعل. فأحسّ أول لقاء معهم أنه أمام شباب ذوي همم عالية، يفكرون بطريقة أصيلة، وأثناء اللقاء فاجأ – من جميل المصادفات– بشباب مثله يتكلمون العربية والإيطالية وبعضهم بالإنجليزية بطلاقة مدهشة، بخلاف ما كان شائعا في حينها، وكانت بالنسبة له من الأحداث الهامّة التي كانت لها أكبر الأثر في انتمائه وتحديد اتجاهه الإسلامي، وأزالت الغشاوة من عينيه، وهو لا يزال مدين لهذه الحركة وبصفة خاصة لهذه اللجنة الكريمة «لجنة الشورى» فسبحان جامع القلوب والأشواق، ومقدِّر اللقاء والاتفاق، ويوم عرفهم كانت بالنسبة له من أسعد أيامه.

وفي هذا اللقاء كان الحديث يدور حول الإعدامات التي نفذت على كثير من العلماء في بعض دول العالم الإسلامي وتقويمها خاصة مصر، وهل ممكن مراجعة المنهجية التي أدّت إلى هذه الإعدامات، وكانت أول مرّة يسمع حركة الإخوان المسلمين واستشهاد سيد قطب وأصحابه في مصر، تلك الحادثة المؤلمة التي حدثت قبل عامين آنذاك، رغم أن الكاتب كان من قـرّاء الأهرام، وعرف عن طريقها كثيرا من المثـقفين المصريين، إلا أنه لم يسمع قبل هذا اللقاء هذه الأحداث التي هزته وآلمته وأبكته وسالت دموعه، والتي أدت إلى قراءة كتب سيد قطب وغيرها من كتب الاخوان المسلمين وهي الكتب التي جرّت إليه لمسايرة العالم، وهي التي رفعت سقف ثقافته واهتماماته إلى أعلى.

أصبح الكاتب بعد هذه الجلسة، واعتبر نفسه عضوا فعالا منهم دون أن يستشير أحدا، راضيا مرضيا بهذا الفتح العظيم، وبدأ يشارك هموم المسلمين في العالم، واهتم بسلامة الدعاة والحجاج والمجاهدين

والمسافرين والمقيمين في البر والبحر من هذه الأمة، يدعو الله في صلواته وخلواته لها، فدامت العلاقة مع هذه الحركة أقوى وثاقا، وأشد التحاما، فالأرواح جنود مجـندة ما تعارف منها ائتـلف وما تـناكر منها اختـلف، فأصبح بعد هذا اللقاء عالميا بعد أن كان بدائي الاهتمام. ولسوء الحظ عند ما نفكر في الإسلام نفكر على المستوى الوطني أو المناطقي ونعجز عن جعل رؤيتنا تتخطى الحدود الجغرافية التي رسمها لنا الكافرون.

لجنة الشورى

كان النظام المتبع في إدارة مجلس الشورى «نظاما دوريا» كل فـترة يتولى قيادة الدورة أحد الأعضاء، فاذا انتهت دورة رئاسته تلقائيا تنتـقل الرئاسـة إلى آخر، هكذا كانت العادة في تدريب الأعضاء – جميع الأعضاء- بإدارة المجلس، وكان تدريبا عمليا رائعا ومفيدا جدا.

بعد فترة قليلة من انضمام الكاتب إلى مجلس الشورى، أحرجوه بتولي قيادة الفترة القادمة «رئيس مجلس الشورى» وكلفوه ما لا يطيق، وكان في الحقيقة لا يحسنها. كان عمره وقتئذ ١٦ عاما، وليس شخصية قيادية بالفطرة، طبعه كان ولايزال يمـيل إلى الانطـواء، لكن الله مـنّ عليه – كما يظن- نصيبا من الحلم والأناة، كان الاستماع والإصغاء محبوبا لديه دائما، معتقدا أنها رسالة صامتة تحمل مدلولات في غاية العمق والدلالة، وكان يحب الاستماع على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر، ولم يزل أن غفلة الناس عنه يعتبرها غنيمة، خاصة ونحن في هذا الزمن المليء بالبلطجة وبالغزو الفكري وبالتعاظم الشخصي.

لم يتطلع قط إلى قيادة ولم يزل، طبعه كان يميل إلى غنيمة «غفلة الناس عنه» التي يعتبرها «غنيمة المؤمن» خاصة في أوقات المحن والفتن، كان من أصل والدا ديِّنا بذر فيه بذور التديُّن فعرف التديُّن مبكرا، كان

الجد من قيادات الدراويش، ولم يخلف ذكرا غير الوالد الذي هو نفسه نجا بأعجوبة من أعاجيب القدر بعد أن ترك والده في الخلاء مع والدته وأخته، واضطرت والدته أن تترك البنت الوحيدة التي كانت معها في الخلاء ، مختارة إبقاء الولد الوحيد، فحفظ نسل أو موسى من بعده ، ولولا ذلك لباد، وتلك الحادثة ظلت عالقة في ذهن الوالد حتى مماته رحمه الله. والكاتب من منطقة «الهَـوْدْ» حيث يعرف السكان بذكائهم وشعرهم وشجاعتهم ومواهبهم المميّزة في القتال مع الاستعمار، تلك المنطقة التي بقي فيها حديث نضال الدراويش، وأمضي في تلك المنطقة سنوات الطفولة والمراهقة، ولا شك أن تلك الأحاديث البطولية ، إضافة إلى دراسة القرآن الكريم ساهمت في تعزيز الإيمان الديني الذي يتمتع به حتى اليوم. ثم واصل تعليميه طالبا للعلم تحت العلماء الصوماليين أو الأزهر. ولتلك الأسباب مجتمعة طلب منهم أن يعفوا عنه هذه المسئولية التي لا يحسنها في هذه الفترة بالذات، لم يقبلوا عذره تنفيذا بقانون المجلس، واستلم منهم رسالة التعيين الاجبارية، العمل: «رئيس مجلس الشورى» في الفترة القادمة مؤقتة من تاريخ كذا إلى كذا.

قرأ الأخ الشقيق عبد النور محمود الرسالة، متـفقدا حاله كما يبدو كمرب يراقب تحركاته خوفا من ضياع مستقبله، فأخرج من جيبه هذه الرسالة الغريبة بالنسبة له، فاستنكر واستغرب استغرابا شديدا، فلم يتصوّر أنه قادر على قيادة «مجلس شورى» في أكبر حركة إسلامية في البلد وأكثرها نشاطا وتأثيرا، فضحك كثيرا، وقال: هل أنت فعلا رئيس المجلس في الاتحاد؟ أم أنا في حلم!!. فكانت الإجابة ولم لا؟ يا أخي.

كان هو في ذلك الوقت مدرِّسا ورئيس رابطة التجمع الطلابي الصومالي، وكانت هذه الرابطة حركة كثيرة الأنشطة معتقدين أن مستقبل هذا البلد للأجيال القادمة فيجب مواجهة القيادات اليوم، فكانت كثيرة المظاهرات مع الحكومة وكانت حركة طلابية سياسية نشطة.

لم يستطع الكاتب إدارة حوار المجلس في ذلك الدور أو بتعبير آخر فشل في مهمته، فاضطروا إلى تغييره، لكن بدون موافقته هذه المرة؛ لأنه تذوق سحر القيادة، وقال يومها لا تغـيِّـروني فإن إحساس القيادة بدأ يكبر فِـيَ شيـئا فشيـئا، ولم يكن الطلب جادا جدا بل كان فيه نوعا من المداعبة!!. وقال أيضا استخدمتم في إقالتي بنظام الديموقراطية التي كنا كمسلمين نرفض منطقها وآفاتها البنيوية بل أدوائها الجوهرية، ولم يقبلوا رغبته السطحية، وأصبح قرار تغييره مفعولا بعد عدِّ الأصوات، ومن جانبه لم ينزعج، ولكن أصبح من لجنة الشورى قلبا وروحا مرتبطا ارتباطا مصيريا، وعاش مع محور أحداثها، وأخذ معلوماته وتدريباته الحركية فيها.

وخلاصة القول عاش بعد ذلك في «محور الحركة» مما يدل أن ما يقدمه في هذا الكتاب جاء بعد علم ومعرفة دقيقة عن المواضيع التي سوف يتناولها، وعن تاريخ كان من محرِّكيها أومن محلليها، فكتبها الآن بعد نصف قرن بعفو الخاطر.

*****

أهداف الحركة

إن هذه الحركة كانت تقدم للناس رسالة حـيّة جديدة المذاق، ولم يكن لدي الحركة أهداف مكتوبة في الأوراق، وبدأت دعوتها كما قلت بقول «لا إله إلا الله» نفيا وإثباتا، كانت تتوقف كثيرا على معنى النفي المذكور، مطالبة من كل أحد «الكفر بالطاغوت» والتمرد عليه مهما كان شكله، وكانت تعني الكفر بالطاغوت بالملوك والرؤساء الذين لم يستسلموا لله الواحد الأحد، كما كانت تعني كل من طغى وتكـبّـر وتجاوز حد العبودية، كالدول المستعمرة، وهيئات ما يسمى «العصبة الأمم» قديما و «الأمم المتحدة» وجمعياتها حديثا، وما عرف في ذلك الزمن بالقوتين العظيمتين «الحكم الشيوعي الحاقد» و «الغرب الاستعماري المارد» والحكومات الموالية لهذه الدول، والقبائل التي تحكم بسوالفها وأهوائها، وحتى في أنفسهم وأهوائهم، وكل المواضيع الأخرى كانت الحركة تعتبرها اعتبارات ثانوية، وكانت توجِّه نقدها إلى هؤلاء الذين أرخوا لهواهم العنان. كانت تقول إن هؤلاء ادّعوا الربوبية، فعلى الموحِّدين أن يكفروا بهما علنا، وإلا لن تنعقد لهم عقيدة؛ فالتزكية قبل التحلية ضرورة شرعية، والقوة العظمى الوحيدة هي القوة الربانية. ومن الممكن أن نطلق تلك الحركة دينية وسياسية؛ لأنها كانت تواجه وتعادي الاستبداد السياسي، ومن رؤيتها أنه ليس عصيانا جزئيا لتعاليم الإسلام ، وليس اماتة لشرائع فردية فيه، بل كانت تعتبره اقلابا من ربعة الدين!.

كانت هناك هالة إعلامية كاذبة ومخيفة تصوِّرِ الاستعمار بقوّة لا تقهر، وأنها بجواسيسها وآلاتها الدقيقة خبيرة سميعة قريبة، كانت الحركة تدعو عدم تصديق دجلها الإعلامي الهائل، وأن الله وحده هو السميع الرقيب وهو الإله في السماء وفي الأرض معا، ولا رب سواه. كما كانت تردد كلمة العربي

البدوي أمام النبي ﷺ، حينما قال: إلى ماذا تدعو ، قال: ﷺ: إلى «لا إله الا الله» فقال: «إذن تحاربك العرب والعجم» كانوا مستعدين لمواجهة العرب والعجم، كما كانوا يكررون العبارة الأخرى للبدوي الآخر «إنها كلمة تكرهها الملوك» أو «لا تتركك العرب» فكانوا يحسُّون قوة وعظمة هذه الكلمة، كما كانوا يعون تبعاتها والمسئوليات التي وراءها، لكنهم يوقنون أنها تستحق منهم تقديم الغالي والرخيص والنفس والنفيس.

هكذا تربّى الجيل الأول في هذه الحركة بأن الدول الكبرى وهيئاتها الأممية، وحضارتها وجيوشها وتجبرها وغطرستها وانتفاخها أحقر من جناح بعوضة، وأنَّ التكاتف الدولي والمحاكم الدولية والمشرِّعين العالميين ليسوا إلا طواغيت في بيوت عنكبوت، ادّعوا ربوبية كاذبة، وأن الله سبحانه وحده هو رب السماوات والأرض الذي له الخلق والأمر، بينما كانوا يشعرون قوة المؤمن التي تستمد من قوة الله سبحانه ، وقد يكون المؤمن كميكروب الأمراض والأوبئة يفتك بالأقوياء وهو ضعيف.

لم يكن لدى هذه الجماعة أيّ فرق بين فرعون موسى الذي قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ ، وبين أيِّ رئيس في أيةِ دولة عربية أو أعجمية، مالم يؤمن بالله العظيم، وما لم يحكم بكتابه الحكيم قضائيا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا، ومالم يعادي الكفر ويوالي المؤمنين. لم تكن هذه العقيدة نظرية حماسية شبابية تكفيرية وقتية سطحية، بل كانت فكرة عقدية متعمِّقة في التصوّر وفي الضمائر باعتبارها لا تستحق أقل من هذا.

كانت الجماعة تعتقد أن الصمود على التوحيد هو المنقذ من كل طغيان، وهو المحرر من كل الأغلال، بمعنى لا حياة ولا استقرار تحت نظام الكفر الذي لا يحكم بكتاب الله، كما كانت تدعو إلى رفض التعايش مع الجاهلية الرافضة لشريعة الله فترة طويلة.

كان الشعار المتداول والمكرّر بين الأعضاء «لابدّ لتغيير النظام الكافر الذي لا يحكم بكتاب الله ويرفض الشريعة، ولابدّ للعمل لإزاحته عن الوجود، وعدم الاعتراف به مهما تضخم وتكابر وتعاظم». وكانت الحركة ترى أن المطلوب من كل داعية هو بدء الدعوة بالقراءة والتخطيط للمستقبل البعيد، ولم تفكر ببدء العمل الدعوي بالجهاد «القتال» إذ لم يبدأ الوحي بهما، وكان ذلك توفيقا من الله.

وكان من المقررات الثابتة عدم الاعتراف بالقيادات التي ترمي كتاب الله وراء ظهرها، بل اعتبرت المخلوق الكريه الذي يجب عليه أن تقصي في الحكم عليه، وأن هذه الفكرة هي خاصية من خاصيات الدين الإسلامي يعرفها أهلها كما يعترف لها أعداؤها. قال المفكر الغربي هنري هاملتون «إن المسلمين لا يستطيعون أن يكونوا رعية وفية لحكومة تدين بغير الإسلام، لأن ذلك مستحيل في ظل أحكام الإسلام» ا. هـ.

اعتادت الجماعة أن تعرض قواعد الإسلام في غيرة وحماس شديدين، طريقة تصوِّر الكفر والشرك بصورتيهما القذرة «نجَــس» تلك النجاسة المغلظة التي جعلت صاحبه يستحق من الله الخلود في النار، والفسق بطريقته النتنة التي استحق فيها دخول النار، كما اعتادت أن تعرض الإسلام والإيمان بموهبة عجيبة في تسخير الأرواح لكسب الأنصار بعد أن هيّأه الله لها الجوّ الجاذب. كنا صرحاء مع المجتمع غاية الصراحة!، فانتقلت الجماعة إلى مرحلة المدّ التي قوّت وانتشرت واشتدّت.

كانت صفة الإخلاص سمة بارزة في نفوس ذلك الجيل، علما بأنَّ إخلاص العبد لمولاه هو الذي يجعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودة والرحمة، ومن ثم يجازي الله سبحانه بإلقاء محبة منه كما يجازي التوفيق ثم يتمتع برعاية عين الله سبحانه..، قال تعالى: في شأن موسى عليه السلام ﴿ **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ٣٩** ﴾ [طه: ٣٩]

كانت دعوة عالمية موجّهة إلى البشر عامة، كما كانت تشرح التوحيد شرحا جديدا عمليا، يغسل به ما تراكم في نفوس هذه الأمة المقهورة من ذل الاستعمار. والحقيقة أن الحقائق الدينية لها قدرة شديدة على التأثير.

وكنا نقرأ مقالات المفكرين الإسلاميين في ذلك الوقت وتأثرت الجماعة في مرحلة مبكرة بكتابات النجوم وشخصيات بشرية حية – حتى وهو في القبر- يقدِّمون لك أفكارهم عن طريق كتبهم: مثل (حسن البناء والمودودي والندوي والشاعر محمد إقبال وعبد القادر عودة ومحمد قطب وسيد قطب وقبلهم علماء مشهورين في التاريخ الإسلام)، تذوقنا أفكارهم لأنهم كانوا يترجمون عن ضمائرنا ويعرضون أفكارا تنسجم مع عقيدتنا وتفكيرنا وتتناغم مع عواطفنا ومشاعرنا، وكانت الجماعة تتلقى تلك الكتب بأفكار نقية صافية أشبه ما تكون باللبن أو العسل الصافي، وعاشت مرحلة نشطة من التلقي الفكري الإسلامي، وكانت نباهة مبكرة رائعة.

وقد كان لسيد قطب التأثير الأكبر، إذ كان إعدامه حديثا طريا هزّ مشاعر المسلمين جميعا، ومن أقواله التي كانت لها أكبر الأثر في نفوس الشباب آنذاك قوله «أشق ما تعانيه الحركات الإسلامية اليوم هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول التوحيد وبمدلول الكفر والشرك في الجانب الآخر» وقوله: «ويعرف أعداء الإسلام هذه الثغرة ، فيعكفون عليها توسيعا وتمييعا وتلبيسا وتخليطا ، حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام «**تهمة تكفير المسلمين**» ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم لا إلى قول الله وإلى قول رسول الله ﷺ » إ. هـ.

*****

دور الأدب والأشعار في تعميق العقيدة

كان الذوق الأدبي يومها في قمته كالكلاسيكية والرومانسية والواقعية، واشتهر الأدب الشيوعي والوجودي الذي خرّب ذوق الأدبي، كما اشتهرت أدبيات التعصب من أدباء الأديان. وبعد سيطرة الاستعمار اشتهر الأدب الأجنبي وتحوّل مصطلح «الأدب» و «الفن» بالساقط والماجن كثقافة أجنبية دخيلة، تفسِّر الفن بتهتك وسقوط ودعارة؛ لتخريب عقول الشباب وتدمير أخلاقيات الشعوب في العالم العربي والإسلامي. وكان جل المبتعثين من العالم الإسلامي يتلقون دروس «الأدب العالمي» الملوث بالثقافة الغربية، ولم يكونوا يتلقون علوم التجريبية النافعة، وكانت غزوة على العالم. فتكفل الأدباء والنقاد الإسلاميون بدحض هذه الغزوة في مقالات وبحوث وأشعار وكتب متعددة بما ممكن أن نطلق ب «الجهاد الفكري» حفاظا على هوية الأمّة وميراثها الأدبي والفكري، ووقاية لأخلاقياتها وثقافتها من الاختراق والخبث لتقديم مناعة قوية ضد التغريب والثقافة الأجنبية. وكان الابداعات الإسلامية في مجالات الشعر والقصة والرواية والتنظير بلغت درجة طبيعية جدا من النضج، وواجه المشكلة كتيار أدبي متميز يركز على الموضوعية والفكرانية الإسلامية في أداء تعبيري جمالي، وتزامن هذا الجهاد في وظيفته الزمنية فكان الجميع أبناء زمانهم. وازداد الأدب والشعر بالذات توهجا وقت الأزمات والنكبات، وعند محاولة احياء الأمة وايقاظها، وعند الدعوة إلى القيم الرفيعة؛ فكانت حركة نضالية فكرية إيمانية ، علما بأن الشعر أعلى مراتب الأدب كما يقول أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه .

وكان رئيس الجماعة «الشيخ عبد الكريم حرسي» يربِّي وينمِّي تصوّرات الطلبة وروحانيتهم بقصائد وأناشيد شعرية من أسماء الله الحسنى بطريقة موسيقية مؤثرة، وكان يقدم لطلبته هذه الأسماء والصفات

ليرسِّخ اليقين في جذور قلوب أصحابه، جلها كانت أدعية مولّدات الخوف وباحثات القلق. تزامن هذا الإلقاء في زمن، كانت روحانيته عالية ومحترقا، وكان اثراء الحس الجمالي وسيلة إلى غايات سامية، كما كان يقدم لنا هو وغيره دروسا من آيات الذكر الحكيم، والفقه النبوي، وتحليلا عن الأوضاع الاقليمية والدولية، ودروسا عن المعركة العالمية. كانت فعلا انطلاقة قوية، انطلق بنا الشيوخ إلى الأفق الأعلى، كأننا تجاوزنا الجاذبية الأرضية وطينها، فإذا أرواحنا تطير في الفضاء بلا حواجز مع السفرة الكرام البررة، هكذا كنا نشعر.

كنا نردد وراءهم الأدعية بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا؛ فكانت مؤثرة، لايزال صداها يتردد على الأذهان حتى الآن، وكانت عبارة عن نبع يتدفق يغذي الروح والقلب والعقل معا. استخدموا هذه الأدعية كمادة مؤثرة لتعريف الناس بالخالق وأنتجت ثمارها على أكمل وجه.

وبما أن تلك الثقافة الأدبية التي تركت بصمات عجيبة على العقول والقلوب تحتاج منا جمعها في ديوان مستقل في المستقبل إن شاء الله، إلا أنني مضطر أن أقدِّم الي المهتمين بالعمل الإسلامي في هذه العجالة نماذجها الأولية أو بعض عناوينها البارزة.

*****

الأشعار باللغة العربية

المقاطع المكررة من الأدعية المؤثرة(العناوين)

١)

لا إلــه إلا الله ❋ لا إلــه الا الله

لا إلــه الا الله ❋ الله لا إلــه الا الله

٢)

يــا أوّل يـا آخــر ❋ يـا ظـاهر يـا بـاطن

مالي سواك ناصر ❋ مالي سواك ناصر

٣) مقاطع من أسماء الله الحسنى للنبهاني

الله يا رحمن يا رحيم ❋ الله يا حيّ يا قيّوم

الله يا قويّ يا قديم ❋ الله يا عليّ يا عليم

لا ينبغي للقوم أن يعلونا

الله يا لطيف يا عليم ❋ الله يا رءوف يا رحيم

الله يا تواب يا حليم ❋ الله يا وهاب يا كريم

هب لناك العلى واجعل عدانا دونا

٤) أسماء الله الحسنى لعبد القادر الجيلاني

الشيخ المجدِّد وباحث النهضة في زمنه ذلكم الوليِّ الذي يتوهّج شعره بأسمى روحانية.

شرعت بتوحيد الإله مُبَسمِلا ❋ سأختم بالذكر الحميد مجمّلا

يا طالبا عزا ورفعة من الله ❋ فادعوه بأسمائه الحسنى

بحقك يا رحمن بالرحمة التي أحاطت فكن لي يا رحيم مجمِّلا

و يا ملك قدوس قدِّس سريرتي وسلم وجودي يا سلام من البلاء

و يا مؤمن هب لي أمانا محققا وسترا جميلا يا مهيمن مُسبَلا

عزيز أزل عن نفسي الذل واحمني بعزِّك يا جبّار من كل مُعضلا

وضع جملة الأعداء يا متكبِّر و يا خالق خذلي عن الشر مُعضلا

و يا بارئ النعماء زد فيض نعمة أفضت علينا يا مصوِّر أولا

وجودك يا غفار فاقبل لتوبتي بقهرك يا قهّار شيطاني اخذلا

بحقك يا وهّاب علما وحكمة وللرزق يا رزّاق كن لي مسهِّلا

وبالفتح يا فتاح نوِّر بصيرتي وبالعلم نلني يا عليم تفضلا

و يا قابض اقبض كل معاند و يا باسط ابسطني بأسرارك العلا

وبالفتح يا فتاح نوِّر بصيرتي وعلما أنلني يا عليم تفضُّلا

و يا قابض اقبض قلب كل معاند و يا باسط ابسطني بأسرارك العلا

و يا خافض اخفض قدر كل منافق و يا رافع ارفعني بروحك أسألا

سالتك عزا يا معز لأهله مذل فذل الظالمين مُنكلا

وعلمك كاف يا سميع فكن إذن بصيرا بحالي مصلحا متقبلا

و يا حكم عدل لطيف بخلقه خبير بما يخفى وما هو مجتلى

فحلمك قصدي يا حليم وعمدتي وأنت عظيم عظم جودك وقد علا
غفور وستار على كل مذنب شكور على أحبابه كن موصلا
عليَّ وقد أعلا مقام حبيبه كبير كثير الخير والجود مجزلا
حفيظ فلا شيء يفوت لعلمه مقيت يقيت الخلق أعلا وأسفلا
فحكمك حسبي يا حسيب تولني وأنت جليل كن لخصمي منكلا
إلهي كريم أنت فاكرم مواهبي وكن لعدوي يا رقيب مجند لا
دعوتك يا مولاي مجيبا لمن دعا قديم العطايا واسع الجود في الملأ
إلهي حكيم أنت فاحكم مشاهدي فودك عندي يا ودود تنزلا
مجيد فهب لي المجد والسعد و الولى و يا باعث ابعث جيش نصري مُهرولا
شهيد على الأشياء طيب مشاهدي وحقق لي يا حق الموارد مَنهَـلا
إلهي وكيل أنت فاقض حوائجي ويكفي إدا كان القوي موكلا
متين فمتن ضعف حولي وقوتي أغث يا وليُ من دعاك تبتُـلا
حمدتك يا مولى حميدا موحدا ومحصي زلات الورى كن مُـعدلا
إلهي مبدي الفتح لي أنت والهدى معيد لما في الكون إن باد أو خلا
سألتك يا محيي حياة هنيئة مميت أمت أعداء ديني مُعجلا
و يا حيُّ أحي قلبي بذكرك ال قديم وكن قيومَ سري مُـوصلا
و يا واجد الأنوار أو جد مَـسَـرتي و يا ماجد الأنوار كن لي مُعولا
و يا واحد ما تم إلا وجوده و يا صمد قام الوجود به علا
و يا قادر ذا البطش أهلك عدوّنا ومقتدر قدِّر لحسادنا البلاء

وقـدِّم لسري يا مُـقدم عافني   من الضر فضلا يا مؤخر ذا العُـلا

واسبق لنا الخيرات أول أولا   و يا آخر اختم لي أموت مهللا

و يا ظاهر اظهر لي معارفك التي   بباطن غيب الغيب يا باطن ولا

و يا برُّ يا رب البرايا وموهب ال   العطايا و يا تواب تب وتقبلا

ومنتقم من ظالمين نفوسهم   عفو أنت فاعف تفضلا

عطوف رؤوف بالعباد ومسعف لمن   قد دعا يا مالك الملك أجزَلا

فالبس لنا يا ذا الجلال جلالة   فجودك بالإكرام مازال مُهطلا

و يا مقسط ثبت علي الحق مُهجتي   و يا جامع اجمع لي الكمالات في الملا

إلهي غني أنت فاذهب لفاقتي   ومغن فاغن فاقر نفسي لما خلا

و يا مانع امنعني من الذنب واشفني   من السوء مما قد جنيت تعملا

ويا ضار كن للحاسدين موبخا   و يا نافع انفعني بروح مُحَصَـلا

و يا نور أنت النور في كل ما بدا   و يا هاد كن للنور في القلب مشعلا

بديع البرايا أرتجي فيض فضله   ولم يبق إلا أنت باق له الولاء

و يا وارث اجعلني لعلمك وارثا   ورشدا أنلني يا رشيد تجملا

صبور وستار فوق عزيمتي   على الصبر واجعل لي اختيارا مُزملا

بأسمائك اُلحسنى دعوتك سيدي   وآياتك العظمى ابتهلت توسُـلا

وأسألك اللهم بفضلها   فهيئ لنا منك الكمال مُكملا

٥)

يا أول يا آخر * يا ظاهر يا باطن

مالي سواك ناصر * مالي سواك ناصر

٦) أدعية تتعلق بالصلاة على الرسول ﷺ لإحياء العاطفة وتنمية حبه ﷺ

فإذا تجرّد الدين عن الحب والعاطفة أصبح دينا يابسا، ومجموعة من طقوس وأحكام لا حياة فيها، وسرعان ما تتحول العبادات إلى عادات، والحبُّ دائما هو الذي يصنع المعجزات. والمدائح النبوية من أهم الأشعار المشهورة ب «الشعر الوجداني» التي تنمي حب الرسول ﷺ ومن هنا نحن من المحذرين الحساسية المفرطة الشائعة في مدح النبي وتنمية حبه ﷺ. فقد ثبت عن النبي ﷺ قوله «من أشدِّ أمتي لي حبا ناس يكونون من بعدي يودُّ أحدهم لو رآني بأهله وماله» متفق عليه

يا رب صلي على محمد * يا رب صلي عليه وسلم.

يا رب يا سميع دعانا * يا رب بلغنا نزوره

.... * يا رب حفظانك وأماناك

إن أمثال هذه الأدعية التي جلها كانت من أسماء الله الحسنى، كانت ولاتزال مادّة مؤثِّرة، تأسر القلوب أسرا ، وتسحر العقول وتبهج النفوس، وإذا سيق بطريقة شعرية وأضيفت ب «يا» النداء أي الدعاء، فإذا الاسم الجليل يتخلل بين جزيئيات القلوب والجوارح وبين ذرّاتها؛ فيضطرب القلب وتتوقف

شعيرات الجسم ، وتصيبه القشعريرة، ويتذوق المؤمن حلاوة العبودية، حلاوة تذاق ولا توصف، فيحسُّ كأنه في الجنة ، فتنطلق من قلبه عظائم الكلمات ويحس عيشة هنيئة، تماما كما قال أحد العارفين بالله من قبل «والله لو أن أهل الجنة على مثل ما أجد أحيانا إنهم لفي نعمة عظيمة**!!** » و « لو علم الملوك على مانحن عليه من نعمة لجادلونا عليه**!** ». **... وغيرها**

لقد تلقت هذه الفئة من هذه الأسماء إعجابا يقوم على الإحساس بشيء غامض يثير المشاعر ويذهب الهمّ والغمّ، ومعرفة أسماء الله الحسنى يعد في الدعوة إلى الله كالجسد في الرأس، وكنا نستخدم الشعر لخدمة الدعوة استخداما رائعا.

٧) هيّا إلى القرآن يا معشر الشباب

كان الشيخ عبد الكريم حرسي أديبا شاعرا باللغة العربية، وكان من بين تأليفاته قصيدته الرباعية الطويلة التي سماها «هيا إلى القرآن» كانت قصيدة حسنة الصياغة رشيقة الألفاظ عميقة المغزى ، دعا فيها الشباب إلى إحياء القرآن الكريم، وأنه حاز الدرجة العليا في هداية الناس، فكان من مقاطعها الأولى التي ما زلت أحفظها:-

هيّا إلى القرآن   هيّا إلى القرآن   يا معشر الشباب   هيا إلى القرآن

إلى الرايات السود   تدل بالجنود   على أهل الجحود   هيا إلى القرآن

أنتم حياة الناس   أنتم رجاء الناس   قوموا من النعاس   هيا إلى القرآن

إن تنصروا ينصركم   أو تخذلوا يخذلكم   ما تفعلوا يجزيكم   هيا إلى القرآن

بكم يزول الكفر   من أرضنا والنكر   لكم علينا الشكر   هيا إلى القرآن

روموا كتاب الله   فهو كلام الله   وفيه حكم الله   هيا إلى القرآن

والله وبالله   قد كفروا بالله   في ترك حكم الله   هيا إلى القرآن

تفاعل جيل الستينات بهذه الأشعار بعزف جمالي مرتجل، وبأساليب فنية جذّابة، مقتبسا من الفن الإسلامي الجذّاب، وتفاعل معها، وقدّم أفكاره وتأثيراته بأشعار من لغتهم الصومالية ذات الإيقاعات المثيرة، التي كانت تنتجها المجموعات الموهوبة لاستخراج فطرتهم الخـيِّرة وتنمية مهاراتهم الأدبية.

وذلك دليل على عمق أفكارهم، فالشعر هو الذي يبرز العواطف الإنسانية، ويصوِّر الانفعالات النفسية، ويخرج المعاني من خلجات قلب البشر، ويعتبر ذلك فيضان من شعور قوي، ينبع من عواطف تجمّعت في الداخل؛ فانفجرت الينابيع، وتدفّـقت الأشعار لتحريك الوجدان الشعبي العام، وهكذا كان.

ومن ميزة الشعر أنه يحوِّل الأفكار إلى طاقة دافعة تحرِّك الوجدان وتفتح القلوب، وللشعر تأثير على المشاعر لا يشاركه فيه النثر وإن سَمَـا وجزُل، فالشعر بجَـرْسِهِ ووزنه وجزالته وبلاغته يفعل في النفس ما لا يفعله النثر. وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ**».

وهكذا تدفق الشعر تدفقا عفويا وبأسلوب عذب. وإن دلت على شـيء، فإنها تدل أيضا على «محلية الدعوة» أي كانت الصحوة في بدايتها انفجار داخلي قوي، وولادة طبيعية، أكملت مخاضها بطريقة طبيعية فطرية، فجاءت بالقدر ثم تحركت مع العاصفة الزمنية «الإيمانية» بسرعة عجيبة، بعد أن هيّأ لها المولى جل جلاله من يحرِّكها، ومن يتقبلها، ولم تكن نتيجة إملاءات خارجية ولا منقولات محفوظة، كما جاءت الأفكار والآراء فيما بعد عند بعض التجمعات الأخرى.

كانت اليقظة شبيهة بالصحوة التي حدثت في مصر أواخر العشرينات من نفس القرن، والتي قادتها حركة الإخوان المسلمين بقيادة الداعية الإسلامي الغني عن التعريف «حسن البنا» وواصل المسيرة حتى دفع لها الروح. فقد وصف حينها أحد المستشرقين «جـب» الذي كان عضوا في الخارجية البريطانية وعضوا في مجمع اللغة العربية في القاهرة، في كتابه «إلى أين يتجه الإسلام» وهو يصف الوهم

المفزع الذي يستولي على الغربيِّ من خطورة الحركات الإسلامية. فقال: «إن الحركات الإسلامية تتطوّر عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة، فهي تنفجر انفجارا مفاجئا!، قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها، تدعوهم إلى الاسترابة في أمرها، فالحركات الإسلامية لا ينقصها إلا ظهور صلاح الدين جديد» إ هـ. ولكنه مادام الرجل كان كافرا لعله لا يفهم قوة الدِّين الإسلامي وميزة الدعوة الإسلامية للإنجاب وصنع الرجال.

كانت شعبية الجماعة الصومالية ترتقي بصورة مذهلة!، وكانت الجدار الصلب والحاجز القوي أمام مخططات الأعداء، كما كان الصراع موجها لإنهاء العقلية الغربية، وذبولية الفكر الزائف الذي سيطر العالم الإسلامي في الحقبة الماضية، وبإمكاننا أن نطلق على ذلك ب «تحرير العقول».

قال المستشرق الصهيوني برنارد لويس في دراسة نشرها عام ١٩٧٦م تحت عنوان «عودة الإسلام» «إن غياب القيادة العصرية المثقفة، القيادة التي تخدم الإسلام بما يقضيه العصر من علم وتنظيم، إن غياب هذه القيادة قد قـيّـدت الحركة الإسلامية من أن تكون منافسا خطيرا على السلطة في العالم الإسلامي، لكن هذه الحركات يمكن أن تتحول إلى قوة سياسية هائلة، إذا تهيأ لها هذا النوع من القيادة» ا. هـــ.

وقال المستشرق البريطاني (منتجو مرى وات) في جريدة التايمز اللندنية «إذا وجد القائد المناسب الذي يتكلم الكلام المناسب عن الإسلام؛ فإن من الممكن لهذا الدين أن يظهر كإحدى القوى السياسية العظمى في العالم مرة أخرى».

والحقيقة أن هذا الدين الرباني عزيز وغالب على أمره وأقوى من كل القوى في الكون، بخلاف الباطل فإنه عديم القوة الذاتية ، ورغم كل الجهود فالإسلام قويٌ وحيٌ ومؤثرٌ ، قويٌ بدون حكم ظاهر وبدون قيادة. وإذا سأل سائل، ما هو أقوى دين في العالم اليوم؟ فالإجابة الصحيحة تكون بلا تردد «الدين الإسلامي» فقد حورب قرونا من الخارج ومن الداخل، واستُخدِم لهدمه بجميع أساليب الهدم والتفريق، وأزيحت قيادته، ولم يستطع إزاحته العدو الداخلي ولا الخارجي، وسيطر العدو أرضه

عسكريا واقتصاديا وثقافيا وإعلاميا ومخابراتيا، وسلط عملاءه وجواسيسه، وخصص مؤسسات كثيرة تغزو على العقول ولا يزال الإسلام عملاقا مخيفا صامدا أمام كل تلك الهجمات التي تتابعت عليه من قبل أعدائه حتى كلفتهم الظروف أن يطلقوا عليه ظلما اسم «**الإرهاب**» والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وهذه معجزة حية وحقيقة مدهشة لهذا الدين.

ولقد أثبتت الإحصائيات أن الإسلام هو أسرع الديانات نموا في العالم. وجاء في تقرير مجلة فورين بوليس: «أنَّ الإسلام هو أسرع الديانات نموا في أوروبا». بينما سرعة اعتناق الإسلام في إفريقيا يفوق كل تصوُّر!!. وفي تقرير للكاتب الأمريكي (جودي ويلجورين) «أنَّ الإسلام يُعدُّ أسرع الديانات انتشارا في الولايات المتحدة». ويزداد قلق الغرب في ازدياد خطورة معتنقي الإسلام. وهكذا الإسلام يحقق دائما فتوحات جديدة بسبب الكلمة وفطرة تأثيره فقط ويشق طريقه رغم أنف الجميع. ﴿ **وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١** ﴾ [يوسف: ٢١]

وألَّف مراد هوفمان ، المسلم الألماني: كتابا بعنوان «الإسلام كبديل» قال فيه ص ١٣٦ «الإسلام دين شامل وقادر على المواجهة ، وله تميزه في جعل التعليم فريضة ، والعلم عبادة ، وإن صمود الإسلام ورفضه الانسحاب من مسرع الحداث ، عدَّ في جانب كثير من الغربيين خروجا عن سياق الزمن والتاريخ ، بل عدُّوه إهانة للغرب » كما قال في كتابه الطريق إلى مكة ص ١٤٨ «إن الانتشار العفوي للإسلام هو سمة من سماته على مرِّ التاريخ لأنه دين الفطرة المنزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم»

والواقع أن سر الانفجار كان ينبع دائما من القرآن الكريم، وهو النبع الصافي الفـيّاض الذي يكسب الفكر الإسلامي طابع الجدة والحيوية مهما تباعد الزمان، وأنه جامع زبدة ما أنزل الله من علم وهداية قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦** ﴾ [الشعراء: ١٩٦] ﴿ **وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤** ﴾ [الزخرف: ٤٤] ، وهذه الشعلة الإيمانية موجودة في القرآن الكريم بغزارة ، وممكن تشغيلها في أيِّ وقت

وفي أيِّ زمن، ويجب أن تأتي السنة بعد أن يتشبع الدارس في فهم القرآن وتذوق أساليب فنه الجذاب ومراميه، والذي يريد أن يجرِّب ذلك فليقرأ القرآن ويتلوه بكثرة وإخلاص يلقى النتيجة الحتمية!.

وهذا الأمر ليس خافيا على البشر صديقا كان أو عدوا، فقد قال لورانس براون «الخطر الحقيقي علينا موجود في الإسلام وفي قدرته على التوسع والاخضاع وفي حيويته المدهشة» إ . هـ..

والحقيقة أن ديننا الحنيف ولله الحمد يفوق كل وصف ، ويتحدى كل تهمة من الوصاف والتهم التي تكال ظلما وجورا ، وإذا كان هناك عند المسلمين خلل ، فمن جهة الأتباع حين يخطئون التقدير ، أو يسيئون التدبير .

ولا شك أن تلك الفئة الصومالية «اتحاد الشباب المسلمين» هي التي كانت فجّرت أنوار الصحوة الصومالية الشبابية المذكورة مع كل من ساهم في تفجيرها وتطويرها، علما بأن قوة الأمة شبابها. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: ١٣]، وكان المسجد مركزا للتعبير عن فكرهم المخزون. ولهذا تدفق الناس إلى الحركة وذلك بعد ما لقوا فيها ذلك العمل المجسم والمؤثر.

*****

الأشعار باللغة الصومالية

القسم الأول

كان النتاج الشعري السقف الأعلى للإنتاج الفكري المؤثر، وكان له ايقاعه وموسيقياته وذوقه الذي يحرِّك الوجدان ويثير الانفعالات، والناشئة يميلون بالفطرة إلى التجاذب مع الابداع الفني الذي يمتلك عناصر جمالية، وكان الأدب ركيزة من ركائز الدعوة إلى الإسلام والتعبير عن معالمه؛ لأنَّ الذوق الأدبي عموما والصومالي خصوصا كان حيا في أوساط ذلك الجيل، وكان لدى الجماعة شعراؤها الذين كانوا ذوي قدرة على تقديم أشعارهم وأفكارهم باللغة الصومالية، أفصحهم كان الأخ عبد الكريم الشاعر من (جالكعيو) الذي تراجع فيما بعد، وأصبح من المخابرات ، وكان يترجم الشعر العربي بالشعر الصومالي، كما كان له أشعاره الإبداعية التي كان لها دويٌّ في جميع مراكز الحركة. وكان الشباب يتمتعون ويتذوّقون بجمال الشعر ونقاء الفكر، ويثير فيهم القوة الكامنة يجدون فيه الحياة والنشاط للقلب وللفكر، ومن بين ما ترجم القصيدة الرباعية الطويلة المذكورة آنفا «هيا إلى القرآن» إلى قصيدة صومالية سماها «هلـمُّـوا يا طلاب»

Ardooy ina keena   Ardooy ina keena
ilaah aan kayaabne   ardoi inakeena

كنا نعبِّر بهذه الأشعار الحماسية أفكارنا وتأثراتنا وشعورنا وولاءنا الديني. وإن تلك الأشعار أثرت فينا، وهاجت خواطرنا، وجعلتنا أعداء ألداء للحضارة الغربية؛ فلما ظهرت هذه الجماعة وشاع أمرها تساءل

الناس قائلين من هم هؤلاء؟ ومن أيِّ حزب أو أية طريقة هموا؟ وذلك بعد ما فاجأت بالجميع بكثرة العدد وقوّة التعبير، وقوة التأثير؛ فجاءت الأجوبة العفوية شعرا باللغة الصومالية كالتالي:-

Maansha alleee Muslimiintiyoo
Isu miiranooo magaclaanu nahay
Mudac iyo mindiilo afaysanoo
Murtad iyo gaal Mudayaanu nahay
Waxaananhay diyaarada miigohoo
lagu dilo ninkii aan diinta rabin

الترجمة:

بحمد الله تعالى نحن مسلمون مترابطون ومتحدون. ونحن خراطيم وسكاكين حادّة تخرق المرتد والكافر. نحن طائرات ميج تقصف وتدمِّر أعداء الدين.

وهناك كثير من المعاني العملية التي يحرص عليها المجتمع الإسلامي كانت بارزة في هذه الأشعار كالأخوة في الله التي أبرزت مفهوم الجماعة المسلمة المترابطة عضويا كالبنيان المرصوص تسير لغاية واحدة.

(القسم الثاني)

كنا نعلن في هذا الشعر رفضنا القاطع للطغيان والطاغوت شكلا ومضمونا، وأننا لن نقبل حكما يعطي البشر حق التشريع، وأننا لن نزال نعادي ونجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله حتى تكون كلمة الله هي العليا، وحتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله. وكان الأعضاء يتمتعون ويتذوقون بجمال الشعر ونقاء الفكر، وكان يثير فيهم القوة الكامنة.

Waadiidannahay waadiidannahay

waa diidanahay waa diidanahay
waa diidanahay daaquudnimada

Waadoonaynaa oo doonaynaa diintayada!

Waa u duubannahay oo u duubannahay
diintaaanu leenahay

الترجمة:

نرفض رفضا قاطعا الطاغوت والطغيان نحن لا نقبل أقل من تحكيم شرعنا ونحن مجتمعون ومتكاتفون لتنفيذ أوامر ديننا. ثم كان يقوم أحد الإخوة قائلا: ماذا تريدون؟ فيجيب الجميع ديننا ، وماذا ترفضون؟ فيقول الجمهور الطاغوت.

Maxaad diidaysaan? daaquudnimada
Oo maxaad doonaysaan? Diintayada

Oo yaad u doonaysaan? Dadkayaga

oo yaad ladoonaysaan? Dalkayaga

(القسم الثالث)

زار عدد كبير من شباب الحركة يوما مسجد «سِيْجَالَى» لأداء صلاة الظهر فيه، فتكلم أحد الإخوة مقاصد الشريعة وعدالتها وحكمة وجوبها، أومما ذكر الحدود مثل قطع يد السارق، فقال أحد المتوضئين وهو يغسل وجهه أنتم مجانين؟ كيف نتحاكم إلى الشريعة، ومن سيدافع البلاد عن الأحباش، إذا قطعتم أيادي الجميع !!. تصوّر ذلك الجاهل أن الأمة كلها ستقطع أياديها إذا تحاكمت إلى الكتاب المنزل من عند الله، فارتجل أحد الشباب شعرا تقتضيه الساعة بشكل حماسي: وكان من مقاطعها الأولى النغم التالي:-

Muslimiin hadaanahay muminimo dhab nagatahay

Magicii ilaah iyo meeyey kitaabkii

Masjidkoo la buuxshoo qalbiguna madowyahay

Mowle yeelimaayee mudanow madaxweyne

magicii ilaah iyo meeyey kitaabkii

Waar magicii ilaah iYo meeyey kitaabka

الترجمة: إذا كنا مسلمين حقا، ومؤمنين صدقا، أين لفظ الجلالة في المجتمع أين كتاب الله في حياة الأمة؟، لا يقبل المولى سبحانه من المجتمعين في المساجد إذا كان القلب خاليا من الإيمان، فأين كتاب الله أيها الرئيس، أين كتاب الله يا هذا؟. وذلك بعد ما عمم الشعر على الحكومة والرئيس بالذات.

كنا نلوّح بالمصاحف ونرفعها إلى أعلى ونحن نمشي في الشارع؛ فنختم القصيدة ب «هذا هو الكتاب» الذي يجب أن يقود الأمة وإلا فلا إسلام. كان الشعار موجها إلى الأمة عامة وإلى الرئيس عبد الرشيد على (شرم أركي) رئيس الجمهورية آنذاك، لأنه كان يؤدي الصلوات ويحضر المساجد مع المصلين. وللقصائد بمجموعيها العربي والصومالي طاقة حية من شعور صادق واحساس مرهف.

القسم الرابع)

عنون الشاب الشاعر في شعره البكائي الذي تحدَّث عن الجهد والجهاد والتضحية التي قدّمها النبي ﷺ وصحابته الكرام لتبليغ هذه الدعوة إلى البشرية ، فطارت القلوب طربا لشاعر يخاطب رسول الأنام بلسان قومه ، فأنشد شعرا يبتدئ بمقطه الأولى:

naxriistii alla ha siiyee — Roonow rasulkeennii
nabarraa kusoo gaadhay — Noolaynta diinteenna
Nabarraa ku soo gaadhay

الترجمة: إن رسول لله ﷺ جاهد لإحياء ديننا حتى سالت دماءه وجُرح وجهه وشُجَّت أنيابه، وكسرت أسنانه وسال دَمُّـه.

(القسم الخامس)

كانت هذه القصيدة من قصائد الصلاة على الرسول ﷺ كان الشعار المكرر بالعربي هكذا:

يا خير الأنام يا خير الأنام يا خير الأنام عليك السلام

لكن القصيدة كانت بالصومال مبدوءة بالعبارة التالية:-

Dibitaati khaa Ina Intaan dooranayno
Danta gaadhimaynee diida diida
Doonimaynee diidoo diida
Diintiinaa diidan ee diida

يا خير الأنام يا خير الأنام يا خير الأنام عليك السلام

كانت الفئة تهتف بهذه القصائد العربية والصومالية بأعلى أصواتها، وكان ذلك يرفع معنوياتها وحماسها واطمئنانها بطريقة تذاق ولا توصف، كما كانت ترسخ عقيدتها من خلال التكرار، بعيدة عن الجفاف وأسلوب الوعظ المباشر الثقيل، مستخدمين قوالب فنية جذابة مقبولة ومحبوبة ومؤثرة، وكأن هذا النغم يضرب على أوتار أعضائها الحسّاسة.

كانت تقدم رسالتها بتلك الأساليب القوية، وتعرض أفكارها من خلال تلك الأساليب المؤثرة، قائلة أنَّ أسباب الهلاك كانت تأتي دائما بعد رفض كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مستدلين بمصير الأمم السابقة التي رفضت الوحي المنزل من عند الله سبحانه، والتي استحقت بها هذا المصير الأسود، الذي كانت نهايته الهلاك في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة. كنا نكرر قوله تعالى:﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ**

يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [القصص: ٥٩] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود: ١٠٢]

والحقيقة أن هذه الشعارات كانت تمثل تحديا كبيرا في ذلك الزمن على القوانين الافرنجية المعمول بها بعد رحيل جيوش الاستعمار من البلاد الإسلامية عامة والصومالية بصفة خاصة، خاصة أن رئيس الجمهورية آنذاك (عبد الرشيد على شرم أركى) كان – خلافا لأمثاله الموالين للغرب – من المترددين على أماكن العبادة، وأنه أخذ عهدا بتطبيق الشريعة إذا نجح في الرئاسة. تماما: كما كانت تحديا مخجلا على الملك فاروق في مصر، الذي كان يُعدُّ نفسه أنه حامي الأزهر، وقائد الهيئات الدينية في بلده، وذلك في الثلاثينات من القرن العشرين، مع الفرق الهائل بين الهتافين؛ فهذه الحركة الصومالية الوليدة، كانت تصرِّح بكفر الأنظمة الحالية التي لا تتحاكم إلى كتاب الله، بل عادت كل من تعاون مع المحتلين، أو ناب عنهم في الحكم، ورفضت تأليه القوانين الغربية.

أما الحركة الإخوانية في الثلاثينات مرت مرحلة بدائية لم تتضح هذه المعاني حتى ذلك الوقت كما يقول الأستاذ محمد قطب، كان الهتافات أمام الملك الشاب المرجو عند الجميع «نبايعك على الكتاب والسنة» «نبايع الملك المعظم فاروق» وغيرها.

كانت القوانين الغربية غير قادرة على الوقوف أمام هذ الشعور الإسلامي القوي، لولا التعاون بين الجنرالات الذين أنزلها الغرب بالباروشات، وبين مداهنة علماء السوء المستخدمين بشبهة «كفر دون كفر» وشروط الكفر وموانعه، وحصر الكفر بالجحود والاستحلال. هذا التعاون الشيطاني هو الذي أثبت القوانين الغربية على البلاد الإسلامية حتى اليوم.

كانت هذه الطليعة تقدم للأمة رسالة روحية أخلاقية تخاطب الضمير قبل أن تخاطب الأسماع. جل استدلالنا كان من القرآن الكريم. كانت الدعوة جزءا مستقلا من الصيحات الاحيائية التي كان يطلقها بعض الدعاة إلى الله لإحياء الأمة وتجديد الدين، أو إيقاد الأمة من النوم العميق لإنقاذهم من النار ومن رجس الجاهلية المسيطرة.

كنا نردد شعار «ردة ولا أبابكر لها» و«إلى الاسلام من جديد» ذلك الشعار الذي اشتهر في حينه «أصدق نداء» و «هـل نحن مسلمون» و «اسلاماه» «وامعتصماه» وغيرها، وكانت كلها أسماء مقالات وكتب، لجهابذة العلماء والمفكرين الذي لم يتركوا الاشكال الوهمي الزمني بل وضحوه بما يشفي الصدور، كما كانت هذه العناوين من الصيحات المدوية أو الشعائر المؤثرة التي أثّرت كثيرا في ذلك الزمن.

كانت الحركة تعمِّق في أعضائها الفهم الصحيح للإسلام، وبأن الأنظمة الكافرة غير قابلة للإصلاح، فيجب أن تطرح جانبا إلى غير رجعة؛ لينشئ الإسلام للحياة البشرية قوانين جديدة تنبثق منه انبثاقا، قوانين قائمة لذاتها بجزئياتها وذراتها من الخالق سبحانه. كان يحصل ذلك بعد محاولة بعض الرؤساء إسكات دعوة تطبيق الشريعة، وتخدير بعض العقول الناشئة الداعية إلى تطبيق الشريعة الإلهية على الأمم المسلمة، مثل محاولة باكستان، وكذبة مصر التي رددت في تطبيق الشريعة في زمن السادات، والتي تردد على لسان رئيسها، عبارة أن الشريعة الإسلامية سوف تكون أساسا لكل مشروع ، والتي كثر فيها الهمسات مثل فرض أحكام الردة وقطع يد السارق وجلد شاربي الخمر، ثمَّ ثرثرة قذافي المثيلة ومحاولة السودان في زمن النميري ......وغيرها، فالولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، وليس لغيرهم من الموالين للأعداء.

*****

زوّار المركز من العلماء والأعيان

كان بعض العلماء يزوروننا في المركز العام، وكنا نستضيف كبار الدعاة، وكان من بين الزوّار الذين أذكر زياراتهم:-

١. كان الشيخ عبد الله عمر نور يلاصقنا كثيرا ويتردد على المركز، وكان أستاذا في معهد التضامن الإسلامي في مقديشوا مع تواضعه وندرة خطابه، وكان عضوا في النهضة قبل إغلاق مكاتبها ومركزها.

٢. الشيخ محمد معلم حسن رحمه الله. كان يتردد على المركز كثيرا وكنا نسأله مستجداتنا وما يشغل بالنا، وثقتنا به كانت كثيرة.

٣. الشيخ حاشي وهليه رحمه الله، كان يلقي دروسا من تفسير القرآن الكريم في المركز العام.

٤. الشيخ إبراهيم صولي رحمه الله الذي اشتهر في علم الحديث وبعضنا كان يتلقى علوم الحديث منه في مسجده سيجالى رحمه الله.

٥. شيخ إبراهيم حرسي أخ مدير العام ، كان له علينا بعض الارشادات.

٦. أحمد معلم جامع من (لاسعانود) كان واعظا معروفا عند الجماهير آنذاك، واشتهر بمواجهته الشديدة للتغريب وبدعوة كتابة اللغة الصومالية بالحروف اللاتينية، تلك المعركة التي كانت حادة في يومها. لم أنس محاضرة ألقاها في المركز العام للاتحاد، صوّر يومها على الصبورة قارورتين إحداها مليئة والأخرى فارغة. وقال: هؤلاء الشباب الذين يعودون إلينا من

بلاد الكفر حاملين الأفكار الغريبة على ديننا، تركونا وهم فارغون فكريا؛ فمُلئت أفكارهم من قبل الغرب، ثم رجعوا إلينا وهم حاملون الفيروسات الفكرية القاتلة، ومن هنا يجب أن نملئ أفكار شبابنا بالقرآن الكريم بحيث لو ذهبوا إلى هناك (الغرب) لن تدخل الجرثومة إلى قلبه وعقله لأنه مليء بالحكم والوعظ والوعيد. كما خطب يوما في مسجد موسى بقر، وكان ذلك بعد ما عمّ المنطقة اسمى لينين وماركس وصورهما، فقرأ على المنبر قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة: ٢٢] ، وذهب يحرِّض الناس على المواجهة والمعاداة والمقاطعة للكفار. فكانت آخر مواجهة مع الدولة، أخيرا تراجع بسبب رغبة ورهبة العسكر، وتعاون مع الثورة الجديدة فأصبح من كوادر الحزب الصومالي الاشتراكي، وهو الآن في جوار ربه. وهكذا كان يأتي للزيارة أو إلقاء محاضرة في مركز الاتحاد كثير من العلماء.

٧. الشيخ يـــاسين عبد الشكور شيخ أحمد غولي المشهور بالمجاهد (Gaal dile)

خلاصة قصته التاريخية كانت كالتالي:-

أصدرت الإدارة فترة الوصاية الإيطالية قانونا يسمح للهيئات التبشيرية أن تقوم بأعمالها تحت شعار «الحرية الدينية للجميع» فظهر التبشير المسيحي على يد المبشرين الأمريكيين بعثتان:-

البعثة الأولى: برئاسة المبشر الأمريكي القسيس ويليزت لند البروتستنتي.

والبعثة الثانية: برئاسة القس الأمريكي (مورد يكرون)، وبدأ نشاطهما في مقديشو تحت ستار «تدريس الأدب واللغة الإنجليزية» في حين أسلحة الجناح التبشيري دائرة في ميادين التعليم ، والخدمات الصحية والاجتماعية بمختلف المستويات ، وكانت أمثلة مقنعة بأثواب نفاق مزورة ، تدعي الرقي والتهذيب ، وهذه أكثرها مكرا ، وأبعدها عورا ، وأطولها مدة استقرارا في البلد المغلوب على أمره .

وقد ذكر (كمال الدين صلاح) ملاحظتين عن نشاط البعثتان التبشيرية البروتستنتية الأمريكية:
الملاحظة الأولى: أن كل البعثات التبشيرية والشركات والهيئات الأمريكية التي تعمل في الصومال تخضع لإشراف ورئاسة سفير الولايات المتحدة في أديس أبابا، الذي كان في الأصل قسيسا من رجال التبشير.

أما الملاحظة الثانية: فهي أنَّ أماكن البعثات التبشيرية ومناطق البحث عن البترول يشير إلى أن عمل المبشرين يتعلق بخبراء النقطة الرابعة ومندوبي شركات البترول» ا. هـ .

فكان من ضمن تلك البعثة الأسقف البروتستانتي الكندي (Winnipeg)، كان قسيسا بلباس مدني ، أُعِدَّ ليكون أحد دعاة التنصير ومنح كل عناية وتعليم، مندوبا عن البعثة التنصيرية التي اتخذت في خطتها مشروع تنصير القرن الافريقي، على أن تكون مقديشو هي نقطة الانطلاق لعميات التنصير، واتخذت حملة أو عاصفة (بيس كوربس) (peace corpis) الشهيرة كستار تخفي من ورائه نشاطها المشبوه، وفتح مركزا ومدرسة لتعليم اللغة الإنجليزية ظاهرا، تنفيذا بمشروع تنصير الصوماليين تحت ستار فصول تقوية اللغة الإنجليزية، التي كانت من أهداف البعثة، لكن كان همه الأكبر نشر المسيحية البروتسنتية في الصومال، لإغراء التنصير المغلف بالمساعدات ، وكان يدفع ٢٠٠ شلن صومالي لكل من

يدخل الدين النصارى مستفيدا من الفقر المدقع الذي كان شائعا في ذلك الوقت، فكانت حصيلة الذين غرَّ بهم تحت ضغط الحاجة والحرمان ٥٠٠ رجل، وكانت حركة التنصير التي كانت لها اليد الطولي في تنشيط التنصير في افريقية وآسية حيث وجد المتنصرون بريقا لهم في جرَّاء الجهل والفقر والعِوز.

ولهذه الأسباب كلها، أعلنت تلك المجموعة أمام القسيس أنهم تنصروا سرا في بيته المجاور بالمدرسة، فذهب مفتخرا إلى الأسقف الكاثوليكي الإيطالي، الذي كان يرأس الكنيسة الكاثوليكية القديمة في مقديشوا، وكان يوجد في الصومال ارسالية كاثوليكية ضخمة من الايطاليين عددها ١٣٥ عضوا ، وتدير نحو عشرين مؤسسة في مقديشو من مدارس، وملاجئ، ومستشفيات ومطبعة ، ولها مراكز في كل من أفجوي، جوهر، بلدوين، بيدوا، مركة، براوة، جلب، دافيت، وكسمايو. وقال للقسيس الايطالي: لقد استطعت تنصير هذا العدد الكبير في هذه المدة القليلة، بينما كنتَ انت في هذا البلد الذي استعمرته دولتك ولم تنجح في تنصير أحد من المسلمين، هذا إن دل على شيء فإنما يدل على فشلك في أداء مهمتك!!.

وكان هناك في وقتها نزاع حادّ وعداء بين المذهبين المسيحيين، ودبّ الاختلاف بينهما حتى وصل الأمر إلى أن قذفت إحدى الطوائف الكاثوليكية، ووصفت البروتستانتية بأنهم كلاب!. فقال له الكاثوليكيُّ الإيطالي: إنك لا تفهم أنفة الصوماليين، إنهم فقط يريدون أن يضحكوا عليك!، ويأخذوا منك المبالغ لا غير!، مع إن حقيقة حالهم مازالوا مسلمين. وإذا أردت أن تتحقق من ذلك فضع المصحف المقدس عندهم على الأرض، واطلب منهم أن يضعوا أقدامهم عليه إن كانوا صادقين، حينها ترى الحقيقة؛ ففعل ذلك فرفضوه وتركوه ولم يغرهم المال ولم يؤثر فيهم بريق الدنيا الزائل هكذا

أعلنوا، ولم يبق عنده إلا عشرين فقط كما تقول احدى الرواية؛ فجاء الذين تركوه إلى مسجد عبد القادر القريب من مركزه التي جعل خلفها غرفة أو كنيسته يؤدي فيها الطقوس الانجيلية؛ فرووا القصة لأهل المسجد. وكان من بين الحاضرين الشيخ يــاسـين عبد الشكور المذكور عاليه، وثار من الخبر؛ فعمل جولة على بعض النواب يستفسر ما إذا كان هناك قانون يسمح لنشر الدين المسيحي في الصومال؟؛ فكانت الإجابة بأن القانون لا يسمح لنشر الأديان، بل نصت المادة ١٩ ما يلي:- «لا يسمح لنشر أو الدعوة إلى دين غير دين الإسلامي الحقيقي».

فقال: إن عمل هذا الكافر مناقضا لقانون البلاد، وقد قال الرسول ﷺ «من بدّل دينه فاقتلوه»، أما القسيس فهو يفسد في الأرض ومن ثمَّ وجب عليه أن يعدم، فذهب بقراره الشخصي منزعجا مما سمع، ولبس بنطلونا وقميصا الغير مألوف عند العلماء، وأخذ معه خنجرته، تدفعه تعظيمه للدين، ودخل المدرسة «الكنيسة الصغيرة» واستمع إلى الخطاب الذي كان يلقيه هذا الأسقف؛ فتصنع أنه يريد أن يقدم له تحية فقتله !!، فهاجمت عليه زوجته فجرحها فماتت بسببه، وكان ذلك عام ١٩٦٦م ثم ذهب إلى أقرب مركز شرطة ليعلن أنه هو الذي قتل الرجل، وقال لهم خذوا جيفة ذلكم الكافر المهين من هناك؛ فقد قتلته عمدا، وهذا مصير كل من تطاول على كتاب الله سبحانه!!.

قالوا: حكم عليه القاضي الإيطالي بالإعدام أو المؤبَّـد، لكن المحامين استأنفوا الحكم، معللين أن القانون الإسلامي يرفض قتل مسلم لكافر، ثم ربما حُكِم عليه بالمؤبَّـد. فاجتمع فيما بعد عدد من العلماء مع (عبد الرشيد على شرم أركى) حينما كان يريد تشريح نفسه للرئاسة، واتفقوا معه شروطا أولية ، منها: الافراج الفوري للمجاهد البطل «الشيخ ياسين» عند تسلمه الرئاسة، وأن يلغي القوانين الغربية

ويستبدل بها الشريعة الإسلامية، وأن يرفع مستوى الكتاتيب ليجعل لها مراكز نظيفة كالمدارس ....وغيرها من الشروط. ومن جانبهم وافقوا على دعم ترشيحه للرئاسة. فأصبح عبد الرشيد رئيسا وأفرج الشيخ ياسين من السجن بعد تولي شرم أركي الرئاسة بعفو رئاسي عام ١٩٦٨م، وبعلة مختل عقليا. بعد أن دُفِع مبالغ لورثة المقتول. وكان الشيخ ياسين هذا، يزورنا في المركز العام لاتحاد الشباب المسلمين، وكان رجلا صامتا يعطي المجلس هيبة.

والمواجهة الفردية عظيمة جدا ورائعة ويمثل فكر عميق في الأمة، ويحسب المستعمر ألف حساب؛ لأنها عبارة عن مواجهة شعبية مَثلهُ شخص واحد، وكانت من الأمور التي أصبحت عقبة على المستعمرين، وهكذا كان الشيخ رحمه الله مثالا للتضحية والشجاعة. أما المواجهة الحزبية أو الفئوية فهي كثيرا ما تلعب دور تبريري للأعداء.

ثم خطب في بعض المساجد بعد الانقلاب العسكري رافضا الثورة العسكرية وما تدعو إليه من تمجيد قيادات الإلحاد في العالم، فلم تتحمل القيادة العسكرية خطاب المجاهد صاحب الهيبة والهندامة، فاستعانوا لإسكاته بابن عمه عبد الرزاق محمود أبكر، الذي كان عضوا في المجلس الأعلى للثورة وقرروا نفيه إلى «لوق» حيث كان هناك بعض إخوانه وأقاربه خوفا من تأجيج خطبه، وأخيرا جاءته المنية وهو في منفاه في عام ١٩٨٦م، على عمر يناهز ٥٧ عاما، بعد أن ثار وخلّص الأمة من أشد أعداء الله ومن قوّاد الغزو الصليبي على الإسلام. رحمه الله رحمة واسعة وأدخله الفردوس الأعلى، ومثل أولئك الرجال الذين مثالا للتضحية والجهاد يستحقون من المؤمنين إخلاد تاريخهم المجيد.

والشيخ ياسين بن شيخ عبد الشكور قد شبَّه أباه في الجهاد، ومن شبَّه أباه فما ظلم، لأن أباه الشيخ عبد الشكور قتل زعيم إيطالي في «عيل بور» عام ١٩٢٥م أشهره الصوماليون ب (دلدللول).

وخلاصة قصة ذلك العالم الوالد «شيخ عبد الشكور شيخ أحمد غولى» كانت كالتالي:- كان الشيخ من أسرة متدينة مشهورة بالعلم ، (ثمانية اخوان) كلهم علماء إلا واحدا شاعرا، وكان الشيخ عبد الشكور هذا قاضيا شرعيا في سلطنة هَوبْـيَة بقيادة على يوسف كَينادِيْدْ.

وفي ٥ أبريل كان الداهية الإيطالي «فيلوناردي» قد حصل على توقيع السلطان على معاهدة الحماية ، ثم أصبح القنصل الإيطالي في عدن مأمورا على «هوبية» من تاريخ ٥ أبريل عام ١٩٠٨م ، وأصبحت السلطنة خاضعة للحكم الإيطالي مباشرة في ٢٥ أكتوبر ١٩٤٥م. وفي خلال تلك الفترة ، وبعد نقضهم العهد الذي كان بينهم وبين السلطنة ، قرر الزعيم الإيطالي (دلدللول) تنفيذ مشروع سماه «المصاهرة» الذي كان يعني تبادل بنات ايطاليات لتزويج صوماليين ببنات أخرى صوماليات لإيطاليين كمخطط استعماري الهدف حتى تتهيَّأ الفرص السانحة للمبشرين لتحويل الشعب من الإسلام إلى المسيحية، وكان المشروع لونا من ألوان «الإلزام القهري» أو «الاكراه» على صهر الشعب المغلوب على أمره صهرا تاما ، كان ذلك المشروع على قاب قوسين لتنفيذه، بعد موافقة المشروع لصوماليين موالين لإيطاليا، وكانوا يطلقون عليها حينها «العقود المدنية» أي الزنا القانونية، ووصل أول فوج من هؤلاء الفتيات ، فاقترح الشيخ مع زملائه بتفشيل هذا المشروع الذي يتطلب اغتيال ذلك الرجل ، وقتل فكرة «الاختلاط» في مهدها قبل أن يصعب ضبطها أو السيطرة عليها، وتمَّ تنفيذ الخطة بطريقة محكمة بعد أن طلبوا لقاء القائد وأخفوا تحت عمائمهم خناجرهم ، وعند اللقاء **قتلوه**، وفي الحال أطلق عسكري

الرصاص على الشيخ ومات في الحال ، بينما جُرح أحد أبنائه (حسن عبد الشكور) وهو غلام مدرك، ومن العجب أن مهدت تلك البطولة السبيل لبطولة أخرى، قام ابنه الآخر (ياسين شيخ عبد الشكور) بعملية شبيهة بعد عقود . تلك المعلومة الأخيرة المتعلقة بقتل الإيطالي الأخير من الكاتب محمد حسن عبد الشكور الذي نقل الخبر من والده المجروح في القضية.

*****

الحبُّ في الله «الروحانية الحية»

قامت حياة الجماعة على الأخوة النقية، وكانت تتمتع في ذلك الوقت حبا متوهِّجا يصل أحيانا إلى حد العشق لكن بتعفف إن صح التعبير، فالذي يحرِّك الانسان حبُّه أكثر مما يحرِّكه عقله، والحب أسمى العلاقات، وأن الإنسان بدافع الحب يقدم الغالي والرخيص والنفس والنفيس، وتلك الدافعية كانت تزوِّد الطاقة وتوجِّه السلوك، ولا شك أن الحبَّ هو خير حاجز للقلب وخير حارسٍ له إذا احتل قلبا وشغله منعه من أن يغزو غيره، وأن الأخوة والحب والايثار أهم أساس لأيِّ دعوة. كما أنَّ الحب في الله والتعاون الأخوي في الإسلام هو العنصر الأول من عناصر الدين. وهكذا كان كل واحد منا يعتقد أنَّ هؤلاء الشباب هم خاصّته وأصحاب نصيحته وموضع سرِّه؛ محيطين علما قيمة الحب في الله ومتطلعين إلى الدرجة العالية التي يغبطها النبيون والشهداء. والأخوة في الله أو الحب فيه علاقة من نوع خاص؛ فقد جمع الله بين قلوبهم وألف بينهم، وهي هدية ربانية عظيمة الأثر، لا تستطيع أي قوة أرضية أن تنشئ مثلها حتى لو أنفقت ما في الأرض جميعا، وهذا هو الاخاء الرائع للمؤمنين دائما.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنفال:٦٣] .

وهذ الدين هو الدين الوحيد الذي استطاع أن يوحد تلك العاطفة ، كما هو الوحيد الذي يهب تلك الروح الشفافة، كما ثبت عن الله في الحديث القدسي «الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ». وكان لدينا ذكريات كثيرة تدل أننا كنا نتمتع الحب في الله لا تسع بهذه العجالة بل لا يسعها كتاب أو يحتاج إلى كتاب منفرد، وكانت الزيارة فيما بيننا نجد الحلاوة والمتعة الروحية ، وكنا

نسأل الله المزيد من هذا الحب اللذيذ، فقد أيقظ عواطف وحرَّك كوامن ولأنه عنصر سريع التلاحم والتجاوب. وأخيرا الحب في الله تعالى نور وضياء وبهاء وراحة في القلب وانطلاق في الروح وسموٌ في النفس وسعة وانشراح في الصدر، ولا يفهم تلك المعاني إلا من ذاق حلاوتها. وعلى كل حال أن الزمن السعيد الذي قضينا تلك الصحبة والمحبة لا ننساها أبدا ؛ لأنها بدا منها من طبع سليم ولطف ومودة وحسن صحبة. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ»: منها: «أَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ عَزَّ وَجَلَّ». وهكذا كان الحب في الله نعمة من الله ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا** ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]

ما ذاقت النفسُ على شهوةٍ	ألذَّ من حبِّ صديق
من فاته وُدُّ أخ صالح	فذلك المغبون حق اليقين

ومن الذكريات التي بقيت حيّة في نفسي وتكررت صورتها في ذاكرتي؛ تلك الليالي التي كنا نودِّع بعض إخواننا، حتى إذا أوصلناهم في بيوتهم البعيدة يبكون ويفرغون الدموع؛ قائلين لن نستطيع تركك، سنودِّعكم كما ودَّعتمونا حبا فيكم وردا بالجميل، وهكذا كنا دواليك في بعض الليالي، وأذكر حادثة بعينها تخص الأخ حسين على دِيرشى الذي كان أبعدنا بيتا قرب مستشفى (دكفير) في أواخر الستينات (١٩٦٠نات)، كانت حارته نائية في ذلك الوقت، فكثيرا ما كان يرجع معنا مرة أخرى، فأصبحت صعبة أن نفرق بين الأجساد المرتبطة. وكذلك عبد القادر شيخ الذي تحوّل فيما بعد بأوائل السبعينات إلى (دجَحتور) النائية أيضا .... وغيرهما.

الحيز الأكبر من أو قاتنا كنا نقضيه في تلاوة القرآن الكريم وتدارسه وحفظه ومحاولة تطبيق أحكامه ومواعظه، ثم كنا نتدارس من بعض كتب السنة التي كانت متداولة في ذلك الوقت كرياض الصالحين والأربعين النووي ومختار الأحاديث وكتاب الصلاة للألباني وصحيح مسلم وتجريد البخاري وغيرها، ثم الأذكار والأدعية المتنوعة التي كنا نحبها ونكررها كثيرا. كانت الطليعة تعيش في جنة الإيمان وكانوا مستعدين لمواجهة أي شيطان يكدر صفوة روحانيتهم وينفث سموما فيهم.

وكانت تقف طويلا أمام الصفات المؤمنين والمتقين في القرآن الكريم، كعباد الرحمن في آخر سورة الفرقان، وقد أفلح المؤمنون في أول سورة المؤمنون، وصفات المصلين الذين هم في صلاتهم خاشعون ودائمون في سورة المعارج، وسورة الأحزاب وأول سورة البقرة.....وغيرها من الصفات الحميدة، وكانوا يتساءلون هل نحن أهل لهذه الصفات أم نحن أدعياء؟، وكان هناك استعداد نفسي وعقلي لتطبيق أوامر الله سبحانه وتعالى؟. كان لنا موعد عام نختم فيه القرآن الكريم في كل شهر، وكنا نجتمع لحفلة الختمة، داعين الله أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ونور أبصارنا، وذهاب همومنا وغمومنا، وأن يُعزَّ الإسلام والمسلمين ويجمع كلمتهم، ومن ثمّ كانوا يأسرون قلوب الناس بروعة أخلاقهم.

كانت يوم الجمعة بالنسبة لهذه الطليعة، يوم ذكر، وتلاوة، واعتكاف، وإكثار الصلاة على الرسول ﷺ ، وكانوا يسمونها يوم التزود التي تمنح العمل الدعوي الطاقة أو الأكسجين الذي يحتاج إليه لمواصلة التأييد المطلوب في الأسبوع التالي. فبالعبودية يدخل المؤمن جنة الدنيا ونعيمها الذي لا يشبهه أي نعيم.

إن صوم يوم الاثنين والخميس كانت سمة تربوية من سمات الحركة، وكانت عبارة عن تدريبات بحبس النفس عن الشهوات وفطامها عن المألوف، كثيرا ما كنا نردد قوله تعالى: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى**

ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات: ٤١]، فنتج منها غض البصر وكف الأذى، والابتعاد عن المحارم. كما كنا نتدرّب ونكرر على شكل ابراز قول البو صوري رحمه الله:

النفس كالطفل إن تهمله شـــــبَّ على حبِّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم.

عند مطالبة أحدنا بإلقاء كلمة أو محاضرة مفاجئة، كثيرا ما كان يعتذر بقسوة القلب أو باستهلاك طاقته الروحية، ولكي يلقي المحاضرة يلزمه على الأقل ساعة للتزود.

وكان المسجد وزواياه هو مركز التزود للطاقة، إما بترداد الأذكار أو بتلاوة جُز ءٍ أو أجزاء من القرآن الكريم، والحركة كانت تستعين بالقراء للتعبئة والوعظ، واكتشفنا الكثير والكثير من جواهر هذا الكنز العظيم وذلك البئر العميق، فاعتبرنا أنفسنا أننا حققنا أقصى غايات النجاح، وكنا نكتسب في خلواتنا تجربة روحية عميقة، وكنا نستشهد الآيات القرآن بدون تكلف، كما كنا نقدِّم للآخرين مناعة قوية ضد التغريب والثقافة الأجنبية.

كنا نقول الرجل المتأثر هو الوحيد المُـؤثر، وكانت العبارة الدارجة آنذاك «فاقد الشيء لا يعطيه» وبالتجربة وجدت الطليعة أن تلاوة آيات من الذكر الحكيم في المسجد أفضل مولد للطاقة وللوقود اللازم لحياة القلب. كنا نقوم بنشاطات دعوية مكثّفة، ونلقي محاضرات عن الإسلام في المساجد والمتاجر والمدارس والقواعد العسكرية وحتى الشارع، تجمَّع لدى هذا الجيل الأفق السِّياسي والرّوحانية المتوهِّجة والاعتقاد الصحيح، ولهذا بدأ نجم اليقظة يتصاعد.

لعل تلك الروحانية المتوهجة تعمقت في الضمير عند الكبر، عند ما طال الزمن ولعبتنا الدنيا ظهرا على بطن، وخلطنا عملا صالحا وآخر سيئا، وظهر على السطح حب المؤمنات والأزواج والأولاد، فقد تزوج معظمنا وأنجبنا أطفالا وعافسناهما ، وربما ثقلت حركتنا نسبيا بعد أن كنا خفافا مثل الطيور الجارحة في الفضاء فنسأل الله السلامة والسداد، وغفر الله ذنوبنا وتقصيرنا وحسَّنَ خاتمتنا إنه جوادٌ كريم. لكن زيارة الإخوان في الله من جواهر عبادة الله وفيها الزلفى الكريمة إلى الله مع ما فيها من ضروب الفوائد وإصلاح القلت.

كنا نهتم ذلك التوحيد الذي نقل المجتمع العربي قديما إلى تلك «النقلة الهائلة» من مجتمع قبلي ممزق متخلف في كل جوانب الحياة إلى مجتمع «عالمي» متجانس متفوق على سائر المجتمعات البشرية بل تتفوّق في أسس تناسقه وأخلاقه وانسانيته على سائر المجتمعات، ومن ثمَّ كنا نطلق على الثقافة «الانطوائية» أو «العصبية» كالقبَلِية والوطنية والقومية واللون والجنس والنفس والشهوات نطلق على «الصنمية الغامضة» التي يعبدها كثير من الصوماليين، والتي يجب أن نواجه بثورة ابراهيمية جديدة تكسر تلك الأصنام وتجعلها جذاذا. وكان من أساسيات التربية التي كانت تقدمها الجماعة، تربية الناشئة على «الجنسية الإيمانية» تربية عملية.

كانت «جنسية المسلم عقيدته» من الشعائر التي كنا نرددها أكثر، والغاية من ذلك كانت تزكية أفراد الجماعة المسلمة من قيم العصبية والشعوبية والقبلية التي وصفها الرسول ﷺ ب «**النتنة**» ، ثمّ الانتقال إلى قيم التقوى «العالمية» كما قال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣** ﴾ [الحجرات: ١٣]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ خُطْبَةَ الْوَدَاعِ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**». وكان ذلك الانتقال إلى العالمية، محورا أساسيا من محاور التربية في بداية العمل الحركي، عملا بقول النبي ﷺ «إن الله قد أذهب عنكم **نخوة الجاهلية ولفظها بالآباء**، الناس من آدم وآدم من تراب». وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الحركة كانت تدعو أعضاءها إلى التجرد الكامل لهذا الدين.

وبالمقابل كانت الحركة تدرِّب أعضاءها باستخدام التعريف باسم القبيلة بدون حرج، وأنه لا بأس بتنوع الشعوب والقبائل فيها، ولا بأس باختلاف الألوان والمهن والأماكن مادامت هذه التنوعات لا تخرج عن وظيفتها في تسهيل التعارف، وأنتجت هذه التربية ثمارها المرجوّة حتى تجرّأ الإخوة الذين كانوا من قبائل يعتبرها الشعب «المهمشين» أن يفتخر بقبيلته بجرأة مثالية وقناعة تامة غير مسبوقة، وذلك بعد أن أخذوا التدريبات اللازمة للأخوة الايمانية العالمية، واشتهرت عبارات أنا «تمال أي حداد» أو «ما ديبان أي صانع أحذية» هكذا بفخر وبدون حرج، وغيرها المعروفة عند الصوماليين، متجاوزا بذلك عقدة الوصم التي شاعت عند غيرهم.

ومع ذلك كنا نستخدم عبارة «صنمية القبَلِـية» «صنمية الوطنية» «صنمية القومية» «صنمية الهوى» وغيرها مستدلين لذلك الآيات القرآنية اللاتي تحرر البشر من عبادة غير الله كقوله تعالى: ﴿**أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾**﴾ [الجاثية: ٢٣] وأحاديث كثيرة تتعلق بالموضوع.

وأذكر أنه أوقفني رجل يوما في مقديشو بعد الحروب الأهلية، قال لي لقد نجانا الله من التورط في القبلية النتـنة وقتلها ونهبها بفضل شعاركم القديم «صنمية القـبَلِـية» التي قال فيها إن هذا الشعار كان شعارا منقذا وثبت في نفسي كل تلك المدة، ولن أنساه أبدا. قال: جزاكم الله عنا وعن الإسلام خير الجزاء.

*****

معية الله سبحانه وحياة الأنـــس

كان الاستئناس بمعية الله سبحانه وتعالى من الأمور البارزة في ذلك الوقت. كنا نكرر دائما قوله ﷺ لعبد الله بن عباس «يَا غُلَامُ احْفَظِ اللهَّ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَّ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَسَلِ اللهَّ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِّ جَفَّتِ الْأَقْلَامُ، وَرُفِعَتِ الصُّحُفُ» كما كنا نكرر عبارة «تراني يا رب ولا أراك» و «لا تدركك الأبصار وأنت تدركها» ثم أثبتت لنا هذه التجربة أن أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه، وأرقى حالات المؤمن أن يشعر أنه تحت مراقبة الله عزّ وجل. فشعور هذا الإنسان الضعيف، وهو مشغول بشأن من شئونه واحساسه أن الله معه، شاهد أمره حاضر شأنه، إنه شعور عظيم يدفع المسلم إلى الحياء من ربه، شعور مراقب مؤنس، يوحي أنه ليس مهملا بلا رعاية ولا ولاية؛ فتصوُّر معية الله لكل أحد وفي كل حالة أمرٌ جليل رهيب، وكثيرا ما يصاحبه البكاء، علما ب «أن البكاء أعظم ما تقرّب به العابدون». والنتيجة المترتبة من هذه المراقبة وهذا البكاء أن صاحب الحق الضعيف هو القويُّ فعلا، ويجب ألّا يخاف من الباطل القويِّ، وذلك يوم كان الاعتقاد مكتفيا بظواهر الآي والسنن، وأخيرا أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه ويراه، وتلك **قمّة التديُّن**، أو **الهالة** التي يلبسها المسلم ليتأفف من الكفر والكافر. اللهم اجعل معيتك علامة لنا في طريق سيرنا... آمين.

من الذكريات التي لن أنسها، يوم رأيت أحد الإخوة «محمد علي د يرشى» متأبطا بدفاتره المدرسية، وهو يحاول قطع الطريق إلى الجانب الآخر في حيِّ عيل جاب، فإذا سيارة سريعة فاجأته من الجانب الآخر فصدمته وكادت أن تقتله، ولكنه نجا بأعجوبة من أعاجيب المقادير، أي نجا بقدر من الله وحفظه، ورمته قوة سرعة السيارة إلى الورى، هرولت إليه، وقلت سبحان الله!!، إنا لله وإنا إليه راجعون!!،

كيف حالك يا أخي، عساك بخير؟. فقال: نادما: آسف!! ليتني مت يومي هذا، لو قدر الله لي الموت في ساعتي هذه لدخلت الجنة!!!. قال: كنت أكرر ذكر الله، وكنت متعمقا بأفضل الذكر «لا إله إلا الله» يقصد الحديث النبوي الذي قال فيه الرسول ﷺ **«مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»**. كنا نحب الجنة بطريقة محسوسة.

من الأدعية التي كنا نكررها «أللهمَّ إنك تسمع كلامي وترى مكاني وتعلم سرِّي وعلانيتي، فانصرني وعلى فضلك أتوكّل في صلاحي؛ فلا تكلني إلى غيرك يا رب، وإلى جناب رسولك أنتسب فلا تبعدني، وإياك أسأل فلا تخيبني، اللهمَّ ارحم تضرعي وآمن خوفي وتقبل أعمالي، واجعلني بطاعتك اشتغالي، وإلى الخير مآلي، واختم بالصالحات آجالي، هذا ذلِّي ظاهرٌ بين يديك، وحالي لا يخفى عليك، أمرتني فتركت ونهيتني فارتكبت، ولا يسعني إلا عفوك فاعف عني، يا خير مأمولٍ وأكرم مسئولٍ إنَّك على ما تشاء قدير».

كنا نكرر ونغني في طريقنا إلى المدرسة ومتأبطون بدفاترنا المدرسية «تســـمعني يا رب وتراني!» «تعلم سرِّي وعلانيتي يا رب!» ﴿ **وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧** ﴾ [طه: ٧] « يعلم النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء» وغيرها من العبارات التي تدل على استئناسنا وتذوقنا معية الله سبحانه فكانت نعم التذوق. كما كنا نشعر مصاحبة «الرقيب» و«العتيد» وموكبهما الملائكي حاملين الكاميرا الخفية التي تدخل القلوب بدون استئذان. شعورٌ لا يشترى بثمن!!!.

*****

دور كتاب صـفة صـلاة النـبي للألباني

كانت الجماعة تعطي كل قضية من قضايا الإسلام حجمها ومساحتها من الاهتمام ، كما كانت تعتبر الصلاة الوصية التي تلي التوحيد، وأهم دعائم الدين قديما وحديثا، لأنها أعظم شعيرة منَّ الله بها على عباده، ولأن صلاة المؤمن أقوى سلاح لمحاربة أهواء النفس، وأقوى درع لحمايتها من حملات الشيطان وأتباعه، كما هي أقوى وسيلة للتحلي بالصبر والتعود على تحمل المشاق.

فكانت الجماعة تأخذ تدريباتها العملية على كيفية صلاة الرسول ﷺ شكلا ومضمونا. وصل إلينا كتاب **(صفة صلاة النبي)** للألباني في وقت مبكر من أوائل عام ١٩٦٩م، كنا نتدرّب على ما في هذا الكتاب من الأحاديث الصحيحة التي كانت تتعلق بصفة صلاة النبي ﷺ. وعبارة «كأنك تراها» المصاحبة لغلاف العنوان كانت لها وقعتها في الشعور. كانت البداية دراسة الوضوء ولوازمها على شكل عملي والاهتمام بالطهارة واللياقة معتبرين أن النبي ﷺ كان يعنى بنفسه عناية تامّة، وقد عُرِف له نمطا من التأنق على غاية من البساطة، ولكن على جانب كبير من الذوق والجمال.

كان هناك تركيز للطهارة التي تخلص المؤمن من الأوساخ المادية، كما تطهره من الأدران المعنوية، كما كان هناك اهتمام للسواك، لأنه مطهرة للفم ومرضاة للرب، ولأن الفم هو أكبر مستودع للجراثيم التي تسبب كثيرا من الأمراض المهلكة . كانت الفئة تتدرّب على صفة الصلاة، وكان التدريب شبيها بالتدريبات المهرجانية الشرقية، أو على تناسق النظام العسكري، وعندما كنا نؤدي صلواتنا كأننا في مهرجان حاشد، وكانت رائعة على شكلها الظاهري جدا جدا!، وبفضل هذا النظام المستمر تمدُّ

الصلاة المؤمن بطاقة هائلة من الزاد الروحي. وبما أن منظر الصلاة منظر مهيب، خاصة مشهد «ركوع الجماعي» وهو مظهر عجيب من مظاهر الخشوع والانحناء لرب العالمين، وكذلك مظهر «السجود الجماعي» الرائع الدال على العبودية، وأن كثيرا ممن أسلموا كان بسبب اسلامهم تأثرهم برؤية منظر المسلمين وهم يصلون، إلا أن ذلك المنظر المتكامل المترابط يكون منظرا عجيبا مهيبا حقا، ثم كنا نتوقف على الخشوع لأنه متى فقدت العبادة المادية جانبها الداخلي في الانسان ، كانت نوعا من أنواع الرياضة البدنية البحتة. والدليل قول الرسول ﷺ «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ».

كان الحديث المسيء صلاته وأحاديث أخرى مثيلة عنوان للتدريب ثم آيات وأحاديث تتعلق بالخشوع. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَلَا تَخْتَلِفُوا عَلَيْهِ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا، وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، وَإِذَا سَجَدَ فَاسْجُدُوا، وَإِذَا صَلَّى جَالِسًا فَصَلُّوا جُلُوسًا أَجْمَعِينَ» . كنا نقف عمليا عند فاء التعقيب في الحديث.

وإذا قال الإمام «الله أكبر» عند تكبيرة الاحرام، كنا نقول بعده «الله أكبر» لحظة واحدة وبنفس واحد كأن واحدا منا قالها، وإذا ركع مثلا، كنا نركع بعده كتلة متماسكة، وإذا سجد ووضع الجبهة على الأرض، كنا نسجد وراءه كحزمة مترابطة، كان الإمام مدربا بأن يقول تكبيرة الاحرام ما بين الفعلين وهو يهوي بحيث يتطابق سكوته مع وضع الجبهة على الأرض مثلا. كنا نطبِّق فاء التعقيب والترتيب كي تتطابق تأميننا مع تأمين الإمام ثم مع تأمين الملائكة.

وفي الحديث المتفق عليه «إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: ٧]، فَقُولُوا: آمِينَ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ: آمِينَ، وَإِنَّ الْإِمَامَ يَقُولُ: آمِينَ، فَمَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ

مِنْ ذَنْبِهِ» وذلك إلى جانب الأمر بالحضور والخشوع والسكينة، كنا نطيل الركوع والسجود حتى يقول القائل لقد نسوا تطبيقا للحديث النبوي، وخلافا لسرعة المصلين. قال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾** ﴾ [المعارج: ٢٣] والدائم هنا: بمعنى السّاكن الرّاكد الذي لا يتحرك والدليل قوله ﷺ «**لَا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ ثُمَّ يَغْتَسِلُ مِنْهُ**» وهو تفسير يؤدي إلى الخشوع والخضوع. وإذا دخل شخص من غيرنا بين صفوفنا، وهوي مع الإمام مثلا في السجود كعادة المصلين حينئذٍ ، كان يفاجأ بالصف القائم الذي يهوي فيما بعد كتلة واحدة؛ فكان يخجل ويلتزم مع المأمومين في الركعات التالية؛ لأن التدريب العملي أقرب إلى الحقيقة وأجدى من التدريس النظري، إذ ليس الخبر كالمعاينة، ومثل هذا التدريب غيَّر شكل الصلاة في كثير من المساجد، وكان تجديدا عمليا.

أعضاء الحركة كانوا يؤدون صلواتهم بهذا الشكل العجيب والملفت للنظر، في وقت كان مجرّد وجود شاب متدين في المسجد تمثل مفاجأة للشيوخ والكبار، ومثار سخرية من بقية الشباب المنصرفين عن الصلاة، ثم أصبحت فيما بعد **علامة** يميِّز المخابرات أعضاء الحركة عن غيرهم.

وكنا نجد من تلك الصلوات حنينا وروحانية ولذة الروح ونعمة الخشوع، وكنا نسأل الله المزيد، وإذا تجرّت صلاتنا من هذا الخشوع وتلك الحنين كأننا فقدنا كل شيء، وكنا نشعر أننا في خطر، يقول أحدنا لا أدري لعل قلبي مات!، وكان ذلك الحنين بالنسبة لنا معنى الحياة، وكنا نقدم جهدا جبارا لاستعادتها بأسرع وقت ممكن، داعين الله أن يعيد لنا لذّتنا ويُتمِّم لنا نورنا ويغفر لنا إنه هو الغفور الرحيم. عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ». لكن القلب الميِّت إذا عاد إلى ذكر ربه وداوم عليه عادت فيه الحياة، ودبّت فيه الروح وقام من

قبره. وكنا نشعر كالذي كان يشعره الصحابي الجليل حنظلة الذي قال «نافق حنظلة» كما كنا نسمع من بعض الإخوة أنا في خطر؛ أخاف أن يستحوذ عليّ الشيطان فينسيني ذكر الله، إذ لا يريد الملعون الا أن يدخلني في حزبه نعوذ بالله منه، وكنا نتمتع بهؤلاء الذين كانوا يطيلون السجود، كانت روحانيتهم تصلنا عن طريق التيار اللاسلكي وتلغرافات القلوب، ونحن نراقب عن بعد بعين الحب، حقا كانت جذابة**!**. لكن كان هناك هدف أعم إذ كانت الحركة تريد تبصرة المسلمين إلى أساليب ومتطلبات دعوية عملية يكون لها أثرٌ فعّال. وأصبحت تلك الصلاة فيما بعد **رمزا** لنا عند المخابرات تعتقل الأفراد بسببها.

أذكر أني اختفيت وراء الشاب النحيف اللطيف آنذاك «أحمد نور عرب» وهو رافع يديه إلى السماء، متوجها إلى القبلة في صلاة الضحى، وفي داخل مسجد صغير خالٍ من الناس، كنت أحاول أن ألقي السمع لأصواته الخافتة التي يصعب أيَّ انسان أن يلتقطها، وأنا متخف وراءه وهو في غفلة عني، وانه لخفى عليّ بعض عباراته وأسمع بعضها، سمعت منه بجهد وهو يقول بصوت خاشع مبكٍ «اللهم ....اللهم.......... علما نافعا، وقلبا خاشعا، ولسانا ذاكرا، ورزقا واسعا .... وتوبة نصوحا، توبة قبل الموت، وراحة عند الموت، ورحمة ومغفرة بعد الموت، والعفو عند الحساب، والفوز بالجنة والنجاة من النار.... إلخ». كنت متيقنا أنها رفعت إلى الملأ الأعلى وأنه وجد لذة المناجاة كما وجدت معه شيئا شبيها، وكنت أقول من ورائه سرا اللهم آمين اللهم تقبل، وأحيانا أقول وجبت. ومن الطبيعي في هذا الزمن أن يقول أحدنا لصديقه الحبيب، أخي لا تقطع أحلى ساعات أنسي، ولا تشوِّش ألذ دقائق المناجاة.

*****

مطبّات عند فوران الشّباب

إن أي شاب سيمر مرحلة يتأهّب لاستعراض عضلاته وقد يتهّور، وأن جلنا كنا وقتئذٍ في مرحلة فوران الشباب، ومرحلة التغييرات الفجائية التي تحدث في مرحلة المراهقة، إلا أننا كنا مكبّلين بالطاعة للقائد، ومتمرنين بالإصغاء والاستماع الجيد، والانصياع لنصائح العقلاء والعلماء، وكان ذلك بالنسبة لنا؛ ترياقا للأفعال العاطفية المتسرِّعة، فلم نتهوّر في خلال رحلتنا الدعوية، ومن خلال حماستنا المتوهِّجة، بل كنا نمر المراحل متلائما مع النضوج الفكري لكل مرحلة، ونعقل ما يصاحبها من رغبة في التمرُّد والاستقلال.

والشباب بحكم فوران الجسد وحالة النماء المتسارعة المتعجلة التي تزيد الطاقة الجنسية، لا يتوقفون كثيرا أمام حسابات الأمور وميزانها، فهم مندفعون تحكمهم رغبة جامحة نحو تحقيق الأكثر في الأقل من الوقت. ونحن مع حرصنا الشديد على الإيجاز لا نرى بدا من أن نقدِّم بعض الأمثلة التي أعتبرها شبيهة بالتهور أو كدنا أن نلقي أنفسنا بالمخاطر بسبب تأثراتنا وحماستنا المشعة أو المراهقة وهذا درس هام للشباب في كل زمن، وتلك الحوادث التالية دليل على ذلك

أولا: حادثة الوصول إلى القمر «أبولو ١١»

أعلنت الحكومة الأمريكية أن مكوك الفضاء بقيادة «أمِسْترَون» وصل إلى القمر عام ١٩٦٩م، ولسان حالها يقول آنذاك: إن قوّة أمريكا وهيمنتها العالمية تجاوزت الحدود الأرضية إلى العوالم الأخرى، وبالتالي بإمكان أمريكا بعد اليوم أن تغزو على الكرة الأرضية من العالم الخارجي كالعفاريت، وذلك يوجب على الجميع بما فيهم الاتحاد السوفيتي المنافس الوحيد لأمريكا أن يفسحوا لها الطريق، ويعترفوا لها الفوقية والقوة العظمى بلا منافس لا في الأرض ولا في السماء، وأن مصير الانسان مرهون برحمة أمريكا وإرادتها؛ متجاوزا الصراع الذي كان بين الأقوياء المتنافسين على الفضاء كل طرف يحاول أن تظهر عضلاته العلمية أمام الآخر، فضاعفت القضية الغزو الفكري الذي عمّ المنطقة الإسلامية في ذلك الزمن، وكانت بداية ظهور الأقمار الصناعية أو الثورة الفضائية والتي فتحت الطريق لعوالم الأقمار الصناعية والعقول الإلكترونية، والتي أحدثت فيما بعد ثورة في الاتصالات، وتزامنت في زمن كل فرد في العالم ينظر إلى الهيمنة الأمريكية وأفلامها نظرة اعجاب ويتمنى أن يعيش الحياة الأمريكية.

فخلّفت الحادثة ضجّة كبيرة في العالم بين مؤيدٍ مستسلم متفاعل مع الحدث، وبين معارضٍ غاضب منكر لها، وهكذا كان الحادث يلعب دور الانبهار بالولايات المتحدة والاعتراف لها بالفوقية، وكان يلعب دورا هائلا في الغزو الفكري حينها.

وكان هناك مقولة أمريكية مشهورة ومروجة في حينها من رئيس «جونسون» الأسبق يفتخر فيها: «إن البريطانيين سادوا العالم بسيطرتهم على البحار، وسيطرنا نحن على العالم بعد الحرب العالمية الثانية بفضل سيادتنا في الفضاء». ومن منطق الفوقية الصاعد في السماء يرى من أقبح النقائص رضاه

بالأرض، وقديما قيل الصاعد فوق الجبل يرى الناس في الأرض صغارا كما يرونه صغيرا ، ولهذا كان الرسول ﷺ وأصحابه إذا طلعوا على مرتفع كبّروا ب «الله أكبر» ، وإذا هبطوا إلى منخفض سبَّحوا ب «سبحان الله» وإذا انتصر ركع ثم سجد شكرا لله. وكان يأمر الصحابة بذلك في سفرهم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَرَادَ رَجُلٌ سَفَرًا فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَوْصِنِي، فَقَالَ: «أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ، وَالتَّكْبِيرِ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ» (١) . فَلَمَّا وَلَّى، قَالَ: «اللَّهُمَّ اطْوِ لَهُ الْبَعِيدَ، وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ» .

أما الكافر يطغى ويستبد عند كل رفعة أو غلبة، وعندما ارتفعت أمريكا من فوق الجبل إلى الفضاء تطاولت وتضخمت واستكبرت في الأرض بغير الحق، وأطلقت تصاريح مغزاها ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴿١٥﴾ ﴾ . ومصطلح الفضاء كان جذابا وفضفاضا في ذلك الوقت، وذلك بعد ما ظهرت معلومات من عوالم الذرات والأفلاك، وأطلق بعض العلمانيين الملحدين ألسنتهم، وروّجوا مشكلة قادمة سموها «الكوارث المفتعلة» فقالوا: «أن أرزاق الأرض غير كافية للبشرية في الأعوام القليلة القادمة، وإذا حدثت الانفجارات السكانية، أو الكوارث فعلى البشرية السلام، ومن ثمَّ فعلى البشرية اليوم أن تقدِّم شكرا للأمريكان الذين اكتشفوا القمر، وسيكتشفون غيره من النجوم الأخرى، وهذا سيؤدي في الأعوام القادمة رحلات إلى الفضاء والهجرة إليها لكسب الأرزاق» انتهى. وكانت أسخف نظرية مروّجه بجهل عميق وحماقة غريبة، قالوا: «الانفجار السكاني سيوقع الناس بالمجاعة» شعرنا يومها أن هذا الأمر امتحان لحريتنا الفكرية ولتجربتنا الروحية بمعنى كانت غزوا عقديا يتجاهل بأن الله ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النور: ٣٨] ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾

(١). الشرف : المكان المرتفع

﴾ [المنافقون: ٧]. ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر: ٢١] ، ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٣] وكانت نظريتهم تلك شبهة ضد التوكل على الله التي هي أثقل القوى المعنوية على الاطلاق .

كانت هناك في القرن العشرين قضية أخرى حساسة ومثيرة للجدل ذات علاقة بالموضوع «موقف المسلم من العلوم التجريدية والنظريات الحديثة» التي كان الغرب يستخدمها كآية ومعجزة في عبقريته وتقدمه وهيمنته وغزوه، وكان كثير من المخلصين ينظرون بعض النظريات العلمية بعين الريبة والشك، معللين بذلك أنها تضخم الاستعمار الغربي، ويستخدمها كمعجزة لهيمنتهم على العالم ، كما كثرت شكوك طبقة من العلماء المخلصين في كثير من ما هو أوروبي وأمريكي، وبمعاداة كل شيء يأتي من الغرب، خاصة كل ما يتعلق بالألبسة والسياسة والقيادة والهيمنة والدستور والبرلمان والديموقراطية والغزو الفكري، وهكذا كان بعض المجموعات يعترضن وقتئذٍ على استخدام أي نوع من الابتكارات الغربية، وكان هناك تأثير جزئي بما يمكن أن نطلق ب «الجمود» الذي كان منتشرا في العالم الإسلامي آنذاك.

كانت رؤية بعض الشباب من هذه القضية متقاربة مع بعض التوجهات التقليدية المذكورة، مع أن البعض كان يرى نوعا من الازدواجية بين العلوم التي يتلقاها في المختبر، وبين رفض بعض المتدينين الذي هو ينتمي إليهم، وربما كان هذا الشعور المذكور عند بعض الأفراد مثل هؤلاء الموالين لبعض العلماء التقليديين.

كانت الطليعة أو الأحرى قائدها عبد الكريم، يرى في ذلك الوقت أن ادعاء وصول القمر لا يعدو على غطرسة فرعون الذي قال في زمانه ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ ﴿٣٧﴾ ﴾ [غافر: ٣٧]

وكانوا يقولون إن الوصول إلى القمر كذب في كذب، وكانت هناك صيحات شبيهة تأتي من العالم الإسلامي.

وفي هذه الحالة أفتى قاضي القضاة «الشيخ علي صلاة» الصومالي بصحة مزاعم الأمريكان، وأن آية من كتاب الله تؤيد إمكانية الوصول إلى القمر وكان رأيا تفرّد به يومها، واستدل قوله تعالى ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرحمن: ٣٣] أي بقوّة. وقال: الأمريكان وصلوا القمر بالقوّة والعلم على حسب تفسيره، واكتشف الأمريكان بالقوة بعد تطوُّر العلم الحديث وعبر أجهزة حاسوبية حديثة بالغة الدِّقة، فأعجبت هذه الفتوى الأمريكان، وعزَّزت علينا في التشكيك بصحة هذا الحدث.

أراد إثبات علمية القرآن واعجازه، وأن يحمل الآية القرآنية على مسايرة العلم الحديث، كأنَّ العلم المتقلب هو الأصل الحق الذي يشرف القرآن ويعظم بمطابقته. فعُـلِّقت الآية الكريمة على لوحة الإعلانات في السفارة الأمريكية في حيٍّ شنغاني بمقديشو، واستلم الشيخ جائزة «الجنسية الأمريكية» من الولايات المتحدة بسبب هذه الفتوى الدينية المؤيدة لقوة أمريكا وهيمنتها على العالم، واستُقبِل في جميع الولايات الأمريكية كمنجِّم عالمي، وعاش في أمريكا حتى وافته المنية فيها قريبا.

اعتبر بعض الشباب هذا التفسير تلاعبا وإهانة لكلمات الله، يستخدمه عدوٌ لا يؤمن بها لأغراضه الخاصة أو لخيانته العظمى حسب رؤيتنا في وقتنا ذاك، وأن على الجماعة أن تنقذ الآية الكريمة من العدو الذي اختطفها، وأن تفك الأسير «الآية» بالقوة من السجن المهين، تزامنت في زمن الشباب في فتوتها وفجر عهدها. واقترح بعض الشباب الهجوم على السفارة، وكسر الزجاج، وإنقاذ الآية الكريمة المأسورة!.

جهزنا كتيبة مسلحة بالعصيِّ لهذ الهجوم، ذهبنا ونحن في غاية حماسنا إلى بيت الأمير الشيخ عبد الكريم حرسي، نعلمه قرارنا ونطلب منه موافقته، كأننا نجبره على تنفيذ قرارنا على طريقة الشاب المراهق الذي كان عليه تغذية النمو في جسمه، يقوم باستهلاك الطاقة بأسلوب شره، تظاهر الشيخ أن الفكرة مقبولة لديه، وشـدّ أزره، فقام وقال هيا بنا!. وذهب معنا كقائد للكتيبة المهاجمة ، لأن من ذكاء المربي غض الطرف عن الأخطاء غير المؤثرة ؛ لقد تولى زمام الأمر فأوقفنا على مقهى في الطريق، وشرّبنا أكوابا من الشاي، وحدّثنا بالطرائف، ومازح الفتاة التي كانت تعمل في المقهى كموظفة، كانت سوداء فقال نسأل الله أن يرزقنا حسناء بيضاء، فقالت والسوداء؟، فقال نغمض أعيننا ونقبل إذا أجبرنا القدر، لأننا مؤمنون بالقدر خيره وشره، فقالت لكنك يا هذا، لا تقبل سوداء مثلي باختيارك؟ فقال لا لا!، فضحكنا كلنا حتى بدت نواجدنا.

ثم تحرّكنا وقد هدأت حماستنا قليلا، وصلنا إلى السفارة فوجدناها مكتظة بالبشر كالجراد، والجدال يدور بين مؤيِّدٍ للحدث وغاضب رافض، وهكذا كانت أزقات مقديشو كلها ليلا ونهارا، إذ كانت الحادثة تزامنت في ليالي المقمَّرة، الجدال كان يدور حول الحدث الهائل المستجد الذي أصبح «حديث الساعة».

كان الفيلم وصول القمر يجري في المركز الثقافي في السفارة، يتفرّج الناس به مجانا، والنزاع في عنفوانه بين الداخلين والخارجين.

دخلنا النزاع والجدال مع الناس أمام السفارة، والجدال كان يدور حول :- الحدث حق، لا!! بل باطل!، الإسلام يقبل، لا!! لم ولن يقبل!، الدين أيّد، لا!! لم ولن يؤيد!!، واصلنا المعركة حتى تعبنا وتنفسنا، وكنا نلوِّح العِصِي استعدادا للمعركة القادمة، ونحن ننتظر أوامر الاقتحام من المدير، إذ كنا لا نخطو خطوة إلا بأمرٍ من القائد؛ لأننا كنا مدربين بالطاعة؛ تماما ككتلة عسكرية، لكن عبد الكريم فاجأنا بالانسحاب من المعركة. وقال: لا داعي لاقتحام السفارة، بل نرجع سالمين غانمين، وكفى الله المؤمنين القتال ورجعنا.

في اليوم التالي جاء الشيخ محمد معلم حسن رحمه الله زائرا إلى المركز العام كعادته، وكنا نزوره أيضا في بيته القريب في المركز، وتعرّفنا عن طريقه الشيخ شريف عبد النور الذي نزل في بيته بعد تخرُّجه من الجامعة، قابلنا الشيخ شريف هناك وهو صامت ساكن يعلوه وقار الاطمئنان، وكان الشريف عاقلا رزينا يختار الألفاظ الراقية، وعرّفنا الشيخ محمد هذا الشريف قائلا لا أعلم صوماليا يوازي في العلم بالشريف، سألنا الشيخ محمّد بزيارته هذه عن رؤيته في الموضوع الساخن « أبولو ١١ » وتفسير الآية القرآنية التي أوّلتها الولايات المتحدة الأمريكية.

تحدث رحمه الله عن علم الفلك، ومجموعتنا الشمسية، والأقطار المذكورة في الآية الكريمة، وأن القمر ليس بعيدا عن الأرض كما قال علماء الفلك أنفسهم، وأن الوصول إلى القمر يعتبر بالنسبة للمجموعة الشمسية الأخرى كمن خرج من بيته إلى فنائه، ومن مسلمات علم الفلك أنَّ أقطار السّماوات والأرض

أوسع بكثير مما يمكن أن يتصوره أو يستوعبه العقل البشري وقوة ادراكه، ولا يمكن بأيِّ حال تجاوزها، كان يعلم كثيرا عن علم الفلك، وكان من العلوم المتداولة في أوساط الطلبة حتى في المساجد قديما، وكنا نستمع مقالته بكل أعصابنا وقوة إدراكنا. قال: أما قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣ ﴾ فهي تعجيزية إذ لا يمكن لأي مخلوق أن يتجاوز أقطار السموات والأرض، ولا سلطان له بذلك، وخلص الموضوع بأنه ليس لدينا في القرآن ولا في الأحاديث النبوية الصحيحة نصا قاطعا، يمكن أن نعتمد عليه في إنكار الوصول إلى القمر، والقضية ليست لها أهمية كبيرة كما يروِّج البعض. فهؤلاء كان من عاداتهم أنهم يجنون بالإعجاب المبهور الذي يصيبهم حين يطلقون قمرا صناعيا صغيرا يدور حول الأرض فترة محدودة من الزمان؛ فيضخمون أنفسهم في غفلة بليدة، فلا يلقون إلى هذا المشهد الرائع الباهر إلا نظرة عابرة ساذجة أو مطموسة، وإذا تحركوا قليلا إلى الأمام يكادون يصعقون ويضحكون ويمرحون. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ ٣٠ ﴾ [النجم: ٣٠]. وكلما اكتشفنا علما – نحن البشر – كان من المفروض باكتشاف مهاوي جهلنا ، وكل خطوة نتقدمها نكشف عن غوامض جديدة.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧ ﴾ [الروم: ٧]. ومن أروع تعليق ما أطلقه السيناتور الأمريكي «وليم فولبرايت» قال: «لقد وصلنا إلى القمر، ولكن أقدامنا ما زالت منغمسة في الوحل، إنها مشكلة حقيقة عند ما نعلم أنَّ الولايات المتحدة فيها أكثر ١١ مليون مدمن خمر ، وأكثر من ٤٤ مليون شارب خمر» ا. هـ.

من تلك الليلة وبعد مقابلة الشيخ اقتنعنا بجوابه، ووضعنا الحدث عنا جانيا، وأنَّ فوران هياجنا الداخلي قد بدأ ينزل عن درجة الغليان، وقرأنا بل رددنا كثيرا قوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ واعتبرناها شعارا ، حتى أصبحت لنا منارة مفيدة محفوظة.

كنا نستفيد من كل الناس، وما كنا حركة مغلقة لحزب أو لزعيم، بل كنا نتعلم من كل أحد، خلافا لما يجري الآن في الساحة الدعوية المغلقة لمذهب أو لشيخ أو لرأي فئة من الفئات.

ملاحظة: عند تعاملنا مع فوران الشباب وحماسته التي عبَّر البعض قديما «شعلة من الجنون» تحتاج منا إلى أخذ خطوات معها إلى الأمام وعدم المواجهة المتكررة، التي تصوِّر للشاب التجمد والجبن لأن الشباب يحتاج إلى من يفهم لا إلى من يفهمه. كما أن المطلوب من أهل العلم والخبرة أن يترددوا على أبواب طلبة العلم وتوعيتهم قبل تقدمهم إلى المهالك والانفجارات.

ثانيا: درس بين العدالة والعاطفة

انضم إلى الجماعة شـاب يزعم أنه من النسّاك (عبد القادر حاج بشير)، والذي كان يصور أنه من المحبين للرسول ﷺ ، وأنه رأى الرسول في رؤيا وأنه قال له كذا وكذا، وكان هناك رجل فقير كان ينام في المركز العام، وكان من أقرباء أحدنا، لكنه لم ينضم إلى الجماعة، ولم يكن متدينا حسب المطلوب، واتهم الأخ المتصوف بالسرقة، وقال: كان هو الوحيد الذي دخل المركز، وسرق مني كذا وكذا، غضبنا كلنا من هذه التهمة لأحد أعضائنا الأحباء ومن نسّاك الحركة، يتهمه رجل ليس منا في التنظيم بالسرقة.

قدمنا شكوانا إلى المدير العام (الشيخ عبد الكريم حرسي)، فقال: لا تستطيعون أن تبرؤوه من السرقة شرعا، ومن يدري لعله سرق؛ فلا تتعجلوا فهو ليس معصوما؛ فإذا به بعد أيام يسرق ساعة من شيخ آخر، كان يُدرِّس الأدب العربي والشعر الجاهلي لبعضن الإخوة، سرقها بطريقة ساذجة وكاشفة، لأنه كان مع الشيخ وحده في البيت؛ فلما دخل الشيخ الحمام أخذ الساعة وذهب، وأخبرنا الشيخ الخبر؛ فعوّض الأخ عبد القادر شيخ ساعته من نوع «رومر» الثمينة آنذاك. فلولا نصيحة الشيخ عبد الكريم لظلمنا المظلوم.

النصيحة: على جميع العاملين في الحقل الإسلامي أن يهتموا بالعدل العام. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨** ﴾ [المائدة: ٨]

ثالثا: الزج إلى السجن

من الأحداث غير المتوقعة التي مرّت بنا خلال هذه المرحلة حادثة دخل من أجلها السجن عدد كبير منا، حدثت كالتالي: دخل رجل غير معروف لدينا في مسجدٍ بالنعال، وكان الرجل متدينا لا يهتم بمظهره؛ فثار الحاضرون عليه وضربوه، وذهبوا به إلى مركز الشرطة كم ٤، وكان من عادة الصوماليين أنهم يعتبرون دخول المساجد بالنعال إجراما وفعلا شنيعا، يقولون عاملوا معي كمن دخل النعال في المسجد!، قاوم الشيخ عبد الكريم، وقال لهم إن الرجل لم يرتكب ذنبا، وإن دخول المسجد بالنعال ليس إثما، بل ثبت عن النبي ﷺ أن صلى بالنعال فاستغربوه وأنكروه، فذهب إلى بيته وأخذ معه كتبا عدة ، أذكر من الكتب التي جمعها صحيح مسلم وكتاب المنهاج للنووي وغيرها، ليثبت على الشرطة أن فعل الرجل يقرُّه الدين ولا ينكره وهذا هو الدليل.

في الطريق وجد بعض الشباب، وقال لهم: اليوم يوم الجهاد، أنصروا السنة، وقاوموا الشرطة، اجتمع عدد كبير من شباب الجماعة في مركز الشرطة يقودهم رئيسهم عبد الكريم، وقيل للشرطة هؤلاء يدافعون البدعي الذي دخل المسجد بالنعال، وبدل أن يجادلوا الشيخ بالمسألة زجُّونا في السجن بالقوة.

كان تدريب البوليس عالٍ في حينها ، درّبته ألمانيا، فكان لديهم رجال مصارعة أقوياء الجسم، أشبه ما يكون بالدبِّ، ذووا تدريب عال لقمع النشطاء والمشاغبين، وكانوا يقيسون بالبطولة بالأقوياء الضخام.

بدأ عبد الكريم يدعو على الظلمة، وذهب يغني بالقصيدة التوحيدية القوية على «أسماء الله الحسنى» للشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله، وكان يغنِّي على شكل انشاد، وكنا نردِّدُ وراءه بصوت عالٍ، وهي قصيدة توحيدية قوية التعبير شديدة التأثير تبتدئ ب:

شرعت بتوحيد الإله مُبسمِلا * سأختم بذكر الحميد مجمّلا

فيا طالبا عزا ورفعة * فادعوه بأسمائه العلا

عزيز أزل عن نفسي الذل واحمني * بعزك يا جبّار من كل معضلا

سألتك عزا يا معز لأهله * مذلٌ فذلِّ الظالمين مُنكِلا

يا قادر ذا البطش أهلك عدوّنا ومقتدر قدِّر لحسّادنا البلاء

فاجتمع الضباط والعساكر لدويِّها، كما وصل إلى المركز شفعاء، قالوا: إن هؤلاء كلهم طلبة لهم امتحان غدا في مدارسهم كل ذلك مجتمعة أدّى إلى إخراجنا من المأزق وخلّوا سبيلنا.

بعض الإنجازات قبل عام ١٩٧٠م

إنَّ هذه الإنجازات هي من بعض الأعمال التي مارست خلالها الحركة ، وما عداها من إنجازات كثيرة جلها تمت في ظروف عصيبة.

أولا: رفع شعائر التكبير والتهليل في الأعياد

اعتادت الجماعة إقامة مهرجان في كل ليلة عيد، كنا نسميها «شعار العيدين» بالتكبير والتهليل أو لهدف «الاستعراض». كان الموكب ينطلق من مركز الجماعة في حيٍّ «أنزلوتي» مرورا بالجامع الكبير في نفس الحيِّ، متجها إلى مقر البرلمان القديم في «شبيلي» الذي اشتهر في الأعياد بالألعاب والرقصات الشعبية المختلطة. ومنه إلى طريق مكة المكرمة وصولا إلى (كم٤)، رجوعا إلى المركز العام في حيٍّ «أن زلوتي».

كانت الرقصات الشعبية تتلاشى بدويِّ التكبير والتهليل، قبل وصول الموكب إلى مقر البرلمان على قاعدة «إذا جاء الحق اختفى الباطل فجأة» أو قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء: ٨١]، وكان الهدف من هذا المهرجان استعراض العضلات وإزالة المنكرات والدعوة إلى الانضمام، وتعريف الناس بالتأييد الشعبي للجماعة؛ فكانت الجماهير التي تجمعت للألعاب تختفي، وهكذا دائما إذا جاء الحق زهق الباطل.

قادت الجماعة هذا الاستعراض الجماهيري عامي ١٩٦٨م - ١٩٦٩م وكان ينضم إليه بعض العلماء وطلبة المساجد والمتعاطفين، وكان كل صف من صفوف الحشد يتكون من خمسة طوابير في أربعة

أشخاص تقريبا، يقودهم أحد المشايخ الذي يجيِّد التكبير والتهليل والآخرون يرددون وراءه. منظموا الحملة كانوا خارج الحلبة، يلوِّحون بالعصيِّ لأيِّ مشاغب، قائلين تفضّل في الموكب وإلا ابتعد، لا نقبل المشاغبين، لقد أعجبت الجميع المظاهرة المنظمة ذات شعار ديني مؤثر ينظمونه شباب متمدنون أنيقون. كان الاقبال شديدا استجابة طبيعة للظروف التي كان يمر بها وقتها الشعب الصومالي.

حاول البوليس منع الاستعراض عدة مرات، وصدوا الطرق المؤدية إلى الرئاسة بالعربات

فقال: ماذا تريدون؟ قال عبد الكريم قائد الحملة نكبِّر ونهلل لا غير. قال: ممنوع!!

قال: بجرأة مثالية ممنوع !!؟ من الذي منعها؟ لا يمنعها إلا الذي له الأمر والنهي. ثم قال: «الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا» ومشى إلى الأمام وردد الموكب وراءه، ولوّح المنظمون بالعصيِّ فخلى سبيلهم، وانتهى الاستعراض بسلام لم يمسهم سوء.

في نهاية الاستعراض وعند المركز العام، كانت العادة أن يلقي أحد الجماعة خطبة التي أعدت لهذا العيد حول الإيمان بالله واليوم الآخر، والدعوة إلى الله سبحانه وإلى كتابه. توقف الاستعراض مرة عند مركز «حزب الله الأعظم» الذي كان مركزه قريبا ب «دبكا» في شارع مكة المكرمة، وذلك بعد أن توقف جماهيره أمام المركز لتهنئة الجماعة وتأييدها، فاضطر الشيخ عبد الكريم أن يوجِّه الجمهور إلى قاعة المركز؛ فخطب الأعيان عند هذا الجمهور الشعبي، كان بعض الشباب انزعجوا عن تصرف عبد الكريم الذي أهدى الجماهير إلى ذلك الحزب، لكنه كان حكيما في تصرفاته تلك.

إن محاربة المنكرات بالتكبير والتهليل كانت سمة اتسمت الجماعة في مراحلها الأولى، معتقدين أنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد ساهمت الحركة في ابطال عادة من عادات الجاهلية المقصود منها يومها

محاربة الأعراف التي تعارض نصا شرعيا، كنا نأتي بأعدادٍ هائلة إلى أماكن المنكرات المعروفة بالرقصات الشعبية المختلطة والتي كانت منتشرة آنذاك في كل ليلة، ثم يصيح أحدنا موهما أنه يأخذ دوره في الغناء قائلا آااه!، فنختم بدوي التكبير «الله أكبر ألله أكبر، الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا، الله أكبر، ألله أكبر» ...وهكذا. وكان دويُّ التكبير غير المتوقع يرهب الفتيات فيهربن من المسرح، ثم يلقي أحدنا خطابا معدا سلفا، وأن الله لم يخلقنا للهو واللعب، وإنما خلقنا لعبادته وطاعته. وكنا نعرِّف الحاضرين أمر الجماعة ونقـدِّم الدعوة للانضمام إليها، والدعوة إلى التعاون على البر والتقوى، وقد نجحت الحملة نجاحا باهرا، وأنتجت ثمارها، حتى اختفت الظاهرة ، ومن خلال تلك الحسبة نجحت الجماعة في مخاطبة الجماهير من خلال محتوى ديني جذاب .

كان كل واحد منا يقضي ليلته لمقابلة الجدد ونتنافس في ذلك، وأذكر أن عبد القادر شيخ محمود أضحك المجتمعين في إحدى هذه المناسبات، وقال: الليلة دوري لمقابلة الجدد وهناك تنافس بيننا؛ فلا تعيبوني، انضموا إلينا لنتعاون على البر والتقوى، ولا تتركوا هكذا كما فعل الكثيرون، وكانت الحركة تزداد كلما انضمَّ إليها عضوٌ تتحوَّل إلى مجتمع يرى الإيمان بذل وفداء، وحديثنا مع الناس لضمهم إلى الصف كانت مشوقة.

بعد قيام ثورة أكتوبر، قدمنا طلبا للحكومة للسماح بمواصلة الشعائر المعتادة في الأعياد السابقة، قابلنا المحافظ؛ فحوّلنا إلى مركز الشرطة في «كم ٤» حيث المركز العام للشباب، فرفضوا الطلب مدّعين أننا غير معروفين لدى السلطات، وفي وضع انقلابي مغاير، وأنكرت قيادة البوليس جماعة إسلامية شبابية متحضرة غير تقليدية، قال الضابط مع ابتسامة ساخرة: لستم من الطرق المعروفة، ثم إنكم تتكلمون

باللغات الأجنبية، وأنتم لابسين السراويل، قال: اجتمع الضباط البارحة هنا لمناقشة قضيتكم في الليلة الماضية فلم يستسيغوا قضيتكم، ولهذا رفضوا طلبكم. وبجانب رفض السلطات بطلبنا نلنا من السخرية ما أحزننا.

قال بعض منا: كنا مخطئين لماذا نسأل هؤلاء الخبثاء عن أمر يتعلق بديننا، ثم أحّلنا القضية إلى الشورى التي قـرّرت إلغاء شعائر التكبير والتهليل كي لا نتحرش لمن هو أقوى منا وأكثر عدة وسلاحا، وذلك بعد ما سيطر الوضع العساكر بانقلاب عسكري مفاجئ.

ثم ظهرت القصيدة العفوية التي ذكرناها سابقا: والتي بدأت:

Muslimiintiyoo Isu miiranoo magaclaanu nahay

Mudac iyo mindiilo afaysanoo murtad iyo gaal mudayaanu nahhay

Waxaanahay diyaarada miigahoo lagu dilo ninkii aan diinta rabin

*****

ثانيا: معركة كوميديا الإلهية:

(DIVINO Commedia)

قامت الجماعة بحملة ضد شعر «كوميديا الإلهية» للأديب الإيطالي دانتي المتوفى عام ١٣٢٠م، وكان شعرا مقررا في بعض المدارس الإيطالية، كمادة دينية وأدبية تدرسها الراهبات للطلبة ، اقتـــبـس الأديب الايطالي المعلومات عن «الاسراء والمعراج» ونظم شعرا بلغته الإيطالية ، يحاول يصف العذاب وجحيم الأشرار، فألف في سياق الازدراء للنبي وبعض الصحابة، وفي تجواله المزعوم في الجحيم يعاين «دانتي» النبي محمد ﷺ وعليا رضي الله عنه، في الدائرة التاسعة من الجحيم «الدرك الأسفل من النار» قرب الشيطان، حيث حشر مثيرو الصدامات والانشقاقات الدينية والسياسية .... لُعِنَ بما قال.

كانت العادة عند الغربيين في القرون الوسطى، سرقة المعلومات من الكتب التي ألفها المسلمون، ثم يوجّهون حيث يريدون توجيهها، ويعتبرون ذلك من تأليفاتهم. وكانت الراهبات يوزعن المناديل على الطلبة لمسح الدُّموع عن العيون أثناء إلقاء درس الشعر المذكور الذي يتحدث عن النار وأهوالها.

قاومت الجماعة هذا الشعر الملعون، وطلبت من وزير التربية والتعليم آنذاك، إلغاء هذا المقرر من المدارس، وقادت ضجة كبيرة، ومظاهرات عمّت المدارس، واجتمعت مع الوزير في لقاء علني في شبيلي، رفضت الجماعة خروج الوزير من القاعة حتى يستمع شكواها؛ فاضطرّ أن يستمع الشكوى، أدَّت إلى إصدار قرارٍ يشطب من المقرر فقط العبارة المعادية المسيئة للرسول ﷺ ، والمؤمنين عامة خاصة

أمير المؤمنين علي رضي الله عنه. معللين بذلك أن هذه المدارس أسِسَت بأموال شعب مسيحي، ولا يمكن أن تستمر إذا لم يساعدها هؤلاء، وما فعلوا ذلك إلا لتأسيس مدارس يكون الإنجيل من مواده.

لكن الجماعة لم تقتنع بهذا الرأي وهذا القرار بل واصل الإخوة المظاهرات، والخطب في الأماكن العامة، وامتنع الطلبة عن دخول الفصول، طالبين بإلغاء «الكوميديا الالهية» من المقرر، وليست فقط الفقرة المسيئة للرسول ﷺ وصحابته الكرام، فاضطرت الوزارة الى إصدار أمر إلغاء المقرر المهين، وانتهت المشكلة بنجاح تام وكفى الله المؤمنين القتال، ثم بعد فترة غير طويلة جاء قرار تأميم المدارس وكثير من المراكز لتوحيد الثقافة وتوجيهها إلى الإلحاد، وذلك بعد تبني الاشتراكية العلمية والتحول إلى الشيوعية المعادية للأديان.

والنهاية أنَّ هذه الحركة في مسيرتها الدعوية واجهت مذاهب فاسدة، وعقائد باطلة، وهجمة نصرانية ماكرة، وتخطيطا يهوديا، ونشاطا شيوعيا إلحاديا، ونظاما علمانيا عسكريا. ولا شك أنَّ صبرهم على هذا المشاق أعقبهم الله به كريم الأجر وجميل الذكر.

*****

ثالثا: الدعوة والمرأة « قسم السيدات »

كان اهتمام الغرب على المرأة شديدا وساخنا في ذلك الوقت، كان مرتبطا بالظاهرة الاستعمارية، واعتبر المفكرون الغربيون النساء في العالم الإسلامي، المصانع الحربية التي تنتج الذخيرة للأمة المسلمة، وكان الحجاب من الظواهر المخيفة التي تحول بينهم وبين أهدافهم الاستعمارية. وكانت الظاهرة نتيجة الجهد الجبار الذي قدمته الحضارة الغربية لإثباته. وكان من أولويات الغرب الاستعماري هدم آخر منجزات الحضارة الإسلامية «الأسرة» اعتبارا من أن الحياة الزوجية هي آخر حصن باق للأمة. وفرضوا على الفتيات كما فرضوا على الفتيان ، خطتهم التعليمية والتربوية المشحونة بقسط كبير من المفاهيم الاعتقادية والخلقية والسلوكية المنافية لتعاليم الإسلام تحت ستار العلمانية والاشتراكية .

«تعليم المرأة» و «تحرير المرأة» و «حقوق المرأة» و«تحديد النسل» و «الفن والمرأة» و «الانحلال والسفور» «التبرج والاختلاط» وغيرها كانت من العناوين البارزة والمكررة في النوادي والمسارح وحفلات الأفلام والجرائد والمجلات الفكاهية والهزلية في ذلك الزمن، إضافة إلى الهجمة الشرسة على العفة من خلال المسارح والأفلام قديما ، ومن خلال القنوات الفضائية والشبكة العنكبوتية ودعاة السوء الذي ينادون للرذيلة تحت غطاء تحرير المرأة واعطائها حقوقها أخيرا. وإذا احتشمت المرأة المسلمة في لباسها أرعبوها بالتزمت والتعصب، فخلّف الغرب هذه البصمات المضللة على المرأة المسكينة، ثم زعمن بعضهن التحضر.

فانتشرت ظاهرة التبرج أقبح من تبرج الجاهلية الأولى، إذ كانت الحسناء الأنيقة الصومالية اللاتي تسمي نفسها بالمتمدنة، كانت تلبس جيب قصير فوق الركبتين خلافا للعادة، كما كانت طويلة الأظافر،

أما الرأس فكانت الموضة المتبعة آنذاك عند الصوماليات، تلفيف الرأس بقطع من القماش لتوهم أن لها شعرا غزيرا، والأعجب من ذلك الإطلاق على هذه الظاهرة الغريبة والمستوردة بالتمدن والتحضر.

كان يطلق الشعب على هذا النوع من الفتيات بالصومالي «dabagab» لقصر ثيابها، كان لهنَّ قبول لاهث عند الوزراء والرؤساء، وكانت المتبرجة تنافس النواب والأعيان والوزراء على أبواب ومكاتب الزعماء لمساعدة القبائل والأسر.

كنت طالبا في المعهد الأزهري في العام الدراسي ٦٦—١٩٦٧م، وقد تدفّق وقتها من عدن عدد هائل من الصوماليين الهاربين من المعارك الحامية، التي كانت مشتعلة بين الثوار اليمانيين وبين المستعمرين البريطانيين، وكان عدد كبير من البنات الصوماليات اللاتي كنّ يعملن في عدن كخدامات، والتي كانوا يطلقون عليها «الآية». وكانت تلك البنات تستورد ألبسة من عدن أكثر عريا من اللبس المعتاد في الشمال، دروعا شفافة أطلقوا عليها اسم «الساتر» استهزاء وكناية عن عدم ستر أجسادهن، وكأنَّ لسان حالهن يقول أنظر كل جسدي هل هناك بضعة من جسدي سترت عنك، بمعنى لم أستر منك شيئا من جسدي، بل كشفت لك كله!!.

ثم ظهر في المنطقة الشمالية شيخ ثائر يأمر بالمعروف وينهى عن هذا المنكر المتعلق باللبس، لا أذكر اسمه الآن، وكان يهاجم على هذا اللباس الغريب بالسوط اللهيب؛ فكان يخيف النساء ويهربن منه كثيرا قائلين يا للهول الصوفي الثائر!!، وأخيرا قتله رجل بالخنجر في هرجيسا بعد أن هاجم على زوجته المتبرجة. أما نساء جنوب الصومال كنَّ يلبسن ما كان يسمى بملحفة شفافة لا تستر شيئا من جسم المرأة إلا الحمراوات اللاتي كن يلبسن الحجاب العربي التقليدي.

ومن الغرائب أن زوجات العلماء وبناتهن كنَّ كمثيلاتهن في اللبس إلا من رحم ربي؛ لأن الانسان ابن بيئته. وحتى بعثة الأزهر كانت زوجات المدرسين، يلبسن جونا قصيرة فوق الركبتين إضافة إلى كشف شعورهن حسب الموضة في مصر، علما بأن البعثة في كل المحافظات يعلمن الطلبة اللغة العربية والدين وهم الذي كانوا يتولون خطب الجمعة والتوعية العامة، وكان هذا التناقض حديث الناس. والأعجب من ذلك كله ندرة المصليات من النساء، إذ نادرا ما ترى مصلية من بين النساء.

اهتمت الجماعة بالمرأة ولأول مرة في تلك البلاد، وتجرَّأت بمواجهة العادة، واعتبرت الرجل في الإسلام للجهاد والجلاد، والمرأة لبناء العـش والمحضن، وأعلنت يومها أن المرأة « كنز الأمة » التي إذا ضاعت هي ضاعت الأمة من ورائها. وعقدت الجماعة محاضرات للبنات حول « أهمية الأسرة » و « دور المرأة في الإسلام» و دور «الأم لبناء العش» ، وإقامتها أضعاف ما يقوم به الأب من توفير الغذاء والهواء والحماية للجنين ، وتأخذ منه السموم التي يفرزها جسمه أثناء نموه حتى يأذن الله بخروجه إلى الدنيا متكامل البناء ، ثمَّ تلقمه ثديها وتغذيه بلبنها وعطفها وحنانها وتربيتها ، ولهذا جعل لها الرسول ، المقام الأول في البرِّ والصلة والطاعة ، وقدمها على الأب ثلاثا ، وجعل الجنة تحت أقدامها ، . وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ ﴿٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٦] ، فلكل منهم وظيفته. فإذا ما جادَ عنها ، كان ذلك الفساد المستشري التي تصادم الفطرة ، وتلك الاضطرابات التي لا تنتهي . وكان المطلوب من تلك البنات انقاذ الأمة من الفساد ومن تحديد النسل ومن تخطيط الغرب الكافر على الأمة المسلمة عن طريق البرنامج تحرير المرأة وغيرها. وبما أن عمر الأمة في آخر الزمان قصير ، وأيضا محفوف بالمخاطر لابدَّ لتعويضها بوفرة النسل وبالتوالد السريع ، وإلا لفنيت عن بكرة أبيها .

كانت أهمية تلك المحاضرات وتأثيرها عظيما يومها ، بل كان نوعا من أنواع الجهاد، ولا يفهم ميزة هذا الجهاد إلا من عاش في هذا الزمن وشارك فيه ، ومن يعرف ويتذوق يستطيع أن يفرق بين الماضي والحاضر. كانت هناك حاجة ماسَّة ب «انتفاضة نسائية جديدة» وقيام فتيان وفتيات بلذة التجديد التي تقوم وتواجه على الأوضاع الفاسدة.

قامت الحركة تلك الانتفاضة المطلوبة زمنيا؛ وكان الهدف التصدي لحملة العلمنة في ديار المسلمين ، وبخاصة في مجال الأسرة والمرأة، إذ لا زالت الأقلام الغربية بمعية الطواغيت، يتآمرون على المبادئ والثوابت في الأمة ؛ ليزعزعوا بثباتها وتهدموا أركانها، فالعمل على توضيح الصورة الناصحة التي يريدها الإسلام للأسرة ترد كيد الأفاكين، وتدحِّر شُـبه المستغربين. ولتلك الأسباب كلها قدّمت الجماعة دعوتها للنساء تماما كدعوتها للرجال، طلبت من كل أحدٍ في الجماعة أن يقدِّم الدعوة إلى أخواته وقريباته، واستطاعت تقديم الدعوة للعدد الذي اجتمع لديها بهذه الطريقة، فأصبحن الرعيل الأول من الفتيات المؤمنات اللواتي قررن تنفيذ أوامر الله سبحانه مهما كلفهم ذلك، وأخذن البيعة بهذه الطريقة، ثم تمَّ رفع مستوى البنات إلى الدخول في عمق الدراسة الشرعية لأول مرة في الصومال؛ فأصبحن فيما بعد أساتذة في مراكز النساء، وفي المدارس وفي البيوت.

إن منهج التلقي الفوري والاستسلام للواحد الديان، الذي اختارت الجماعة كمنهج لها في تقديم رسالتها إلى الناس هو الذي سهّل تنفيذ كل الأوامر عن طوعية ويسـر. فقد ذكر في هذه الجلسات التي اجتمعت فيها الأخوات مسألة ارتداء **الحجاب** الذي كان ولا يزال رمزا لمقاومة الاستعمار وشعارا للأمة المسلمة.

بداية الحجاب

لم يكن للحجاب أثر يذكر في الصومال إلا المجموعات العربية الأصل ونساء أهل حمر كما ذكرنا من قبل، وكان تقليدا أكثر منه حجابا دينيا، والله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئا هيّأ لها الظروف ولو كان الناس يرونه مستحيلا. جاء هذه المرة كبرنامج عملي **حجابا** بنية تلقي أوامر الله وتنفيذه لا غير، فعُـقدت اجتماعات مع قسم البنات، وطلب منهن ارتداء الحجاب تنفيذا لأوامر الله؛ علما أنَّ جمال المرأة الحقيقي إنما يكمن في سحرها وغموضها وغطائها. وقرئ عليهن تلك الآيات اللاتي نزلت على رسول الله ﷺ ؛ فتقبلتها المسلمات راضيات قانعات معتبرات جهادهن ملزما إلى يوم القيامة، ونرجو من الله أن يرفع مقامهن العلوي في الأرض إلى مقام أعلى في دار البقاء.

وأخيرا: تمثلت الفئة الأولى بأوامر ربها خير تمثيل، وبدأن بالفعل خياطة أثواب فضفاضة تغطي الجسم كله إلا الوجه والكفين؛ فأضيفت الستارة المعتادة عند الصوماليات «جَرْبَسار» التي تغطي المرأة رأسها وعنقها وجيبها، ثمّ تأخذ خمارها الذي يستر جمالها، فأصبح ذلك أقرب حجاب باللبس الحريمي المعتاد وأشبهه في ذلك الوقت، وذلك تفاديا الاستغراب والتصادم مع الشعب أو النظام، ولم يقع تصادم يذكر إلا بعد الانقلاب العسكري الذي قاد معركة حادّة على الحجاب كما سيأتي في فصل لاحق، وكنا نرى أن اختيار أقرب الأحكام إلى تقاليد المجتمع هو أنسب في ذلك الوقت؛ لأن ذلك الحجاب الشرعي الذي سمَّوه أدعياء التقدم قيودا وأغلالا كان غريبا في وقته.

كان يرى المزامن استحالة تحقيق هذا الأمر. وجدت الجماعة عددا لا بأس به غيّروا حياتهم بالكلية إلى الإسلام بعد أن استشعروا الأمن والطمأنينة في معية الله سبحانه فصاروا للهداية أعلاما. بالنسبة للشَعَرْ

لم تنتشر كشفه في المدن حتى ذلك الوقت بينما كانت منتشرة عند الفتيات غير متزوجات في البادية ، كانت الموضة آنذاك في المدينة ستر الشعر وتضخيم الرأس وهي الموضة القديمة الجديدة المذكورة بالأحاديث «كأسنمة البخت المائلة». كما كنَّ طويلة الأظافر خلافا لهدي النبي ﷺ ، وامعانا في التقليد الأعمى.

لم تأمر الجماعة ارتداء النقاب ولم تعتبره حجابا ملزما على النساء. وأخيرا تدفق شكل الحجاب من الخارج منقولا شكله من البلاد الباردة مثل العراق وإيران وغيرها. ونرى أنه لابدَّ من مراعاة اختلاف البيئات ، فالبلاد الحارّة غير البلاد الباردة، فلا ينبغي أن نجبر النساء ثيابا غليظا مؤذيا في الجسد وهم في جوٍ حار.

وقد تلقت تلك الفئة من البنات أمر الحجاب من الله وحده عملا لتنفيذ أوامره، وما أروع الأوامر الربانية إذا كان شعور التلقي للتنفيذ فقط أو «العبودية المطلقة». لقد تخلصت تلك الفئة من ضغط الرواسب الثقافية التي جاءت من مصادر استعمارية، واعتبرته أفكارا هزيلة حقيرة.

وكانت الأخت حليمة عبدي المشهورة ب« عرفون بقبقاني» أول فتاة لبست هذا الحجاب فتلقت بذلك وسام الشجاعة والدعاء من الجماعة، كما سنّـت هي وأخواتها الكريمات سنة حسنة، ندعو الله سبحانه أن يكرمها وأخواتها بالفردوس الأعلى، وأنه قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَمِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْتَقِصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْتَقِصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا». رواه مسلم. تلكم المجموعة التي قدّمت للبنات المسلمات نموذجا عمليا عظيما، ثمّ صبرن وثابرن على تنفيذه ولا يستطيع ذلك إلا من يمتلك

ايمانا قويا يتصدى لتلك الضغوط لأن الصمود أمام الأعداء من صفات المؤمن.

والمصافحة بين الجنسين كانت مألوفة في الصومال، وقد غلبت عاداتهم على عملهم بالشرع، وكانوا يستوحشون من فعل الشيء لعدم جريان العادة لا لنهي الشرع، ومن ذلك اليوم بدأت عند البنات رفض مصافحة رجال الأجانب مهما كانت درجته، وكان لتلك المعركة قصص كثيرة ومواجهات عديدة تحتاج إلى تفصيل في كتاب آخر، وبعد معارك كثيرة في زمن مديد أصبح هذا الرفض مألوفا يتوقع كل من يمد يده إلى امرأة محجبة.

فحصل أوّل استعراض غير مقصود، وملفت للنظر يوم جاء عدد من الفتيات اللابسات بهذا الشكل من الحجاب الملفت للنظر، يودّعن أستاذهن الأخ: عبد القادر شيخ محمود الذي كان يسافر إلى ألمانيا في أكتوبر عام ١٩٧٢م بمنحة دراسية تلقاها من الدولة المانحة، حصل ذلك والثورة في غطرستها، كان عددهم تقريبا عشرة.

استغرب رجال المخابرات هذا الحجاب الغريب بالنسبة لهم والملفت للنظر، كنت حاضرا في هذا الاستعراض، فدعوني إلى مكتبهم الخاص في المطار، يسألونني من هنّ هؤلاء البنات؟ وما هذا الشكل الغريب؟ قلت لهم: سؤالك غريب، وإن مَا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنَ النُّبُوَّةِ الْأُولَى إِلَّا قَوْلَ الرَّجُلِ: «إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ» لكن الإجابة سهلة إنهن بنات صوماليات جئن ليودعن أقاربهن المسافرين لا غير!. فنظروا إليّ نظرة خجل وهزوا رؤوسهم وقالوا: لا بأس سامحنا وذهبوا. ثم قامت الضجة المعادية للحجاب من المدارس بعد إجبار الطلبة والطالبات بزي مدرسي خاص كما سيأتي في فصل لاحق.

*****

دور جماعة النهضة في تعليم النساء

بدأت جماعة النهضة نشاطها وتنظيمها في عام ١٩٦٧م، وكانت أول حركة شبيهة بأنشطـة الحركة الإخوانية في مصر، وبما أن الحركة الشبابية أسست في عام ١٩٦٨م فالنشاطان كانا يتعاونان في كل ما يتعلق بالعمل الإسلامي مثل الدعوة العامة وتعليم النساء وتـثـقـيـفهن، كما كان الشعور الإسلامي يجمعهما دائما. فبدأت حركة النهضة أيضا لمجموعة نسائية دروسا في تفسير القرآن الكريم في بيت مؤجر عند حيٍّ (عيل جاب)، ثم في زمن العسكر نجحت قيادات النهضة ببناء مسجد خاص للنساء بعد معركة مع الملحدين الذين كانوا ضد هذا المشروع، وحتى بعد نجاح بناء المسجد لم تتوقف المعركة، إذ كان المخابرات والملحدين يرسلون الفتيات المخبرات إلى المسجد، وبعد انتهاء الدروس كانوا يرسلون الرجال ثم يأخذون البنات من خارج المسجد ليوهموا أن المسجد مركز لاغتنام الفتيات محاولين لقتل سمعة الدعوة.

كان الشيخ محمد معلم يعلمهن التفسير، بينما المشايخ الأخرى كالشيخ محمد أحمد (جَـر يري) بالحديث والسيرة، ومحمد حاج يوسف وشيخ آدم عبد الله وغيرهم يعلمون النساء في أمور دينهم كالأحاديث والفقه، وتكاتفت هؤلاء الفتيات مع الفئة الأخرى في الاتحاد الشبابي في أمر الحجاب وغيره، فانتشر الحجاب بهذه الطريقة في بداية توسعه. وهكذا البنات المؤمنات متلهفات لمعرفة أمور دينهنَّ ، فقد تبادرن إلى مجالسهن الخاصة ليتعلمن الدين ، ولا يمنعن حياؤهن أن يسألن عن أمور دينهن.

كان للأخت مريم حاج عبد الرحمن دورا فعَّالا في تثقيف البنات، وكان بيتها مجمعا يتشاور الدعاة فيه، وكان الوالد عبد الرحمن متعاطفا جدا مع الحركة، وكنا نتردد بزيارة الأخوات اللاتي كنَّ في البيت، كما كنا نقصد بالزيارة إلى الوالد وهو مريض مرضا ألزمه الاستلقاء في الفراش سطيحا، وكان مهموما لتزويج بناته وقريباته اللاتي في البيت حتى نهَّره الشيخ محمد معلم أن يكف عن تلك الهموم كي لا يؤثر هيبة البنات المؤمنات الثمينات. وكان المرحوم الدكتور أحمد حاج عبد الرحمن يومئذ غلام مدرك.

ولأول مرة شاركت المرأة الصومالية في إلقاء الدروس والمحاضرات في النوادي والمساجد والمدارس الخاصة للبنات، وكنّ داعيات إلى الله واشتهرت مريم حاج عبد الرحمن في التفسير ومريم ديني في السيرة، وإجابة حسن موسى بالفقه وحليمة جناي بالتفسير والحديث ...... وغيرهما في الفقه والكتابة، حتى أغلق حكم العسكر المسجد الخاص للنساء وحوِّلت الدراسة إلى البيوت؛ فأصبحن تلك الأخوات فيما بعد بمثابة الهدية الثمينة، وخير متاع الدنيا مسلمات مؤمنات قانتات، هدية مقدمة على طبق من ذهب كوردة طبيعية تهفوا القلوب إليها، فكانت أغلى هدية في الدنيا من رب كريم للفئة المؤمنة، فسكن لهن قلب المؤمن وشعوره، فتأسست فيهن ما عرف في ذلك الزمن «ملاجئ الدعوة وقلاعها المأمونة» فانتشر الزواج بعد ذلك، وكانت النتيجة الأولاد البررة، والولد البار هبة وهدية من الله. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

ومن الطبيعي أنّ المؤمنات اقتنعن أنّ ما وهب الله للمرأة من نعمة إنجاب الأطفال وتربيتهم هو أمر تعتبره ويعتبر المسلمون جميعا كمنزلة رفيعة وصفة مميّزة في «صناعة الأبطال» وأنَّ المرأة في بيتها وظيفة مقدسة ورسالة سامية وحصنا حصينا من حصون الإسلام. ولهذا التزمن بالحجاب ويربُّون بناتهم عليه

من نعومة الأظفار. وبسبب ظروف الأمن كانت البيوت خالية من الخادمات إلا إذا كانت الخادمة من الأقرباء.

المخابرات في العهد ا لمدني

كانت المخابرات قبل الانقلاب العسكري تتابع نشاط الحركة المذكورة باهتمام بالغ، وكانت السجلات تذهب يوميا إلى مركز المخابرات بواسطة مخبرين مندسين في الحركة كما علمنا فيما بعد، وكان من المفاجآت أن وجدنا في مكتب المخابرات «ورقة التفاهم والتعاون» التي وقعتها الحركتان «النهضة واتحاد الشباب المسلمين» والتي كتبها السيد (عبد الله محمد عبد الرحمن) بخط يده، أدت إلى استدعائه واشعاره بذلك، لكن المخابرات قبل الثورة كانت من عادتها أن تتابع القضايا ذات الاهتمام ولا تهاجم أحدا إلا إذا وجدت متلبسا بقضية قانونية واضحة.

وكانت الحركة تتحرك بحرية تامة، وكثير من الشباب كان لا يعلم أن هناك جهازا سريا يراقب الأوضاع ويتابع الحركات والسكنات، ويسجِّل الأسماء ويقدم التقارير. كنا نذهب إلى المقاهي والنوادي ونجادل الحاضرين ونتحدى أصحاب الأفكار الهدّامة بالحجج والدلائل العقلية والنقلية، وكانت مسألة «الحكم بكتاب الله» و«العبودية المطلقة» من العناوين البارزة في كل خطاب، وأن الحاكم الذي لم يحكم بكتاب الله كافرٌ كفرا أصليا، يشرك الله في الحكم فهو أيضا مشرك شركا أصليا، وكنا نستدل الآيات القرآنية بدون تكلف. اجتمع في إحدى الليالي عدد هائل من المجادلين عند المركز العام، جاءوا من أماكن مختلفة بعد نقاش حاد مع بعض الإخوة، فكثر النقاش والجدل والهرج والمرج.

فلما هدأت العاصفة قام الشيخ (إبراهيم حرسي) أخ المدير العام وعم عبد القادر شيخ ورجل آخر نسيت اسمه يعلِّقان على الحالة، والحرية الوهمية التي نتحرك فيها. فقالا: عليكم أن تعلموا أن هناك أجهزة حكومية سرية ومخابرات دولية تراقب الأوضاع، فذكرا كثيرا من المعلومات عن المخابرات العالمية والمحلية وذلك في أوائل عام ١٩٦٩م.

قالا: إن جل المتسوِّلين والسكارى والمجانين والمكفوفين، وكثير من العلماء والطلبة وكثير من الجالسين في المقاهي والنوادي هم الموظفون السِّـــرِّيون الذين يذهبون ليلا إلى وكالة المخابرات السرية، يستلمون منها رواتب شهرية، وسردا أمثلة.

قال: فلان المتسوِّل وفلانة المكفوفة، وفلانة العجوزة وغيرها، يعملون مع المخابرات، وفتح لنا هو وغيره أبوابا من المعلومات التي كان كثير من الشباب غافلين عنها، وما أجمل المعرفة في حينها، والعلم علم الحال كما يقال؛ فجزاهم الله عنا وعن الإسلام خيرا. فالرقابة على العمل الإسلامي لا تزال آنذاك حديثة عهد. ولا شك أن نصائح ذلك الرجل كانت ذات قيمة عظيمة.

بعد تلك المعلومات الحساسة، بدأنا نقلب الأبصار، ونتفحص الجواسيس، واكتشفنا بعضهم، كالذي تعرّف على جميع بيوت الإخوة ، كان يزعم أنه فقير لا يجد ما يسدُّ به رمقه، فكان يذهب كل يوم مع أحد الإخوة ليتغذى أو يتعشى معه، ووجده الأخ عبد القادر شيخ يوما في بيت الشيخ عبد الكريم، يقلب السيف والفأس والخنجر الذي كان في بيته، وكان الشيخ يقول: إذا كان عندك سيف معناها أنك ناوٍ بالغزو، وكان يتفادى من ذلك النهي الذي جاء على من لم يغزُ ولم ينوِ الغزوَ مات ميتة جاهلية. فكان يملك الأسلحة البيضاء فقط ليحدث نفسه أنه غازٍ في يوم من الأيام لا غير.

قال الأخ عبد القادر للجاسوس عرفناك من زمان أنك مخبر جاسوس، وكنا على علم بجميع تحركاتك، لكن نحيطك علما أنَّ هذه الدعوة للبشرية جمعاء؛ فهل دخل الإيمان قلبك أم ما زلت تنتظر لنا الدوائر!!، فغضب عضبا شديدا وقدم شكواه عن عبد القادر شيخ وقال اتهمني بالتجسس وأنا بريء،

ودعت الجماعة عبد القادر للمحاكمة، وسئل التهمة التي وجهها للرجل؛ فقال نحن لدينا طرقنا لمعرفة المخبرين، وأنه يعلم الحقيقة؛ فإذا اعترف، سوف أخبره المصدر التي وجدنا منه خبره، فاختفى الرجل من يومها ولم يرجع إلينا مرة أخرى، كما اكتشفنا آخرين مثل ذلك الشاب من بيدوا الذي كان يهتم بحفظ المكتبة والدفاتر في المركز. والحقيقة التي اكتشفناها في زماننا ذاك أن المخابرات الغربية كانوا ينظرون الحركات الإسلامية نظرة تشاؤمية خطيرة على هيمنتها في المنطقة.

*****

محاولة توحيد الجماعتين: النهضة واتحاد الشباب

كانت جماعة النهضة مجموعة من المتخرجين من جامعات العالم العربي والمهتمين بالعمل الإسلامي، بقيادة الشيخ عبد الغني أحمد آدم رحمه الله المتوفى في الكويت عام ٢٠٠٧م، بينما كان الشيخ محمد أحمد أطال الله عمره نائبا له. أسِسَت الجماعة في عام ١٩٦٧م، كانوا موظفين في وزارة العدل أو مدرسين في التربية والتعليم، وكانت منظمة إسلامية، والمنظمات الإسلامية كلها كانت في ذلك الزمن عملا إسلاميا عاما لا غير، إذ لم تنتـشر حتى ذلك الوقت ظاهرة التحزب التي شاعت فيما بعد عند الإسلاميين، فكان يهمُّ الجميع أيِّ عمل إسلامي، وكانوا يلقون محاضرات في بعض المساجد، وكان المتخرجون من الجامعات العربية والإسلامية ينزلون على ضيافتهم لأن معركة التغريب والتعريب كانت على أشدها، وكانت الحركة قنطرة للمتخرجين يجدون العمل بواسطتهم، وكان لهم مركز ومكتبة عامة مليئة في الكتب النافعة في منطقة عيل جاب؛ فلما جاء الشيخ محمد معلم حسن في عام ١٩٦٨م انضم إليهم، وبدأ دروس تفسير القرآن في مسجد عبد القادر مقديشوا بوساطة الشيخ عبد الغني، وكانت الجماعتان (النهضة واتحاد الشباب) تتشاوران وتتعاونان في بعض ما يتعلق بأمور الدين. ثم جاءت مبادرة لـمِّ الشمل ومزج الجماعتين تحت قيادة واحدة توحيدا للعمل.

الفرق بين الجماعتين كان كبيرا برؤية البعض، أو كانت الحالتين مغايرتين، فحركة «اتحاد الشباب المسلمين» أصبحت حركة قوية نشطة ومنظمة واسعة الانتشار شديدة التعابير، كثيرة المظاهرات، شبابية الأنشطة، أقرب ما توصف بأنها ثورة إسلامية شبابية بوسائل غير عسكرية، واستطاعت جمع أكبر عدد ممكن من المثقفين وطلبة المدارس بنين وبنات، وكانت تتحرك بقوة إحيائية وجرأة فائقة، فتدفق التأييد لها.

أما النهضة كانت عبارة عن شيوخ كبار ذوي الشهادات العليا يعرقلهم التأني ومسئوليات الوظائف لكنهم كانوا يحملون هموم الإسلام، وكانوا يخدمون للإسلام على طريقتهم.

حصل الاجتماع الأول في مركز النهضة عند «عيل جاب» ودار الحديث حول أهمية الاعتصام وفضل الاتحاد ولمِّ الشمل، وتحدث الجميع عن أهمية الوحدة وإلزاميتها، وأن الله سبحانه أمرنا بالتعاون والتكاتف والاعتصام.

حركة اتحاد الشباب حوّلت الموضوع إلى الشورى كعادتها لكل طارئ، معتبرة الشورى نعم الدليل، فلا خاب من استخار ولا ندم من استشار كما قال الرسول ﷺ. طال حديث المشاورة حول أمرين إثنين :-

أولا: كيفية مزج سيل زلال متحرك مع مياه شبه راكدة، والتفكير طال حول مآلات هذا المزج، خاصة أن قيادات النهضة هي المرشحة للقيادة في حال المزج لكبر سنِّ أعضائها ولمركزهم الثقافي العالي؛ لأن كل أعضائها متخرجين من جامعات، فهل هذا السيل يتجمَّد مع الراكد أم يحرِّكه؟

ثانيا: أعضاء النهضة جلهم كان يعمل عند وزارة العدل التي يتفرع منها قسم **القانون** والتي كانت الحركة الشبابية تعلن عداء قوانينها وتشدد لهجة العداء عليها وتكفِّرها علنا، بل تعتبر عدوها الأول.

قيادات اتحاد الشباب كانوا متخوفين بعد تولي النهضة القيادة أن تتأثر مصداقية الدعوة التي تدّعي أنها تعادي الطاغوت وتكفِّره علنا، كما ترفض القوانين الغربية التي سمتها «الطاغوتية» بينما قياداتها – بعد المزج- تعمل في تنفيذها، وحتى إن لم تتأثر مصداقيتها كليا؛ فلعلها تؤدي إلى تخفيف لهجة العداء على مواجهتها، وكنا نرى أن ذلك الهجوم المتكرر على القانون والأنظمة قوة حركتنا وعزة فكرنا، ولم يخطر على بال أحد منا التطلع إلى القيادة أو التمسك بها هكذا كنا نظن والله من وراء المقاصد.

بعد حوار طويل قررت الجماعة عدم استعدادها حاليا لتوحيد الجماعتين، لكن حركة اتحاد الشباب لن تزول مستعدة للتشاور والتعاون المشترك كما كان الحال سابقا وهنا كتبت «ورقة التفاهم والتعاون» لا الاندماج.

بعض أعضاء النهضة كان يعتبر أنهم أقرب إلينا من غيرهم مثل الشيخ محمد معلم حسن والشيخ عبد الله عمر، فكانوا زملاء لاصقين بنا أكثر، كما كان لنا علاقة صداقة وتعاون ديني وروحي مشترك مع الآخرين.

دار الزمن، وقامت الثورة العسكرية بانقلابها في٢١ أكتوبر عام ١٩٦٩م، وبعد خمسة أشهر من الانقلاب ألغت الثورة جميع الأحزاب والمنظمات والهيئات غير الحكومية؛ فانتهت النهضة مع هذا القرار وحُلت الحركة وأغلقت المكتبة، وكانت المفاجأة الغير المتوقعة بالنسبة لنا أن قبل الشيخ عبد الغني رحمه الله المنصب «وزير العدل» وأصبح الشيخ محمد معلم مدير قسم شئون الدينية في تلك الوزارة ، في حكومة عسكرية بوليسية ملحدة متهورة، ليخدما الدين والأمة من هذا المنبر المحصن قانونيا، ووكنا نرى غير رأيهم، قلنا يومها كنا موفقين في عدم المزج بين الجماعتين؛ لأن الشيخ طرد من الوزارة ثم سجن لأنه كان يفتقد حس النفاق السلطوي. والثورة واصلت في مسيرتها الاجرامية وغطرستها الالحادية.

أما حركة الشباب فقد تجاهلت قرار منع الأحزاب والمنظمات ورفضته كما اعتبرته غير قانوني، وواصلت المسيرة كما سيأتي في فصل لاحق، وكونهم شباب طلقاء وطلبة ساعدهم في مواصلة المسيرة إلى زمن آخر.

*****

موقف الحركة من الانتخابات البرلمانية

كانت حملات الانتخابات في أوج عنفوانها كما كانت بدءا من العام الذي تأسست الجماعة «١٩٦٨م » «حديث السّاعة» وكثيرا ما كانت تؤدي إلى الاقتتال بين القبائل في المحافظات لأهميتها، وكانت الجماعة ترى أن الحكم بغير شرع الله يؤدي إلى الكفر البواح، وتواترت الأدلة القرآنية علي ذلك، وأن الهيئة التشريعية «البرلمان» التي تقنن للأمة بهواها فهي هيئة معتدية على الألوهية، ومن ثم فهي كافرة خارجة من الملة، وهؤلاء وأمثالهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة: ٥٠] إذ لا شرع إلا شرعه ولا حكم الا حكمه، وقوله تعالى ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الشورى:]، وبما أن البرلمانيين يشرعون ما لم يأذن به الله ولا يشرِّعون حتى من الدين كما كان الحال في بني إسرائيل، بل يشرِّعون دائما من الهوى ويعتمدون بقوانين الكفر وبما يسمى الديموقراطية الغربية، ولهذا لا يشك في كفرهم إلا من طمس الله بصيرته.

وبالنسبة للقبائل فمسألة الانتخابات واختيار النواب كان يعتبر عندهم مسألة شرف أو مسألة حياة وموت؛ لأن القبيلة التي ليس لها نواب في البرلمان، كانت تعتبر نفسها أنها قبيلة ليس لها حصانة في حضن الدولة، وأتباعها تضيع حقوقهم، مع العلم أن الهجرة إلى المدن كانت غزيرة، وكانت القبائل تتدفق من البادية إلى العاصمة، وكان النائب يُمثِل مدخلا هاما إلى الاستقرار في المدن، واشتهرت عبارات الشخص الذي لا يحميه **نائب** أو لا تقودها **متبرجة** فسيكون ضحية لحمير القبائل المجاورة في العاصمة مثل «أبغال».

أما موقف الحركة من مسألة الحصانة اعتبرت حسب رؤيتها بين كفر وإيمان، كما هي بين حق وباطل، بل بين شرك وتوحيد، ولذلك دعت إلى ضد ما يراه الناس مصالحهم، فأصبحت ضد التيار حسب رؤيتها، والسياحة ضد التيار الجارف ممتعة وتثري العقل وتفتح اللياقة، لكنها دعوة مؤثرة تعتمد على حبل متين وأدلة مقنعة ومفحمة من الكتاب والسنة، وكنا نرى أن تسليم مقاليد الحكم لمن ينتمي روحيا إلى العدو الأصلي أو يشعر بتعاطف معه أو يقدِّس قوانينه وشرائعه نوع من الغفلة والحماقة كما هو ارتداد واضح من هذا الدين.

ولتلك الأسباب فقد وكّلت الجماعة أمر حصانتها إلى الله سبحانه وتعالى وبكل ثقة وجرأة واختيار، فالتحديات من هذا النوع تعظِم الشخصية أو الحركة حين يواجه الداعية ما يراه الناس مصالحهم، معتمدا ومستدلا فقط بنصوص جاءت بالوحي ومطمئنا لها.

كان البعض يأتون إلى المركز يسألون عن موقف الإسلام من المشاركة في الانتخابات البرلمانية وهل يجوز مشاركتها، فكان الأخ الداعية لا يتردد أن يقول لهم هي الخروج من الإسلام والرضا بحكم الطاغوت، وكان عبد الكريم لا يتردد ذلك؛ فيقرأ علي الملأ آيات محكمات من الذكر الحكيم كقوله تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥] ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة:] ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٤] **وغيرها.**

وبعد انضمامي للحركة حدثني أحد الاخوة ما جرى بين الشيخ إبراهيم حرسي وابن أخيه عبد القادر شيخ. كان عبد القادر شيخ يتكلم مع عمه في مسألة اختيار نائب للقبيلة، وكان العم يريد أن يسافر إلى «جالكعيو» بأمر يتعلق بمساعدة رجل من الأسرة كان مرشحا للبرلمان، فتكلم عن الحكم بكتاب الله وموقف الإسلام من الحاكم الذي لا يحكم بكتاب الله، ومن البرلمان كهيئة تشريعية تشرع ما لم يأذن به

الله، وأن تلك المسألة تتعلق بالكفر والإيمان، فحفظا لدينك ولعقيدتك وآخرتك تنازل عن مساعدة نائب لنا في البرلمان، فاقتنع الشيخ إبراهيم حرسي بما قال له ابن أخيه الأصغر منه سنا، وتنازل عن مشاركة هذا العمل ومساعدته، لكن عبد القادر كان يشرب الدخان عند ما كان يتكلم مع عمه!، ولا يستغرب أحد في ذلك الزمن لمن يشرب الدخان إذ كان دليل التمدن عند المتأثرين بالحضارة الغربية، وكانت مشكلة الزمن التي لابدَّ أن ننظر لها في زمانها ، فقال له: إنني مقتنع بكل ما قلت واستدلالك من آيات الذكر الحكيم حقيقة واضحة وضوح الشمس، وسأعاهدك أمام الله أنني لن أشارك بعد اليوم مساعدة من يدخل في البرلمان، لكن يا ابن أخي هذا المستوى العالي من الدعوة لا يليق لشارب الدخان ، فقال: هذا آخر عهد لي في الدخان ورمى السيجارة التي كانت عنده، ثم أوقف جميع المنبهات حتى الشاهي والقهوة ، وقطع عن كثير من المألوفات عن النفس، بل حوَّل العادات إلى عبادات، وتعتبر مثل هذا القرار بطولة.

مطلب حزب الله الأعظم الصومالي

كان حزب الله الأعظم هو الحزب الوحيد الذي كان يدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية عن طريق البرلمان حسب رؤيته؛ فقدَّم الحزب طلبا إلى الحركة الشبابية «اتحاد الشباب المسلمين» ذي الشعبية الجماهيرية، بأن يعطوا أصواتهم الانتخابية إلى مرشح الحزب أحمد علي (شرمأركى) أخ رئيس الجمهورية، وفي حالة نجاحه في البرلمان سوف يقدِّم للبرلمان مشروع «إلغاء القانون الافرنجي واستبداله بتطبيق الشريعة الإسلامية على البلاد» قالوا الهدف هو التعاون على البر والتقوى لا غير.

كانت الثقافة الدارجة عند الجماعة المتفق عليها التشـدد والمقاطعة في الانتخابات البرلمانية، ورفض مشاركتها بل تكفيرها، وكأنه أهم بند من أهدافها، لكن اقترح البعض أن الجماعة لن تخسر شيئا، إذا أعطت أصوات أعضائها، لمن يريد أن يخدم للشريعة من خلال هذا المنبر المحصّن قانونيا، فلماذا نضيع أصواتنا في الانتخابات إذا كان هناك من يفيد أو يستفيد منها لخدمة الدين؟

أحيلت القضية إلى الشورى كالعادة، دار النقاش، واستعرضت الآراء، وفي النهاية تحمّس الجميع للتحليلات الاستنتاجية التي لخّصها الأخ عبد القادر شيخ محمود من الحوار كرئيس الدورة، كان أمهر وأقدر من غيره في ذلك الوقت لعمق فكره وفصاحته، ودقة ملاحظته وعمق فيهمه والقدرة على ابداء الملاحظات، وكان يمثل الحركة بفكر الناضج ، لأنه كان في وسعه أن يتوقع لما سيترتب على الأحداث من نتائج في ا لمستقبل بشيء كبير من أصالة الحدس ودقة الاستنتاج. فلخص المشاورة بما يلي :-

أولا: أن مرشح الحزب «أحمد على شرمأركي» ليس له صلاحية في البرلمان – حتى لو أصبح عضوا فيه – غير مطالبة تقديم مشروع تطبيق الشريعة على البرلمان إذا حصل عدد الأصوات المطلوبة، وعلى فرض نجاحه بوضع المشروع على الطاولة؛ فإن البرلمانيين سيرفضونه قطعا وبأغلبية ساحقة، بل سيضحكون عليه وعلى زملائه أو يقابلون طلبه بالاستهزاء. كما حصل في البرلمان من قبل بمشروع مماثل وراءه ثقل علماء وأعيان.

ثانيا: ليس وراء النائب أحمد جماهير شعبية كبيرة مؤيدة لمشروعه يستطيع من خلالهم الضغط على البرلمان لتأييد المشروع.

ثالثا: بعد رفض البرلمان الأكيد للمشروع، فإن النائب أحمد على لن يستقيل من البرلمان، ولكنه سيستمر في البرلمان نائبا عن حزبه على مدى خمس سنوات قادمـة.

أما الجماعة ستخسر مصداقيتها الدعوية القوية الرافضة للمشاركة مع الهيئات التشريعية الكافرة وسيقول الناس لنا، كنتم مشاركين ولكنكم فشلتم في الانتخاب ولهذا ترفضونه، وتلك طبيعة المهزومين. بعد هذه الخلاصة المقنعة والمنطقية، قررت الجماعة بالإجماع، رفض المبادرة وإلغاء الطلب والى الأبد!.

لم يقف القرار عند هذا الحد، بل تعـدّى إلى إعلان المقاطعة الأبدية، والتنديد بالمشاركة في الهيئات القانونية المضادة للشريعة الإسلامية؛ فقررت الرفض الدائم لهذه الأفكار مدى الحياة، وأدعم القرار بالأدلة الصريحة من الذكر الحكيم ومن السنة النبوية، وأصبح مبدءا ملازما لكثير منا حتى اليوم.

الانتخابات الخاسرة

كان يوم الانتخابات في٢٦ مارس عام ١٩٦٩م، والانتخابات بعد سيطرة الاستعمار أصبح في العالم الثالث مجرد مباركة شعبية شكلية للدستور المفروض من الدول الاستعمارية، ودام ذلك حتى بعد رحيل جيوش الغرب. وكان ذلك اليوم المذكور يوما مشهودا، قاطعت الجماعة تلك الانتخابات التشريعية عام ١٩٦٩م، وقدمت الجماعة خطباءها في كل المناطق، وألقت خطابها الناري الرافض للمشاركة في الهيئات التشريعية التي تشرِّع للناس مالم يأذن به الله واصفا إياهم بالمشركين الحقيقيين، في هذه الخطب والمحاضرات أو الخطابات الملتهبة، أعلنت الجماعة كعادتها براءتها الكاملة من الهيئات التشريعية المخالفة للشريعة وأنظمتهم المضادّة للهدي الرباني ، وكان ذلك أمام الجماهير، وفي المساجد، والمدارس والمراكز العامة، وفي الشوارع وعلى مسامع الجميع وفي وضح النهار.

قادت الجماعة في هذا اليوم حشدا جماهيريا مكونا من أعضائها ومؤيديها والمتعاطفين معها توضح موقفها من تلك الانتخابات ، كان عنوان الشعار :-

Waa lakala miirmay Maanta — Waa lix iyo labaatan maarsoo
Midigtaa u guduudan manta — Murtad iyo munaafaq maanta

ترجمة الشعار بالعربي: اليوم ٢٦ مارس يوم التمييز، علامات حمراء بارزة على أيدي المنافقين والمرتدين الذين اختاروا مشرِّعين من دون الله.

كان الفكر المطروح على الملأ حادًا كالسيف، واضحا كالميزان، صريحا كالآذان، بل كنا نعتمد في مناقشاتنا على أسلوب الهجوم حتى ولو كنا في موقف الدفاع أو رد الشبهة. ثم كنا نخطب في المساجد وأدلتنا كانت كثيرة ومقنعة ومفحمة ، إذ كنا نحفظ آيات الحكم في القرآن الكريم، معتبرين تلك الانتخابات كذبة ديموقراطية ومهزلة خيالية لتخدير المسلمين وابعاد شريعتهم وتأليه أعدائهم.

كانت نهاية هذه الانتخابات مأساوية؛ فقد انتهت بالخسارة، وقتل رئيس الجمهورية في لاسعا نود، وعرفت فيما بعد ب «الانتخابات الخاسرة» «Voot khasaaray» وكنا نحمد الله تعالى أننا لم نخسر معهم كما خسروا.

لم تكن تستهلك الجماعة جهدها في التفاصيل الفرعية، ولا الأمور الهامشية، ولم تدخل النزاع مع العلماء، ولم تتطلع لإمامة مسجد قط، لم تنافس على مال ولا سلطة مع أحد، جميع المساجد كانت تقبل وترحب بأعضاء الجماعة، كان لها أعضاء ومؤيدون وموالون في المساجد ومراكز العبادة وفي الجيش والبوليس وفي المخابرات والسوق، كانت الحركة معلنة لكن الظروف لم تكن قاهرة، وكانت لها سمعة طيبة عند الجميع. ونحيط علما أنَّ مصطلح «التكفير» المروَّج لم يكن مقبّحا في ذلك الزمن.

المال كان خارج تصور الجماعة في ذلك الوقت، كانت الجماعة في مرحلة البذل والفداء، لا الثروة ولا المتاع ولا الوجاهة ولا البروز، كنا نلقي الدروس والخطب ونعلِّم القرآن والسنة على معنى «التبليغ الخيري» لا على «التعليم الصناعي» الذي يكسب من ورائه المال كما انتشر فيما بعد، بل كنا نؤجِّل الأجر كله إلى الآخرة.

وكنا نلقي الدروس مشيا على الأقدام من أقصى المدينة إلى أدناها، محتسبين الخطوات، وكان ذلك من الأسباب التي أدت إلى نجاح دعوة الجماعة في تلك الفترة المبكرة، فالجهد كان فرديا، وقد ثبت بالاستقراء التاريخي، «أنَّ قوة الانبعاث الشخصي والشعور بالمسئولية الفردية في داخل الجماعة قوة لا تساويها أي قوّة مهما بلغت».

الحاجة الوحيدة التي كنا نشعر بها كانت حاجة الكتب اللازمة، وطرأت أول مرة فينا فكرة تأمين الكتب اللازمة بسبب غلاء الكتب علينا وندرتها، وقلة مصادرنا لشراء الكتب رغم رغبتنا الجياشة في اقتنائها، إذ كنا من هوّاة الكتب النافعة، وكنا في زمن أفضل صديق من دلَّك أو أهدى إليك كتاب، وكانت بالنسبة لنا فرحة من فرحات العمر؛ لأننا كنا نكثر القراءة لمتعة عقولنا وقلوبنا. فجاءت فكرة تأمين كتب من السفارة السعودية في أوائل عام ١٩٦٩م، دخلنا السفارة لهذا الغرض ونحن ثلاثة (أنا والأخ عبد القادر شيخ وحسن محمد عمر)، ففاجأتنا سكرتيرة صومالية متبرجة بعيدة عن الحشمة. استغربنا استغرابا شديدا إذ كنا نتخيل أنَّ السعودية دولية حامية للحرم والدين، قلنا لا ينبغي أن نقدِّم طلبا إلى هذا السفير الذي لم يستحي من الله بهذه السكرتيرة المتبرجة التي تحته؛ فلا ينبغي أن نهين الدين، تنازلنا عن الطلب كليا وألغيناه فورا، ورجعنا إلى حيث أتينا، كانت روحانيتنا وعزيمتنا عالية وممتعة.

فاقترح أحدنا ما رأيكم لو قدمنا حاجتنا إلى السفارة المصرية؟ لعلنا نجد منهم بعض الكتب، وبالفعل دخلنا السفارة في كم ٤ لهذا الغرض، وقابَـلنا أحد الموظفين المصريين، قلنا نحن حركة اتحاد الشباب المسلمين، وكل ما نحتاجه هو تزويدنا ببعض الكتب اللازمة لنستعين بها في الدعوة. طوّل الحديث، وسأل الكثير. قال: أين المقر؟ علمناه مكان المركز، فمدح كثيرا، وقال: حاجة كويسة أوِّي!!، ما شاء الله !!، نوّرتم السفارة وكلاما كثيرا !ّ! . بعدها قال: ارجعوا إلينا لاحقا.

كان المصريون أساتذة بعضنا وكنا نفهم لهجاتهم ونكاتهم ومجاملاتهم، فقال أحدنا إنه لا يريد إلا معرفتنا، ولعله من الجواسيس المصريين الاشتراكيين المعادين للدين، تنازلنا عن الطلب ولم نرجع إليهم

مرة أخرى، وقلنا كفانا الله منهم، وكانت المرة الوحيدة والأخيرة التي فكّرنا في طلب مساعدة من هيئة أو دولة وكفى الله عنا مثل هذا الطلب لضررها على الدين وعلى أهل الدين. وكتبنا بالقلم العريض هدية جبريل عليه السلام إلى أهل الإيمان «عز المؤمن استغناؤه عن الناس!»

*****

الحدث المزعج (الانقلاب العسكري ٢١ أكتوبر ١٩٦٩م)

قامت الثورة في مثل هذا اليوم بالانقلاب العسكري بعد اغتيال رئيس الجمهورية في «لاسعا نود» وعلينا ألّا ننسى، أنّ السياسات الغربية الاستعمارية، هي التي كانت دائما وراء كل الانقلابات العسكرية التي سيطرت على العالم الإسلامي، ولم يكن الجيش أصلا إلا كلابا دربه الاستعمار لعض عبيده، وبدأت السياسة الاستعمارية تجاربها في الخمسينات والستينات من القرن العشرين، وكان الهدف من هذه الانقلابات تدمير القوى الإسلامية المتصاعدة في المنطقة، أو التي ارتفع صوتها أكثر من منطقة، وكانوا يسمون اليقظة الإسلامية بالعملاق الذي نام طويلا والذي بدأ يتنحنح ويتحرك. قالوا: ويل للغرب إذا خرج المارد من القمقم!!. ولذلك تدخل الجيش ليوقف المد الإسلامي المتصاعد، فاستولى العساكر مقاليد الأمور عبر انقلابات وعلى ظهور الدبابات.

وعند ما تعجز الدول الكبرى – ان صح التعبير – على تحقيق أهدافها في بعض الشعوب لعزة شعبها وأنفته، فإن تلك الدول تنتقم على اخضاع تلك الشعوب بدكتاتوريات عسكرية تنفِّذ أغراض تلك الدول، ولا يجرؤ أحدٌ على الوقوف في وجهها، ولهذه الأنفة التي يكرهها المتآمرون مقترنة بالصومال حتى النخاع ، ولهذا السبب وغيرها كان الاهتمام بها حربا لم ينقطع وتقسيما وتفكيكا لم يهدأ يوما؛ فكانت تتركز عليها الأضواء في موائد المؤتمرات المخططين. فالجند أو العسكر وجد أساسا للدفاع عن الوطن، ولكن الحاكم الطاغية الذي يفرض سلطانه بالقوة قد يعطي الحكم هيبة مؤقتة مصطنعة أو دعاية خارجية فترة زمنية لكنه سينهار حتما، وتتراجع الهيبة أو السمعة تراجعا مفاجئا مهلكا ومدمِّرا.

وبما أن آداب النظام الغربي ومحاميه القصير اليد - حسب تعبيرهم في ذلك الزمن- يحمي الإرهابيين الإسلاميين، والذي اعتبروه الجبّار الذي يفزعون من شبحه، ولا يريدون له الوجود الفعلي، فجاءوا الجنرالات «بالباروشات» وقالوا لهم: كمموا الأفواه، وأسكتوا المفكرين إلى الأبد، وتحالفوا مع الاتحاد السوفييت ومع الشيوعية عقائديا وقانونيا، مع بقائكم في صفنا سياسيا وإداريا وفي سرية تامة، وسمحت لهم توجيه الهجاء إلى الغرب الاستعماري، واستخدام أبشع الأوصاف ضدهم «كالإمبريالية» و «الاستعمارية» و «الرأسمالية» و «البرجماتية» و «البرجوازية» ..... وغيرها .
والحقيقة المكتشفة أنَّ التيار الانقلابي في العالم العربي والإسلامي، كان غارقا حتى أذنيه في التنسيق مع الرأسمالية الغربية خلافا للشعارات التي كانوا يدجِّلونها على شعوبهم، وهذه الحقائق اكتشفت فيما بعد بطرق متعددة حتى أصبحت حقيقة واضحة وضوح الشمس. وهكذا الأمة كانت مأسورة بأسوار حديدية تمنعها أن تتحرر من وطأة نظام الحكم المفروض عليها بالقوة حتى وهم لها كارهون.

إن حدث اغتيال الرئيس الصومالي عبد الرشيد كان هائلا يومها، وعمّ البلاد المآتم والعويل والصلاة علي الفقيد، ولكن أتباع الحركة رفضوا مشاركة صلاة الغائب عليه، ولم يقل أحد من الحركة رحمه الله، بل كانت العبارة الدارجة عندهم عامله الله بما يستحق.

كان الاعتقاد عند الفئة جازما في كفر أيِّ حاكم لم يحكم بكتاب الله كائنا من كان مهما صلى وصام وزعم أنه مسلم، وبما أن رئيس الجمهورية كان حاكما لم يحكم بكتاب الله، معنى ذلك أنه رفض كتاب الله ورماه وراء ظهره، وبهذا الاعتقاد لم يتردد أحد عن هذا الحكم.

كنا نقول أنّ كفر جمال عبد الناصر مثلا، أقبح من كفر (شرماركى) ؛ لأن الرئيس جمال كفر وصدّ عن سبيل الله وقـتل الأئمة وعادى الأولياء وكلها «زيادة في الكفر». إنَّ مصطلح التكفير المقبّح اليوم لم يكن مروّجا في ذلك الزمن؛ فكان لهذه الأفكار جاذبيتها الدينية المؤثرة.

قبل الانقلاب انهارت مقوِّمات الدولة في الصومال كلها، أذكر أني أصبت بنزيف دم في الأنف؛ فأخذني الوزير «جامع جان» إلى المستشفى، وكان من أقربائي، تحدث الوزير مع الطبيب، وكان ذلك قبل اغتيال الرئيس عبد الرشيد بأيام، اتفقوا أن الوضع السياسي القائم لا يمكن أن يستمر كما هو بالشهور القادمة، كنت أستمع خطابهم بعقلية دينية، معتقدا أن نهاية الباطل قريبة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [يونس: ٨١]

نجح الانقلابيون وبدأوا يهددون ويوعدون ويلوحون العصا من بعيد، فقامت المظاهرات الشعبية بعفوية تؤيد الانقلاب العسكري، تهلل وتلوِّح بالزهور، فالدكتاتوريون يجدون دائما من يؤيدهم بشتى الوسائل، ويُـسمـي ظلمهم عدلا، وفسادهم إصلاحا، وإرهابهم للشعب اعزازا، مقارنة بالفساد الإداري الذي عمَّ الساحة ، فهللوا وصفقوا وتدافع الناس لمشاهدة العسكر وداسوا بعضهم بعضا. كنا نتعجب من هذا الشعب المسكين المخدوع الذي يُصفق لمن سيذبحه واحدا بعد الآخر. ألم يقرؤوا التاريخ؟ والمشانق التي أقامها الجنرالات في كل مكان، والويلات التي أذاقوا الأمم؟.

والنتيجة اصبحت أن فاق الحكم العسكري التوقعات في بشاعته، كان كالوحش الذي فقد آدميّـته، وأثبت وحشيته بالقتل والسجن والتعذيب والترهيب. ولجأت الثورة إلى استعمال أشد أساليب الضغط على الحريات، ومارست أشد أنواع التخويف؛ فأسكِت الجميع وأضغـطت الأفكار، وأربط الرزق

والسلامة على التصفيق والتأييد للثورة، وطار النوم عن أعين الناس بعد ما انتشر خبر «زوّار الليل» تماما كما كان يسمى في مصر ب «زوّار الفجر» ولبست الثورة هالات أسطورية تحوطها بكل إعجاب وتقدير.

وعاش النظام فترة من الزمن بنشوة القوة والانتصار وسط أهازيج النصر والفرح، وأصدر المجلس الأعلى للثورة قانون الطوارئ، ومنع التجمعات والمحادثات، كما صدر قرار حل الأحزاب والمنظمات، وألغيت جميع وسائل التعبير والاحتجاج والمعارضة، وعلم العقلاء أن الحرية هي أهم شيء في الحياة، وصار الجميع تحت رحمة الدولة البوليسية التي تحكم تحت الأحذية والحديد والنار، بعد أن كانت الحريات والشعائر الدينية حقا يكفله القانون، واستمرّ قانون الطوارئ إلى الأبد، بعد أن صدر أول أمره بسبب الظروف الاستثنائية، فصار الأمر كما قال الشاعر:

ربّ يوم بكيت منه فلما * سرت في غيره بكيت عليه

وكانت الجماعة تكرر بقولهم: أبشروا ذهاب الجنرالات والمنافقين والعملاء، وسيبقى الإسلام والعاقبة للمتقين؛ لأن المنتصر بالشرّ مغلوب ولو بعد حين، وكنا نتمتع بمعرفة المسبقة لتلك السنن. وصدق التخمين لأنه كان مع سنن الله التي لا تتبدل والتي لا تعرف المحاباة؛ فقد ذهب النظام وأصبح من الماضي البغيض، وبقي الإسلام ووجد حريته النسبية وسيبقى إن شاء الله إلى يوم القيامة، فلن يخسر مع الخاسرين.

*****

قرار المقاطعة والمواجهة

كان موقف الجماعة مع الثورة الاعتزال والمقاطعة، واعتبرت **العزلة** ، العلاج الناجح لروح التحدي والتمرُّد، وكان هذا الموقف عكس النصيحة الشائعة التي كانت تقول «اليد اللي ما تقدر تلويها صافحها أو قبِّلها» ومثل هذا التحدي يعتبر تفوقا فكريا على الطغاة والظلمة، وهم يعتبرونه سرطانا خطيرا يجب استئصاله. ومن جانبنا كنا على ثقة تامة صحة طريقنا واتجاهنا المضاد رغم القلة.

قال لي صاحبي أراك غريبا ❋ بين هذه الأنام دون خليل

قلتُ كلا بل الأيام غريب ❋ أنا في عالمي وهدي سبيلي

علم النظام باستخباراته، أن الحركة الشبابية الإسلامية المذكورة، هي الوحيدة التي بقي فيها عناصر المقاومة وروحها، وأصبحت التحدي الوحيد الذي بات أمام الثورة، ومن ثمّ يتعيّن على الثورة قمعها، وبذلك ستجد الثورة مزيدا من التأييد ومزيدا من المكاسب من الدول الكبرى المتعاونة على حرب الإسلام، وكانت الخزنة المفتوحة عند الشرق والغرب على حد سواء – ولاتزال- هي مقاومة الوحش الإسلامي اللدود الذي خرج من عرينه حسب وصفهم آنذاك.

امتدّ تأثير الحركة إلى المناطق الأخرى، وقاومت موجة الالحاد، ونشرت بجهدها الذاتي القرآن الكريم وترجمته إلى لغة الأم وفي جميع المحافظات، وحققت في هذه الفترة القصيرة ما لم يخطر على بال**!**، وأنتجت مالم تستطع الدول والمنظمات إنتاجه، فكانت أول حركة إسلامية تصل إلى هذا العمق في الصومال، فرأى النظام أن الجماعة قوة حقيقية منافسة، فقد تمرّدت الجماعة على قرار حل الأحزاب والمنظمات وتغافلت عنه، ضاربا بقرار العسكر المتعلق بحل الأحزاب والمنظمات أو التجمعات عرض

الحائط، وكان العساكر يتوقعون أن قوة أخرى مجهولة هي التي وراء هذا العمل الجبّار، وكانوا يشعرون أنهم في موقف حرج، وكان لذلك الهلع ما يبرره؛ فقد نجحت الجماعة في إنتاج عقول مثقفة ترفض الكفر بجميع أشكاله، وتتأفف من جميع المذاهب الهدامة المعاصرة، وتتحدى الأوامر وتتمرّد عليه علنا وبكثرة.

كان المجلس الأعلى للثورة يراقب انتشار الصحوة وقوّة تأثيرها في ذهول بالغ وحنق محموم، فسرعة الانتشار وقوّة التأثير شكلت ظاهرة ملفتة للنظر، أدَّت إلى تساؤلات عديدة حول الجهات الحقيقية التي وراء هذا العمل الضخم المفاجئ، الذي يحتاج إلى إمكانيات هائلة، يتجاوز إمكانية أية منظمة مهما بلغت قوتها وحجم انتشارها، تساؤلات ب «مصادر التمويل»؟. كيف يمكن أن يكون هذا عمل جماعة واحدة؟ لكن الحقيقة لا مفاجأة عن أفراد «شباب» وهبوا أنفسهم لنشر دينهم، وتقرّبوا إلى الله بخدمتها، فدخل المحال في مجال الإمكان.

كانت الحركة تشكل كيانا غير مرغوب في المجتمع؛ لأنها قررت أن تشق لها طريقا غير طريق المجتمع المحيط؛ فلم تعد تدين بالولاء له ولا بقيادته ولا تشاركه في اهتماماته ولا توجهاته وسلوكياته، وأيضا إنَّ وجود الإسلام في الأرض هو بداية غيظ ورعب للملأ الذين هم دائما في مقدمة أعداء هذا الدين.

لم تفكر الجماعة يوما بالمقاومة المسلحة، بل اختارت منهج الابتعاد عن الصدام المسلح؛ لأنه لا ينبغي لمن يريد عظائم الأمور، أن يسير إليها بغير عدتها الطبيعية؛ فلا يرفع سيفه إلا إذا كان معه من القوّة ومن الشرعية، ما يكفل له النجاح أو يقرِّب من ذلك، كما أنه لابدّ أن تثبت الاستراتيجية أن في رفع السيف نتيجة حقيقية لمصلحة الدين والأمة.

كما كانت الجماعة ترفض من البداية رفضا قاطعا، الهجوم على رموز الظلم والاستبداد، وإنما اختارت أن تهاجم العقلية التي قبلت هذا الطغيان وصفقت لهذا الظلم، وإلا ستتكرر الرموز ولا شيء يتغير على الواقع، مستدلين بقوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد: ١١]. كنا نحمِّل المسئولية على الشعوب لأنها هي التي تصنع الطغاة والفراعنة.

روي أن قيل لفرعون ما فرعنك؟ قال: «لأني لم أجد أحدا يردني» بل أصبح الجميع يدعم الرئيس محمد زياد برى آيات الثناء والتملق، وظهر رجال الدعاية العالمية في الساحة الصومالية، وتصفيق الجماهير له، وأعطوهم الطاعة المطلقة من جانب الأغلبية العظمى من الرعية. وجهنا جهدنا كله على محاربة الجهل؛ لأن الجاهل يستغله الظالم وأسلس انقيادا على أهل الباطل، والجهل أكبر أسلحة المفسدين. أما الجهل بالدين فهو مصيبة وأخطر أنواع الجهل ، بينما العلم غذاء العقل ، وعدم العمل بما تعلم كارثة.

وهكذا حصل في الصومال، إذ ضخموا الرئيس العسكري الجاهل؛ فأصبح يمثل الطغيان على أتم وجه، وعلقوا صورته المجمَّلة والمضخمة على الأماكن العامة، موهمين أنه الوحش المنعزل يتحكم في الملايين من رعاياه من برجه العالي. ودندنوا أن الرئيس هو المعلم أو الأب الذي يخلص الأمة من الغرق، وغنوا ب «هاي هاي» أي استمر في القيادة ودم إلى الأبد !!. ولم يفقهوا أن سياسة هذه الطاغية ستهدد أملاكهم وحتى حياتهم.

وكانت النتيجة قاسية، إذ انهارت القيم والأخلاق والعدالة، وحتى العملة التي انهارت من ٦ شلن في الدولار الواحد إلى ثلاثة آلاف شلن، حتى وصل الحال أن حمل الفرد حقيبة مليئة بالنقود، لكي يشتري

ما يلزمه من الطعام لمدة يوم واحد. ومازالت البلاد تدفع ضريبة هذا النظام حتى بعد انقراضه بعشرات السنين. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٤]

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]

والحقيقة أنَّ «محمد زياد برّى» لم يكن أكثر من طالب ملك، والحرب الذي شنّها على الحبشة كان مؤامرة وضررا، لأنه أدّى إلى انهيار حكم العسكر الذي كان هشا، وتمهيدا للفوضى والهمجية والوحشية، وإذا كان النظام هشا يمكن هزيمته بسهولة.

جاء في كتاب المخابرات المركزية الأمريكية والجهاد ل «جون كولاي» أن الثعلب اليهودي الأمريكي «كسينجر» قرّر عدم التدخل الأمريكي المباشر في النقاط الساخنة من العالم، وتكليف أطراف غير أمريكية للقيام بالعمليات المطلوبة. وقد نظم كسينجر لهذه الغاية شاه إيران والسادات وشخصيات عربية أخرى في مجموعة سمِّيت وقتها «سافاري كلوب» كان من أعضائها رئيس المخابرات الفرنسية «الكونت دومارانس» والملك «حسن الثاني» أمير المؤمنين!! ...... وغيرهم. ومن ضمن عمليات «سفاري كلوب» العديدة، قيامهم في الصومال بما يمكن اعتباره تدريبا أوليا على ما جرى في ما بعد في أفغانستان وما جرى في بغداد والخليج، وقررت توريط سياد برى ومساعدته لكى يواجه التهديد الذي كان يتعرّض له من قِـبَل أثيوبيا في إقليم «أجادين» ، وتقرر أن تقدِّم مصر إلى الصومال أسلحة سوفيتية قديمة بقيمة ٧٥ مليون دولار؛ فما كان من سياد برى إلا أن فعل تماما ما فعله السادات في مصر في مطلع

السبعينات، أي أنه طرد الخبراء السوفيات، والتفت ناحية الغرب، غير أن الغرب تخلى عنه، مثل ما تخلى عن شاه إيران. راجع كتاب عولمة الإرهاب ل (د. أحمد طحان)

وبعد هلاك النظام العسكري الذي كان رئيسه شخصا فأصبح خبرا قد ضللت الحكومات المتعاقبة الصومالية بالوعود الكاذبة، وأطلقوا البالونات التحذيرية للشعب بحيث يعيش على الأمل الكاذب.

ومن ذكرياتي لتلك المرحلة ذلك الإعلان المبهور من ليبيا، أعلن القذافي بعد انقلابه الناجح عام ١٩٦٩م أنه سيحكم بالشريعة، وكان من مفردات تعهداته أنه سيقطع يد السارق، تلك الجريمة التي كثر الكفار حوله الكلام لتقبيح حكم الشريعة، فكان لهذا الإعلان في أنفسنا جاذبية ساحرة، إذ كنا رهن الإشارة للهجرة إلى هذا البلد الذي أسلم لله لنكون له جنودا. وعندما زار الصومال سحب من الشوارع والأماكن العامة جميع صور ملاحدة الالحاد كماركس ولينين. وبعد تريث أصبح الرجل خاويا من المبادئ، يتكلم كلاما غير موزون، فاكتسبنا منه تجربة ودراية، وأنه ليس كل من يتكلم كلام طيب صحيحا أو حقيقيا.

*****

مؤتمر تمهيدي لتبني الاشتراكية

عقد في مقديشو مؤتمر تمهيدي في بداية ١٩٧٠م لتبني النظام الشيوعي، اشترك فيها جميع «التقدميين» أو «اليساريين» كما جرى التعبير آنذاك، وهم: كوادر الشيوعية باتجاهيها الماركسي والماو تستوني، تكرر في ألسنة الخطباء والمدّاحين في مدح ماركس ولينين وستالين قيادات التقدم وزعماء الاشتراكية؛ ومن الغريب أنهم أظهروا في هذا المؤتمر ما في داخليتهم من حقد على الدين، وأنهم في أنفسهم يحملون نارا تلظى على الدين عموما وعلى الإسلام خصوصا، فقام الأخ عبد القادر شيخ محمود الذي اشترك المؤتمر كقائد من قيادات الطلاب في المدارس الثانوية ، وفاجأ المؤتمرين بتدينه غير المتوقع، وفجَّر فيه «قنبلة فكرية» فقدم نقدا حادا على النظام الاشتراكي المستورد، وقال: التعاون بين البشر وحتى بين الحيوان طبيعي وفطري، وأمر الإسلام «دين الأمة» بالتعاون والتكاتف قبل الاشتراكية من آلاف السنين، كما كان التعاون بين النمل وغيرها من المخلوقات دائما قبل معرفة ماركس ولينين الملحدين الملعونين، ومن الغريب أنكم تريدون أن تقدسوا لنا وتفرضوا علينا أو تصدروا إلينا من العالم الخارجي رجالا ملحدين لا نعرفهم ولا يعرفوننا، وليس لدينا أي علاقة بهم، وإذا كان لا بدّ بإمكانكم أن تقولوا: قالها الرئيس الصومالي محمد زياد برى الذي نعرفه أصله وفصله.

ثم فتحوا موضوع المرأة المتداول في المؤتمر، فقام وفاجأ المؤتمرين بتفسير قوله تعالى ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ ٣٤﴾ (النساء: ٣٤) ، قالها بلغة إيطالية قوية وهو يضرب الطاولة التي كانت أمامه بالقوة، قالها بنبرة حادّة ، فعمّ المركز ضحكة مدوية ، وكان الموقف يتطلب جرعة كهذه تخفض ما في رأس التقدميين من كبرياء، واجههم بعاطفته الجيّاشة ؛

فاشتهر فيها بعد بالثوري أو «المقاوم المضحك» بحيث كان يضحك كل من رآه في الطريق من المشاركين في هذا المؤتمر فيكررون عليه عبارته الايطالية. «L’ uomo sempre sulla dounna»

فحاولت امرأة أن تنقذ الموقف من الضربة المضحكة التي أصابت أهداف المؤتمر ومركز المرأة بالذات، فقالت: نحن إحدى يدي المجتمع؛ فقال لها: أنتم الشمال أم اليمين؟، فتلكأت في الاجابة، فأخذ منهم الضحك مأخذه. وأدخل مغزى المؤتمر ذبابة كما يقال!!. وقالوا إن المؤتمر لا يؤدِّي مهمته على هذه الجماهير وعلى ذلك الرجل المشاغب بالذات؛ فاختاروا لجنة لتجهيز نتيجة المؤتمر واستغنوا عن الجماهير، إذ لم يتوقعوا كل تلك الضربات على الأفكار الشيوعية التي كانوا يصوِّرونها في ذلك الزمن على أنها موضة التمدن أو فكرة تقدمية أو حضارية.

*****

وفاة الرئيس جمال عبد الناصر

توفى الرئيس جمال عبد الناصر المصري في ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠م، وملأت الأجواء بالتعازي والبكاء، كما أقيم عليه مأتما وعويلا وصلاة غائب في جميع أنحاء جمهورية الصومال. كان رئيسا حكم البلاد بالدبابة، فأصبح رئيسا في قومه حتى زاره الموت وانتزعه من هذه السطوة، وانتشله من بين كل هذه الأبَّهَة، وألقي به في حفرة المساة عند أهل الدنيا قبرا. فقامت مشيخة الأزهر التي كانت تتولى خطب الجمعة في المساجد بإعلان صلاة الجنازة على فقيد العروبة والإسلام!، وبطل الحياد!، وحامي حمى الحرية للعروبة والعالم!، وخطبت في جميع أنحاء البلاد، حصل ذلك بعد أن أقيمت في مصر جنازة شعبية مذهلة، قدروا عدد المشـيِّعين فيها بستة ملايين مشـيّع!!. وما ذاك إلا بعد استخدام قدرته الإعلامية الهائلة على خداع الشارع العربي حتى أصبح بين عشية وضحاها رمزا إسلاميا عظيما، وبطلا حياديا عالميا!!.

الأزهر كانت قديما مركز اشعاع العالم الإسلامي بالعلم والثقافة، لكن أصبحت بعد الاستعمار هيئة دينية شكلت كغيرها من الهيئات الدينية الأخرى- لتبريد التدين، وتثليجه، وإخراجه من الحماس الذي كان قديما «القوة الدافعة» للجهاد والعبادة ونشر الدين ، فأنتجت الأزهر خريجا عالما يساير مع زمانه، مهتم بمظهره ولياقته الدينية ، فهو يمثل ابن بيئته ، حالق اللحى ، شارب الدخان ، ماسك يد زوجته المتبرجة ، وبالمقابل أصبح عالما وفيلسوفا ، وخطيبا مفوها، يخطب الجمعة ، ويبارك المؤتمرات بتجويد رائع.

وكنا نعلم حقيقة هذا الرجل (عبد الناصر)، وكنا نكرهه من أعماقنا؛ لأنه تجرّأ على الله وأعدم أعلاما لهم في أنفسنا منزلة رفيعة وفي قلوبنا محبة أكبر من قلوبنا، وأنَّ نبأ إعدام هؤلاء الأعلام الذي وقع على الأمة كالصاعقة كان طريا في ذلك الزمن، وكانت الحرب على الإسلام في عهده تجاوزت كل الحدود ، وأنه كان أحد الكلاب المخلصين للغرب الكافر، وهو الرجل الذي أصبح كالكلب العقور الذي لم ينج من سعاره أحد حتى أقرب الأقربين إليه، وبدأ بالمجازر الهمجية، وأن عملية ضرب الاخوان سنة ١٩٦٥م، كانت تغطية للفشل الذي أحاق لعبد الناصر في حرب اليمن من ناحية، ومن ناحية أخرى أن مذبحة الإخوان في تلك السنة، كانت استجابة منه لطلب السوفييت الذين تغلغلوا في نظام الحكم، وأصبحت لهم سيطرة على مجريات الأمور، لأنه أصدر أوامره من موسكو وأعلن ذلك منها، فمواقفه كلها كانت مخزية.

وقرأنا مقالة زينب الغزالي التي قالت: منذ سنة ١٩٥٧م كانت مصر البلد المسلم العزيز علينا قد أشرفت على ضياع مخيف يرعب كل صاحب ضمير وصاحب فطرة سليمة يؤمن بالله وكتبه ورسله، .... ولما كنا من حفظة كتاب الله، وبايعنا الله على أن نكون من دعاة دينه، فقد أخذت بواقع المجتمع الذي يعز علينا أن يصبح ضائعا بين الطاغوتين الحاكمين للعالم «روسيا والولايات المتحدة الأمريكية» فقد قررت والشهيد عبد الفتاح عبده إسماعيل، أن نبتدئ خطى إيجابية في تربية النشء لإيجاد جيل قرآني فريد، وكان العمل لا يخرج عن تربية فردية ...... وظل العمل هادئا يؤدي رسالته.

وفي هذه الأثناء صدر كتاب معالم في الطريق للشهيد سيد قطب، وقد أمضى في السجن ما يقرب من عشر سنوات، ولم يكن قد مضى على خروجه من السجن أكثر من ثمانية أشهر....، ومضت تقول: إنني

أعتقد اعتقادا يقينيا لا يداخله شك أن الأمر قد صدر من المخابرات الأمريكية والمخابرات الروسية معا لتدبير هذه القضية، ونفذ الرئيس المصري تعليمات المخابرات الكافرة الفاجرة لروسيا وأمريكا. وعللت بذلك أمورا منها:

أولا: لقد كانت لديَّ مجموعات من المجلات الأمريكية والأجنبية تؤكد هذا الذي أعتقده، وقد أخذت الشرطة العسكرية تلك المجلات مع ما أخذته وقت القبض عليَ.

ثانيا: أن عبد الناصر أعلن في روسيا أنه قبض في ليلة واحدة على تسعة عشر ألفا من الإخوان المسلمين. وأعلن عبد الحكيم عامر في إحدى احتفالات تخرج دفعة من الكلية الحربية أنهم لن يعفوا عن الإخوان هذه المرة.

ثالثا: وكان هناك من يربط العلاقة بين تصفية الإخوان في تلك السنة وبين هزيمة يونيو ١٩٦٧م لأنَّ كل حربٍ بين مصر وإسرائيل يسبقها دائما ضرب الإخوان، تماما كما كانت محنة سنة ١٩٥٤م، استجابة من عبد الناصر لطلب أمريكا التي جعلت تصفية الجماعة أحد المهام التي حُمِلت تبعاتها له، وأن يده هي التي أصدرت أوامره لشنق عبد القادر عودة وأصحابه، وسيد قطب وأصحابه، وأن قهر عبد الناصر وعصابته هي التي أدّت الى مصر والعالم العربي والإسلامي الى أبشع هزيمة، وأنّ أسلوبه في الحكم كان أسلوبا بالغ الجنون لأنه اتبع طريقة «ستالينيه» في الحكم، امتدَّت آثارها في الأجيال المتعاقبة، وصدرت لخلفه خرابا ودمارا وحقدا، تنفس نارا وقتلا وتدميرا. انتهى. (راجع من كتاب مذابح الإخوان لجابر رزق ص ٦٩١).

رابعا: وأن اللعبة العالمية للقضاء على الحركات الإسلامية تستدعي اصطناع أبطال وهميــين، تعلق الأمة الاسلامية البائسة فيهم آمالها ليقضوا على الدعوة والدعاة إلى الله، وأن جمالا هذا، ليس إلا مثالا صارخا من هؤلاء الأبطال الوهميين المعادين للدين والأمة، وأنه كان ناجحا في تمثيل اللعبة «العمالة» أكبر من ٩٠٪ وهي درجة كما يقول «مايلز كوبلاند » لم يحصل عليها غيره من العملاء، و(كوبلاند) هذا هو رجل المخابرات الأمريكية المشهورين في المنطقة ومؤلف كتاب «لعبة الأمم». على كل حال قد أتاح له الفراغ القيادي الهائل الذي يعيشه العرب فرصة للبروز زعيما للأمّة العربية التي من السهل بروز زعيم لها، وكان يطلق انتصارات وهمية. وكان يتهكم على الشعائر الإسلامية، ومن السخرية أن هدم عبد اللطيف وزير الشئون البلدية والقروية في عهد عبد الناصر نحو عشرين مسجدا في جراحة لتجميل القاهرة، وتساءل الشيخ محمد غزالي يومها: أترى لو كانت هذه معابد يهودية أكان يفعل ذلك!؟

وأخيرا: كان في عهده مدارس ومعاهد منتشرة في العالم العربي والإسلامي تعلم العربية التي لها أهميتها الكبرى عند الإسلام والمسلمين ، وتركت أثرا كبيرا لخدمة الإسلام فيما بعد. وهنا يستحق مقولة باديس لفئات قديمة « خرَّبوا لكنهم عرَّبوا » .

عقدت الجماعة «اتحاد الشباب المسلمين الصومالية» اجتماعا طارئا واختبارا مفاجئا في مركزها مقديشو، كان يمثل الاجتماع اختبارا لمفاهيم الحركة حول الحدث «موت الطاغية».

وكان السؤال المطروح على المجتمعين، هل فيكم من شارك صلاة الجنازة على الفقيد الهالك «جمال عبد الناصر» ؟، جاءت الاجابة بالنفي القاطع والاستغراب!، وقال الجميع كيف نصلى على عدو الله؟ الا شابا صغيرا كان حديث عهد بالجماعة، أضحك الجميع بلطافته وبراءته اسمه الشريف أحمد عمر. قال:

أنا شاركت صلاة الجنازة عليه قالها بلكنته البنادرية المضحكة !!، فقال الأخ عبد القادر شيخ: لماذا صليت صلاة الجنازة على من رفض الحكم بكتاب الله، وصدّ عن سبيله، وحارب الدين وقتل العديد من الدعاة إلى الله؟ أليس هو الذي زجّ دعاة الإسلام وعلمائه داخل السجون مما أدّى إلى مقتل المئات منهم جرّاء التعذيب؟. كيف صليت على جيفة ذلك المجرم الملعون؟.

قال: وهو خجول لعله تاب!!.

قال عبد القادر شيخ: إذا كان الأمر كذلك فتعالوا نصلي على لينين وعلى ماركس لعلهما تابا .!!!أيضا!!سكت هنيهة ، وقال: كيف يتوبان ولم يكونا يعرفان العربية، فعمَّ المجلس ضحكة مدوية

ثم جاء في الليلة الأخرى الأخ محمود حاج دعالى زائرا المركز العام بعد خروجه من السجن ونحن نعلق على وفاة الرئيس المصري ودوره في العمالة.

قال: أهديت ختمة كاملة من القرآن الكريم لجمال عبد لناصر حين كنت في السجن.

فقال الأخ عبد القادر: لماذا أهنت الكتاب وقدمته قربانا لأعدائه؟

قال: لم أسمع عنه إلا أنه زعيم عربي مسلم مشهور!.

كان محمود حاج دعالى داعيا مؤثرا آنذاك، وخطيبا جريئا مفوها يلقي الخطاب بجرأته المعهودة، رقيق القلب كثير التلاوة للقرآن الكريم، سافر إلى (هرجيسا) داعيا، وكان قليل الوعي إذ لم يدم طويلا مع الحركة، ولم يقرأ كثيرا من الكتب التي تتكلم عن الغزو الفكري، وهو الذي أسّس الوحدة في الشمال في أغسطس عام ١٩٦٩م ، بسبب تأثير خطاباته ومحاضراته، وكان من المؤسسين الأوائل لتلك الحركة،

وذلك بعد أن التحق قبل ذلك باتحاد الشباب المسلمين، ولم يدم مع الحركة الجنوبية ولا الشمالية كثيرا، لأنه كلما خرج من السجن خطب ثانية وهو يدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية والرجوع إلى كتاب الله فكانت النهاية أن يكون مصيره إلى السجن. أخيرا دخل يوما مسجدا في (هرجيسا) ليؤدي فريضة المغرب مع المصلين، وكان يسمع من حول المسجد الضوضاء من «حملة النظافة» التي أجبرت الثورة على الرجال والنساء معا.

قام بعد المغرب فقال: اتقوا الله تعالى وآمنوا به وبرسوله ﷺ، واتبعوا كتابه، أما إذا أبيتم فسيسلط الله عليكم جبابرة ظالمين جائرين تجبركم جميعا رجالا ونساء على حمل المنظفة!!. قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٥]

كان رئيس المخابرات في (هرجيسا) موجودا في المسجد فدعاه إلى مكتبه، وقدّم له نصيحة، بأن يسافر إلى السعودية؛ لأن النظام لا يتحمّل وجودك في البلاد، وليس لمصلحتك أن تدوم هكذا في السجون، قال له أرجوك سافر وأنه سوف يتولى له تأمين الجواز، فرضيَ وسافر ولم يرجع إلى البلاد، وعاش فترة في الحجاز وانخفضت شعلته هناك؛ لأنه انتقل إلى بلد مغلق سماه البعض ب « مقبرة الدعاة» على حسب تعبير بعض الدعاة حينها، ثمَّ انتقل إلى أوروبا حيث انطفت روحانيته فيها، ولا يزال حيا يرزق في بريطانيا، نسأل الله لنا وله بحسن الخاتمة.



شبكة المخابرات

حاولت رئاسة المخابرات وضع شبكة على قيادات الحركة وزجِّهم إلى ما سموهم الجهاد في «أوجا دينيا» وذلك في عام ١٩٧٠م، واختارت رجلين من المنطقة المذكورة لهذا الأمر كانا «عبدي زاهد» و «جَر إسكادون» وأقنعا أحد الإخوة المتعاطف مع الحركة «السيد محمود داخاري» بالمشروع «الجهادي» وكان محمود أيضا من نفس القبيلة (أوجادين). قالا: لدينا في «ايماي» و «قر جَقوت» مناطق استراتيجية محصّنة لا تدخلها العربات ولا الطائرات، ومادام حماسة الجهاد في سبيل الله كانت في ذروتها في نفوس الشباب، قالوا: فلنذهب إلى هذه المناطق المحصّنة، ونؤسس هناك ثورة جهادية لتحرير «أجا دين» أولا، ثم التفكير لما بعدها.

فالأخ محمود داخري المعروف بإخلاصه وحماسته، تأثر بهذا الاستدراج وظنّ الأمر حقيقة، ودعانا في جلسات حول هذا الأمر، كنا اثنان من اتحاد الشباب المسلمين الأخ عبد القادر شيخ وأنا والأخ الشيخ محمود داخري الداعية المتعاطف مع الحركة ولكنه كان داعية شبه مستقل ، واجتمعنا مع مجموعة أخرى من رجال المنطقة.

قال الأخ داخري: وهو يعرِّف عبد القادر شيخ للحاضرين لو علم النظام هذه الشخصية «عبد القادر شيخ» وما يحمله من مبادئ وأفكار لقطعه إربا إربا.
دار الحديث حول الجهاد في سبيل الله، وتبادل الحاضرون التحريض على القتال، قال المخبر إن المناطق المذكورة التي لا تستطيع أن تطير الطائرات فوقها فضلا عن دخول العربات، لهي أماكن نستطيع أن نستخدمها كمراكز للانطلاق؛ لأنها بعيدة عن العيون.

قلنا: وما الفرق بين النظام الماركسيِّ الملحد بقيادة الجنرال محمد زياد برّى، والذي يدعو إلى تقديس لينين وماركس ويرفض كتاب الله، بل يدعو إلى إنكار وجود الله سبحانه، ما الفرق بين هذا النظام وبين النظام الحبشي المسيحي بقيادة الملك الحبشي «هيلي سلاسة» الذي أيضا لا يؤمن بالله ولا برسوله ﷺ، ما الفرق بينهما عند شرع الله، أي لا فرق بينهما، فلماذا نذهب بعيدا؟ قالا المخبران: هذا كلام صحيح، لا فرق بينهما عند الله، ولكننا نبدأ من هناك وبعدها ننطلق إلى حيث شئنا. كان عميلا سريا يفضح نفسه من خلال حماسته الدينية الزائفة، أو استخدامه لغة غير لائقة، أو إقدامه في لحظة غضب تخرج عن نطاق سيطرته على الإفصاح عن وجهة نظرته الحقيقية. لكن من أن الحيلة لا تنطوي على العين المجربة، فإن المبتدئ المتحمس يقع في الفخ بسهولة. أما نحن فلم نقع في الشباكة أو الفخ المنصوب لنا، بسبب فضل وذكاء عبد القادر وفقهه الحركي .

الأخ الشيخ محمود داخري تأثر بالمشروع وذهب مع أحد الجاسوسين وكاد أن يقع في الفخ، وتجوَّل معه بين العلماء المعروفين، يطلب منهم دعم المشروع الجهادي. جلسوا مع «الشيخ على الصوفي» رحمه الله فاعتذر بانشغاله أعباء ترميم المسجد الجديد الذي كان تحت الإنشاء آنذاك، لكنه وافق مبدئيا وقال:

اذهبوا رافقتكم السلامة ربما نلحقكم فيما بعد. ثم جلسوا مع الشيخ «نور الدين على علو» الذي بادر بالموافقة الفورية ودفع مائة شلن مقدما للمشاركة، ثم ذهب معه إلى الداعية: الشيخ محمد محمود الملقب بالشيخ «أبّا الحمري» فأخفى شكوكه في الموضوع الحسّـــــاس، الذي يروِّج له رجل مجهول لم يره من قبل في أوساط الدعوة، علما أنَّ الشيخ كان من أهل حمر المسالمين، فقال: أعطوني فرصة يومين للتفكير، وأتوني لاحقا. وفي ذلك اليوم علمنا من مصادرنا الخاصة، أن الرجل جاسوس ويتلقى أوامره وتخطيطاته من رئيس المخابرات «أحمد سليمان دفلى» ونجانا الله من كيده بعد أن كدنا أن نقع في المصيدة.

فقال الأخ عبد القادر للأخ داخري، اذهب الليلة إلى الشيخ أبّا الحمري، وقل له علمنا أن الرجل كان من المخابرات، فإذا جئناك في صحبته مرة أخرى، قل لنا هذا أمر كبير ونحن تحت حكومة تتولى مثل هذه المواضيع، فإذا كان الجهاد ضروريا اليوم فالحكومة هي المسئولة عن هذا الأمر علما أن من أهداف الثورة تحرير الصومال الكبير.

ثم جاء رجل آخر من «أجادينيا» كان يعلم أن أحد الرجلين كان يعمل في «سي أي دي» كما كان يطلق المخابرات آنذاك، وتعجب من كلامه واستدلاله بكثير من آيات الجهاد. فقال كنت أعلم أنك من المخابرات، فقال: إنني أخذت استقالتي من زمان!!، فانكشفت نيات الرجلين للجميع بطرق شتى.

أما المخلصون من الشباب الثائرون المستعدون للجهاد في سبيل الله ومن طلبة المساجد الذين لم يزالوا متحمسين للفكرة الجهادية؛ فقد جمعهم الأخ عبد القادر شيخ والشيخ محمود داخري في فناء مسجد الشيخ على الصوفي ، واقترح عبد القادر فكرة تأخير الجهاد إلى شهور قادمة.

وقال لهم: إن الجهاد يتطلب معرفة كل ما يتعلق بأبواب الجهاد، فعلى الجميع أن يتـفـقـهوا في هذا الموضوع خلال ثلاثة شهور قادمة، قال لهم حتى الذين كانوا يعرفون فقه الجهاد، عليهم أن يراجعوا مرة أخرى، فالعلم قبل القول والعمل، فتأسف بعض المتحمسين. فقال لهم عبد القادر الذي لا يستطيع أن يؤجل الجهاد بشهور بسبب الإعداد العلمي والعدة، فهو إنسان مستعجل لا يفهم قيمة الأمر، فانتهت المسألة وتراخت بهذه المدة.

*****

الانتقال إلى المرحلة الحرجة

بدأت الحكومة العسكرية - ومن ورائهم أعداء الإسلام- تتخوّف من ازدياد نشاط الحركة؛ فظهرت التخوفات على السطح، بأن المجلس الأعلى للثورة قرر هجوما وشيكا على جميع أنشطة الحركة، وتفرّغ الآن لمقاومة الجماعة ورموزها ومراكزها وأنشطتها، وكانوا يدبِّـرون لها مواجهة لتدميرها. وكنا على علم أننا في زمن كلما قامت جماعة من المسلمين ، وبدأت تدفع الشباب إلى ميادين المعرفة الحقة التي من شأنها أن تسلط يد الإنسان على ما في الوجود من قوة ، خاصة العلوم المادية البحتة والعلوم التكنولوجيا ، وبدأت تظهر وتقف على أقدامها ، أو تحقق لها بعض غاياتها التي تهدف إليها ، تفتحت عليها عيون أعداء الإسلام من كل جانب ، وأخذت تراقب أعمالها وخطواتها بدقة ومكر وحذر ، ثم تعمل على احباط مشروعاتها بمختلف الوسائل المقنعة والسافرة من داخلها وخارجها ، وقد يعملون على هدمها بشكل سافر وقح لا مبرر له بحال من الأحوال.

وصل خبر المواجهة إلينا من عدة جهات: أهمها عن طريق الشيخ عبد الغني أحمد آدم وزير العدل في ذلك الوقت، وصل الخبر إليه عن طريق رئيس المخابرات «أحمد دفلي» الذي قال له هناك حزب من الشباب يخفون في بطونهم خناجر للثورة، فردّ عليه وقال: لو تعرفهم لم تتجرأ أن تقول عنهم مثل هذا الكلام، إنهم من زبدة الطلبة الصوماليين، وهم رجال المستقبل. وعن طريق الشيخ محمد معلم كرئيس قسم الشئون الدينية في الوزارة. وأخيرا عن طريق الشيخ محمود ما لنجور، الذي التقى مع «محمود مرى» الذي كان عضوا في مجلس الأعلى للثورة، أخبره أن الثورة تجاوزت كل العقبات، ولم يبق أمامها إلا الحركة الوحيدة «اتحاد الشباب المسلمين» تلك الحركة الجريئة و المتمردة على القرار الرئاسي، هذه

الحركة التي لم نعرف بعد من وراء أنشطتها من الدول البرجوازية، فقيادة الثورة تتابع أنشطتها باهتمام بالغ. وقال: إن القيادة تفرغت الآن لهذه الجماعة التي رفضت أوامر الثورة، وتتحرك بحرية. فقال الشيخ محمود: إن ابني عبد الرحيم عضوٌ في هذه الجماعة، وأنا أعرف أفراد هذه الحركة، هم ناس طيبون يهتمون بأمورهم الدينية وليس وراءهم دول. وهكذا بدأت الكومة العسكرية تتخوّف من ازدياد نشاط الحركة، فظهرت التخوفات على السطح، وكانت الحملة متوقعة ولم تكن مفاجئة، بل كانت الحركة تتوقع في أية لحظة.

والمخابرات في ذلك الوقت كانت ذات قدرة فائقة في تجسيم الأخطار، واعتبرت الحركة الإسلامية الشبابية، الشبح المخيف الذي لا ينبغي تجاهله. هكذا وصلتنا الأخبار ونحن أمام عدوٍ غبي عنيد، وتحت حكومة بوليسية سياستها الضرب بالحديد، ولكن الباطل بطبيعته يسحر العيون، ويسترهب العقول، ويخيّل إلى الكثيرين أنه الحقيقة، لكن في الأخير ينطفئ كشعلة الهشيم، وأن استبداد الأزمة علامة على قرب الفرج، ولحظات الإحباط هي أنسب اللحظات للمبادرات الشجاعة.

*****

شـــورى الحركة تدرس المرحلة

أحيلت القضية إلى الشورى لأن «مادة العقل المشورة» كما يقال، وقد قال الأولون قديما «مذاكرة الرجال تلقح الألباب». أقيمت جلسة الحوار في المركز العام، معتقدين أن الشورى مبدأ أساسي لا يقوم نظام الإسلام على أساسٍ سواه. وصل هـيَّاجُ شعور الشباب إلى أعلى مستوياته، لو قيل لها يومها خاضوا البحر لخاضوا أو حاولوا، كان يرى بعضنا أن نتغافل عن الهجوم المتوقع وليكن ما يكون، ولا يكون الا ما أراده الله، وأن نستمر في طريقنا بدون خوف أو وجل، فنحن على طريق الرسل عليهم السلام. بينما يرى الآخرون أن نتحايل عن المواجهة العلنية على سياسة العسكر التي ترتكز على سحق كل من اعترض دروب فرديتهم ومن ثمَّ حجب غيرهم من الأنداد عن الأنظار.

كان رئيس اللجنة يتيح للجميع حرية التعبير، سواء تحدث المتكلم بعشوائية، أو عرض أفكاره وآراءه بوضوح وتركيز وإحكام حسب الوعي، وكانت الحرية التي يتمتع بها الجميع تقتضي أن يستمع الجميع إلى كل الآراء، وأن تتخذ القرارات بصورة جماعية ترضي الجميع، وليس بالضرورة أن تكون بالأغلبية التي كانت تعتبر يومها مفهوما غربيا، الأغلبية دائما على حساب الأقلية حتى وإن كان الحق معها، أو باعتبارها بدعة أفرنجية ومقدمة للنفوذ الأجنبي، وكنا لا نرى بأسا أن يحسم القائد الرأي أحيانا، وأعتقد أن هذه الطريقة هي التي كان يتعامل الناس بها في تناول أمر الشورى قديما، وكانت هي الشورى المعروفة عالميا قبل بروز الأفكار الاستعمارية النفعية.

لم يكن في الجماعة – حتى تلك اللحظة– من يريد أن يفرض فكرته على الآخرين كما حصل ويحصل في الجماعات الإسلامية ، كنا نتناول الشورى بقلب وعقل مفتوح، ومن ثمَّ كان كل واحد يعرض رأيه ولا

يهمه الرأي الذي سيتخذ، لكن عند ما كثرت الأهواء والأحزاب والفرق، بدأ فرض الأفكار والآراء على الناس، وبدأت ظاهرة التحزب للأفكار، وخلق جيوب مبيّتة في داخل الجماعات، وإعجاب كل ذي رأي برايه، فجعلت القضايا المعروضة مستعصية الحلول وجعلت المشاورة أمرا معقدا لا يؤدي مهمته كما ينبغي.

أما الديموقراطية الغربية التي تحسم الأمر بالصوت الزائد، فقد أصبحت حلا عند ما ظهر أو سيطر في العالم «الإنسان النفعي» الذي لا يريد إلا أن يكسب المعركة لصالحه أو لصالح حزبه، بدل عرض الفكرة على العقل؛ لأنه يؤمن بأن « الغاية تبرر الوسيلة » فأصبحت حلا جزئيا لهذه الأمة النفعية التي تقنن بالهوى لا بالدين، وبالباطل لا بالحق، فأصبحت عندهم أحسن من الدكتاتورية المطلقة التي كانت شائعة عندهم، علما بأنَّ هذه الأمراض النفعية قد انـتـشرت جراثيمها على الأمم كلها، وذلك بعد أن سيطرت الأمم النفعية الاستعمارية على العالم ومنها العالم الإسلامي، ومن الغريب أن تـتـسرَّب هذه الجراثيم الفكرية إلى الدعاة الذين يريدون العودة إلى الإسلام.

والواقع أن الديموقراطية مصطلح غامض لعب دورا لتستر جرائم الاستعمار الغربي، ومؤامرة غربية لقيادة الجهلة بموجب الأساليب الغربية في بيئَـتِها، كما هي نظرية زائفة توهم البشر على أنهم قادرون على التشريع، واتخذوا إلهم أهواءهم ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٣] وزيفت فيها معنى الحرية والمساواة بإيعازها عن مفهومها الإلهي القائم على أساس أن الحاكمية لله وحده، وهذه النظرية الربانية في الحقيقة هي التي تمثِّل الحرية والمساواة الحقيقيـين.

على كل حال فقد تزامنت فكرة الديموقراطية في زمن سيطر الثقافة القيادية عند المسلمين منهج الرأي الأوحد في القيادة، والملكية الفردية، وولاية العهد، أو ولاية الأسر المالكة، وفي زمن عانى المسلمون من الملكية الدكتاتورية أو الأحكام الأسرية، وتراجعت روح الشورى وحرية الرأي، وتبادل السلطة بطريقة سلمية مقبولة ومنطقية، فمثلت الديموقراطية الدور الحضاري المقابل للفردية والحكم المطلق، وقننت «حرية الرأي» في الغرب والقيادة الجماعية (الديموقراطية)، ونجحت نسبيا عند الغرب الكافر، فتبادل الناس السلطة بطريقة سلمية، ولمّعت معنى جزئيا من معاني روح الشورى عندهم، وبطريقتها هذه، أصبحت أقرب إلى روح الإسلام مقارنة إلى الملكية الإقطاعية والحكم المتغلب المستبد، وأقرب إلى البناء الحضاري والتكاتف الاجتماعي.

وإذا كنا نريد أن نقيم أفكارنا على أسس من العلم علينا أن نختار ما هو حق ومنطقي مما يأتينا من غيرنا، بدلا من الإعراض المطلق، خاصة إذا كان له دويٌ وتأثيرٌ بسبب خلل في السلوك عند المسلمين، وإذا كانت الأمور المتعلقة بالإدارة أو الإجراءات الانتخابية، فالقيم الجاهلية النافعة تستحق الإشادة لها حتى لو صدرت من أهل الجاهلية؛ وقد نحتاج من النظام الديموقراطي وأمثاله من اقتباسات وتجارب شكلية وتنظيمية واجرائية، وذلك بعد ابتعاد آفاتها البنيوية وأدوائها الجوهرية. أما الديموقراطية ومجملها كفكرة ومبدأ وحضارة مرفوضة شرعا وعقلا، ثمّ إنَّ العالم الإسلامي لم ير الجانب الإيجابي من الديموقراطية رعم ترويجها وترديدها ، وهي محرومة من نعمة العدل والكلام والحرية الفكرية والتعبير عن الرأي.

ومادام ولاية العهد والحكم الوراثي اليوم، هي التي تمثل الحكم الإسلامي وهي التي تقابل الديموقراطية، ومن ثمّ هي العقلية السائدة في الحكم عند المسلمين، سيكون للديموقراطية دويُّها وتأثيرها الساحر، وبالمقابل سيمثل الحكم الإسلامي مهزلة قيادية بالية وهادمة عند الناس، بينما الإسلام بريء من هذه الفكرة البالية التي كانت طارئة على الأمة الإسلامية، وإنَّ رفض الكلي للنظام الديموقراطي في هذا الزمن الذي سيـطرت العالم السياسة الغربية يوحي عند الناس الدعوة إلى الدكتاتورية المطلقة أو إلى الملكية الجبرية المقابلة لها؛ لأنهم يظنون أنهم يرون واقعا أفضل منه، بل كثير من الناس جعلها مرادفة للعدل، علما بأن العدل ليس من منتجات الحضارة الغربية.

فالنظام الديموقراطي تولّى قيادة البشرية فترة طويلة وهي تقابل عندهم الطغيان والدكتاتورية وحكم الفرد والملكية المقيتة، وقد أبدعت العبقرية الأوروبية في هذه الفترة رصيدا ضخما من العلم والثقافة والأنظمة والإنتاج المادي، وهو رصيد ضخم لا تفرِّط البشرية فيه ولا فيمن يمثله بسهولة. فعملية الموازنة في الحكم سوف تجري بين أمتنا والأمم الغربية التي يكون فيها اعتبار عالٍ للنظام والقانون، فتتجِّه الأنظار إلى الحكم على الغرب بالرقي والعدالة وعلى أمَّتنا بالتخلف والفساد والتسيب، كما يعطي أيضا انطباع عاما لدى الأمة أننا غير قادرين على تحقيق المسئوليات فتهتزّ الثقة بالإمكان والقدرات.

ولهذه الأسباب مجتمعة يجب على الدعاة اليوم أن لا يوجِّهوا جهادهم الى رد الديموقراطية قبل أن يقدِّموا نموذجا شوريا حضاريا يستوحي فكره من الخلافة الراشدة ومن الحضارات الأخرى ومن عقولهم، ويكون من نتائجه الوحدة والالتئام والاعتصام وتبادل ا السلطة بطرق سلمية بدل التنازع والتفرق الشائعين، وإيجاد حلول للأزمات الداخلية والخارجية، بدل الالتجاء إلى فرض الفكرة والتغلب عليها. وفضيحة الديموقراطية لن تتعرَّى إلا إذا وجدنا عمليا روح الشورى.

وسقوط الخلافة الإسلامية كان نتيجة حتمية لسلسلة من الاعوجاج التاريخي، فورثت العقلية الإسلامية الاستبداد السياسي. ولقد أحسن الدكتور عبد الرحمن الشجاع وعبّر خير تعبير حينما قال: «إن هذا الدين للبشرية، ولا يصح بأي حال من الأحوال أن يكون محصورا في أسرة حاكمة واحدة، ويظل متوارثا كالمتاع، وإذا كانت العصور التالية للخلافة قد فعلت ذلك كعصر بني أمية وبني عباس وغيرهم؛ فإن هذا خلاف القاعدة، وما كان خلاف القاعدة؛ فهو طارئ وغريب على دين الله، وينبغي أن ينحى هذا المفهوم القاصر كلية من الفكر الإسلامي حتى يصبح ناصعا نقيا» أنظر كتاب دراسات الخلافة في عهد النبوة والخلافة الراشدة لدكتور عبد الرحمن الشجاع.

*****

الانتقال إلى السـّـــــــرية التامة

بعد تناول جميع الآراء قررت الجماعة تحويل المشاعر الجيّاشة إلى طاقة بناء، وليس إلى شرارة تفجير ومعول هدم، جاء القرار معاكسا لرغبات البعض، فقررت الجماعة إغلاق المراكز، وإنزال العَلَم، وفك الارتباط، والالتحاق بدراسة المساجد أي حل الجماعة ظاهرا وإبقائها عملا. كانت انعطافة مهمة في تاريخ الحركة من حيث تبني سياسة المواجهة الخفية ضد العسكر الموالين للاستعمار الشيوعي. كان لابدَّ للحركة أن تلجأ الحركة إلى السرية التامة ويخضعوا لدور الاخفاء والكتمان.

كان ظاهر القرار قاسيا على الأنفس في حينه، وضد رغبات بعض الشباب في ذلك الوقت، لكنه كان حكيما، فبعض المحن قد تكون بوابة لمنحٍ عظيمة لم تكن في الحسبان، وهكذا حصل؛ فيجب أن يعتمد على العقل عند تجاوز المحن، ولا ينبغي أن تسيطر الرغبات والحماسة والعاطفة عند تحليل القضايا المصيرية. ومن جميل ما قيل في ذلك ما قاله الإمام حسن البنا رحمه الله «ألزموا نزوات العواطف بنظرات العقول، وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف، وألزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع، واكتشفوا الواقع في أضواء الخيال الزاهية البراقة، ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾.

.....» انتهى. ثم اشتدَّ الحوار يومها، كأنّ قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [النساء: ٧٧]، نزلت في ليلتنا تلك، كان الوضع عندنا شبيها بصلح الحديبية، فكرر البعض: لعن الله الجبن، خفتم من الكلاب «العساكر» ألستم على الحق؟ أليس الله معكم؟ موتوا على ما مات المجاهدون عليه ولا تتراجعوا، وأذكر من المتشددين الرافضين خمسة من الشباب منهم «محمد

حرسي صلاة» و «على موليد» و «سعيد محمود حاج رحمه الله» وآخرَين، وإن كانت هناك فجوة بيننا بميلهم أو تشددهم التصوفي ، تركناهم لحالهم، إذ كانوا يعتبرون هذا القرار ارتدادا وتقاعسا عن الجدية، وقيل لهم سامحونا؛ فالجاهلية تعاجلنا بضربة واحدة، بينما نحتاج إلى جهدٍ كبير وزمن مديد حتى يستقرّ الإيمان في القلوب والعقول استقرارا عميقا، وتنتشر الدعوة في بيئة هادئة. ومن الممكن أن نقدِّم خدماتنا للإسلام دون أن نملأ الدنيا ضجيجا لهذه الخدمة؛ فالاندفاع والتهوُّر والحماسة غالبا ما تكون منبعثة من عدم التقدير لحقيقة التكاليف، وربما يدفعهم قلة الاحتمال إلى طلب الحركة والدفع والانتصار بأيِّ شكل دون تقدير الموقف، حتى إذا واجهوا بهذه التكاليف كانت أثقل مما قدروا، وأشق مما تصوَّروا، فربما يكونون أول الصف جزعا ونكوصا وانهيارا.

وبما أنَّ العجلة طبيعة بشرية. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ﴿١١﴾ ﴾ [الإسراء: ١١] ، إلا أن الشباب أكثر تعجلا كونه في سن حيويته الدافعة. ولذلك على الفئة المؤمنة أن تحتفظ توازنها بين قدرتها وطاقتها وطاقة البيئة المحيطة بها، وبين المطلوب منها في كل المراحل: والمطلوب في كل الأحوال أن تكون سامقة متعالية تظل على الشر والظلم والطغيان من عَلٍ!.

ومن عادة المتحمس أنه يريد أن يرفع عن كاهله عبء هذا الشعور الذي يثقله ويقلقه بأية صورة كانت، لكن التربية الإسلامية تعتمد على الفهم الدقيق، والتربية الطويلة التي تؤهل المؤمن كي يتحمل عبء دعوة عالمية شاملة قد تستغرق العمر كله بل أكثر في سبيل الوصول إلى الغاية، ومن أعظم صور الجهاد والبطولة: **الصبر على المنهاج وطول الطريق وتحمل الصعاب**.

وكان تنفيذ هذا القرار المذكور أعلاه، صعبا جدا علينا جميعا يومها، فقد تواثقت أواصر صداقتنا إلى درجة أن أحدا منا، ما كان يصبر على أن يغيب عن الآخر يوما كاملا دون لقاء. وخير من عبّر مثل هذه الحالة الشاعر الذي قال:

عين تُسِرُّ إذا رأتك وأختها * تبكي لطول تباعد وفراق

حفظ لواحدة دوام سرورها * وعِد التي أبكيتها بتلاق

كنا مبلغين عن الله ومطبقين قول الرسول ﷺ «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» فصدوا عنا وقالوا من بلغ عن الله «رجعي» كما يقولون اليوم إرهابي وتكفيري، كنا نعيش مرحلة شبيهة يوم كان الرسول ﷺ يتجوَّل القبائل العربية في الحج يقول «من يأخذني لأبلغ رسالة ربي ويمنعني ما يمنع عن أهله وماله». عن الزهري أن النبي ﷺ أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم يقال بحيرة «والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب» ثمّ قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك، ثمّ أظهرك الله على من يخالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟. قال ﷺ: «**الأمر بيد الله يضعه حيث يشاء**» قال: فقال له: «أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فاذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بك! ». أنظر البداية والنهاية ٣ / ١٤٠.

لم يكن فينا آنذاك شخصية قيادية مؤثرة يحرضنا على القتال أو الانفجار، ولحسن الحظ لم تكن النظرية «عليّ وعلى أعدائي» أو السيارات المفخخة الشائعة اليوم على الساحة لها جاذبية في حينها. ولكن نحن جيل الستينات والسبعينات لا نستغرب الانفجارات كما يستغرب غيرنا؛ لأننا نعرف أسبابه «وإذا عرفت السبب بطل العجب» والسبب هو هؤلاء المجرمين الذين كفروا بالله ويحرمون من الأرض رحمة

الله وعدله وبركاته ونوره، ويولون الكفار، ثم يصدون عن سبيل الله ويقتلون المؤمنين والمصلحين كما كان اليهود يقتلون أنبياء الله.

وقبل بعض الأعضاء القرار بانزعاج، وجرت دموعنا حارة على هذا الفراق، بكاء واشتياق ومحبّة التي كنا نعتبرها شهادة على حيوية القلوب. لكن كثيرا منا كان على علم أن الأهداف والواجبات فوق العواطف. كان شعورنا شبيها بشعور الشاعر الذي قال:

ليت شعري أنلتقي بعد هذا ❋ أم وداعا يكون هذا اللقاء؟

فاذكروني وزوِّدوني دعاء ❋ خير زاد تزوِّدونني دعاء

وفي أواخر عام ١٩٧١م قررت الجماعة تلطيف الأجواء، وتحويل جميع أنشطتها إلى الـسِّرية التامة، بدأت الدعوة فانطلقت بهدوء، وبدأت المرحلة التي اشهرها البعض الجماعة باسم «الأهــل» كمصطلح حركي ، بينما أشهر النظام الحركة ب «الإخوان المسلمين» ، وحوَّلت طريقة الاصطفاء وفقا لمواصفات معينة ودقيقة، والمختار من دخل طريق الدعوة أن يكون مؤهلا، وقلبه مهيّئا وروحه مستعدة، وبدأت الحركة تتحرك وفق نظام دقيق من السرية، واكتسبت منه مهارات حركية واعية وواقعية، واستقطاب العقليات المؤهلة، ومعرفة طبيعة الفرد وتدريبه وتمريره بمراحل.

فالسرية إحدى لبنات البناء الإداري والتربوي، تتمرن الحركة فيه على إدارة الصراع مع الواقع، واكتسبت الحركة من هذا الصراع عقلية يقظة، ودربة عالية على التعامل مع الآخرين دون استـشارة فضولهم. فشكلت فئة واحدة لديهم من الترابط والتحاب مما يجعلهم حزمة واحدة في حركتهم كلها؛

فأصبحت الجدار الصلب والحاجز القوي أمام مخططات الدولة، وصادق القرار رئيس الجماعة عبد الكريم حرسي.

أما بقية أعضاء الجماعة الذين اقتنعوا بهذا القرار فقد أخذت المرحلة السرية بجدية، فمثل هذه الحالة من يبقى في السرية هو الوحيد الذي يستطيع أن يخطط لأمور مستقبلية، وهناك بعيدا عن العيون، تظهر الحركات الفاعلة بنتائج مذهلة، فمن كتم سره كان الخيار في يده، واخترنا يومها عبارة «لنترك الكلاب النائمة على رقادها».

وبإمكانك العمل تحت أيِّ ظروف إذا كان سرُّك بيدك، وقد قالوا قديما: «من عرف سرّك أسرك». هناك وفي ليلتنا تلك ودعنا قائدنا القديم، وكان من ضرورة المرحلة الجديدة تغيير القيادة التي اشتهرت في مرحلة العلن، فلم يأت معنا إلى المراكز السرية الجديدة ولو من بعيد، وإلى المســجد الجديد الذي انتقلنا إليه، لعله من جانبه اختار السلامة لنفسه في هذه المعركة غير المتكافئة ظاهرا، فقد اختفى تماما!!. وبينما كنا نرتقي دائما وجدنا فيه بعض السلبيات التي كنا تجاوزناها من زمان، ومن جانبنا لم نراجعه بل سرنا في طريقنا إلى الأمام ولسان حالنا يقول **مع السلامة!**، وهكذا افترقنا من شيخنا القديم في الطريق. لكن قدرة الله فاعلة، فإذا ذهب ســيد قام ســـيد «تعويض رباني» قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا** ﴿١٣٠﴾ ﴾ [النساء: ١٣٠] فكم في البلاد من ذكاء مقبور وعقل موقور لو وجد له من يعمل على إظهاره من حيز القوة إلى حيز الفعل.

إذا سيدٌ منا خلا قام سيدٌ　　　قؤول لما قال الكرام فعُول

والتجمعات تشبه خلايا الجسم التي إذا تلفت تكونت تلقائيا خلايا بديلة. وهكذا «قد جعل الله لكل دهر رجالا ولكل مقام مقالا».

وعلى كل حال لا أزال أشعر بالتقصير الذي أدّى إلى جفاء القائد القديم، مهما كان حاله؛ لأنه كان له فضل علينا، والشكر واجب لأهل الفضل، فكان ينبغي أن نصله حفظا لدينه ودنياه، وإقالة عثراته، فكفران الطلبة على العالِـم أو الأولاد على الوالد، قد يؤدي عقوقا على الوالد، ومن ثم ربما يُـشعِـره الشيطان أنه ضيّع وقته أو دخل المخاطر لما لا طائل تحته، فتكون العاقبة غير حميدة بالنسبة للوالد والولد، ولا أزال آسفا على جفائنا به وعفى الله عما سلف، كما لا أزال أدعو الله له ولنا بحسن الخاتمة، تجنبا مما ورد في قول الشـــاعر:

أعلِّمه الفـتوّة في كل وقت * فلما طرّ شاربه جفاني

فالنصيحة التي نقدّمها للدعاة إلى الله في كل مكان هي: المواساة لمن قدّم خدمة لأهل هذا الدين، وشكرا على النعمة التي قدّم لهذه الدعوة، وجعل خدماتهم القديمة انجازا، وتقديم النصيحة لهم حتى ولو سقطوا أو فتروا عن المسيرة، واعتبارهم أجدادا. فحق الوالد لا يضيع بأفعاله وأقواله، والأبوة الدينية هي أولى من أبوة النسب، كما ندعوه إلى الله وإلى أداء فرائضه، ونسأل الله لنا وله بحسن الخاتمة.

عودة إلى سير الحركة، بدأت مسيرتها من جديد وانطلقت بهدوء، وبدأت آثارها تظهر على السطح والأعمال كلها كانت موجهة كيف نبلِّغ الرسالة الى الناس لا غير، ومن الطبيعي على الغباء العسكري أن

يرى في ذلك خطورة على غطرسته، وفي الطريق سقط البعض واستبدل الله به آخرين. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد: ٣٨]

قائد المرحلة الجديدة

كان القائد الجديد عبد القادر شيخ محمود قائدا عصاميا بالفطرة ، من مواليد ١٩٤٦م، عاش يتيما مع أعمامه، وقرأ القرآن عند الطفولة ودرس العربية من المدارس الابتدائية ثم دخل مركز الأيتام في مقديشو (Oorfana)، والتحق المدارس التي كانت تدرس باللغة الإيطالية كان وقتها في الثانوية العامة، حيث ظهرت عليه مواهب قيادية واضحة رفعته إلى موقع رئيس الطلبة، وبدأت سمات نضجه الفكري بعد التحاقه بتفسير القرآن الذي كان يلقيه عمه عبد الكريم في بيته، وبعد تأسيس حركة اتحاد الشباب المسلمين، أصبح النجم الأكثر لمعانا في هذا الجيل وأبرزه، شخصية قويّة متصفة بعدد من صفات الزعامة مهيمنا على حركته، وذكيا يحيط به كثير من المعجبين به، شخصية جذابة يمتاز بروح دعابة عالية، قادرة على السيطرة والتوجيه، كان متواضعا، والتواضع سمة قيادية سامية. قاد الحركة في حقبة مفحمة بالأنشطة والمشاكل والاضطراب كما سيأتي في فصل لاحق.

أتجرّأ – ولا أزكي على الله أحدا–أنه من أسباب نجاح الدعوة في هذه المرحلة، أن الرأس كان مخلصا نظيفا معافى ومؤهلا واعيا، فقد قالوا قديما «كفى قوما يصاحبهم خبير» استعدَّ ليرأس الحركة ويحمل المهمة المحفوفة بالمخاطر، وكان ذا عزيمة، إذ لم يتزحزح عن رؤيته الدينية، ولم يتذبذب عن قراراته، ولم يتأثر بالرغبات والرهبات، وقدّم خدماته للدعوة، وتحمّل هو وأسرته لذلك تضحيات مباركة هائلة، فجزاهم الله خيرا.

كان بيته المتواضع في حيٍّ شعبي مقرا سريا للقيادة والإدارة، يرتاد الشباب دفعات بين الحين والآخر ليتلقوا منه التوجيهات بانضباط إداري دقيق، وبقوة ضبط أعصاب عالية، تواجه الاستفزازات والمهيجات الشبابية أو الأعمال المستفزة الكثيرة بالحكمة والكياسة، وكان موضع إعجاب الأعضاء والزوّار معا لشدة ذكائه ونصاعة فكره، لقد وقف وقفة رائعة أمام عاطفة الشباب القوية، كان يتعامل مع الموقف بعقل لا بعاطفة، وكان يرى بعين عقله ما لا يراه بعين رأسه، وكثيرا ما كان يتأخر النقاش إلى آخر الليل، بينما الزوجة والأولاد نائمين في الخارج فجزاهم الله عن الاسلام خير الجزاء. وكان متصفا بمقولة الشـــــــاعر:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة * فإن فســـاد الرأي أن تترددا

وقال شاعر آخر واصفا أهمية القائد الكفء:

ألف ثعلب يقودها أســـد * خير من ألف أســـد يقودها ثعلب

قاد الحركة وكان خرسانة أمام هيّاج الشباب، حـفِظ البيضة، وتظهر قيمة القيادة إذا كانت قادرة لتنظيم الانفعالات وتنجح لضبط العاطفة، ولهذا كان يرفض أيِّ انتقام ديني في تلك المرحلة الحرجة، قائلا لم نقرر المواجهة مع الدولة، وكثيرا ما كان يردد قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [النساء: ٧٧] وكان له القدرة الفائقة في التعامل مع الأحداث.

وعند ما سافر إلى ألمانيا الشرقية بمنحة دراسية مجانية عام ١٩٧٢م أحسّت الجماعة بفراقه، ولم تجد من بين أعضائها من يقوم مقامه بكفاءة وجدارة، أو لم تجد من بينها «الزعيم» الذي تجتمع فيه الصفات

الممتازة المطلوبة التي تجعله أهلا لقيادة الحركة في تلك الظروف وخاصة من عنده الخبرة الحركية الطويلة، فاضطرّ إلى إلغاء منحته الدراسية المجانية ورجع إلى البلاد، وقاد الحركة في مراحلها الحرجة. ولم نسجل عليه أخطاء قيادية في تلك المرحلة؛ إلا بعد الاضطرابات التي سجل عليه البعض أنه قد تستبد به في بعض الأحيان غضبة طارئة يظن الناس أنه عصبي، لكن سرعان ما يعود إلى وقاره، كما سيأتي في فصل لاحق. لكن الفضل ليس له وحده؛ لأنه لم يكن وحده في الميدان، بل ينافسه في الحلبة أمثاله في الصفا والطاعة، فقد وجد أتباعا هم في زمن عافيتهم، يطيعونه ويمتثلون أوامره، فقد قيل «لا عقل لمن لا يطاع». قال الشاعر:

إذا كان في ألف من القوم فارس * مطاع فإن القوم في ألف فارس

اجتمعت فيهم السببان الناجحان: قائد ممتاز ومعه فريق متميز متحد.

*****

مصطلح «الأهـل» (اسم جماعة أم الشيفرة الغامضة؟) أو «اللغز»

حركة اتحاد الشباب المسلمين هي الجماعة التي اشتهرت عند الناس فيما بعد بحركة «الأهـــل» إذ كانت الجماعة تستخدم في عهد الحكومة المدنية اسم **اتحاد الشباب المسلمين** أي من عام ١٩٦٨-١٩٧١م ، وكان النظام قبل الثورة يقبل لوائح الأحزاب والمنظمات، وكانت الجماعة تأخذ الرخص في هذا الاسم، ثم رفضت الجماعة على قرار المجلس الأعلى للثورة الذي يقضي بإلغاء جميع الأحزاب والمؤسسات والمنظمات والتجمعات غير الحكومية، واعتبرته باطلا وغير شرعي من وجهة نظرتها الإسلامية، ثم واجهت الضغوطات الكثيرة بعد عام وشهور، فاختارت حل الجماعة والعمل في الخفاء، وألغت الاسم الذي شاع، ولهذا استغنت عن الأسماء والمسميات، وبعد ذلك لم تستخدم الجماعة اسما لها، بل كان الشعور السائد عند الأعضاء أننا لا نحتاج اسما خاصا لعملنا الدعوي، فنحن مسلمون كغيرنا وكفى، وعملنا كله يصب في خدمة الإسلام الكبير، وكنا نكرر في أشعارنا الصومالية بأننا مسلمون ولا اسم لنا غيره. **هذه واحدة. ثانيا:** لم نحتج من الأسماء شيئا لأن عملنا الدعوي غير شرعي بالنسبة للحكومة، فكنا نقدم فقط خدمات لهذه الدعوة المباركة، ولم يكن هناك جماعات أخرى مزاحمة. ونحن لا نزال ندعو إلى مراجعة التسميات، والخلل في ادعاء مصطلحات إسلامية عامة لفئة واحدة من المسلمين، وهذا نوع من الاختطاف أو السرقة، وضررها أكثر من نفعها لأن المصطلح المميز سيجعلك فئة من دون الناس.

فالإخوان المسلمون اليوم، والوحدة الإسلامية، والاصلاح الإسلامي، والجهاد الإسلامي، والاعتصام الإسلامي، والتضامن الإسلامي، والتبليغ الإسلامي، وحزب الله الإسلامي، وأنصار الله،

وأهل السنة والجماعة ..... وغيرها، كلها فئات لا تمثل المسلمين إنما هي حركات مستقلة تدعو الناس إلى أنشطتها بعيدا عن الفئات الأخرى رغم دعوتها للدين، ولا يمثلون المسلمين جميعا. فالمصطلحات التي كانت تعني التكاتف والتضامن توهم الآن بمعان عكسية مثل التحزب والتفرق والتشتت والتنازع والتضارب.

أما اسم «الأهـل» الذي شاع فيما بعد، لم يكن يوما من الأيام اسما للحركة، بل كان يستخدم كشيفرة غامضة «كود» أو «اللغز» بمعنى عند ما يدور الحديث حول أمر يتعلق بأنشطة الدعوة أو الإخوة، كان يستخدم مصطلح «الأهل» كشيفرة لتضليل المخابرات والمستمعين، فعندما يريد الواحد منهم أن يستفسر أخبارا تتعلق بالنشاط أو الإخوة شاع بينهم استخدام «الأهل» كاسم حركي، أي ما أخبار العائلة بدل الجماعة أو الحركة، لكن كثرة استخدامه، وخروج الرعيل الأول من البلاد، أوهم البعض أنه كان اسما للحركة، فشاع بين المتأخرين بهذه الطريقة. صادف المصطلح فراغا «نشاطا بلا اسم» فتمكن وشاع. على كل حال كانت حركة قوية منظمة تنظيما دقيقا بشهادة الجميع.

*****

التفســـــــــير والمفاجأة السّــــــارّة

كان الشيخ محمد معلم حسن رحمه الله عالما واسع الاطلاع لغة وبلاغة وفقها وعقيدة ومنطقا وتفســـــيرا، كان أســتاذا في تفســـير القرآن بما تعني الكلمة من معنى، ظهر في زمن تـشــتت معاني القرآن الكريم بين الإعراب والتاريخ وسبب النزول وعلم الكلام أي جدل العقيدة ، وبين الشبهات التي كان يطلقها المستشرقون الذين سيطروا على المنطقة، كل ذلك أوهم عند كثير من الناس وبسبب اعتقادهم الخاطئ صعوبة فهمه، كما أوهم عند كثير من المسلمين أنَّ القرآن الكريم كتاب تاريخ مقدس، استنـفذ أغراضه، وانتهت مهمته بانتهاء زمانه، ولكن قدسيته خلفت تبركا عند الناس خاصة عند الأزمات أو الاحتضار أو عند القبور والأموات.

وكان التفسير يُـقرأ للتبرك ولأجل تطبـيق القواعد اللغوية الآلية، لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية وتطبيقاتها، فلم يكن يتجاوز درس التفسير، المقاييس اللغوية الجافة، وما يتصل بها من نحو وصرف وعروض وبلاغة، وكانوا لا يتكلمون في القرآن تورعا، بينما فهم القرآن ليس صعبا بحيث نغلق عقولنا ولكنه ميسَّر سهل الالتقاط. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر: ١٧].

فلما بدأ الشيخ تفسير القرآن وظَّف علمه وعقله لخدمة القرآن فغيّرت دراسته تلك المعالم كلها، وجعلت القرآن كتاب هداية وسياسة وحياة ونهضة ومدنية وعمران وأدب وثقافة، وأبرزت الهداية القرآنية ومقاصده من خلال التفسير، وبعبارات مباشرة مختصرة سهلة الالتـقاط، وكان يغلب على أسلوبه،

الطابع العقلي والمنطقي والروحي، فتأتي ألفاظه دقيـقة واضحة، وتركيبته رصينة متأنـية مع روحانيته الجذابة، وكان تفسيره له طابع تربوي.

وإذا تعددت الروايات أو الآراء، كان يختار لطلبته أفضل رواية أو أحسن رأي لديه. وكان يستعين أحيانا بالعلوم الأخرى، ويفــنِّد الشبهات ويبـطل الـترهات، وكان يظهر فكرة الخصم غير ناقصة فيوضِّحها ويجمِّلها حتى يوهم بمعقوليتها، ثم يهاجمها ويغزوها فيزهـقها زهقا، وكان ذلك من الأسباب التي جلبت إليه المثقفـين إذ وجدوا فيه ضالتهم في زمانهم.

وبما أن القرآن الكريم كتاب خالد ناطق حي معجز متجدد صالح لكل زمان ومكان، وبما أنه كتاب يتفاعل مع الزمن وكأنه نازل في كل الأزمنة؛ فإن المفسِّر الناجح هو الذي يستطيع توجيه الخطاب إلى المدعوِّين الذين هم أمامه، مما يلزمه أن يكون واعيا بما يدور حوله من صفات وأزمات وأحوال وشبهات ومتناقضات ونوازل؛ فتظهر فيه أهمية المترجم إذا ارتقى فكره وأداؤه اللغوي، واستطاع قراءة النص واستخراجه حاجات العصر بما يحقق المعاصرة والواقعية والأصالة، ولذلك اعتبرنا الشيخ بمثابة أول من وضع دعائم راسخة متينة سهلة للتفسير في البلاد، فاستحق لقب «المفسر الممتاز» الذي اتسم بدقة عجيبة في عرض مغازي كلام الله. وهكذا كان الشيخ رحمه الله، ومثّل هذا الدور خير تمثيل، وعلّم الناس منهجا جديد في تفسير القرآن الكريم، اجتمعت فيه ينابيعه الثرية، ومناجمه الغنية؛ فترك أثرا ملموسا. ولحاجة الزمن كان يهتم ويشرح التفسير الإسلامي للتاريخ الإنساني ، خاصة من جانب ما يقع من الصراع بين الحق والباطل، وما انتهى كل فصل فيها من نتيجة التي تنتهي دائما أن الحق هو

الغالب في النهاية، وكان له أيضا محاضرات لهذا الموضوع خارج الدرس لقيت رواجا كبيرا لدى الجمهور.

درس الشيخ علوم القرآن وقبله علوم اللغة في الصومال، والتحق بحلقات المشايخ الصوماليين، وكان يذكر لنا كثيرا حلقة الشيخ على جوهر وتفسيره في «جكجكا» وغيره من علماء المنطقة. ثم التحق بالأزهر الشريف، وبعد انتهاء دراسته العليا بمرحلة الماجستير في الأزهر واطلاعه لعلوم كثيرة، رجع إلى البلاد وبدأ تدريس التفسير، كان العلماء في ذلك الزمن يذهبون إلى الأزهر وغيرها بعد تشبعهم بجميع العلوم الموجودة في الصومال، ثمَّ كانوا يذهبون إلى الخارج، لمطالعة الكتب ولتمدين العلوم ليصبح عالما واعيا في زمانه.

وكان معجبا شديد الاعجاب بالتفسير «في ظلال القرآن» لسيد قطب، الذي عاين الشيخ اغتياله في مصر، وبما أنّ اغتيال سيد قطب، كان حدثا طريا زلزل العالم الإسلام ككل؛ إلا أنّ شيخ محمد جذب انتباهه أكثر، يوم حديث سيد قطب كان في طاولة «الأمم المتحدة» أو «المجلس الأمن» معتبرين برجل الإرهاب الفكري في القرن العشرين، والتي اقترح يومها زعيم الكتلة اليسارية ألّا يعدم الرجل؛ لأنه كبير السن ومريض وأيضا مسجون، وإعدامه يثير شعور المسلمين، وأن كل أفكاره في الشوارع. ولتلك الأسباب وغيرها تأثر الشيخ به؛ فاعتمد على ظلاله كثيرا، وكان هذا الكتاب هو التفسير الواقعي الناجح في زمانه بدون منازع، وهو الكتاب الذي قامت الدنيا لأجله ولم تقعد، كما كان الكتاب الذي سبّب إعدام الأستاذ « سيد » بالقرار الدولي، معتبرين السيد أنه فيلسوف الحركات الإسلامية المعادية للحضارة الغربية، وكان ذا تأثير يفوق التقدير على الجيل الإسلامي المعاصر، وأحرِقت كتبه في بعض

البلدان، كما منع في بلدان أخرى، وكتابه «المعالم» الذي لخّصه الأستاذ من ظلاله، هوجم عليه في أكثر من بلد، وعندما أحرق الكتاب بحفلة حاشدة في ليبيا، قال أحد المفكرين يومها :-

ليت من أحرق المعالم يدري * أنّ من ناره يتأجَّجُ الوضعُ

ولا يزال الكثيرون مخدوعين بما مُلِئَت به هذه الدنيا من إعلام ودعاية والتي سُلطت على أفكار هذا العملاق الإسلامي الذي تأثر بكلمات الله كثيرا وقدّم روحه لأجلها، معتمدين على هيئات الدين وعلماء الملوك والرؤساء الذين ينفذون المؤامرات الغربية المخفية، والذين أسست بعين المستعمرين لتبريد الفكر الإسلامي وتثليجه، حصل ذلك بعد ما انخفض الإجلال الذي كان في النفوس للعلامة المجاهد الذي كان مانعا من التجرُّئِ عليه.

وإذا كان الممولون قد حاولوا تشويه الصورة لتلك الشخصيات الهامة في هذه المرحلة؛ فإننا نرفض هذا التشويه الظالم الحقير رفضا قاطعا، وننزع عنه الستار الخادع، ونعتبره تلبيس إبليس، ويجب حماية الأبطال والمفكرين المؤمنين حتى بعد مماتهم ، بل نعتبر هذا التشويه إجراما وينتقم الله من المجرمين، ونحن بريء مما يجرمون. ومن أراد أن يعرف الأستاذ فليقرأ كتبه بعقلية حرة ليكشف مكنوناته. وقد رجح كثير من العلماء رضي الله عنهم حق المفكر أو المعلم على حق الوالد، وعللوا في الوالد أنه إنما أوجده نطفة يأكلها الدود غدا ، والمعلم سبَّـب بقاء الروح في النعيم المقيم بالعلم الذي ألقي إليها .

من علم الناس فهو خير أبٍ ذاك أبو الروح لا أبو النطف.

ومن العجيب أن قدر الله إخراج داعية مؤثرة ومجدد في زمن من الأزمنة ، فيشتهر عند الأمة ، بعد أن عمل وسط بحر من النشاط العدائي، فتتكاتف عليه القوى الكافرة وتنفخ عليه نار السموم الدعائية كل من الصهيونية والاستعمار لتشويه أفكاره، فتقرر إعدامه وإسكاته إلى الأبد قائلين: خطير على حضارة الغرب واستعمارها أو استعبادها، فيأتي غبيٌّ تأثر بالدعاية من سلالة المسلمين ويعلن سذاجته في المساجد والمحافل ليقول اكتشفت خوارجيه جديدة!!!، وتكفيريه حديثة! وهو لا يعلم أن مصطلح التكفير والخوارج مصطلح دعائي أشاعوه في الفضاء أكثر منه فكري.

كان الشيخ محمد معلم يراجع التفاسير المعتمدة كلها، لكنه كان يلازم «في ظلال القرءان» لسيد قطب أكثر من غيره، ملازمته كانت كملازمة الظل للأشياء، بعد أن أعجب به إعجابا خاصا، وكان المؤلف قمة لا تطالها القمم المعاصرة جميعا في ذوقه الأدبي وصفاء تصوره، ودقة ميزانه، وعظمة روحه، فالتقى العظيمان وتعاونا فأنتجا عظائم.

سمعت منه مشافهة أكثر من مرة، أنه ليس معجبا بالظلال فقط، بل أنه منبهر(١) أمام عباراته البراقة، وعمق فكره، وألفاظه الأخَّاذة، وروحانيته الجذَّابة. وكان يقول أتساءل كيف فتح الله على قلب الرجل للقرآن الكريم؟، والأعجب من ذلك كيف عبّر هذا الفتح العظيم بلغة أدبية عميقة ورائعة، إذ كان أسلوبه يمتاز بالإشراق البياني، وجمال التعبير، وعرض الحقائق، ونقاء التصور، والجرأة في التعبير لكشف الحقائق. قال سيد قطب – رحمه الله في تفسير على سبيل المثال قوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤] –: «تدبر القرآن يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ،

---

(١) **والانبهار:** هو الإعجاب المقرون بالاحترام والتقدير .

ويسكب النور، ويحرك المشاعر، ويستجيش القلوب ، ويخلص الضمير، وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير » .

والحقيقة أن سر الجاذبية في المادة، فالقرآن علوٌ وقهرٌ ملموس على النفوس، وهكذا كان دائما ولم يزل أنه مليءٌ من شعورٍ يستحوذ على الجميع. عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ «**سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ**» قَالَ سُفْيَانُ: قَالُوا فِي هَذَا الْحَدِيثِ: إِنَّ جُبَيْرًا قَالَ: «**سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا مُشْرِكٌ فَكَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ**» رواه مسلم. فإذا كان القرآن يستحوذ على المشرك حتى يكاد يطير قلبه؛ فمن باب أولى أن يجد كل انسان في هذا الاستحواذ الموجود في القرآن.

كانت الثقافة السائدة وقتـذاك «الخوف الشديد من تفسير القرآن الكريم» كثيرا ما كان العلماء والطلبة يرددون النهي الذي جاء من فسّر القرآن برأيه، مما أدّى إلى هجرانه، وانطبع في حسِّهم، أنهم غير مؤهّلين لفهم القرآن وتفسيره.

فجاء الشيخ وجعل مادة التفسير مادة سهلة ويسيرة ومفهومة حتى للطالب البدائي أو البدوي الجاهل، وأخذ المصحف المجرّد، وحاول تقديم مراد الله سبحانه في عباراته، ثم مباشرة كان الطالب يأخذ رسالته إلى غيره، لأنه معجز في الأسلوب التعبيري وفي المضامين. وأصبحت تلك الطريقة مألوفة عند الصوماليين أي سنة متبعة فيما بعد، واستخدام المصحف فقط ومحاولة ترجمته مباشرة الى اللغة الصومالية أصبحت مألوفة.

وكان الشيخ ذا قدرة عالية على تفنيد الأفكار، ويـُـزيد المستمع ثروة في المفاهيم، تفتح له آفاقا من الاقتناع والمعرفة. اجتمعت عنده، الأسلوب المنطقي، وحسن العرض، وبلاغة الصياغة، والروحانية الحيّة، والوعي، فتركت الأثر المطلوب. لا أعلم في وقته أنفع ولا أحسن سياقا منه.

كان المستمعون يتمتعون بأذواقه الأدبية والفنية والروحية، ليس فقط بأدب اللغة العربية التي نزل بها القرآن، ولكن أيضا كانوا يتلقون من جلساته الذوق الأدبي الرفيع بلغته الصومالية الغنية، فكان الكثيرون يكتبون ترجمته الصومالية كاملة ليلقوا غدا في جلسات أخرى. وكان يعتمد في حجاجه على النص القرآني، وهو حجاج قريب المأخذ يدركه الناس بسهولة ويسر، ثم يستمع إليه مباشرة روعة الاستدلال وقوة الحجة. أسأل الله العظيم أن يغفر ذنوبه وأن يسكنه الفردوس الأعلى، وأن يجازيه على جهوده بل جهاده المبارك أحسن الجزاء.

طلبة الشيخ قبل تحويل الأنشطة الشبابية إلى المسجد، كانت عبارة عن بعض الطلبة التقليديين الذين لم يدرسوا التعليم المدرسي النظامي، وبعض التجار، وعدد محدود من الموظفين، وكانت الدراسة التي كان يلقيها، أقوى من مستوى استيعابهم لقلة الوعي والثقافة لديهم، فكانوا يلقون السمع ويصغونه اصغاء المألوف.

فلما قررت الجماعة تحويل أنشطتها إلى المسجد تحت عباءة الشـيخ، تدفق أعداد هائلة من أتباع الحركة المكونة من الشباب المؤمن الواعين، الذين أوتوا الإيمان والفهم قبل القرآن؛ فامتلأ المسجد بالمستمعين، وتطلعت الأعين إلى الرجل في اجلال، واشـتدَّ الإصغاء بصورة غير مألوفة؛ فأصبح ملآن يملأ العقول حكمة والقلوب محبة؛ لأن عددا هائلا من المستمعين، سوف يلقون هذا الدرس في مدارسهم

وجامعاتهم وجوامع حاراتهم وفي بيوتهم، ثم يدعون المتأثرين إلى التحاق بمسجد الشيخ في اليوم التالي، وأضافت الحركة إلى درس الشيخ منهجها التربوي الذي يتلخص في أهمية التلقي للتنفيذ الفوري، وبهذا التلاقح حدث ما لم يكن في الحسبان!!.

وكثيرون من تلك الطلبة كانوا يحفظون الآيات القرآنية التي فسرها الشيخ في الليلة الماضية، تفهم وتحفظ وتحاول التطبيق روعة عالية. وفي أوائل لقاءاتنا مع درس الشيخ وجدناه في ذروة التبحُّر في دقائق القرآن، فاستحوذ علينا الدهشة من عمق علمه بالقرآن وما فيه من أسرار الحكم الإلهية، وشدّة استحضار الآيات وربط ما بينها. أنصت له الناس، وملك أسماعهم، وأعجبوا بأسلوب كلامه، فأصبحوا يتفاعلون معه، وكان يجيِّد أساليب جذب الناس والتأثير بهم. ومن الليالي المثيرة جدا يوم كان الشيخ يفسِّر قوله تعالى ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ [مريم: ٧١] فقال: الورود في النار يقين حتما مقضيا، ولا ضمان بالصدر بعد الورود!. فبكى الجميع بكاء لم أرَ له مثيل!!!. فتولد من ذلك البكاء ما ممكن أن نطلق عليه «الانفجار الشعوري» .

تجرّأ الشباب على نشر تفسيره، ونقل معلوماته في حلقات دراسية أخرى، كإعادة ما فهمه الطالب من تفسير الشيخ، وتجرّأ الجميع على استدلال القرآن الكريم، والدعوة إلى تطبيق آيات الله في الحياة اليومية، ومطالبة تطبيقه في الحياة العامة، فأصبح القرآن عندهم مادة محبوبة ومؤثرة أيما تأثير، مما شجّع الشباب بإرسال دعاته الذي انتقاهم بدقة لنشر الدعوة إلى ربوع البلاد.

كان الشيخ يعلم أن تطورات هائلة حدثت في حلقته، وكان فرحا بهذا التطور النوعي الذي أضافته الجماعة بالدعوة إلى الله، وكان يعلم أن نشاطا قويا خارجا عن سيطرته قد أظل على مسجده، لكنه كان

فرحا بهذا العمل الجبّار، لأنه كان مخلصا، فقد كان همه الأول والأخير نشر الدعوة، كان يطلب ذلك من كل أحد، وكان معجبا أيضا بقائد الحركة. كان الزمن معافى من التطلع إلى القيادة، والتقويم كله كان منصبا على من لديه برنامج عمل فاعل ومؤثر ومنتج.

والأمر الآخر هو أنه حتى تلك اللحظة لم تنتشر في البلاد أزمة المذهبية التي تتملك المركز أو المسجد وترفض التعاون، وبدأت تلك الأزمة فيما بعد **من اتجاهين:-**

الاتجاه الأول: حجز الثورة المساجد لمؤيديها ومنع أيِّ كلام في المساجد بدون ترخيص.

والاتجاه الثاني: أتى من الخليج التابع للملك ولمؤيديه، ونشر ملكيته في أماكن العبادة، وهكذا وبهذا التكاتف الغير مقصود ظهرت ملكية الأفكار والمساجد والمراكز التي تضغط الحريات، فانتشرت تلك الثقافة إلى العالم الإسلامي – ومنها الصومال- عن طريق المبتعثين.

كنا نعاتبه على رجائه من الرئيس الصومالي «محمد زياد برى» الذي كنا نعتبره فرعونا حيا، أن يأخذ دوره لنشر الدين، مستخدما صلاحياته القيادية. كنا نقول له يا شيخ أنت درويش وفي طلبك لا يخلو من سذاجة!!، كيف ترجوا خيرا من رئيس يحارب الدين وأهله وينشر العلمانية؟ أليس من السذاجة أن تطلب من الذئب أن يرعى الغنم!! فكان يقبل منا النقد بصدر رحب، وكان يصطحب بعض الإخوة إلى جلساته خوفا من النقد الشديد الذي كان يتلقى من أعضاء الجماعة التي أحبها وفهم هدفها.

كان الشيخ محمد معلم يمنح العملية الدعويّة «الأكسجين» الذي تحتاج إليه لمواصلة التـنفـس، أو كان كـ «القلب النابض» الذي يضخ دماء الحيوية على الدعوة، بينما كان دور الحركة بقيادة الأخ عبد القادر

شيخ محمود ولجنته، دور «التدريب العملي» كالتخطيط والتحريك والتوسيع، فأنتج هذا التكاتف ذلك العمل الضخم الذي أربك النظام. **الأول:** كزعيم نظري روحي وعلمي، بينما **الثاني ولجنته:** كمخطط استراتيجي ومنظر سياسي ينظم حركة واسعة في غرف مغلقة.

وبما ان الشيخ كان شخصية كبيرة وبارزة وموظفا حكوميا حياته موزعة بين رضا الحكومة عنه وغضبهم عليه، ما كان يستطيع التخطيط لعمل سرِّي يحتاج تحريكه من وراء الكواليس، ومن وراء جلسات سرية؛ فاكتفى الشيخ بدوره الإلقائي، ورضي تقاسم الأدوار الذي لا يقبله عادة إلا مخلص، وهنا تظهر قيمة التعاون على البرِّ والتقوى ونتيجتها الباهرة، إذ من النادر جدا أن تجتمع عند الإنسان الواحد سعة في العلم، وأهلية في القيادة، وعبقرية في التخطيط والتنظيم، وقلَّ ما تجتمع للعالِمِ الفذ كل المزايا والمحاسن، وحتى لو وجد مثل هذا «الرمز» العظيم؛ فإن الأوضاع الأمنية المعادية تستدعي تقاسم الأدوار والتعاون، والشيخ كان يقدِّر هذا العمل تقديرا عظيما، وكان يحب القائد كثيرا ويثنيه بجودة الرأي والاستنباط. ولذلك يجب أن نسجِّل لهم شكرنا العميق وتقديرنا الكبير لهذا التعاون المثالي الذي هو مثال للروح العلمية والدعوية إلى خدمة دين الله سبحانه. كما يجب أن ندعو دائما إلى مثل هذا التعاون تحقيقا لقوله تعالى ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾ [المائدة: ٢]

إن «حركة اتحاد الشباب المسلمين» أو الأهل كما شاع لها في تلك المرحلة ، كانت تدعو الناس إلى حضور تفسير القرآن الذي كان يلقيها الشيخ، وركزت على الطلبة، واختارت المؤهلين لإعادة الدرس في المسجد نفسه، وفي مساجد أخرى وفي المدارس والجامعات وأماكن أخرى عامة.

إن معجزة القرآن الكريم غالبة دائما، وأقوى من كل قوى معوِّقة؛ لأنه كتاب عزيز وغالب، فقد خضعت لها رقاب العرب ببلاغته وفصاحته وتأثيره الوجداني؛ فبلغ تأثيره أعلى الدرجات وأرقى المقامات، ومثّل أرقى أساليب التعبير جمالا وإشراقا وفصاحة، ولم يزل ذلك ولن يزول حتى تقوم الساعة، فلم يزل صافيا نقيا جديدا كما نزل.

والقرآن الكريم جميل العبارة، ولم يتمكن أحد أن يظهر جمال عباراته، وإنما الحقائق الجميلة للقرآن الكريم هي التي جمّلت عباراته، فأصبحت حقائقه هي الغالبة مهما ظن الناس أنه مغلوب.

أنشأت الحركة في تلك المرحلة أرقى أشكال التنظيم فاعلية، وأرقى أساليب الإدارة الهرمية المكافئة لهذا الجو القاتل والشانق؛ لأن التخطيط كان داخليا، إذ لم يكن هناك إملاءات خارجية، كما حصلت عند بعض التجمعات الأخرى التي كانت تأخذ الفتاوى والقرارات من عالِمٍ في أماكن أخرى من العالم، عالِمٍ بعيد لا يدري بشعاب البلدان الأخرى وأوضاعها، بينما كنا نرى أن «صاحب الدار أدرى بما فيها» أو «أهل مكة أدرى بشعابها». كانت الحركة تنموا وتتطوّر فكرة وتنظيما، وكان الاقبال شديدا واستجابة طبيعية للظروف التي كان يمرُّ بها الشعب الصومالي حينها.

كانت الثورة في عامها الأول، تتحرّك ببطء وخوف شديدين، تقدِّم رجلا وتؤخر أخرى، ثم تهوّرت بإعلانها «الاشتراكية العلمية» وأصبح هذا الاعلان انتحارا سياسيا؛ فقد تبين بالاستقراء التاريخي، أنه ليس على وجه الأرض قوّة تكافئ قوّة التدين في كفالة احترام القانون، وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه، فحربهم على «الدين» كان يدعوا إلى الفوضى، ومحاربة «الحق» هي حرب على العدل

والإنسانية. وقد ترك هذا الانتحار آثارا مُدمِّرة، لانزال نعيش آثاره السيئة ودماره القاتل، حتى بعد عشرات السنين من سقوط النظام العسكري.

لم نكن نفاجئ يوما بما يفرزه النظام العلماني من مشكلات وكوارث وكفريات وإلحاد، ولم نكن نتوقع منه خيرا أبدا، والمنهجية التي كان يوصى بها المفكر الإسلامي المؤثر آنذاك الأستاذ سيد قطب تركت بصماتها على الحركة أو أصبحت كبلدوزر مهَّد الطريق للدعاة إلى الله، مثل قوله: «ليس مطلوبا من الإسلاميين أن يجدوا حلولا من المشكلات التي أفرزت النظم الوضعية الكافرة» ونصح بعرض الدعوة الإسلامية بطريقتها القرآنية الساحرة متبعين بمنهجه الأصيل، وعرف أفكاره على طريقته المؤثرة.

كنا نـتذوق حلاوة العمل الذي كانت الثورة العسكرية تهوِّله، وفي الوقت نفسه كان لنا جرأة فائقة في تجنب الوقوع في يد العدو، بمعنى اعترافها واقعا، ثم اعتزالها ومقاطعتها، والتخطيط لإلغائها مهما تأخَّر النجاح. ومن خلال هذه المعركة الخفية، سار البناء التربوي للجماعة إدارة صراعهم مع العدو.

في خلال تلك الفترة أجبرت الثورة العلماء على مدح الاشتراكية العلمية وأنها من الدين أو مع الدين، كما ألزمت على الجميع أن يعقدوا لها محاضرات تؤيد تلك الاشتراكية ، وأنه لا فرق بينها وبين الإسلام، وأنَّ محمّدا ﷺ كان اشتراكيا من الطراز الأول، كان قرارا إجراميا ولعينا. ولن أنسى ما دمت حيا ذلك اليوم الذي دخلت في مسجد عبد القادر لأداء فريضة المغرب وأنا حامل بدفاتري المدرسية وروحانيتي كانت على ما يرام، فاجأني شيخ آدم عبد الله رحمه الله باستفتاح محاضرة له كان عنوانها «موافقة الإسلام بالاشتراكية العلمية ومعاداته بالرأسمالية الغربية» ضاق الأرض عليّ بما رحبت!، وكنا نعرفه شخصيا ونقدِّره، وحصل لقاءات بيننا من قبل، فتزاحمت فيّ الخواطر ، هاجمني خاطر يقول إرم الدفاتر عليه وقل

له أخزاك الله يا شيخ!، فهاجمني خاطر آخر وظهر فجأة على الشاشة قائلا: قف أمام الشيخ وقل له: الإسلام من السميع القريب المجيب والاشتراكية والرأسمالية من الصم البكم الذين لا يعقلون!. ثمَّ فكرت تفكيرا عميقا، وإذا بخاطر آخر يزاحم في الشاشة يقول: أخرج من المسجد وقاطع المحاضرة ومن معها.

كانت المقاطعة طريقتنا المفضلة في تلك المرحلة الحرجة، لكن من الصعب علينا أن نقاطع هذا المسجد بالذات؛ لأن المسجد مركز تزودنا للإيمان والعلم، وبصفة خاصة هو المسجد الذي نتلقى التفسير من الشيخ محمد معلم، ونعمل فيه جميع أنشطتنا الحركية. ثبت القرار الأخير واضحا على الشاشة فخرجت من المسجد حزينا متحسرا مهموما!، ولم نكن نستطيع تقويم الضغط الذي كان على العلماء في تلك المرحلة؛ لأننا كنا في بيئة قاسية.

أما الشيخ محمّد معلم فكان ذكيا بالفطرة، وفي محاضرته المماثلة الاجبارية بين الإسلام والاشتراكية العلمية، كان يلوِّحُ العصى من بعيد، فتفلسف وطوّل الحديث في شرح مصطلح العلم والعلمية والفرق بين العلم والأدب في ثقافة المدارس، وما معنى العلم التجريدي والتجريبي....إلخ، وانتهت المحاضرة أو ضاعت في عبارات مبهمة، بعد أن ضاع مغزاها في الفضاء. رغم هذه اللباقة الرائعة كانت حماسة الشباب الفطرية ترفض المجاملة مع الطاغوت، وكان من الشباب من علّق المحاضرة ب «الرعي حول الحمى» ولكن تعليق الأخ عبد القادر شيخ كان متفائلا ومدافعا، واعتبرها خروجا من المأزق بلباقة نادرة ورائعة، لمصلحة استمرار التفسير معتقدا أنه معفو.

*****

الانتقال إلى المرحلة الثالثة

كان من عادة الجماعة أن تنتقل من مرحلة إلى مرحلة دون اعتساف أو تعجُّل، وانتقلت إلى مرحلة جديدة محفوفة بالمخاطر، وذلك بعد ما أنشـأت الثورة ما عرف بالحرس الشعبي والكشافة، من العناصر الغوغائية، التي سموها «Guul wadayaal» وعاش الشعب في حالة من الرعب بسبب القبضة الحديدية التي كانوا يسمونها دفع الثورة إلى الأمام.(Labakacleyn)

كانوا يراقبون التحركات والتجمعات، وكان أيِّ اجتماع أكثر من شخصين يعتبر منظمة محرومة فعلها إجراما، فترى في الليل عيونا ساهرة تراقب الحركات والسكنات، وعاش الشعب في حالة من الرعب بسبب هذه القبضة، واعتقد كثيرون أن الثورة سميعة رقيبة، وأن الجدران لها آذان تتنصت إلى الحديث الدائر بين الناس في البيوت المظلمة، وعند ما كان ينظر إلى الناس الذين يأتون لزيارتك بعين الريبة وكأنهم جواسيس؛ فانتشرت عبارة «اختر بين الأمرين إما إلى السجن في (أفجوي) أو الصموت» وحتى الصموت يقولون أحيانا لماذا هو صامت وساكت ؟.

واجـهت الجماعة هذه المرحلة الحرجة بفطنة وحكمة وكياسة، وواصلت مسيرتها بدون توقف، وشقت طريقها بصعوبة، واقتحمت العقبات بسهولة، وبدون أن تتنازل فقرة واحدة عن تصوراتها، وبدون أن تؤجل درسا واحدا عن وقته، وبدون أن تهادن أو تتهور أو توقف عملها الجبَّار لحظة واحدة، كما تغاضت عن التشهير والتهويل الذي كان النظام يدندنها، واعتبرته أمرا حقيرا لا يستحق الالتفات إليه.

كان يحدث ذلك في زمن؛ افتتن كثيرون من الدعاة وأصحاب الشهادات العليا من الجامعات العربية بالترغيب والترهيب، فقد كانوا في الشوارع معطلين قبل الانقلاب ثم فتحت الثورة أبوابها، واستفادت من هذه القوى الفكرية الخصبة المعطلة، فأصبحوا فيما بعد كوادر الحزب، ولصالح الحزب الاشتراكية، وروّجوا أنَّ ماركس قال: «يا عالم اتحدوا». وأن الإسلام دين الاشتراكية وأن رسول الله ﷺ اشتراكي لأنه هو الذي قال: «الناس شركاء في ثلاثة: النار والماء والكلأ» ....وغيرها من ترويجات كتب طبعت لتلك الأفكار وتخبطاتها.

وبدأت الجماعة تدريباتها المكافئة على الوضع الجديد، وصدرت أوامرها لأعضائها كيفية الدخول والخروج من الحلقات بقيادة الأخ: حسين على حاج قديما الذي كان يدير حركة كثيرة التشعب من متجره الصغير الذي كان غطاء هاما للعمل، ثم عثمان عبد الله روبلة أخيرا بعد خروجه من السجن، وبعد تصقله من تجارب بوتقة السجن التي دائما تخرج الانسان من معادنه الثمينة!. وذلك مثل على الأخ الفلاني: أن يدخل الدقيقة الفلانية في الجلسة، يجد الباب مفتوحا، أما إذا تأخر دقيقة واحدة يفاجئ الباب مغلقا، ومن ثم ما عليه إلا أن يرجع إلى حيث أتى. رضى الجميع بهذا التدريب الشاق مع أن الجميع كان يأتي من أقصى المدينة مشيا على الأقدام وبدون أيِّ تعويض، وفي زمن قلّ من يجد أجرة الحافلة.

كان العمل كله يجري بما يمكن أن نسميه ب «التطوع النبيل» كان الشباب يؤدون الأعمال عبادة خالصة لله وابتغاء مرضاته، فكانت شعبية الجماعة ترتقي بصورة سريعة ومذهلة؛ لأن تقديم الأهداف النبيلة

بالمجان عمل رائع ورائع جدا!!. انتشرت الدعوة إلى كل المناطق على مستوى الجمهورية ووصل تأثيرها إلى البادية.

وفي عام ١٩٧٤م وبعد كتابة اللغة الصومالية بالحروف اللاتينية، قررت الحكومة حملة «محو الأمية» وتعليم الناس بالقراءة والكتابة، وأجبرت الطلبة الذهاب إلى جميع المحافظات والبوادي على حساب الحكومة، ودفعت الحكومة دفعا عجيبا، وانتشرت الدعوة إلى كل المناطق وعلى مستوى الصومال ووصل تأثيرها إلى البوادي، وهكذا دفعت الحكومة على نشر الدعوة دفعا سريعا وهي لا ترغب. سبحان الله إرادة الله فاعلة حتى في عقل العدو أو الرافض!!.

كان قرار الجماعة يوصي الجميع بحفظ القرآن وتبليغ الدعوة وتعليم الناس بأركان الإيمان والإسلام، وتعليم أهل البدو بالصلاة والزكاة والصوم وغيرها من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة؛ فانتشرت الدعوة انتشارا واسعا، فعاش المجتمع الصومالي خلال تلك الفترة اقبالا كبيرا على التدين رغم عداء الحكومة ومحاربته، علما أنها كانت جزءا من ظاهرة عالمية عمَّت أرجاء العالم الإسلامي آنذاك.

*****

المنح الدراسية (Borso Studio)

عودة إلى الماضي وإلى الموضوع التاريخي الذي كنا فيه ، كان مشروع الابتعاث للصفوة المتفوِّقة كان حيا في ذلك الزمن ، كما كان مغريا ومقبولا ، وجو الابتعاث إلى أوروبا وأمريكا كان يشجِّع الشهوات والتفلت من هيبة التدين مع غياب ملاحظة الأسرة والمجتمع والصحب الصالح ، ولكى يعودوا إلى بلادهم ، وقد امتلأت نفوسهم غرورا، كان حربا غير معلنة!. والغاية منها أن يسقط من يسقط من أبناء المسلمين في حبائل الفكر والثقافة المدسوسة المزيفة ، وفي حبائل الشهوات والمطامع ومرضيات الأهواء والنزعات ، أو الانبهار بظواهر الحضارة المادية الحديثة ، وهذا الانبهار يسوق إلى التقليد الأعمى . أما إذا نجى منهم فينجو بفضل الله وعصمته ، وكما ينجو من الحريق من يدخل النار وهو يلبس الألبسة الواقية ، أو كما ينجو من الغرق من يتوغل سابحا في عباب البحر الهائج ، وكانت صورة ذكية ماكرة متمدنة .

وفي هذا الوضع حصلت الأفواج الأولى من أعضاء الجماعة على المنح الدراسية بعد ما نجحوا امتحانات المنح الأوروبية التي كانت يومها «فرصة الزمان» والتي يرى الكثيرون لا ينبغي اضاعتها ؛ لأنه من أضاع الفرصة عن وقتها ولم يغتنم سيكون ملوما عند الجميع. وقال الشاعر:

إذا هبّت رياحك فاغتنمها * فإن لكل خافقة سكون

كان أول فوج سافر إلى إيطاليا بتاريخ ٢٧ نوفمبر ١٩٧١م، وما دمنا كنا نحب البعض كنا نهتم بالمعيشة المتجاورة ، ولكن جاءت فرص ذات أهمية ؛ فوافقنا الذهاب لإتمام الدراسة الجامعية في الغرب بدافع من حب الاطلاع على حضارات الأمم الأخرى وكفاحها وثقافتها وضميرنا غير راض ، وعملت

الجماعة لهم حفلات وداع وتوصيات وتذكير بالله سبحانه. وقيل لهم اعلموا أن المعبود الذي كنتم تعبدونه هنا، هو المعبود الذي معكم في أوروبا ، ومن الحماقة أن تعبدوه هنا في الصومال ، وتعصوه أو تكفروا به هناك في الغرب الكافر ، ظانين أنكم بعيدين عن مراقبته سبحانه ، وكان موضوع «فتنة النساء في الغرب» يأخذ الحيز الأكبر من التوصيات ، إذ لا خوف من الأفكار الهدّامة ، فقد تجاوز أعضاء الجماعة التأثر بالأفكار الهدامة . قال: أحد المودِّعين عليكم بالصوم ؛ لأن له دور فعّال في كبح الرغبة الجنسية ، فاحذروا فليس هناك ليونة وجاذبية ونعومة ملمس من جلد الحية الرقطاء. وقال آخر: وجودنا في الكون بسب العبادة . قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أما مهمة وجودكم في أوروبا لتلقي الشهادة الجامعية فقط ، ومن ثمَّ وجودكم فيها مرحلي.

كنا مضطرين أن نقبل إتمام الدراسة في أوروبا رغم أننا كنا متخوفين من جامعاتهم الملغومة وملاهيهم المسمومة، فهم كانوا يذهبون إلى تلك البلاد التي كنا نكرههم في أعماقنا ، ولم نستطع أن نغسل دماغنا من أشباح جرائمهم الهائلة في حق أمتنا وديننا ؛ لأنهم استعمروا بلادنا ، وفرّقوا خلافتنا ، ونعلم كراهيتهم الحمقاء للإسلام والمسلمين ، وأيضا كنا نواجه ونعاني من آثار دراساتها العلمانية والإلحادية ومن طلبتهم العلمانيين الذين تخرجوا من جامعاتهم تلك ، فاندمجوا في حياة الغرب بكل انحرافاتها الفكرية والعقائدية والأخلاقية ، فكانوا أكثر كفرا وفسقا منهم ، فكانوا يرجعون إلينا بلكنة أعجمية وتقاليع غربية، وهم يحملون فؤادا أوروبيا ينطلق من تقديس الصنم الغربي ، فتراه يتكلم من عَلٍ ؛ لأنَّ أمامه «أغناما» ، ويزداد الأمر سوءا عند ما نسير مع الرجل فنجده في الجانب العلمي خاويا، وفي تقليد لحياة الغرب وقشوره بارعا .

ثمّ كنا محيطين علما أنه كاذب ثم كاذب من ادّعى قدرته على معايشة البيئة الكافرة أو الفاسدة الفاجرة دون التأثر بغبارها ؛ لأنَّ قلبه قلب بشر لا قلب ملك، وسيتأثر حتما بالبيئة المحيطة سلبا وايجابا. ومن المجرّب في طبائع الناس ، أن الإنسان بطبيعته قابل للتكيف والتأثر بالبيئات الاجتماعية التي ينغمس فيها ، وأن مقدارا من التفاعل لابدّ أن يتم بين مجتمع ما ، وبين من يدخل فيه ، ولابدّ أن يتأثر كل منهما الآخر على مقدار ما لدى كل منهما من قوة التأثير وقابلية التأثر . وكان مشروع المنح المقصود منه غمس المسلمين في بيئات منحطة خلقيا ، تصدرها إليهم من خارج بلادهم ، أو تصدرهم إليها ، فتستقدمهم بهجرات الدراسة أو العمل أو غير ذلك ، وفي كل الأمرين تتهيّأ أكثر الظروف الملائمة لإفساد الأجيال أبناء المسلمين إفسادا عمليا ، عن طريق الغمس في المجتمعات الموبوءة بجراثيم الفساد الخلقي والسلوكي . والعولمة القديمة لم تكن خطرا على مسلم ممتلئ القلب والعقل والعاطفة وعلى ثقة بدينه ورسالته أن يخترق آفاق العالم . لكن العولمة اليوم تحتاج شخصية مشبّـعة بالثقة رافضة للذوبان.

وكان موقف تقويم المرحلة ، أن الإخوة كانوا في مرحلة الشباب التي تشتدُّ فيها قوة النفس الأمارة بالسوء ، وتشتعل الشهوة الجموح ، وتنفتح أبواب الاغراء على مصراعيها ، وتتنوّع الملهيات ، وتعرض نفسها على الراغبين كل ساعة فوق طبق من ذهب. وغريزة الشهوة هذه قد تزحزحه عن الجادة والاستقامة، وتهوي به إلى السقوط في هوّة الإهانة والهلاك، ولهذا استحق الشباب الأتقياء أن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

فرغم ذلك كله، كنا نقبل الذهاب إلى هناك؛ فلا يوجد جامعات بديلة في البلاد ، ثم إن المنح الدراسية المجانية كانت متوفرة في ذلك الوقت ، وأيضا كنا على علم ، أنَّ اتقان العمل وجودة الصناعة والثقافة في

مختبرات العلم ، انتقلت إلى العالم الغربي ، بينما تأخّر العالم العربي والإسلام إلى حدٍ بعيد ، كما كنا ندرك أننا في عصر مليءٍ بالأفكار والتيارات يفرض على المسلم أن يتزوّد بزادٍ علمي كمِّي كبير من ميراث الإنسانية كلها . ولهذا كان الزمن يتطلب توجيه أبنائنا للإبداع الصناعي والتكنولوجي والحربي ، وتقديم الإمكانات اللازمة لذلك يجعلنا نبدأ في معرفة الطريق الصحيح في عالم القوة الذي نعيشه .

والسؤال الوجيه التي أمام الجميع كانت: أنَّ العالم اليوم على ظهر سفينة قائدها «كافر» فهل نهجر السفينة لنعيش على جزيرة منعزلة هادئة ونعتزل الحياة ونُفـقِد الأمل ، أم نختلط ونعمل وندافع برغم كل هذا الهجوم على الإسلام؟.

القضية الأخرى الهامّة التي ساعدتنا في قبول تلك الهجرة المحفوفة بالمخاطر كانت :-

أولا: أننا ما كنا نبغي أن نحجر واسعا رغم تعصُّف البعض في التحليل ، خاصة وكنا على يقين أنَّ علوم الحياة هي من مقوِّمات استخلاف الأرض ، وأنَّ حياة الإسلامية في حاجة ماسَّة – من أيِّ وقت مضى- إلى مبدعين في شتى مجالات علوم الحياة ، مبدعين مهرة في مهنتهم أكفَّاء في تخصصهم ، إذ لا يمكن أن تقوم أمَّة على أكتاف أعدائها .

ثانيا: كنا ندرك «الزهد» على حقيقته بعد أن فهمناه دهرا فقرا ورضا بالقليل ، وايثارا للعزلة في الزوايا على المضاربة في الأسواق ، تاركين السّاحة لكل عابثٍ فاجرٍ أو عدوٍ ما كر، ليغتنم ما في الأرض من نعم ، على الرغم من أننا لا نجد في الإسلام ما يُنفِّر من العلم أو يخمد الهمم أو يطفئ جذوة الأمل والكفاح في نفوس أتباعه مستدلين بقول شاعر وصف الوضع على ما يرام .

يموت الأسد في الغابات جوعا   ولحم الضأن تأكله الكلاب

ولهذا كانت آخر كلمة في التوصية قالها الشيخ عبد الكريم حرسي ، قللوا أهمية الدهشة في أمر أوروبا ، فالفرق بيننا وبينهم قليل أو نادر جدا ، عاداتهم وتقاليدهم وفجورهم كلها معنا هنا في مقديشو ، وهم وعملاؤهم المسيطرون في بلداننا مع أننا أسوأ حالا من بعض الجوانب ، وينبغي ألّا يهولنَّ المسلم أن تكون قوة الباطل ضخمة أو عاتية !.

وأخيرا قُدِّمَ إليهم النصائح اللازمة وقيل لهم : إنكم ذاهبون إلى مجتمعات تموج بالفتن واغراء الملذات ، فلا تغترُّوا بتلك الحياة البرّاقة الخادعة بمباهجها ومفاتنها ، واعلموا أن الله معكم أينما كنتم ، وأتبعوا السيئة الحسنة تمحها ، وخالقوا الناس بخلق حسن . قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ** ﴿٧﴾ ﴾ [المجادلة: ٧]، وقيل لهم اعتزوا بربكم ومولاكم وبنبيكم. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وافتخروا بإسلامكم. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت: ٣٣]، ثمَّ ختموا النصيحة لخطبة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وتوصيته لبعض المسافرين إلى الغرب والتي كان من مفرداتها «إياكم أخلاق العجم ومجاورة الجبابرة ، وأن تجلسوا على مائدة يشرب عليها الخمر ، وأن تدخلوا الحمام بدون مئزر، ولا تمش مع الفاجر فيعلمك من فجوره». كانت الحفلة وصية وداع رقيقة ورائعة!.

ودعناهم ، وعانقناهم ، وقلنا لهم رافقتكم السلامة ، ارجعوا إلينا بالوجه والروح الذي فارقتمونا ، وهم بين ذاهب بالجسم مصطحب بالقلب. كنا نطفئ نيران الوداع بمياه الدُّموع ، وعطف المودعين ، وهكذا أنفقنا دموعنا وكل امرئ بما عنده ينفق . وكنا ننتظر رجوعهم بفارغ الصبر. كان حالنا شبيها يوم كان الشاعر يغني:

نودِّعكم ونودِّع حناننا * ونشير أدمعا مثل الجمان

ولو نعطي الخيار لما افترقنا * ولكن لا خيار مع الزمان

ومن جانبهم ودّعونا باكين وحزينين وأفرغوا أدمعا لا دمعا ، شبيها بتعبير أبو العباس عند افتراق أحبابه قديما بقوله:

ففي كل يوم لي حنين مجدد * وفي كل أرض لي حبيب مفارق

ولم نخسر شيئا في مفارقتهم ، بل أصبح لنا ولهم أصدقاء وأحباب في كل مكان ، وهكذا عرفنا أنه يجب التجاوز على مرحلة العواطف السطحية .

كنا ننظر من سلم المطار إلى الطائرة الايطالية التي حملت أوّل فوج حتى اختفت في الجو بحيث سالت دموعنا على خدودنا قائلين: قلوب نورانية وجواهر إيمانية في هذه الطائرة سلمها الله من الفتن ، وكانت بالنسبة لنا ، أوّل تجربة أو عقبة للعواطف اقتحمناها وتجاوزناها بصعوبة. كانوا ثلاثة على ما أذكر:

الأول: محمد حاج أحمد

الثاني: «عبد الرحيم شيخ محمود (مالِنغُور)» الذي قاطع الالتحاق بالجامعات الإيطالية في أول الأمر ، بعد نجاحه بالمنحة الأوروبية المجانية ، ورفض الذهاب إلى إيطاليا للدراسة ، لا غيا وتاركا حياة الرفاهية وسط عائلته الميسرة مقابل الدخول في عالم المجهول المليء بالفتن والمخاطر المحتملة ، بينما كانت تعتبر عند الأهالي «فرصة عمر» فذهب والده الذي كان يبالغ في رعايته ، إلى الشيخ محمد معلم حسن ليقنعه بالاستفادة من المنحة المجانية ، علما بأن والده رحمه الله كان رجلا وجيها مشهورا من ذوي اليسار.

فقال له الشيخ: نحن نحمل رسالة عالمية ، وعلينا تقع مسئولية إرشاد الأمم الضالة ، والمطلوب منك أن تدعو إلى الله في أوروبا لا أن تخاف من فتنتهم ، يجب أن نهاجمهم في قعر دارهم وندعوهم إلى الله ، ولا ينبغي أن نقف دائما موقف الدفاع ، فاقتـــنع به وقبل الدراسة ، وسافر مع المجموعة التي حصلت المنحة في ذلك العام .

الثاني: محمد حاج أحمد.

الثالث: محمد حاج قاسم. وهو الذي انفصل أخيرا وسقط من المجموعة في إيطاليا ، وكانت سقطة مذهلة ألـمّت الجميع ؛ لأنه كان عضوا في هذا الجسم ، فاعتبرنا هذا الانفصال يومها ارتدادا ، كانت جرحا أصاب المجموعة فبرأت ؛ لأنَّ جراح الشباب سريعة الالتئام!. افتتن هذا الشاب بشبهة «التمييز العنصري» ، درس عند هؤلاء الأوروبيين الذي كانوا ينظرون الجنس الأسود بنظرة استعلائية حتى أكمل الثانوية العامة في بلده، وفي خلال سنواته الأخيرة التحق بالحركة «اتحاد الشباب المسلمين» فظهرت منه روحانية على شكله الظاهر ، وفي نجاحه للمنحة أظهر حالة من الرعب غير مستقرة ، وكان

يكرر قبل سفره أنه خائف من فتنة الغرب ، فادعوا الله لي!!!. ولم يخطر على بال أحدٍ منا أنَّ شخصا صوماليا عاش معنا فترة في تلك الروحانية ، ستبقى في نفسه تلك المستوى المنحط ؛ لأنه رغم الأنفة المعروفة عند الصوماليين يقرأ يوميا قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: ١٣] وقوله صلى الله عليه وسلم : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى».

وبما أنَّ ظروف النشأة والتكوين الشخصي كان لها أكبر الأثر في حياته لم يتحرر كما يبدو العقدة التي غرسها الإيطاليون في هذا الشاب. وبما أنَّ لونه الجميل كان ميالا إلى لون الزنوج الفاتح (سمارة) عمَّق خياله في البحث عن سبب سواد لونه ، فاستنتج أنَّ عدالة الله سبحانه أهانت الملونين ، وفضلت البيض منهم ، فلما عاش فترة في إيطاليا وفعل ما فعل عاقبه الله سبحانه بأفعاله وأقواله ، فتجرَّأ أنه شاك في عدالة الله ، ولله في خلقه شئون ، هكذا وصلت الرواية الينا عن زملائه .

وفعلا أصبحنا مدهوشين خبره ، كيف نجح الشيطان أن يؤثر هذا الشاب بتلك العنصرية القذرة ، ثمَّ كيف نجح أن يحوِّل اللوم على الحكيم الحليم سبحانه ، وكيف غابت عليه أنَّ الله لم يخلقنا سودا تشويها بخلقتنا؟، وكيف غابت فضل الله عليه وعلى قوة لونه الأسود وقيمته وجماله وتحمله ومهابته ، وأنه آية من آيات الله . قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴿٤﴾ ﴾ [التين: ٤] . وما أجمل الإنسان إذا كان يؤدي وظيفته التي خلق لأجله. ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

تماما مثل الحكمة الصينية التي قالوا فيها «لا يهم لون الهرّ إن كان أسود أو أبيض حالما ظل يصطاد الفئران» .

ألم ترَ أن الله أعطاك صورة   ترى كل ملك دونها يتذبذب

لقد استوى الناس في العافية ، فإذا نزل البلاء تباينوا نسأل الله العفو والعافية.

قد عاب لوني أقوام فقلت لهم * ما عاب لوني إلا مفرط الحمق

إن كان لوني فيه دعجةَ كَلفٌ * حزن الاهاب فاني أبيض الخلق

وقد ساق الجاحظ رحمه الله على اختلاف الناس في ألوانهم ، وأنَّ الله لم يجعل السودان سودا ، والبيضان بيضا ، وإنما البيئة الطبيعية التي يعيشون فيها هي التي تحيل ألونهم ، أو تصبغ جلودهم بألوان مختلفة ، وأن هناك آلاف من السودان الأنبياء والنبوة أعظم هبة وأقدسها ، ومنهم الحكماء والعظماء والصحابة والتابعين ورجال العلم.

ومن هنا نبعث رسالة إلى كل الذين قبضوا بأيديهم جمرة ، فلم يقووا على قبضتها ، إلى أولئك الذين ساروا معنا على الصراط المستقيم خطوات، ثمّ وقفت قدماهم إلى رفيق الدرب وسلكوا غير الدرب، إليهم جميعا ندعوهم مرة أخرى إلى الصراط المستقيم، وأخيرا أعاد الله كل الطيور المهاجرة إلى أعشاشها المنتظرة.

قف بمحراب الإله واخفض الرأس انكسارا * واسكب الدمعة في خدِّك واصدقه اعتذارا

ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين ....آمين.

ثم تتابعت الرحلات الدراسية برضى العواطف، جلهم اقتحموا العقبة وتجاوزوا المحنة بسلام ، كنا نسميهم أولياء الله في الغرب ، إذ وصلوا درجة نتمنى أن نصل. وكنا نشعر أنهم بلغوا الذروة الروحانية للإيمان المطلق والراسخ وحساسيته ، وهي درجة روحانية عالية ليس من السهل أن يتراجع الأخ عنه ، لأنه من ذاق عرف ، ومن عرف ثم افتقد فمن الضروري أن يشتاق . وكانت التوصيات تطلب منهم رعاية «البذرة» أو الكلمة الطيبة التي غرسها الإسلام في صدورهم ، والتي زرعها القرآن في جذر القلب ، واعلموا أن أمامكم طريق طويل وملتوي ومحفوف بالمخاطر.

سافروا وتوصياتهم معهم ، وكلما زرناهم في أوروبا وأمريكا وكثيرا ما كانت فرحة اللقاء تتحوّل إلى بكاء ، كنا نرى أن حبهم لإخوانهم تضاعف ، وأنهم كانوا يرسلون إلينا الهدايا والأدعية ، وتحققوا أكثر أن الله سبحانه أكرمهم بصحبة مؤمنين من العرب يحبونهم ويحبون لهم الخير فأحبوهم ، تلك كالفئات العربية اللاتي تطلق جلها على الإخوان المسلمين .

أرسلوا مع كل زائر رسائل شبيهة بقول الشـــــاعر .

أيها الراكب الميمم أرضي * بلغن بعضي السلام لبعض

إن جسمي كما ترى بأرض * وفؤادي ومالكيه بأرض

قد قضى الله بيننا بافتراق * فعسى باجتماعنا سوف يقضي

كان الاتصال أو الخطوط بيننا وبينهم ساخنة لم تنقطع يوما ، وأفضل علامة الاتصال كانت الدعاء بظهر الغيب عند لحظات الصفاء ، وإن مبدأ الدعاء لا يحكمه زمان ولا مكان . وهكذا كانت العلاقة بيننا متواصلين متحابين .

ومن روايات بعض الاخوة الذين درسوا في الغرب ما رواه لي الأخ عبد الرحيم شيخ محمود، قال: كنا في رحلة ونحن مجموعة من الطلبة في رحلة طلابية ، نزلنا في بيت ، وفي الصباح بكّر الآخرون إلا أني تأخّرت في النوم ، استيقظت ولم يبق في البيت إلا أنا وشابة صومالية لها منظر ، هي أيضا تأخرت في البيت ، وكان عبد الرحيم رجلا وضيئا ذا جاذبية ، بل كان فتى من أجمل الفتيان وأكثرهم أناقة وطرافة ، والوضع في أوروبا مغاير ، فلما قامت تجمّلت ، وجهّزت لي فطورا وهي تراودني ، فلما جلست عندي قلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! ، ثم قرأت آيات من الذكر الحكيم ، وترجمت لها بلغتنا الصومالية ، ثم دعوتها إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، فخرج الشيطان منها مهينا هاربا ، ونجانا الله من الفتنة إنه كان سميعا قريبا ، فسبحان الله مقياس الصلاح والقبول بمدى تقوى الانسان واخلاصه لربه. ثم قال: كانت تلك الحادثة ترياقا لنا فيما بعد ، الترياق المناسب على الاطلاق لرد هجوم الشيطان وسمومه والكفيل برد العدو على ادباره ، واعتبرنا أن هذه الطريقة هي أفضل طريقة لمواجهة التحديات ، وما أشبه الصالحين بعضهم ببعض رغم تباعد الأزمنة ، ولا غرابة في ذلك فقد استقوا من نهر عذب واحد.

قال الأندلسي قديما:

وإذا خـلوت بريـبة في ظلـمة ❋ والنفس داعية إلى الطغيان

فاستحيي من نظر الإله وقل لها ❋ إن الذي خلق الظلام يراني

ثمَّ تلقينا ونحن مجموعة أيضا شهادة أحد الإخوة المسلمين العرب هو السيد «محمد التـنجي السوري» الذي درس الجامعات الإيطالية مع بعض الاخوة الصوماليين أعضاء قدامى في الحركة، تحدث لنا يوما - ونحن في مكتبه التجاري ببولونيا في إيطاليا بصحبة عمر عبد الله وعبد القادر ابراهيم- عن مشكلة الجنس في الغرب وخطورتها على الطلبة المسلمين ، وكانت أكبر مشكلة تواجههم في حينها ، تحدث عن طالب أردني ملتزم ، مرض بسبب عفته ، متأثرا بالتحرشات الجنسية في إيطاليا ، ثم انقطع عن دراسته ، رجعوه إلى الأردن ، وانتهى به الأمر بعد ذلك إلى مستشفى للمختلين عقليا.

ثم ذكر أسماء بعض الإخوة الصوماليين من هذا الجيل ، كانوا أعضاء في الحركة ومن تأثر بهم وبغيرهم مثلهم ب «الجبال الشامخات» تجاوز جلهم المحن بفضل الله ثمّ بتقواهم ، ذكر منهم «عبد الرحيم شيخ محمود» و «أحمد حسن» و «خليف حاج محمد» و «محمد عبد القادر» و «عبد الكريم عريف» و «ايكر أحمد ......وغيرهم» ثم التفت إليّ وأنا على جنبه الأيسر. وقال: لكن تدري يا «أو موسى» من هو الحديد الصلب الصلد؟ هو الأخ «محمد محمود سمتر» قال: والله لا يوزن بالذهب! ، ثم قال: ما أعجبك يا صومال إذا كان العينة أو «الكامبيون» - حسب تعبيره الايطالي- الذي بعثت إلينا أمثال هؤلاء الأولياء الذين عرفناهم في إيطاليا ، فلا أشك أن المعادن والجواهر التي في جعبتك يا صومال أكثر وأثمن. واكتشاف أو معرفة أولياء الله في الغرب أسهل من أي مكان آخر، فلا ينافق هناك .

حورٌ حرائر ما همن بريبة ❋ كظباء مكة صيدهم حرام

أغضُّ طرفي إن بدت لي جارتي ❋ حتى تواري جارتي مأواها

إن جميع إخواننا الذين خرجوا إلى اوروبا وأمريكا وآسيا ، جلهم تعرّفوا على إخوانهم المسلمين من دول شتى وتعاونوا معهم ، وازدادوا فيها التحاما بالأخيار، واستسقوا البركات من أرواحهم التواقة وعقلهم الحصيف فاستفادوا وأفادوا ، ومازالوا عبّادا زهّادا إن شاء الله ، مع أن الجماعة كانت تخاف عليهم من أن يتأثروا ويفتنوا بفتنة الغرب الكافر ، وأيقنا أننا أخذنا القرار السليم حينما سمحنا لإخواننا بمواصلة الدراسة في الغرب ، إذ لم تلقت الجماعة إلا خيرا، خلافا لبعض الذين أرسلناهم إلى البلاد العربية، وإلى الجامعات الإسلامية والأراضي المقدسة رغم ثقافتهم الإسلامية كما سيأتي في فصل قادم.

❋❋❋❋❋

حرب على الحجاب

كانت معركة الحجاب عالمية، كما كانت من أخطر أهداف الاستعمار وأفحشه، ولذا كان هناك هجمة شرسة على الحجاب والشرف والكرامة والعفة في العالم عامة وفي جميع أنحاء العالم الإسلامي خاصة.

في مصر كانت هدى شعراوي أول امرأة مسلمة رفعت الحجاب وارتدت علنا، ثمّ قام سعد زغلول وزوجته صفية حفلة «نزع الحجاب» في وسط مظاهرة نسائية في القاهرة ، دخل الرجل على النساء المحجبات في استقبال حافل ، واستقبلته تلك المرأة بحجابها فمدَّ يده، ونزع الحجاب عن وجهها تبعا لخطة معينة وهو يضحك، فصفقت هدى وصفقت النساء لهذا الهتك المشين، ونزعن كلهن الحجاب أمام قصر النيل ودسنه تحت الأقدام! . ولذا سمي هذا الميدان باسم «ميدان التحرير» ولا يزال هذا الاسم المشين ساريا حتى اللحظة، فلعنة الله على الظالمين.

وفي تركيا أصدر أتاتورك قانون نزع الحجاب وتحريمه بل تجريمه في العشرينات من القرن العشرين. وفي إيران أصدر رضا بهلوي قانون نزع الحجاب في ١٩٢٦م. وفي الجزائر خرج قانون نزع الحجاب ١٩٥٨م وسماه الجزائريون «يوم الحزين» إذ شارك بعض الخطباء في المساجد ذلك النزع الذي تزامن يوم الجمعة. وفي أفغانستان أصدر محمد أمان قرارا بإلغاء الحجاب. وفي ألبانيا أصدر أحمد زوغوا قانونا بإلغاء الحجاب. وفي تونس أصدر بورقيبة قانونا يمنع الحجاب والتعدد. وفي العراق تولى كبر مناداة خلع الحجاب كل من الزهاوي والرصافي. وفي المغرب والشام بأقسامه الأربعة (لبنان وسورية والأردن وفلسطين) انتشر السفور والتبرج والاباحية على أيدي دعاة البعث والقومية. وهكذا تتابعت المأساة وانتشرت في العالم الإسلامي كنار الهشيم، ثم جاء دور الجرائد ومجلات السفور. وصفق المبشرون كثيرا

، ابتهاجا وسرورا ، حينما فتحت المرأة المسلمة أبوابها ، ونزعت جلبابها ، لأن ذلك قد أتاح لهم كل الفرص الملائمة للتغلغل عن طريقها إلى داخل الأسرة المسلمة ، كي يبثّـوا ما يريدون بثّـه من تعاليم تمليها عليهم مهمّاتهم التبشيرية .

أما الصومال لم يكن هناك مناداة نزع الحجاب لأنه لم يكن له أثر فيها، ولكن كان هناك مناداة حرية البهائم التي أطلقوها ب «حرية الاختلاط» ونزع «العفة» و «الحياء» التي اعتبروها آخر معقل للحشمة والدين، ثمّ الدعوة بجهر الفسق، ومحاربة التقاليد التي تربط المجتمع ولا يسهل الخروج عليها دفعة واحدة، ولكي تحدث جريمة الزنا في أول لقاء لابدّ لفك القيود، وأهمها هنا ضوابط المجتمع الخفية التي كثيرا ما كانوا يطلقون عليها «التقاليد المتزمِّـتة» ومحاربة نخوة الرجولة ونشر الديوثة. يقول أحد المبشرين: «كأس وغانية تفعلان في تحطيم الأمة المحمدية أكثر مما يفعله ألف مدفع، فأعرقوها في حب المادة والشهوات».

وبمرور الزمن ظهرت ظاهرة جديدة في العالم الإسلامي «ظاهرة الحجاب» بصورة ملفتة للنظر. وتلقفت التقارير الغربية في حالة هلع!، وأشارت ظهور الحجاب والشادور والبشمك على رؤوس الشابات في إسطنبول والقاهرة وتونس إلى أن الطريقة نحو التعصب الديني نابع من أماكن شتى.

أصبح الحجاب في مقديشو ظاهرة ملفتة للنظر في المدارس، فبدأ النظام معركته مع الحجاب، وأصبح بعد الانقلاب العسكري أشبه ب «المغامرة» يجلب الأذى لأصحابها، وأصدر قرارا ملزما وتنفيذه تحت مطارق القانون، يلزم المدارس زيا خاصا مشتركا بين البنين والبنات، مكوّنا من قميص أبيض نصف الكم وسروالا في بيئة تقليدية بعض الشيء، وذلك كان في بداية النظام العسكري. كان القرار يهدف

إلى:-

أولا: إبعاد الملتزمات من المدارس ومن مراكز التعليم.

ثانيا: خلق جوٍ عدائي بين المحجبات وأهاليهن، فالأسر لا تقبل أن تترك بناتهن المدارس من أجل لبسٍ غريب عليهم وغير مألوف منعته الحكومة، وكانت بعض الأسر تطرد بناتها الملتزمات من البيت برفضها هذا النوع من اللبس الكاشف، وأعتقد أن مثل هذا الفعل الغريب «الطرد» كان خاصا في البيئة الصومالية التي لا يشاركها غيرهم من العالم الإسلامي.

أحيلت القضية إلى شورى الجماعة، وانتهت المشاورة بنتيجة: أن أصدرت الجماعة قرارا يلزم الجميع مواصلة الدراسة في المدارس الحكومية مهما كانت الظروف، ومحاولة التحايل على مواجهة القرار، فالمدارس كانت مركزا لتبليغ الدعوة ، وكان يصعب علينا الخروج من مراكز الثقافة . أما عمليا: فقد اقترحت الجماعة بالنسبة للبنات تجهيز «الأكوام الطوال» المنفصلة والتي تجعل القميص طويل الكم واشتهرت فيما بعد ب «الكم المروري» بحيث يمكن خلعه عند الضرورة القصوى وحالات الطوارئ، أي عند دخول المدرسة، أو عند الطابور الصباحي عادة أو عند الدراسة عند بعض المدرسين المتشددين أو عند زيارة المسئولين. وأضافت التوصية جعل السروال والقميص الملزمين فضفاضين عند البنات، وبالنسبة للشعَر لم يكن هناك ضغوط عليه، بل كان مسموحا غطاء الرأس، والموضة في ذلك الزمن لم تكن كشف الشعر بل كانت أشبه بما تنبأ الرسول ﷺ حينما شبهها ب «كأسنمة البخت المائلة».

ظهرت المعاكسات والمصادمات مع البنات في المدارس، يتصرّف كل مدير ومدرِّس حسب ذوقه ورؤيته وخلقه ودينه، فالناس على دين ملوكهم. وتعرضت المحتـشمات بسبب الحجاب الانتقاد اللاذع من المدرسين وزميلاتهن في المدارس ومن أهاليهن، يعملون المعاكسات حتى وهي في خارج المدرسة، واستمرت المعركة ٧ سنوات تقريبا **والأمثلة أكثر من أن تحصر.**

وكانت التوصيات للأخوة أن لا يثوروا على تلك الاستفزازات، وكانوا ينفِّذون الأوامر إلا أنَّ الأخ محمد شيخ عثمان كان يتفلَّت أحيانا من القرار، ويلاكم المشاغبين الذين تجرّأوا على البنات الملتزمات، لكن كانت على شكل فردي غير جماعي تدفعه عاطفته الجياشة وشجاعته الشخصية، وكان لمثل تلك الأفعال الفردية فائدتها العظمى ومحدود ضررها؛ لأنها كانت لا تعبِّر حملة جماعية انتقامية.

كما بدأت المعركة بين المؤمنات وبين أسرهن فتزداد الطالبة قوة وصلابة، وتزداد ثقتها بالله وتتضاءل أمامها الصعاب، فتصبر على الأذى، وتلتزم بالسلوك الإسلامي في جميع تصرفاتها. وعلى سبيل الأمثلة نلخص الآتي :-

أولا: كانت مُدرسة تدرس التاريخ في مدرسة «١٥ مايو» الثانوية، تخرّجت من السودان وأكملت دراستها العليا في فرنسا، فتكلمت يوما عمّا كانت تسمى الاستعمار التركي على العرب فردَّ الطالب محمد آدم عاوسي بعنف، فقالت: لماذا حارب العرب الأتراك إذن؟ فقال: لأنهم كفروا فقاتلوا الخلافة الإسلامية، وتولوا الاستعمار الأوروبي ضد الدولة الإسلامية فطردته من الفصل. وفي يوم آخر بدأت تستهزئ بالحجاب قائلة الحجاب رجعة وعقبة على التقدم ، وكانت نحيفة ذات ساقين نحيفتين، ولابسة أحذية ذات كعب طويل، وكان يسمع قعـقعة كعبيها من بعيد حسب الموضة

في ذلك الزمن، فقاوم الأخ «محمد آدم عاوْسَيْ» ووقف موقفا شريفا يستحق التسجيل، وقال: يا أستاذة آمنة : الحجاب حشمة وفضيلة وعفة ، والدِّين الذي أمرك ستر ساقيك النحيفتين وكعبيك الذي نسمع قعقعتها من هناك، هذا الدِّين أكرمك ولم يهنك، وسترك ولم يكشفك، فعمَّ المجلس ضحكة مدوية واستطاع اقصاء السيدة بهذه الجملة التي اعتبرتها الساخرة، فانهزمت مخجولة منبوذة.

ثانيا: ركض مدرس برجله على إحدى الأخوات المؤمنات، مما استثار غضب بعض الشباب؛ فاقترح البعض بالانتقام وقتل المجرم، لكن قرار القيادة كان صامدا «لا للانتقام الديني حاليا» و «اصبروا فإن موعدكم الجنة إن شاء الله» و«كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة» وأحدثت هذه الآية الكريمة دورها التربوي الزمني.

ثالثا: لقي الكاتب يوما احدى الأخوات بعد أن نزلت في البيت صديقة لزوجته، وكان بينها وبين والدها خصومة تتعلق بالحجاب، كان يرفض الحجاب الذي أخذته لله، وجاء والدها العسكري من بلدوين يريد منها خلع حجابها وإرجاعها إلى بلده وهي رافضة، وكان رجلا فيه حدَّة مع قوة ورثها من جنديته، فقابلها بوجه عبوس. كانت مؤمنة رقيقة القلب كأنها مصحف في بيت زنديق. قلت لها: حاولي أن ترضيه واذهبي معه، وقولي له قولا لينا؛ فقالت وهي غضبانة: أتدري ماذا قال لي؟ قال: من أدخل ربك في شئون أسرتي أي بيتي وأولادي؟. كنا نكره بأعماقنا ولا نتحمل مثل هذا الكفر الصريح، ومثل هذا الاستهزاء على الدين، ومثل هذه الجرأة على الله سبحانه وتعالى. قلت لها يومها هو أبوك مهما كفر وهو الذي يتولى مقالته، فاسألي الله له الهداية، وحاولي استمالته واسترضائه مهما أبدى لك من جفاء، واذهبي معه، وخذي أشبه حجاب بذوقه تفاديا من التصادم بينك وبينه، واصبري فالصبر جميل،

واعلمي أن الله مع الصابرين، فالخلاف الذي بيننا وبين الجاهلية اليوم أكبر من هذا، وأربى من المشاتمة، والحجاب ليس إلا رمزا هاما من الرموز، وفعلا طلبنا من أخ في السعودية أن يتزوّج تلك الفتاة ويخرجها من المأزق، وهكذا كان، وتولى الكاتب خطبتها من والدها وانتهت المشكلة بهذا الزواج المبارك، وبارك الله سبحانه وأهداهم أولادا أبرارا طائعين.

رابعا: طرد ٦ طالبات من كلية (لفولي) بسبب الحجاب، وذلك بعد ما اضطرن بين الأمرين: إما الحجاب وإما الفصل من الكلية إلى الأبد. فاخترن الحجاب لأنه لا مساومة في أمر الله سبحانه رغم الضغوطات العائلية الأخرى، وكنا نعتبر جهادا في سبيل الله، فليس المسدس الطريق الوحيد إلى الجنة، اخترن قرارا صعبا أو بالأحرى جريئا. فقالت طالبة في الجامعة غير ملتزمة أتعَجَّب لهذا المدير، إذا كان يريد أن يتمتع بالبنات العاريات وغير الملتزمات، فلماذا لا يتمتع بنا نحن الغير الملتزمات، ولماذا يضايق المؤمنات الملتزمات؟ ويفصلهن من الجامعة ألسنا نكفيه بالعري؟

خامسا: اشـتدّ التشنيع على الحجاب والمحجبات، وقامت حرب إعلامية مفتعلة!، وفتحت الحكومة قاموس الدعاية على طريقة الاعلام العربي المجنون في السـتينات، وتجرّأ المفسـدون على المؤمنات وأصبحن ضحية للأبالسة، في حال أن النزاع مع الأهالي فاق التوقعات. وقالوا: تزامنا مع ما كان يقال في مصر:- الدين الجديد ، دين اليهود ، الزناة والزانيات. والشقق المفروشة للزنا..... الخ. وافتروا على المؤمنات في الصومال بأنهن يقلن والدي أجنبي ولمسه ينقض وضوئي. قالوا: قالت أخرى أنا مغموزة النسب إذ لم يصح عقد نكاح والدايّ .. وغيرها. وكلها كانت دعاية رخيصة كاذبة، ما كانت كذبة فقط بل بهتانا، ورغم ذلك انتشرت في المجتمع، وظنوا أن تلك الدعايات حقيقة لأنهم بنوا على الشائعات،

تلك الدعاية التي يستطيعون بواسطتها أن يشوِّهوا الدعوة، وتضاعفت الدعاية وتزامنت مع الدعاية على المؤمنين في مصر الذين أشهرت عن قصد باسم التكفير والهجرة، فكانت من أدق المشاكل التي واجهتها الحركة. وعلى مدار تلك السنوات استمعن إلى كل ما يحزنهن من سخرية واستهزاء وإيذاء ، فصممن آذانهن لأن الصمود أمام الطغيان من صفات المؤمن.

وكنا نقول يومها:

قل ما بدالك من زورٍ ومن كذبٍ حلمي أصـمٌّ وأذني غير صـمّـاءِ

سادسا: قصة أخرى واجهت حركة الوحدة في «هرجيسا» خلا صتها كانت كالتالي:-

خطب رجل من «دياسبرو » فتاة من البنات الملتزمات، ودياسبرو التي كانوا يطلقون في ذلك الزمن ب «جنَّالى » كانوا غير ملتزمين لا يؤدون فريضة ولا يتجنبون نهيا، وكانوا يأتون من الخليج ومن الغرب جلهم من بريطانية ، فقبل أهلها الزواج بكل فرح، فدخلت الفتاة بين ضغطين وبين فكرتين مضادين ودعوتين متصادمتين، ضغط حركة الوحدة ومبادئها الصريحة التي تدعو إلى الكفر بالطواغيت والمعاصي قبل الإيمان بالله، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ وكانت الثقافة المنتشرة أو المصطلحات المكررة تركز عل الظلال والمعالم لسيد قطب تلك الكتب الحماسية المشعلة والتي اشتهرت بقوة التعابير وترفض المهادنة مع العاصي والكافر.

ومن الجانب الآخر تكاليف الزواج كانت باهظة في الشمال، والعنوسة كانت ظاهرة منتشرة فيها، ولا بوادر في الأفق لإيجاد شاب مسلم ملتزم، عاشت الفتاة بين هذين الضغطين فترة؛ فقررت موافقتها لهذا

الزواج، فتألمّ أصدقاؤها في وحدة الشباب، واعتبروها تنازلا أو ارتدادا عن الدين، فقصدن إليها لإنقاذها من تلك الورطة وتقديم النصيحة اللازمة لها، فأرادت أن تواجه المعركة بحسم شيطاني شديد!، وقالت: خلوني! خلوني وشأني! فقد آمنت بالطاغوت وكفرت بالله!!، هكذا ارتدت بصراحة وبجرأة شيطانية فرجعن أخواتها وأصدقائها القدامى قائلات إنا لله وإنا إليه راجعون!!.

سابعا: كرر البوليس الهجوم على الحلقات الخاصة، وزجّ أعداد هائلة من البنات في السجون، بتهمة تفتيش البكارة، فكانوا يرموهنَّ في أعراضهن زورا وبهتانا، ويتهموهن بأبشع التهم تنال من سمعتهن وتستهدف شرفهن. تولّى كبر هذا العمل الإجرامي، الجنرال الملقب بعبد الله حاج أحمد المعروف بسوء سمعته، كان بذيء اللسان مولعا بالهجو والحط من أقدار الناس، وسفيها متطاولا على أبناء الدعوة بالسخرية والشتم. فأجابت إحدى الأخوات عند التفتيش في مركز الشرطة، نحن البنات خلقن للرجال، لكننا نطلب منكم أيها العساكر أن تفتـشوا اللواء لتثبتوا إذا كان معافا أم لا، كان تلميحا خطيرا بالنسبة للجنرال على ما كان شائعا عنه. «فربّ تلميح أبلغ من تصريح».

وتزامنت المحنة في زمن صدر قرار تحريم القات، فقبضت الشرطة سيارة حاملة بقات مهرّب، وكانت المالكة امرأة شمالية جريئة، فقبضوا القات والمرأة، وأوقفوها أمام جنرال عبد الله، فسأل اسمها، فأجابت بجواب أزعجته، قالت اسمي خديجة (Bahalweyn) على طريقة إليك أعني يا جارة! وكان يعلم تكرار هذا الاسم في المحاكم وعند المحققين سيكون وبالا عليه، فخلى سبيلها منزعجا هي وبضاعتها لأن كان له اسما شبيها.

وعند ما أعلن الجنرال سمتر تقريرا عن البنات الملتزمات قال بأسلوب سلطوي متعجرف: وجدناهم زانيات، ولا يجتمعون إلا لممارسة الزنى، علق أحد الحاضرين في الجلسة، هل ارتكبوا ذنبا غيره؟ فالزنا ليست عيبا في بلادنا، ألم ترو ما يجري في التربون عند ما يحل الظلام؟.

والدعوة لم تتأثر ولم تتوقف بالمعاكسات والمضايقات، وتغلبت على معظم التحديات التي واجهته ، وخرجت محنتها أنقى تجددا ، وأقوى فكرة وعددا ، بل زادت وانتشرت كسرعة الهشـيم لأن الذي يرمي التهم قذر إلى حدٍ بعيد، فلا قيمة لرميه بالذنب. وكانوا: كمن يطفئ النار بخراطيم من الزيت والبنزين؛ فازداد العمل اشتعالا، وحصل تغيير كبير على مستوى أسلمة المجتمع ، ولم تعد هناك الجاذبية الفكرية التي كنا نشهدها قديما للفكر الغربي والشعارات الشيوعية بل عفى عليها الزمن. وهكذا عملت الجماعة تحت ظروف استثنائية قاسية، لكن كان العمل يجري بوتيرة سلسلة، وكان هناك خطا مرسوما صاعدا مكافئا لعدوه، بل متفوقا عليه.

إن جميع القرارات التي أخذت الحكومة لمحاربة الحجاب تراخت تلقائيا فيما بعد بسبب تعنُّت المؤمنات ورفضهن واعتبارهن قانونا مرفوضا لا يستحق إلا الرفض والمواجهة؛ لأن دينهم هذا متين، ويتفق تماما مع القلب والعقل والعلم.

كان الوضع قاسيا والنظام ظالما، وكان الموقف أشبه بمأزق، لكن في أعماق كل إنسان - حتى أكثر الناس وحشية- قدرا من الإنسانية يمكن استخدامها بطريقة ما، ولهذا السبب فالإخوة عملوا وسط بحر من النشاط العدائي والذي كانت تنفخ فيه نار السموم كل من الصهيونية والماسونية والعالم الغربي الاستعماري، ولو كانت المعركة محلية التفكير والتمثيل لكانت أسهل من تلك الإجرام.

ومع بداية الحركات البعثية في العالم الإسلامي وانتقال الحكومات في مكافحة المؤمنين، انتقلت المعارك إلى مستوى تنسق الإقليمي والدولي، وتمثل الإعلام وسيلة فعّالة في الحرب النفسية ضد ما سموه المتشددين الإسلاميين، واستخدمت السلطات أسلوب العنف لقمح حركة الدعوة. حدث ذلك الهجوم على الحجاب، في زمن غطرسة الحكم العسكري في قمته، وكانت الحركة تواجه أمام عدوٍ قوي عنيد، وكان يومئذ أفضل الناس وأتقاهم هو الساكت الأبكم.

كانت الغنيمة التي يتنافس الشباب عليها: كم هدى الله بسببك؟ وكم حفظت من القرآن الكريم، ومن الأحاديث النبوية. وكان الموسم الأكثر نشاطا وثمارا في الدعوة «شهر رمضان» فالساعات الرمضانية هي أشهر الأزمان وأليقها بدراسة القرآن، فبها نزل، وبها كانت المراجعة مع جبريل عليه السلام، وصلاة التراويح عندنا كانت أشهر فعالية.

وكان الحديث النبوي الصحيح الذي قال النبي لعلي «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ فِيهِ، فَوَ اللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**» كان هذا الحديث وأمثاله المنشط للدعاة، كنا نعتبر الدعوة إلى الله الضريبة التي وجبت على الأعضاء من هدايتهم التي منّ الله عليهم.

كانت الروحانية جذّابة مغناطيسية يلهث وراءها المدعو مختارا، وكان الهدف الوحيد من تقديم هذه الدعوة إليه إنقاذه من النار لا غير، وتحريره من ضيق الدنيا الفانية وإخراجه إلى سعة الدنيا والآخرة، وإلى لذة الإيمان بالله واليوم الآخر؛ فكانت الدعوة تخاطب القلوب والعقول لمصلحة المدعوِّين، لا تريد منهم جزاء ولا شكورا، ﴿ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ

مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾. وفي الجملة كانت الحركة توزع أنوارا.

وإذا كان علاقة المؤمن بربه متينة لا يخاف أحدا، وإذا واجهه مَن أقوى منه قوة، احتمى بالقوة العظمى ويستمد من قوته، وبهذا ترى دائما معنوياته عالية. وكان يرى المؤمن أنه الأعلى والأرذلون الباغون هم الأسفلين، وأعتقد أن كل أعدائنا وخصومنا لم يبق منهم اليوم إلا القليل المتنافرين في العالم، وفقدوا الباقون منهم مناسبهم، ولم يستطيعوا الرجوع إلى البلاد، وهم لاجئون في البلدان الأخرى، والفائز هو الذي يضحك في النهاية!! .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود: ٤٩]. ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النمل: ٦٩] .

كما كنا نكرر «توكلنا على الله» ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق: ٣] ، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

والتوكل على الله من أدقِّ مقامات تعلق القلب بالله، فكانت تشعرنا أننا أقوى الناس رغم ضعفنا وقلة إمكانياتنا؛ لأننا كنا نستمد من قوة الله، فكنا نأوي إلى ركن شديد، وكنا نشعر بالقوة على خصومنا أكثر ما يشعره أبناء الملوك والرؤساء. فالقلب المؤمن يدرك قيمة الاهتداء بعد الضلال، قيمة الرؤية الواضحة بعد الغبش، قيمة الاستقامة على الدرب بعد الحيرة، قيمة الطمأنينة للحق بعد الأرجحة، قيمة التحرر من العبودية للعبيد إلى عبودية لله وحده.

من الذكريات التي لا زالت حية في الذاكرة: أن الشاب (رياض حامد العيساوي) الذي استمع شرح قوله تعالى ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد: ٣٨] ، فتأثر أيما تأثر وأقام الدنيا ولم يقعدها، قال: وهو يبكي أخاف أن يستبدلنا الله قوما غيرنا إن لم نقم بالمهمّة على الوجه المطلوب، أردنا أن نهدئه فلم نفلح في تهدئته، إذ كان يبكي متأثرا جدا بالنص فلم نستطع تسكينه.

الطاقة في زمن الشباب لا حدود لها، لا سيما عند الشاب المهتدي إذا وجهت طاقته إلى وجهتها الصحيحة، كما أنَّ الصراحة والجرأة من أخلاق الفتيان، فحصل انجاز عظيم في مدة قليلة. وهذا هو السر الذي بسببه يجزي الله تعالى الشاب الذي نشأ في عبادة الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وتساءل الناس أسئلة محيرة مثل ما هي البواعث التي تقبع وراء هذه الحركة؟ ما الجذوة التي أوقدت فيهم هذه الطاقة؟ وهل يمتلكون قوة من وراء الغيب، وهل صحيح أن دولا وراءها ؟.

والسر في تلك الإجابة إذا اجتمعت القوتان: القوة والحيوية والنشاط والإخلاص التي يحملها الشباب، وبما في الإسلام من قوة وحيوية وسماحة ووضوح واندفاع ذاتي وإقناع تقف وراءه العناية الإلهية التي جعلت من هذا الدين طريق البشرية الأخيرة، هذا التزاوج بين هذين القوتين تتولّد منه ما يشبه الخوارق!!.

ولكن الحقيقة التي لا جدال عليها أن فكرة تصفية الجماعات الإسلامية لم تكن يوما من الأيام تفكيرا محليا، بل الحقد الصليبي والكيد اليهودي والمكر الشيوعي هم وراء كل التصفيات من قبل ومن بعد، وهي كانت صاحبة المصلحة الأولى، ولأنها تعتبر الإسلام عدوها وبرميل البارود الذي لا يدرون متى ينفجر فيبدد أحلام الجميع.

كنا نتلقى آيات الله في القرآن بكل اهتمام وإيمان، فكأنها كانت تتنزل علينا في لحظتنا تلك، وكنا نكرر قوله تعالى: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ ﴾ [مريم:] ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٠] ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ البقرة: ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [لواقعة: ٨١] ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النجم: ٦٢]. كانت الفئة تختار من القرآن الكريم الآيات اللاتي عليها التوكيد والقسم والحصر.

كانوا يستمعون إلى النص القرآني ثم يندفعون لتطبيقه ما أمكن ثم تبليغه الى الناس.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٨]،

وبما أنَّ القرآن الكريم لم ينزِّل إلا للتطبيق الفوري، أصبحت شعارا عند هذا الجيل. وأعتقد أن تلك الحالة كانت هي التي تمثل العقيدة الصحيحة، وأقرب إلى فهم السلف الصالح من أي فكرة أخرى، ولا شك أن الجيل الأول من تلك اليقظة كان من نجوم ذلك الفتح وضمن صانعيه على أرض الواقع.

وأخيرا يجب أن نقدِّم تلك التجربة الرائعة التي قادت هذه الحركة ، خاصة براعتها في التعامل مع كل التحديات التي واجهتها في طريقها.

شبهة تعدد الزوجات

كانت شبهة تعدد الزوجات من الشبهات الساخنة والمثيرة للجدل، وكان هناك كتب ومقالات ورسائل عديدة تروِّج تلك القضية وتعتبرها شبهة دينية، وبالمقابل كان لدينا كتاب تعدد الزوجات وحكمة تعددهن لمحمد محمود صواف، وكتاب الشبهات حول الإسلام لمحمد قطب وكتب أخرى ترد تلك الشبهة وتوضح حكمة التعدد وشرعيتها.

وعقد مرة حوار ثقافي في مدرسة بنادر الثانوية حضرها بعض المفكرين والصحافة، وخرج من المدرسة أربعة من الطلاب، طالب وطالبة يمثلان دور تشويه التعدد، ثم عرضها على الملأ، وطالب وطالبة أخرى يدافعان شرعية التعدد وحكمتها في الإسلام.

قال أحد الجالسين في الحفلة: لماذا شرع الإسلام تعدد الزوجات؟ فالتقط الإجابة أحد الشيوعيين فقال: لأن الإسلام دين يعتبر النساء كالأغنام تماما، يملك الرجل على حد حظيرته. فقامت الطالبة التي كانت تتكلم باسم الإسلام وتكلمت ببراعة وهي ترد عليه، ثم قام أحد الاخوة وزميل الطالبة: «عبد العزيز جوريبى كارشى» من جرووى، يشرح حكمة تعدد الزوجات في الإسلام، وطوّل الحديث، وطرح الاحصائيات في المجتمع وقسمه إلى ذكور وإناث، وقال: حللوا معي مشكلة الزواج في المجتمع، وتكلَّم بأرقام، واستنتج أن نظرية الزوجة الواحدة تترك في المجتمع نتائج خطيرة، ككثرة العوانس والبغاء والأبناء غير الشرعيين والأوبئة ....وغيرها ، ولهذا السبب أحل الله للرجل أن يتزوَّج أربع حرائر وما ملكت يمينه من الاماء لحكمة يعلمه الله منها، لكي لا تبقى امرأة دون زوج حلال.

وقال بصوت عال اختاروا بين أمرين: اما «تعدد الزوجات» أم «خيانة زوجية» أو اتخاد خدينا أو خليلا في الظلام، فأصبحت محاضرته شيِّقة حتى قال الصحفي صاحب الكاميرا، أعترف أنك نجحت في الحوار إلى أبعد حدود، وهدمت أفكار الجميع وسددت عنهم من كل مهرب. لكنني لم أزل متمسكا بفكرتي عن تعدد الزواج. وكان عبد العزيز يقرأ التفسير في المدرسة قسمها الداخلي، وعلّق الرئيس محمد زياد برى مرة في إحدى خطبه وقال: لسنا أغبياء إلى حد أن نصدِّق أن طالبا في الثانوية الإنجليزية يقرأ تفسير القرآن في مسجد المدرسة، وكان هذا التعليق موجها إلى الأخ عبد العزيز بالذات.

معركة أخرى حدثت في شركة الكهرباء(E.E.N.E.E)

اعتاد بعض العمال الاستهزاء على الشعائر الإسلامية، وفي رمضان بالذات، كان المندوب الاشتراكي في الشركة يشرب الدخان في رمضان متحديا بشعور الصائمين، وكان العمال يقرأون في الطابور قصيدة الصلاة على الرسول ﷺ ، وصل الخبر إلى الرئيس محمد زياد برى عن طريق (على سعيد عرالى) مدير الشركة، فعيّن الرئيس إلى الشركة أحد كوادر الحزب الاشتراكي مندوبا من حزب الحاكم ومرشدا اشتراكيا للموظفين في الشركة، وقال: وصلني من تلك الشركة أن العمال مشغولون في طابور الصباح بالتلاوة (Subcis) ، بينما كان من المفروض قراءة أشعار وقصائد الثورة ، معتبرا عملية ضد الثورة.

وكان ينتمي ذلك المندوب من القبيلة التي يقول الصوماليون عنها أنها من جذر مهين بسبب أعمالهم كصناعة الأحذية والحلاقة والحدادة، تقول تلك الأسطورة الشائعة في البلاد أن الوالد الذي هو أصل تلك الأسرة، أكل جيفة في زمن عمّ القحط والمجاعة لينقذ نفسه من الموت، وبسبب تلك الأسطورة الغريبة لا يزوِّجون أبناء تلك القبيلة ولا يتزوجون منهم مع تلك القبائل المهمشة ظلما بأعمالها، وعانت تلك الأسرة ما يشبه التفرقة العنصرية، وكان هذا الظلم الاجتماعي من الأسباب التي أدخلت البعض إلى الشيوعية لتنفيس كراهيته وحقده على الآخرين.

بعض أبناء تلك الأسر المهمّشة احتموا وأخلصوا للشيوعية، وكان ذلك من نتائج ردود افعالهم، وكان من عادة المستعمرين والملحدين نبش الأصول والقبور وضرب المنبوذين على الأشراف لينتقم الصعاليك والمنبوذون على الأشراف والبرجوازيين القدماء. من تلك الأشخاص:-

١ - الجنرال سمتر نائب الرئيس ووزير الدفاع، وأحد أبرز كوادر الاشتراكية وقيادات الثورة، بل كان نائب الرئيس ووزير الدفاع.

٢. الشيخ محمد جوليد، كان عالما ومفسرا كبيرا قبل الانقلاب العسكري، وبعد حكم العسكر انحاز إلى الشيوعية والاشتراكية العلمية، وانسلخ من الدين ، وأصبح يفتي لهم كل ما أرادوا، حتى استحق منصب وزير العدل والشئون الدينية، وحقق في مسيرته الدينية الاحترافية مع العسكر، وكان شرا على الدعاة يصل بهم من الأذى ما لا يطاق، وكان يعتبره إنجازا، بينما كنا نعتبره انسلاخا؛ فأصبح العدو اللدود على العمل الإسلامي ككل، وهو الذي تولى كبر اغلاق مسجد النساء اغلاقا أبديا، وكان يفتي للإلحاد ويعادي الدين وأهله.

٣ . بوتان الذي سنتحدث في فصل لاحق (أحداث مركز الارشاد في مركا).

٤. المندوب والكادر المذكور الذي أرسلها النظام لترشيد عمال شركة الكهرباء، مندوبا من حزب الحاكم ومرشدا اشتراكيا للموظفين. جاء ليوقف العمال عند حدهم خاصة من المتدينين المتهمين بالرجعية، فقام أمام الطابور مدخنا ومتحديا شعور الصائمين.

وكان عبد القادر شيخ محمود يعمل في الشركة كموظف فقال: نحن مسلمون وصائمون. بالله عليكم الذي لا يصلي ولا يصوم ويتهكم على شعورنا وضمائرنا ويشرب الدخان أمام الصائمين هل هو يستحق أن نقول له أنت مسلم؟ وهل يستحق أن نقول له صومالي الجنسية، هل نحن مع مثل ذلك الرجل من جذر واحد، لسنا من أصل واحد ولا تشاركنا الوطنية ولا الجنسية، شبيها بشعر قديم للمناضل محمد عبد الله حسن (Nasab hadaad tihiin gaaladaad nici lahaydeen

قرار المســـاواة بين الرجل والمرأة

تجاوز النظام جميع العقبات واستعمل وسائل القوة استعمالا حرا لا يبالي بأيِّ قيد، ولا يقف عند حد، ولا يقيم للعاقبة والمصير أيّ وزنٍ، ولا يحسب للجناية وحجم عقابها أيّ حساب. وهكذا دائما حين يتصرف فردٌ أو جماعة مقاليد الحكم المطلق، ويتسنَّى قوة التحقيق له ما أراد، هناك يطغى هذه الطاغية على تلك الشعوب المغلوبة على أمرها.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٥]

المساواة بين الرجل والمرأة كانت نظرية إلحادية لما فيها من منازعة لإرادة الكونية القدرية في الخوارق الخلقية والمعنوية بينهما، ومنابذة للإسلام في نصوص الشرعية المتعلقة في الأمر. وبعد سحب القوات الاستعمارية من العالم الإسلامي ، اتجهت السلطات إلى تغيير أحكام الأحوال الشخصية في بلاد المسلمين ، واحلال قوانين مدنية غربية محلها لكن عن طريق أجرائهم كأدوات ، ودون أن يباشروا بأيديهم لهيب النار أو يمسوا جمراتها.

فأصدر النظام العسكري قرار المساواة بين الرجل والمرأة في كل شيء بتاريخ ١١ يناير عام ١٩٧٥م، مستمدا شرعيته من السخف المضاد لواقع في نظم الزواج والطلاق والميراث، وكان النص القانوني «الغاء تعدد الزوجات والمساواة في الميراث مع حرمان الأقارب البعيدين» ، قام الطاغية ونسي خلقه فتجرّأ الجنرال وزمرته، مالم يتجرّأ عليه غيره ممن سبقوه في تبني الاشتراكية في العالم العربي والإسلامي، فتبنى الاشتراكية العلمية (الإلحادية) كعقيدة ومبدأ، وهي ما كان يتحاشاه العرب، فألغى قانون

الأحوال الشخصية الذي كان الاستعمار الإفرنجي عقد له قضاة خاصة، والتي كان الهدف منها حصر الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية، والذي جاء جزئيا لإرضاء الزعامات الدينية التي كانت تبارك ذلك الاتجاه، فقرِّر قانونيا «تنظيم الأحوال الشخصية الخاصة بالمسلمين وفقا للمبادئ العامة في الشريعة الإسلامية».

والأحوال الشخصية كانت عبارة عن الزواج والطلاق والميراث، وخطب الرئيس يومها خطبته التي كان يعتبرها تاريخية، وكان مدعوكا يومها فاشتدَّ به الوعك، وكان من مفردات خطبته بمنتهى الغلظة «لا ثلث ولا ربع ولا خمس في الميراث بعد اليوم» و قال أيضا: كل الآيات القرآنية التي حددت هذه النسب من الميراث منسوخة بالقرار الرئاسي الذي كان أشبه بخبط العميان، صدر من بطّاشين مستهترين، يعتبرون حرية المؤمنين وكرامتهم لعبة يتسلى بها الطغاة بآلام تعذيبها. وهكذا كان الرجل وأعوانه يستهجن بربه وجريئا على الله عامله الله بما يستحق. والحقيقة أنَّ مثل هذه القوانين المستهترة لا تنمو إلا في البيئات المحطمة.

وقد حدد النظام في عام ١٩٧٤م وأعلن أن سنة ١٩٨٠م سيكون عام «الاكتفاء الذاتي» بعد أن زعم أنه أغدق على البلاد الخير ، فقطع الله البلاد عن الغيث فعمّ البلاد القحط والمجاعة، لكن الطغاة لم يعتبروا، كان يفتخر برزق لم يأت به، كما كان يفتخر فرعون مصر بنهرٍ ليس له دخل في جريانه. وكان من طبيعة الاشتراكيين أن وعدوا تحقيق «الفردوس الأرضي» أي الاكتفاء الذاتي ، فتحولت وعودهم إلى الجحيم الأرضي .

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وذكروا مرة أخرى أنه قال: إذا كان محمد بن عبد الله حيا اليوم في القرن العشرين لغيَّر رؤيته عن المرأة وغير ذلك من الاستهزاء على الله وعلى دينه.

بالنسبة للاستهزاء على الله وعلى الدين كانت مألوفة في كل زمن، كما كانت مألوفة وظاهرة أكثر في ذلك الزمن، وكانت من الأمور التي يتقرب المسئول إلى الدول الكبرى خاصة الكتلة الشيوعية. قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق: ٧] ، فقد قال قبله مثل مقالته وزير الزراعة الإقليمي في سوريا في عهد الوحدة مع مصر، قد وقف مع موكب من الوزراء والكبراء يفتح سد الرستن بين حمص وحماه، فكان مما قاله يومئذ (بعد اليوم لن نحتاج إلى السماء ....) وسرعان ما جاء رد السماء رهيبا مهيبا، وقطع الله الغيث عن البلاد كلها طوال السنوات الثلاثة التي استغرقها وجوده ورفاقه في الوزارة كما ذكر الشيخ محمد المجذوب. كان دور المسجد في مقاومة القوانين الاجرامية الجديدة للأحوال الشخصية صريحا خلال التاريخ. وكان المسجد أهم منبر لتشكيل الرأي العام، ولهذا فرضت السلطة وصايتها على المساجد ، وبعد هذا القرار السخيف قام بعض العلماء الذين اكتشفوا في ذلك اليوم أن الرئيس الصومالي وزمرته كفروا وارتدوا عن الإسلام، تحرك العلماء وشعور الجماهير معها مستنكرة لماجرى ، فقاموا ضد القرار اللعين، وقاوموا الطغاة، وواجهوا نظاما مستبدا يعتبر المواجهة استفزازا لكبريائه، فأفرغ الرئيس جام غضبه عليهم وحاول تشويه صورتهم ونشر الأكاذيب عنهم، مما أدى إلى إعدام عشرة من العلماء في الأماكن العامة تقبل الله شهادتهم وبطولاتهم،

فانطوت صفحة من صفحات كفاح المسلمين . وكانت بالنسبة للبلاد مصيبة ما بعدها مصيبة، وأصبحت بمثابة انتحار سياسي عسكري، وكانت نقطة ضعف العسكر في تناقضهم مع الثقافة المحلية القائمة على الإسلام ، فالثقة بين السلطة السياسية والمجتمع المسلم كان مفقودا، فشعر النظام بعدها بعزلة داخلية وإقليمية ألجأت فيما بعد إلى تحريك قضية شعب الصومال الغربي، وقام الطيارون لتخويف الناس من المواجهة، فتصادمتا فوق العاصمة وهدّمتا بيوتا مات خلالها العشرات فاعتبره الجميع عقابا من الله، فهل يعي الطغاة الدرس؟، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [السجدة: ٢٢] ، ثم بدأ النظام يتهور ويهبط إلى الهاوية فكانت نهايته المأساوية. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل: ١٤] ، وهكذا إذا فقد الإنسان إيمانه يفقد إنسانيته، فقد قيل «الظالم سيف الله ينتقم به ثمّ ينتقم منه» الا فلعنة الله على الظالمين. لقد بلغت كراهيتهم لهؤلاء العلماء مبلغا من «الظمأ النفسي» الذي لا يرويه إلا النظر إلى الدماء المهراقة من الذين يكرههم.

إن هؤلاء هم شهداء ذلك اليوم، أرواحهم كانت فوق الدنيا هائمة محلقة فوق عالم الآلام، فأعدموا في ٢٣-١- ١٩٧٥م، وفي زخم شعارات الثورة الاشتراكية – عفوا- الشيوعية، فناموا نومتهم الأبدية، وتلك أسماؤهم تخليدا لذكراهم، علما بأن المسلمين اعتادوا إهمال تاريخ شهدائهم وأبطالهم إهمالا تاما، وهؤلاء هم شهداء الإسلام في ذلك اليوم المحزن المفرح أرواحهم كانت فوق الدنيا هائمة محلقة فوق عالم الآلام ، علما بأن دولة العسكر لم تعمر بعد تلك الحادثة عقدين من الزمن ، وأصبحت الجريمة داء القاتل التي سكن في جثمانها حتى قضى عليها :-

١. شيخ أحمد شيخ محمد
٢. شيخ موسى يوسف
٣. شيخ أحمد إيمان
٤. على حسن ورسمة
٥. حسن عيسى اليـيي.
٦. محمد سياد حرسي
٧. علي جامع حرسي
٨. آدم علي حرسي
٩. سليمان جامع محمد
١٠. ياسين علمي عول

وأخيرا يجب أن نعاتب الأمة من نقص للتدوين برموزها ونجومها ورجالها وأبطالها الأفذاذ.

أما أعضاء الجماعة فلم تشارك في الخطب، إذ كانت الحركة تنطلق من ثوابت فكرية لتحديد الهدف، ومن ثوابت شورية تشغيلية، فلم تنخدع بالأسماء والأفعال، فالفئة الحاكمة هي التي كانت توالي الاستعمار قديما (Pro Italian)، وهي التي رفضت الحكم بكتاب الله، وقامت الكيد الخفي والحرب الظاهر لهذا الدين بعد أن سقطت في هوة الدكتاتورية، وهي نفسها التي أعلنت العلمانية الالحادية، كما هي نفسها التي ألغت الأحوال الشخصية. فالفئة لم تكفر اليوم كما ظن بعض العلماء المخلصين، بل أعلنت الكفر والجحود والإلحاد مرات عديدة. فهؤلاء هم كفار مجرمون ملعونون؛ لأنهم لم يكفروا فقط بل عادوا الدين وصدوا عن سبيل الله، بل كرهوا ما نزل الله فأحبط أعمالهم، وضلوا عن الطريق ضلالا بعيدا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ ﴾ [النساء: ١٦٧]

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النحل:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ

وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الرعد: ٢٥] ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٧] ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الجاثية: ٣١]

إذن: لا جديد في الموضوع، ولا داعي للقلق، وأن الأحوال الشخصية فقط، لم تكن يوما من الأيام تمثل الحكم الإسلامي، ولا تعبِّر عن مقاصد الشريعة، فوجوده وإلغاؤه بالنسبة لهذه الحركة، وبالنسبة لرؤيتها في الدين سواء أو متقاربة. كنا ننطلق من حكمة الأنبياء «إذا لم تستحي فاصنع ما شئت» فلم نفاجأ بقراراتهم الاجرامية، ولا بغرابة سلوك المتكبر المتعجرف، إذ كنا نعتقد أنه لا إثم أكبر من الكفر، فنجانا الله من شرهم بحفظ الله أولا، ثم بالوعي الصحيح الذي وفق الله الحركة وقياداتها، والحمد لله على كلتا الحالتين وعلى كل حال. لكن العلماء فازوا بالشهادة وأعزوا الإسلام بالبطولة، وقاوموا الإجرام، وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، فلقد أثبتوا جرأتهم وشجاعتهم أمام هذه الطاغية فرحمهم الله وتقبل جرأتهم وشهادتهم إنه كريم.

والسؤال الذي يفرض نفسه، لماذا يعدمون دائما الدعاة إلى الله والملتزمين، والأمر أهون – كما يبدو على ظاهره– من الإعدام، فالداعي يقول ما يراه حقا وينقل نصوصا من الدين ، وليس له سلطة على المفسدين؟ وليس حاكما، لا يملك إلا أن يترجم آيات من الذكر الحكيم؟ وليس مسلحا، فلماذا الإعدام؟.

والجواب: لأن الداعية يفضحه، ويمزق ستره، ويكشف قناعه المزيف، ويفضح كفره وفسقه وعدم التزامه بالمنهج الرباني، ومخالفته الصريحة بالصراط المستقيم، ولتلك الأسباب تجد الكافر والعاصي

والعميل وغير الملتزم، يغار ويكره الملتزم بمنهج الله ويحاول إزالته عن طريقه ولو بالقتل. ومن المعلوم أنَّ جهاد أعداء الإسلام المكشوفين لنا هو أهون بكثير من جهاد هؤلاء الذي يتسمون بأسمائنا ويلبسون الحق بالباطل من أبناء الإسلام المخدوعين بالشعارات البراقة.

*****

إنـشاء جناح عسكري

المعلوم لدى الجميع أنَّ الاستعمار هو الذي أسس العساكر على أهدافه وأيدلوجيته ، ولتنفيذ أوامره مطلقا حتى ولوكان الأمر باطلا ومستحيلا ، كما عمَّق في الجيوش نظريته الاستعمارية أو الإجرامية التي تجرِّم العسكري إذا سأل السبب، تلك النظرية التي تقول: «إن لم تقتل فأنت المقتول»، ذلك كان الإرث اللعين التي ورث العالم من ثقافة العسكر الاستعمارية. ومن الطبيعي أن يتجمع لدى الجيش الأراذل والفسقة والفجرة ، ثمَّ تضخَّم ذلك الجيش وتجبَّرت قيادته وتكبَّرت بتخطيط مؤسسيه وموجهيه ومموليه، فانقلب على دولته ليحكم بالدبابة وبعين الكافر المستعمر. فأصبح حامل البندقية فقط ذلك الأرذل الذي لا يعرف إلا ذلك الجنرال المخمور والمتضخِّم، فحمل السِّكير السيف فقتل نفسه ومن حوله. أما الشعب والشريف أو العاقل فيجب أن يكون منزوع السلاح كي لا يقاوم، فضلا عن المؤمن أو المجاهد الذي وصفوه بالإرهابي المتطرف. تلك كانت ولا زالت هي السياسة الفاعلة في العالم العربي والإسلامي بالذات.

أما اليقظة الإسلامية المذكورة، فقد عمَّقت عند دراستها في القرآن الكريم مسألة **أهمية تنفيذ الشريعة على الكرة الأرضية،** خاصة تلك الأحكام التي حُرِّمت بركتها من الكون، كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكحكم القصاص، والردة ، وقطع أيدي السارق، وجلد أو رجم الزاني، وحكم القذف والحرابة، نتيجة اجرام قطاع الطرق والمفسدين في الأرض... وغيره، تلك الأحكام التي قبَّحها الاستعمار واعتبرها جاهلية بربرية قديمة تعرقل الطاقة البشرية وتشوِّه صورته ، فكان أصحاب اليقظة يستنتجون من تلك الدراسة، **وجوب تجنيد المؤمنين تحت إمام عادل،** الذي طاعته مشروطة إذا أطاع

الله، وإن عصى الله فلا طاعة له. وبناء على ذلك رأوا أنه يجب تأسيس جيش مؤمن يتلقى أوامره من رب العالمين، جيش يطيع قيادته بضميره وبمبادئ دينه التي تتلخص طاعة الأمير أو الرئيس إذا أطاع الله فقط، وأنه لا طاعة لمن عصى الله، خلافا لقاعدة الجيوش التي أسسها الاستعمار. ومن هنا يجب حمل السلاح لينقذ دعوته وحركته **أولا**، وينقذ شعبه ووطنه **ثانيا**. لكن كيف يحمل المؤمن **السلاح** في مثل هذا الجو؟. هنا بلورت في الأذهان **إنشاء جناح عسكري سِرِّي للحركة من خلال الجيش الصومالي.** وذلك بعد ما كثر عدد المتخرجين من الثانويات والمنتمين إلى الحركة، فقررت الجماعة تقسيم المتخرجين إلى التخصصات التالية:-

الأول: القسم الأكثر وُجِه إلى التربية والتعليم وفي كلية التربية «لفولى» بالذات، لتخرج للحركة مدرسين أكفاء في جميع التخصصات التربوية لكي يتولوا التعليم على الأجيال اللاحقة.

الثاني: وقسمٌ آخر وُجِّه إلى الثقافة الإسلامية وعلم الشريعة ليتفقهوا في الدين ولينذروا الأمة إذا رجعوا إليهم، أو يجهزوا الأمة لقبول حكم الشريعة، ويتولوا الدعوة في المستقبل، محيطين علما: أنَّ الهجرة إلى العلم كانت مطلوبة لحدِّ ذاتها لاكتشاف الفوائد في غير بلده، وبعيدا عن العلائق الشاغلة والعوائق المانعة عن تمام الطلب، وبذل الاجتهاد وقوة الجد في التحصيل.

الثالث: وقسم آخر لا يقل أهمية من هذين القسمين، وُجِّـهَ إلى الجيش لصدِّ أيِّ هجومٍ محتمل على الدعوة والدعاة، ولتحرير ثقافة العسكر من الغطرسة وتحويلها إلى دعوة الخير، ولم يستبعد فكرة الانقلاب على المدى البعيد تلك الفكرة التي كانت منتشرة في العالم الثالث، أو كانت فكرة الانقلاب نائمة في فكر الشباب بسبب الانقلابات العسكرية التي سادت المنطقة، وهكذا جاءت فكرة تأسيس

إنشاء جناح عسكري للحركة، فلا جهاد بدون تضحية، ولا حرية بدون دماء كما لا شجرة بدون ماء، ومن ثمَّ لا شك أنَّ من وسائل الجهاد المهمة تعلُّم وإتقان مختلف العلوم والفنون والصناعات اللازمة لإعداد القتال، ولمواجهة رهبة سطوة الحاكم وسوط جلاده وحبل مشنقته كهدف تكتيكي . وظهرت الفكرة على السطح في بدايتها بعد أن أقتنع بعض الشباب وتناقشوا فيما بينهم في همسات داخلية، أي بدأت الفكرة من القاعدة ولم تبدأ من القيادة. قالوا: الحكم بالشريعة يستدعي الانضمام إلى الجيش، وتزويد رجال المستقبل بالثقافة العسكرية؛ فأصبحت الفكرة سائغة! وكان الدافع الوحيد الرغبة القوية لقيام حكم إسلامي على وجه الأرض، ولم يكن هناك التطلع إلى مكانة اجتماعية مرموقة.

حُـوِّلت الفكرة إلى شورى الجماعة، لصياغة الفكرة بأسلوب عصري تتفق مع نفسية الجيل المثقف، وللتغلب على مشكلات الزمن المعقدة. وبما أنَّ الكثرة كانت متحمِّسة لفكرة الانضمام إلى الجيش والتطلع إلى الانقلاب في المستقبل؛ لأن الشباب اقتنعوا بهذه الفكرة فيما بينهم في جلسات سابقة، انتهت جلسات المشاورة بما يشبه الإجماع، لكن كان ضغط أغلبية الشباب كان ظاهرا في الجلسات. كان الأخ عبد القادر شيخ محمود المسئول الأول في الحركة، هو الوحيد المتوجس عن الفكرة ، وحاول إيجاد أصوات تؤيده لتخوفاته التي قال فيها مرارا، أليس منكم رجل رشيد يرى معي خطورة الفكرة؟، فلم يجد من يسانده في تخوفاته، لعدم ادراكهم معه حجم التحديات التي تواجههم، ثم لم يبق لديه إلا أن يسحب اعتراضه. وهنا نلمس فارق التفكير والهمة بين تخطيط قصير المدى وبعيد المدى.

أخيرا قررت الجماعة موافقتها للفكرة، وحوِّلت من دور التفكير النظري إلى دور التخطيط العملي والتنفـيذ، وأدعِـمت بتوصيات الرسول ﷺ التي تتعلق بتعلم الرمي والسباحة، والمبارزة، كما

أدعمت الفكرة بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠].

والحقيقة أن الفكرة ما وصلت إلى هذا المستوى إلا تأثرا بالعمليات الانقلابية التي سادت العالم العربي والإسلامي في ذلك الوقت، وبتأثير الزمن ظهرت الفكرة يومها معقولة، فدخل في الجيش عدد من أعضاء الجماعة بعد تخرجهم من الثانويات، وتطوّع بعضهم في الدخول إلى الجيش، بينما اختارت الجماعة مؤهلين لهذا العمل الخطير، سميناهم بمصطلح غامض بعيد عن الجندية «لاعبين» وناصحين. كانت تجربة جريئة أشبه بالمغامرة. ولفهم الموضوع أكثر لابد لشرح معالم ضرورية لفهم القضية.

كان الاعتقاد السائد، أن الجنرالات العسكرية كالوحوش؛ فإذا أردنا مقاومتهم لابدَّ من مواجهتهم بأسلوبهم القاسي الذي يسحق المعارضة سحقا، وبالتالي يحكم بالحديد والنار، وأن هجمات هؤلاء الحيوانات المتوحشة لا ترد بأيدٍ عزل، فاللغة الوحيدة التي يفهما الوحش المتغطرس هي البندقية لا غير، وأنَّ الانقلاب هو العلاج السريع الذي ينقذ الأمة من واقعها الأليم.

وكانت الفكرة تترجم المواجهة بالمثل، حتى إذا استتب الأمن حكم الانقلابيون المؤمنون بالكتاب العادل! ؛ لأنَّ الحكم الكافر المستبد ينتظر ثائرا جبارا جديدا يؤمن بالله ويكفر بالطاغوت ويغضب للحق ويثور كاللبيب ويفاجئ العالم بشجاعته.

جل الشباب كان يرى أن هذا المخطط هو أفضل مخطط يتصوّر في الفترة التاريخية التي وضع فيها، وفي الوضع الدقيق المعقد الذي كان يواجهه، علما بأنهم كانوا على جانب من الخوف والحذر من أن تكتشف

الحكومة نشاطهم فتوقفه، بل كانوا يرون أنه لا يدرك بُعدَ غوره وبُعد النظر الذي صدر عنه هذا المخطط الا من عرف الخلفيات والتجارب التي ألجأت الى اتخاذ هذه الخطوة الجريئة.

وعند تناول هذه الأفكار لم يسعَ أحدٌ منا إلى اكتساب المنصب القيادي لتحقيق مطامع مادية أو سياسية، أو مكاسب من ناحية الوجاهة والمكانة رغم تخطيطنا للانقلاب على المدى البعيد، ولم يكن أساسه الشره والطمع في الحكم. كان الهدف إعداد الجندية أولا كهدف تكتيكي: محيطين علما أن إعداد الجندية الصادقة والواعية تعد في مقاييس الاستراتيجيات العسكرية الحديثة، أهم من توفير العدة والعتاد. بينما الغاية كانت تحقيق حكم الله في الأرض كهدف استراتيجي.

فتتابع الشباب على المنح العسكرية، وكان ذلك بعد اطمئنان الحركة بنتائج المنح الثقافة، وسافر كثيرون إلى كل من أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي والعراق ومصر وسوريا والسودان .... وغيرها، ودخل عدد آخر في كلية «سياد» العسكرية في مقديشو، والذين خرجوا من البلاد سافروا لإتمام ثقافتهم العسكرية مستفيدين من منح الجيش الصومالي المجانية، وكانت الفكرة تترجم أن علم الحرب والقتال وتطبيقاتها العملية من جانبها الفني، يجب أن يتلقى في هذا الزمن عن المسلم وغير المسلم.

*****

المراجعة والدراسة الميدانية

إن المنهجية القرآنية واضحة المعالم. فقد توقفنا عند قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩ ﴾ [الفتح: ٢٩]، فقد زرعنا فكرة، وكنا نعمّق عقيدة، ونزرع أرضا، ونثير حبا، ونسقي شجرا، وأخصبت البذور في تلك التربة الصالحة ، فجاء الحصاد بعد ذلك حافلا وفيرا. وما من ريب أنه بعد الجذور تأتي السيقان ، ثمَّ الأغصان والأوراق ، ثمَّ الثمر اليانعة الطيبة ... ويومها يحل الربيع ، وتشرق على العالم شمس من شموس الإسلام الخالص، إلى هنا كنا على النهج الصحيح في الزمن الملائم كنا نرى ، لأن مثل هذا التدرج طريقة الدين ومنهجه لتغيير الأوضاع وإحياء الأمم .

وكانت الفكرة الزمنية الملائمة بعد ذلك، رعاية البذرة واسقائها ؛ لأنه يحكم على البذرة بالفناء في أرض لا ترعى فيها بالهواء والماء والقوة الانباتية. وأخيرا كانت الفكرة الزمنية الملائمة ؛ كيفية تجهيز الحراسة والمآت التي يضعها المزارعون في بساتينهم كي تحمي بذورهم ونبتهم الذي لم يستوِ بعد على سوقه من جزوعات الطيور. لكن بدلا من ذلك، بدأنا متسرعين نطلب المهندسين لنبني القلاع والحصون ممتنعة عالية الأسوار وانشغلنا عن حراسة البساتين ورعايتها، وبدأنا نحفر الأخدود، وخططنا على المدى القريب للحرب على الأعداء، فربما وقعنا في إشكالية الاستعجال في قطف ثمار المزرعة قبل أن يكتمل

نضجها مما يؤدي إلى طعم مرِّ المذاق، وهكذا أخذت الجماعة خطوات إلى محاولة الحكم الصارم الذي يعتمد على أسلوب واحد من أساليب التربية ، ألا وهو أسلوب «الإلزام القهري».

هنا تقدمت الفكرة الصحيحة أو المنهجية المستقيمة عن زمنها الملائم كما رأت اللجنة الباحثة في الأمر ، إذ أعلنت الجماعة الحرب العالمية الرابعة بدون إعداد أو إدراك بما قد يترتب عليها من خطورة على التربية الطويلة التي بذرت الجماعة في التربة، فقد خرج الشطءُ، لكنه لم يستغلظ ولم يستوِ على سوقه، ولم يعجب الكفار «الزرّاع» بعد. وكانت الفكرة متفائلة إيجابية في البداية ، ثمَّ ظهرت الكوامن على السطح، فقلت وانخفضت حدة الإيجابية ، ثم ظهرت رؤية أخرى ، وهي أن تنأى الجماعة حركتها عن الانزلاق في مغامرات عسكرية غير مضمونة النتائج .

فلما اتسعت مطالعاتنا المنهجية وإدراكنا الثقافي والسياسي، وقرأنا كثيرا، وتقصينا الحقائق، وبدا لنا من حقائق وآفاق علمية ما بدا، وأفادنا من قبلنا من القيادات الراشدة والأساتذة الذين حنكتهم التجارب وأفادونا من تجاربهم السابقة في الدعوة، وشكلنا لجانا وعقولا من الباحثين لجمع المعلومات الذي قد يعصر عند الشباب تصويره وتفسيره، فكان لي حظ المشاركة في إنجازها ، استنتجت لدى المجموعة وتجمّعت لديها المعلومات أو الاستنتاجات التالية:-

أولا: قررت الجماعة أن الرغبة القوية لقيام حكم إسلامي مبدأ عظيم، لكن الطريق إلى ذلك طويل ومحفوف بالمخاطر، وأن الأمر في حاجة إلى تمهيد وتعبيد قد تستغرق إلى زمن طويل، وأن الله لن يؤتي نصره وتمكينه من لم يكن جديرا به، وأنه لا ينبغي أن يفوز إلا من امتلك أداة الفوز، ولا يسود إلا من

حاز شروط الاستخلاف، وأن للتمكين صفات لابدّ من توفرها في القادة والأمّة ويفقدها بفقد التمكين.

ولهذا يجب استيعاب سنة «التدرج» في بناء الدول وإقامة الحضارة واحياء الشعوب، وأن للتربية أهداف منها «الصبر» ونكران الذات ، وضبط الأعصاب عن المهيجات التي ليست من عادة البدويِّ الجاف والشاب الهائج عادة أن يتحمّلها، نتيجة عنهجية الأعراب التي تتجاوز حدود العقل أحيانا، أو نتيجة سرعة النماء المتسارع للشباب، ومن ثمَّ تحتاج تلك التربية إلى جهدٍ كبير وزمن مديد، حتى تستقرَّ في العقول والقلوب استقرارا عميقا، خاصة بعد معرفة حال الأمة في فهمها المغلوط للإسلام، تلك الفكرة التي كان لها دور بارز في فهم المنهج الرباني لتغيير الأوضاع النفس البشرية .

وقيّمت الحركة أنها ليست مؤهلة لهذا العمل (العسكرة) في ذلك الوقت، وأعضاؤها ليسوا جديرين بالقيادة والتمكين في ذلك الزمن لأسباب: منها محاولة قطع الثمار قبل نضوجه، فلم نتجاوز بعد دور «الحضانة» محيطين علما أن دعوتنا كانت عالمية وليست إقليمية. والدعوة العالمية تستدعي حشد أكبر عدد ممكن من المؤمنين، كما تستدعي حشد حِلفٍ أكثر مما يتوقعه المخلصون السطحيون؛ لأن الله لا يهدي نصره لمن لا يعد كل متطلبات القتال، وأنه لا ينبغي أن نسلك مسلك هؤلاء الذين ينتظرون الخوارق فقط لينتصروا على أعدائهم.

ثانيا: علمنا أن التغيير الحضاري يجب أن يأتي من الداخل، كما يجب أن يرتكز على عقيدة لها جذورها في أعماق النفس، وأن الانقلاب ليس الوسيلة التاريخية المهيأة للتغيير، إذ هو موجة انفعالية، سرعان ما

تنحسر محدثة رد فعل انحساري عنيف!!. فالانقلاب يدفع دائما إلى انقلاب أعنف وأفحش، وأن الدعوة الإسلامية أعمق من إسقاط نظام.

والنتيجة: هي السقوط كما تسقط كل حركة انفعالية، ترتكز على العنف، وعلى الطموح الشخصي، وتفتقد الوعي بحركة التاريخ، وبأيدلوجية قتالية واضحة، تستأهل الموت في سبيلها، وربما يتحول الانقلاب المقترح إلى حادث مفتعل، يخلف نتائج مضادة، ويكون حصاده وبالا على الأمة، وعلى أهل الدين، أو يعتبر مغامرة غير محسوبة النتائج.

وأن قيادات الحركات الانقلابية الناجحة، يعتقدون دائما أنهم يستحقون كل شيء؛ لأنهم نجحوا بعد ما تهوّروا وقدموا أنفسهم للمخاطر، وعند ما تصفق لهم الجماهير، تفسد طبائعهم، فيتكبرون ويتصرفون كغزاة على بلد لم يجدوا من يقاومونهم. فالعسكرة ربما تقود بعض الأفراد في الحركة إلى مغامرات غير محسوبة في عالم الصراع على الحكم.

ثالثا: علمنا أيضا بالاستقراء أن فكرة الانقلابات العسكرية، كانت أصلها فكرة وسنة القوى الشريرة، التي تؤمن ب «أن الغاية تبرر الوسيلة» كما أنها تمثل عمليات «انتحارية» أقيمت أساسا لقمع الحركات الإسلامية المتصاعدة في المنطقة الإسلامية، كي لا تقوم الخلافة الإسلامية على قدميها مرة أخرى، فهي من سنة وتخطيط أهل الشر، ومن ثمّ لا قيمة ولا وزن في نظر الإسلام للانتصار العسكري أو السياسي أو الاقتصادي ما لم يقم هذا كله على المنهج الرباني.

كان الظن راجحا في بداية الفكرة أن سقوط العساكر سيؤدي إلى تتويج قيادة المؤمنين، وسيسقط الحكم بين أيدي المؤمنين غنيمة باردة على المدى القريب أو البعيد. وكان الشعور السائد في ذلك الوقت أيضا،

أن الشعب الصومالي المسلم مئة في المئة، سوف يكون إلى جانب الحق عند الضرورة؛ لأننا لم ندخل الأخطار إلا لمصلحتهم الدينية والدنيوية، تلك الفكرة التي تغيَّرت فيما بعد عند تقويم المجتمع الصومالي.

رابعا: فتح الله لنا في معرفة أن لهذا الدين طريقته الانقلابية الخاصة ومنهجه الاستئصالي، وأن قوّته الفكرية وسنته الابتلائيه، تتطلب عرض فكرته القوية على الملأ أولا، وأنه لا إكراه في الدين، ومن ثـمَّ لا يعرض أفكاره لأول مرة بالقوّة العسكرية المفاجئة، بمعنى أن الوحي بدأ ب « اقرأ » وبتعميق العقيدة، ولم يبدأ بقاتل وجاهد وسيطر، وأن الأفكار المفروضة بالقوة على الناس لن تثمر ثمار الإقناع بالحكمة والعقل، والقوة المتنامية في الخفاء ربما ستنطلق آخر المطاف بقوة وستختزل الرموز القائمة إلى مجرد أشياء ذات قيمة طفيفة.

خامسا: فتح الله لنا أيضا أن سنة الأنبياء عليهم السلام كانت تمرر الدعوة بمراحلها المختلفة من عرض التوحيد على الملأ، ثمَّ استضعاف في العقيدة، وابتلاء وصبر وتمحيص وتخطيط، ثمَّ تمكين على تخوُّف، ثمَّ تمكين على استقرار وقوة، ثمَّ انتشار في الأرض. وقد سئل الشافعي هل لنا أن نمكن أو نبتلى؟ فقال « لا نمكن حتى نبتلى ؛ فإن الله لم يعط نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمَّدا صلوات الله وسلامه عليهم حتى صبروا». أنظر الفوائد ص ١٨٣

وكانت تبليغ الرسل للهدايا بالكلمة والاقناع بالحكمة والمنطق، وما نزلت رسل ومعها دبابات وطائرات ولا جيوش وأسلحة، ولكنها نزلت ومعها بالكلمة والحكمة التي هي ضالة المؤمن، وشرَّق الإسلام وغرَّب بالحكمة والبيان والفهم والعرفان والموعظة الحسنة ، ولهذا يجب أن يحارب المسلم

بسلاح الضمير والفكر أولا وقبل كل شيء. فالمطلوب «الإقناع الفكري أولا»، ثمّ على وسائل التربية العملية المختلفة ومنها وسائل الترغيب ، ثمَّ على وسائل الترهيب والتحذير ثم العقوبات المادية إن أمكن.

سادسا: علمنا بعد الدراسة والتفكير أن فكرة الانقلابات أعقد وأكبر مما كنا نتخيل أيام شبابنا، وأن الدعوة إلى هذا الدين أطول نـفَـــسا من هذه المغامرة التي لا تجد أعوانا من هذه الأمة التي ضاعت وابتعدت عن الدين، وأن الشعب الصومال أمة بدوية قبلية متمردة تعشق الثرثرة ونقل الأخبار، فلا ينبغي أن يحسب لها حساب، فلم تصل درجة عالية من الوعي، وأيضا لم يصل فكرها ووجدانها وإيمانها درجة عالية تجعله يتحمّل الأهوال في سبيل هذا الدين رغم ادعائهم الإسلام. كما أن الغرب المسيطر على العالم من صليبيين حاقدين وشيوعيين ملحدين ويهود طامحين الذين رفعوا شعار «دمِّروا الإسلام وأبيدوا أهله» وحتى الوثنيين وعبّاد البقر كل هؤلاء مجتمعة عيونهم على إقامة حكم إسلامي لابدّ أن يُحسَب لهم ألف حساب. ومن ثمّ بدأت دراسة **المخاطر المحتملة ، لإجراء دراسة احترازية** .

سابعا: علمنا كذلك بعد الدراسة أن هذه المنهجية العسكرية الانقلابية، غريبة على المنهجية الانقلابية التي تتابعت الرسل بدعواتها واقناعها، وأن المنهجية الانقلابية الإسلامية لا تكلف الانسان إلا بوسعه.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ **وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ** مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ **فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ** فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨ ﴾ [الحج: ٧٨]

وأن الغاية النبيلة لا يمكن تحقيقها من خلال وسيلة غير مشروعة. وأن الغاية عند الإسلام لا تبرر الوسيلة.

والتصوير الرائع الذي كتب سيد قطب رحمه الله في كتابه معالم في الطريق كان له أكبر الأثر على مراجعة المشروع العسكري وانقلابه وهو قوله: «إن مصارع المكذبين تجري على سنة لا تتبدل، نسيان لآيات الله وانحراف عن طريقه، إنذار من الله على يد رسول، استكبار عن العبودية لله وحده والخضوع لرب العالمين، اغترار بالرخاء واستهزاء بالإنذار واستعجال للعذاب، طغيان وتهديد وإيذاء للمؤمنين، ثبات من المؤمنين ومفاصلة على العقيدة، ثم المصرع الذي يأتي وفق سنة الله على مدار التاريخ» ا. هـ . كما كان يرى في نصيحته التالية: «عدم محاولة فرض النظام الإسلام بالقوة عن طريق احداث انقلاب من القمة ، وبالذات عدم إضاعة الجهد بالتدخل في الأحداث السياسية الحالية الجارية» وهناك عبارات وتعليقات وإفادات وتوضيحات هامة ورائعة وعملية قرأنا وسمعنا من محمد قطب وغيره تتعلق بالموضوع، كما كان هناك لقاءات معه من بعض الإخوة.

وكان أيضا كتاب منهاج الانقلاب الإسلامي للمودودي كان له دور في توضيح المسألة، وقال ما معناه: وهو يصوّرِ حال المسلمين اليوم « ترى المحامي المسلم اليوم يدافع قضية وهو يعلم أن الحق على الجانب الآخر، فالأمة التي وصلت درجة انحطاط الخلقي إلى هذا الدرك، هي أمة تحتاج إلى بعث جديد، يحيي العقيدة التي فقدتها» إ.هـ وفي كتاب آخر عالج الموضوع بامتياز دليلا على عمق فكره وجدارة بحثه، وذلك كان يحفظ لنا التوازن بعد ما دق ناقوس الخطر ليوقظنا من سباتنا ، وقال فيه «نصيحتي لكم أيها الشباب أن تتحاشوا استخدام العنف والسلاح لتغيير الأوضاع؛ لأن هذا الطريق نوع من الاستعجال

للوصول إلى الغاية بأقصر طريق، ولدى الإسلام انقلاب لا يمكن لأي قوة معادية أن تقف في وجهه» انتهى. كان رحمه الله يأمل لغدنا في نقطة تتلاقى فيها: البيئة الصالحة ، وعزم العلم ، والبحث المنهجي. فجزاهم الله عنا وعن الإسلام خيرا.

النصيحة: أعتقد أن جميع الحركات الجهادية في هذا الزمن كان ينقصهم التخطيط والتوقيت والاعداد وحشد الأمة ثمّ أخذ الشرعية ثمّ الدفاع عن النفس وعن الشرعية. فيجب على المجاهدين المسلمين أن يراجعوا الفكرتان السلبيتان:

أ : الارتجالية المخلصة التي ابتليت بها الساحة الدعوية، فالإخلاص شيء والحنكة السياسية شيء آخر. والجهاد أمر أكبر من أن يترك لمجرد جماعة واحدة، والأخطر من أن تتولى أمرها تنظيمات مجهولة، أو قائد مجهول خلافا مبدأ الشورى المتعارف عند المسلمين.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشورى: ٣٨]

ب: الفكرة الحزبية التي صوّرت الجهاد في سبيل الله عملا فئوية أو فردية مما أبطأ نتائجه المرجوة ولكن من المهم معرفة الأمة التي لم تشارك الجهاد ولم تقدم أي مشروع جهادي هي لها الدور أو السبب الأول لتفلت الجهاديين .

إن أمر الجناح العسكري في الحركة أصبح من أكبر القضايا تفكيرا، وذلك بعد ما واجهت الحركة المضايقات الشديدة على كل الميادين، لكن رغم المضايقات الشديدة، كان الزمن مغايرا

للأزمنة التي بعدها، فالأعضاء كانوا أقرب إلى الفطرة والإخلاص في ذلك الوقت، ولكل زمن مشاكله.

ولتحليل الموضوع نلاحظ الملاحظات التالية:-

١- وقد رأت القيادة في ذلك الزمن أنه من المستحيل حفظ هذا السر الخطير على هذا الزمن الغير المحدود في قلوب هذا العدد الكبير من الشباب كثيري التقلب، ثم إنه من الممكن أن تطغي الثقافة العسكرية على المدرسة الفكرية التربوية، وتصبح القوة رافعة من روافع القوة والجاه، ثم ربما يتآكل المؤمنون كما يتآكل الجنرالات والرفقاء في كثير من البلدان.

٢- وقد ظهرت ملامح الخطورة في وقت مبكر، وازداد الخوف بعد أن اختفى أحد الأعضاء فجأة هو السيد «يوسف محمد عُبيد» رحمه الله ، وقطع صلته بالجماعة في زمن خطر!، وتألّمت الجماعة باختفائه ثم انفصاله من الجسم لخطورة ما كان يحمله من أسرار، أكثرها وقعا موضوع اللاعبين أو الناصحين، ولكن بفضل الله لم يكشف سرا ولكنه اختار الانفصال. واعتبرنا انفصاله تقاعسا، كان جرحا أليما أصاب الحركة لكنها برأت وتعافت بحمد الله.

٣- اجتهد أحد المختارين للسلك العسكري هو الأخ «محمود قاسم» وتصنّع بلباقة رآه يومها مفيدة، وكان في وقتها غير ناضج لحمل السرية، وصعب عليه حمل الأسرار الثقيلة، وغيّر طريقة لبسه الطبيعي، وذهب يلبس قميص موضة (النيريري) لتبعده عن تهمة التديُّن، وتراءى أنه مُدَّخن، وهو يقصد تضليل الرأي العام، وقلنا يومها أن هذا التصنُّع قد لا يدوم طويلا عند

بعض الشباب المتحمسين وغير ناضجين، وتخوفنا من تسريب المعلومات الهامة الخطيرة عن طريقهم بالتصنع.

٤- ومن المفاجآت أن تلقت الفئة التي كانت تدرس في كلية «سياد العسكرية» صعوبات عن أداء الصلاة ، فتمرّدوا على الدراسة في أوقات الصلاة، وكانوا يخرجون بدون إذن ، فتضايق المدرسات الروسيات على هذا السلوك المخالف لطريقتهم في تدريب العساكر، وقدمن عنهم شكوى؛ فجاءت فئة عسكرية لتلقينهم عقابا جماعيا، وفي هذه الحالة خرج السيد «حسن أفرح جورى» للصلاة، ولم يستأذن أحدا، بينما أربعة آخرين من أعضاء الجماعة قاموا يستأذنون لأداء فريضة صلاة المغرب، فأمرت القيادة العسكرية بقيادة الملازم «أمين» بقبض الرجل المشاغب الذي أهان النظام العسكري بطريقة استفزازية إجرامية، فاختطف وهو في الصلاة وسجن ثم طرد من الكلية، فقيل للآخرين من سيكون معه؛ فقام السيد «أحمد دعالى أحمد» وخرج بغضب قائلا نحن معه!، فشطب اسمه من الكلية أيضا. بينما حكم على الأشغال الشاقة التي استمرت إلى عام كامل على كل من: عبد الناصر حاج أحمد، ومهدي محمد جمعالى وحسن مهدي.

٥- كان يتخوّف بعضنا بأن التباعد الذي ألزمتنا به السرية عن الكتائب العسكرية والانقطاع الذي كلفتهم به الظروف، ربما يؤدي في النهاية إلى انفصام فكري، لكن أصبح هؤلاء اللاعبين أكثر الشباب التزاما من غيرهم، لأنهم اعتبروا أنفسهم المنقذين.

٦- وكنا نعلم أنه إذا علمت المخابرات العسكرية بهذه الطليعة التي دخلت الجيش بهذه النية الدينية المصاحبة بالانقلابية، كنا نعلم أن العقاب لن يقل عن سحق الطليعة وإعدامهم، ولن تسلم القيادات التي كانت العقل المدبِّر لهذه العملية، وربما تخلف نتيجة كارثية.

٧- إن فكرة تزويد الشباب المؤمن بالثقافة العسكرية، كانت فكرة جيدة لحد ذاتها، فالعلوم العسكرية كثيرة ومتعددة التخصصات، وأن الجهاد الإسلامي المعادي للكفر والكافرين لن يستغني عن هذه الثقافة، لأن القوى الظاهرة والخفية القابضة على الزمام في عالمنا اليوم قوى شريرة، قد هيّأها أعداء الإسلام لهذا الدور منذ زمن بعيد، هذه القوى تمتلك كل أسباب القهر والتنكيل والابادة، وتعطي لهذا الضوء الأخطر من كل أعداء الإسلام في الداخل والخارج، ومن ثمَّ يحاول أن لا يقبل قيادة المؤمنين على الأمم الإسلامية، وهذا يلزم المؤمنين أن يتسلحوا تسليحا ملائما، حتى إذا وجدوا الشرعية يدافعون قيادتهم بالقوة العسكرية، وإلا سحقت القيادة المؤمنة من قبل الكفار سحقا، وحركة الجزائر ثم الاخوان الذين دخلوا بالانتخابات مثال واضح مهزوم، بينما حركة حماس هي مثال آخر صارخ رائع ؛ لأنَّ جناحها العسكري دافع الفكرة والحركة.

٨- وتزامن التحليل في زمن حصل الاضطراب الأول في الجماعة وما ترك في الأنس من هزات في التضامن والفكر والروح، ولم يتحمّل البعض مرارة الخلاف الذي دار في الجلسات خلافا للروحانية المعتادة من قبل؛ فاختار البعض استقلالية الفكر، وهم حاملين أسرارا خطيرة مثل سر الناصحين، كالاخوة التالية أسماؤهم:- حسين على ديرشى وعبد السلام عثمان عبد السلام، وأحمد عثمان طيل، وحسن تركي، ويوسف فود عدّى، وعبد السلام شيخ...

وغيرهم. وركزوا على الثغرات ، ومن طبيعة الانسان إذا ما تمَّ عملا ما ، ثمَّ نظر إليه بعد الانتهاء منه بعين بصيرة ، وجد في ذلك العمل ثغرات ، وذلك دليل على قصور الانسان وبعده عن الكمال.

كانت فكرة تزويد الشباب بالثقافة العسكرية جيدة لحد ذاتها ولكن نية الانقلابات التي صاحبت الفكرة هي التي صعّبت القضية في ذلك الزمن وجعلته في غير زمنه.

إن هذه الأمور المذكورة أعلاه وغيرها دفعتنا إلى مراجعة المشروع، وذلك كان بعد أن سلطنا الضوء على الموضوع في دراسات وجلسات متتابعة، وبعد أن قتلنا المسألة بحثا وتفكيرا، وبعد أن استشرنا بكثير من العلماء والمفكرين المسلمين. فكانت نتيجة هذا العمل العظيم أن فتح الله لنا الرأي السديد كما أعتقد، فقد سادت فينا القناعة أننا مطالبون بالتغيير الجريء العاجل من أجل إنقاذ الحركة أولا، ثم الرجوع إلى المنهجية الصحيحة التي تجاوزناها قبل سنين عدة.

والحقيقة أنه لا يقوم بمثل هذا التغيير إلا فئة قليلة من أصحاب الحكمة والشجاعة والقوة، وأن الجماعات التي تربِّي أعضاءها على أن الوضع القائم هو الأفضل دائما، ومن ثم مسيرون لا مخيرون فيجب عليهم متابعة الموجة ، هي جماعات فاشلة، وتنتج دائما أشخاصا خامدة، لا يحركون ساكنا ولا يغـيِّرون أنفسا ولا أوضاعا. وهكذا قررت الجماعة أن تبقى بعيدة عن الأضواء وتنتظر الفرصة المناسبة.

بعد هذه الدراسة الميدانية العميقة، قررت الجماعة إلغاء الفكرة، والانسحاب من فكرة الجيش كليا، إذ خافت القيادة أن تؤدي هذه الازدواجية في السلوك إلى الوقوع في الانفعالات، والانفجارات التلقائية، والجهاد المرتجل أو المصطنع الذي كثيرا ما ينتهي إلى الانتحار، كما حصل ويحصل مع بعض الحركات

الإسلامية، وكانت هذه الدراسة تحذر الوقوع في فخ محاولة الجمع المستعجل بين الدعوة وغاية الوصول إلى الحكم بالقوة المسلحة، وأخيرا أصبح القرار ساري المفعول رغم تذمر البعض.

وكان هذا التحليل دقيقا وصحيحا ولم أزل أرى أنه كان توفيقا من الله إذ لم تدم وحدة الجماعة. وكانت النتيجة أن تشتت الأفراد وتوزعت الولاءات، وذلك بعد الاضطراب الثاني الذي عمّ الساحة، والذي سيأتي الحديث عنه في فصل لاحق، وتطوّع الكثيرون كشف الأسرار، وتشقــقت الجماعة، وتبرع البعض – عن قصد أو غير قصد- بتزويد المخابرات المحلية والعالمية بأدق المعلومات والخطط التي كانت الجماعة تسير عليه.

وأحيط علما وأقرره أن القرار كان مدروسا ولم يكن قرارا متعجِّلا كما ظن البعض، بل بالعكس كانت فكرة قد نمت فنضجت ، ثم تطورت خلال دراستها المتعاقبة وتأملات الإخوة الطويلة ، كثمرة لتفكير عميق نفاذ بعيد الغور، كما أخذت الجماعة التدابير الوقائية المحتملة والاجراءات المناسبة . فقدمت القيادة توصياتها لهؤلاء العساكر أن يحتسبوا ثقافتهم العسكرية، والجهد الشاق أو التضحيات الهائلة الذي قدموه لهذا العمل، وأن يتحولوا من جديد الى الثقافة المدنية، وأن يلتحقوا بالجامعات الإسلامية، ويتفقهوا مرة أخرى بالدين الإسلامي. نفذ الجميع القرار كما خطط له ولكن بعضهم لم يقتنعوا بالانسحاب، إذ قدموا صبرا وتضحيات هائلة للقضية ليس من السهل نسيانها، وبعضهم فسّر المقاصد على غير الحقيقة، ولفقوا القضية بما يسمونهم التكفير وخلافه، وبعضهم أدَّاهم الغضب والرفض لبحث حركات أخرى تعمل بمنهجية وطريقة تفكير مغايرة تفصح المجال للعسكري المتهوّر أو المتحمس المتسرع .

توسيع القاعدة (المنعطف الخاطئ)

عودة إلى الموضوع الأصلي في تاريخ اليقظة وبعد اعتقال بعض النشطاء وبعد خروج كوادر هامة من البلاد، وعدم الاستقرار، قررت شورى الجماعة إدخال أكبر عدد ممكن إلى الجماعة خوفا من الضياع والتشتت، بينما أعداد كبيرة من هؤلاء النشطاء كانوا مع التيار الجارف الذي كان يتحرك بتخطيط الجماعة بدون معرفتهم لما يجري في التنظيم، ومن أكبر الأشياء التي جعلت قرارنا خاطئا – حسب تقويمي– هو اتخاذ هذا القرار في وقت غير وقته، فاختل التناسب بين عدد الداخلين وعدد المربين المقيمين بمهمة التربية، فالذين بقوا في البلاد لم يكونوا كلهم مؤهلين لتربية كل هؤلاء الداخلين في الجماعة، إضافة إلى ذلك كانت السرية عقبة عن الاتصالات معهم.

وكان هذا الاجراء التوسعي سابقا لأوانه؛ لأن الساحة لم تكن مهيّأة لهذا العدد الضخم الذي لم يُعَد إعدادا جيِّدا، فأدّى ذلك إلى اهتزاز التناسب، فالداخل الجديد كان يحتاج إلى توجيه وتربية وإعداد لكي يتجانس مع النوعية المشكلة لقاعدة التجمع، وليتجانس مع المجموعة عند الاهتزاز، وهي شبيهة بقطف ثمار لم تنضج بعد، فلم تكن سائغة. والتوظيف الوا سع للعمل يؤدي دائما إلى عدم سيطرته لكثرة المشاغبين ولقلة المربين، ويؤدي في النهاية إلى التشرذم والانقسام، وهذا الذي حصل.

فجل الذين انضموا إلى الحركة في فترة «السبعينات» تأثروا سريعا بالعواصف الفكرية التي جاءت من وراء البحار ومن الخليج العربي ومن النجد المشهورة بالوهابية بصفة خاصة، وأصبحوا فيما بعد وكلاء لجماعات أو أحزاب إسلامية أخرى، متفرقين متشتتين متنازعين متلاعنين، وبدأت ردود أفعال لما

تطرحه مؤسسات الإفتاء والإعلام المحلية والعالمية من تشويهات، وهشة البناء لا تصمد أمام المواقف الصعبة واللحظات الحرجة.

ولو استقبلنا من أمرنا ما استدبرنا، لأجلنا ذلك التوسع الأفقي في هذه المرحلة الحرجة التي يخرج المربون كلهم كرها إلى الخارج، واتضح لنا الموضوع أكثر عندما قرأنا الحذر الشديد الذي أوصى به المفكر الإسلامي العظيم سيد قطب الذي قال: «يجب الحذر الشديد من التوسع الأفقي على حساب التربية السامية، وسيكون ضعف التربية مدعاة للانهيار السريع أمام أيِّ هزّة، فالتوسع الأفقي قبل قيام هذه القاعدة الواعية خطرٌ ماحق يهدر وجود أية حركة » إ هـ . ومثل ذلك حصل فعلا.

*****

حادثة مركز الارشاد في مركا

كانت من الحوادث الدعوية البارزة أو الكلمة القوية التي استحقت كما أرى التسجيل. بدأت الثورة تدريبات لشباب المدارس عسكريا وفكريا، وفتحت مراكز الإرشاد «غسيل المخ» التي سميناها في يومها «مراكز التضليل». تكررت المعاداة على الدين في المركز، وتهكموا كثيرا على المقدسات والشعائر كالصلاة والصيام وغيرها. واجتمع في هذا المركز الثانويات العامة في عام ١٩٧٢م من جميع المدارس في المناطق المحيطة بالعاصمة مقديشوا، والتي كانت قديما محافظة بنادر، كانت التدريبات العسكرية أثناء النهار، وفي الليل الارشاد حسب تعبير الاشتراكيين.

جاء «أحمد أشكر بوتان» أحد كوادر الشيوعية، وكان مندوبا عن وزارة التربية والتعليم، جاء ليلقي محاضرة عن « الاشتراكية » العلمية؛ فقدَّم للطبة رجلا كان معه لا أذكر اسمه الآن، كان يريد تعريفه للحاضرين. فقال: هل تعرفون هذا الرجل؟ إنه من شباب «أس واي أل» المناضلين للحرية التي نتمتع بها الآن، وهو من هؤلاء الذين يجب علينا أن نقع لهم ساجدين دائما. فهمهم وهمس الجميع منكرين مقالته!!. فقال: مستهزئا آسف كنت أظن أنكم تجاوزتم مرحلة الأديان، إنني أقصد بقولي السجود الاحترام.

كنا نقرأ دائما قوله تعالى ﴿ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ** إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ [النساء: ١٤٠] ، وإذا قابلتنا مثل هذا الاستهزاء – وكثيرا ما كنا نلقى مثلها–، كنا نقوم فجأة أو

نردُّه ردا عنيفا، هكذا تربينا. فقدمت نفسي إلغاء محاضرة دينية في هذا المركز في الليلة التالية، وقررت أن أردَّ فيها التهكم على الدين والعنهجية الظالمة والمتصاعدة في المركز، وكنا نحن المتدينين غضبانين من كثرة الاستهزاء على الدين وعلى الضغوطات التي كانت على أداء الصلوات المفروضة، كما قصدت لرد مقالة بوتان هذا الذي استهزأ بالدين، واعتبرها ماضٍ يجب التجاوز عنها. تزامنت المحاضرة في ليلتها مع محاضرة أخرى كان يحملها بوتان عن نفس العنوان السابق «الاشتراكية العلمية» محاضراته تلك كانت مملة غير مفهومة وغير مرغوبة عند الحاضرين لكنها كانت إجبارية.

جاء دوري ووقفت على المنصة ؛ فحمدت الله وأثنيته على ما هو أهل له، وصليت على الرسول ﷺ بخلاف عادة المحاضرين في المركز، قدّمت عبارات موجزة وبليغة ومؤثرة، ومما قلت فيها: إن الله سبحانه خالقنا وخالق الكون، وهو ربنا ورب السماوات والأرض، هو إلهنا وإلهكم، ونحن عبيده، ومن أضعف مخلوقاته وأفجره، بينما كان من المطلوب أن نكون عبيده المطيعين لننعم بغفرانه وجنته ورحمته.

قلت: آمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزل عليكم ولكم الجنة، واكفروا بكل طاغوت متجاوز عن الحدود مهما كان. فتطرقت إلى وضع مركز الإرشاد الذي كنا فيه، وما يدور فيه من تهكم على الله وعلى دينه من كفر وإجرام وإلحاد.

قلت: أخص الذكر بهؤلاء الضباط والعساكر الذين هم أشبه ما يكونون بالأبقار السِّمان أو الخشب المسنّدة، هؤلاء الذين تضخموا في زمن ساد فيه الأقزام، هم الذين اعتادوا أن يتهكموا على كل من أراد أن يسجد لله شاكرا، أو أراد أن يؤدي الصلوات الخمسة المفروضة على كل مسلم ومسلمة.

قالوا: لم نأت هنا للصلاة، وولّى زمن الأديان!، اعتادوا أن يحبوا حبوا لإنكار وجود الله سبحانه وتعالى.

وعبارة الحبوة كانت ذات دلالة زمنية، إذ صدر في تلك الأيام قوانين الاعدامات، وكان من بين بنودها: إعدام كل محاولة أو حبو على سرقة الأموال العامة. (Uguguurasho Xatooyo xoolo dadweyne waa dill)

فكنا نقصد إبلاغ رسالة بليغة على طريقة «رُبَّ تمليح أبلغ من تصريح» .

ثم بدأت أدعوا إلى الله سبحانه وإلى دينه وكتابه العزيز وشريعته الحكيمة، قرأت آيات من سورة النجم بدءا بقوله تعالى ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم: ٣٧] ، إلى آخر السورة، ترجمتها باللغة المحلية التي هي لغة القوم، وفي ذكر العذاب تهديد للقوم، كانت الهتافات المؤيدة والتصفيق المصاحب لها على أشدها، إذ قامت الجماهير الطلابية تصفق وتقوم وتصفر تأييدا للمقالة. قدمت نقدا حادا على لاشتراكية سميتها الشيوعية المغلفة، استهزأت بالملحدين والشيوعيين الشرقيين ومن والاهم من هذه الأمة الذين سميتهم بالأذناب والعملاء الحمقاء.

قلت: لعنة الله على من أنكر وجود الله، ثم قلت اسمعوا وعوا وبلِّغوا قياداتكم أيها الجواسيس، هنا الصومال بلد مسلم أرضا وشعبا، لن نقبل أن ترفعوا على أرضه أعلام الكفار ولا أفكارهم ولا عقائدهم، فهؤلاء هم الملعونون على لسان قائد البشرية محمد ﷺ ، وثبت من عنده أنهم أي الملحدين في نار جهنم خالدين مخلدين.

قلت لهم: إن اختيار هذا الطريق ليس إلا انتحارا سياسيا، عودوا إلى رشدكم أيها الجنرالات، وكونوا مع أهليكم فكرة وسياسة، وعليكم أن تعلموا أن ربكم ورب السماوات والأرض بالمرصاد،

وسيحاسبكم بأعمالكم، ولن تنفعكم الموسيقا ولا الزهور التي يضعون على قبوركم، فأنتم معذبون في الداخل إن لم تؤمنوا بالله وتتوبوا إليه سبحانه، وكلاما قويا شديدا حول هذا الموضوع.

قلت: في الليلة الماضية قام أمامكم أبو العينين أي الحيوان (وهي عبارة يستخدمها أهل الشمال للتحقير)، وهو يتبختر ويتكبر ولم يخرق الأرض ولم يبلغ الجبال طولا، وقال لكم أسجدوا للمخلوق!! فلما رأى إنكاركم بما قال. قال: آسف خاب ظني، كنت أظن أنكم تجاوزتم مرحلة الأديان، معنى كلامه تخلوا عن دينكم واكفروا بالله، يريد أن يتولى القيادة وفي طريقه إلى جهنم وبئس المصير.

افرضوا أننا قررنا إتباعه وتأليهه ماذا يملك؟ خلقه الله من ماء مهين، ولم يخلقه من معدن نفيس كالذهب والفضة، وأوجده سبحانه بعد أن لم يكن حينا من الدهر شيئا مذكورا، جاء الأرض كغيره عاريا ضعيفا لا يستطيع أن يمسك البول ولا الغائط، ثم ينكِّسه الله تعالى ونراه بعد سنين أضعف من الأول هرما خرفا، وآخره جيفة قذرة تأكله الدودة. ماذا يستطيع أن يقدم لنا حتى لو ألّهناه؟!. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤١]

قام الحشد بالتأييد والتصفيق، وأضاف النساء بالتصفير للتأييد، كانوا على مستوى عالٍ من التفاعل، وانطلقت تصفيقاتهم أجواء الفضاء، واهتزّت أرجاء المركز وتزلزلت بسبب التصفيق، بينما رددن البنات التصفير ترديدا جماعيا (Mashxarad) وكان الجمهور مضغوطا وفي غاية من الغليان بسبب النظام الشيوعي وأفكاره المرفوضة؛ فأصبحت المحاضرة تنفيسا، وأزعجت المحاضرة الشبيهة بالانقلاب

القيادات العسكرية والتعليمية والارشادية، وتحوّل الوضع جذريا، وانسحبت المحاضرة البساط من تحتهم، فالبيان قوة كبيرة قد تؤجج القلوب ، وترفع مستوى قابليتها وقدرتها على الفعل.

كانت المحاضرة هجوما ونقدا حادا على النظام، كأنها شواظ من نار، أردنا يومها أن نلجم بها الوحش الهيّاج، فمن القلوب القاسية من لا يصلح معه إلا اللهجة القاسية، مستخدما قاعدة «أنَّ الهجوم خير وسيلة للدفاع» وتزامنت في زمن لا يستطيع الشعراء أن يقولوا إلا إشارة وتلميحا، فازدادت الوحوش هيّاجا، وتحرّكت الكوادر والعساكر وترنمت وتآكلت، وتزاحموا على خلفي وردَّدوا ، أو قالوا: أوقف! كفاية! كفاية !. الكوادر كانت مجموعة من النشطاء والأدباء جمعت لنشر الاشتراكية، وكانوا يستخلصون من كل دورة من له فاعلية.

قلت لحظة: العلمانية بلا دين وتسعى لقتل الانسان، ولا تترك له الا التعاسة والقلق والحيرة، وتريد أن تحوِّل الانسان الى ذئب همه أن يفترس، ويغتنم من المادة ليشبع فمه وفرجه. كانت المحاضرة عبارة عن حرب ناعم بين كلمة الحق والباطل، فانتصرت كلمة الحق على الباطل وزهقته فاذا هو زاهق، وفعلا سُحِـق الجميع بعد أن مستهم صدمة عنيفة من الذعر والدهشة والحيرة. قلت: كفاية كما قالوا والحمد لله على الثبات.

وفي الأخير خنست الكلاب (الكوادر) وهدأت ثورتها وذلك بعد أن قدمت طلبا لمالكهم أن يلجمهم بلجامه، وقلت ألجم كلابك يا رب، وهكذا كان. وأخيرا قلت ولا يسعني إلا أن أشكر الجميع، والسلام على من اتبع الهدى.

ما ضرّ المنير نباح كلبٍ ولو كل الكلاب ينابحونا

استلم الميكرفون عبد الله حسن ، أصبح السفير الصومالي في الجامعة العربية فترة طويلة حتى وافته المنية في القاهرة ، متخرج من دار العلوم في مصر، كان هو القائد الثقافي في المركز، وكان يرى أنه في موقف حرج بسبب مسئولياته، كان يعرفني وقد درّسنا الأدب العربي من قبل. قال: أخطأ الطالب عبد القادر وافترى بخطبته وتهييجه للشباب، وأحيطكم علما أن الآيات القرآنية التي استدلها كلها نزلت في الكفار ولم تنزل علينا نحن المسلمين، وأما أنتم أيها الحاضرون فقد أخطأتم بتأييده والتصفيق له ولن نسكت عن هذا التحدي.

ثم قام مدير العساكر الجنرال (Sanbaloolshe) الذي صعق في الخطبة، وكان شخصية سطحية عسكرية قليل الثقافة، مخلص للغباء العسكري، أراد أن يؤيد موقف عبدالله حسن فقال: لا علم لي، لكن حسب استماعي (Saan cilmi dhagoodka ku hayo) وهي عبارة يستخدمها الجُهال دائما، قال: أخطأ هذا الطالب (عبد القادر) فضحك الحاضرون بجهله، فتوعّد وعيدا مخيفا، ثم قال أعلم أن عبد القادر هذا أقل علما من عبد الله حسن، وقال إن الحكومة إسلامية تعرف دينها والرئيس مسلم يحب الإسلام، وكنت أفكِّر البارحة أن أبني مسجدا للصلاة هناك، فضحك الجميع واستهزأوا به؛ لأنهم كانوا يعلمون أنه أول من يعلم أنَّ كلامه كله هراء. على كل حال أصبح الجنرال ضئيل بجانب هذا العزم الخارق المستمد من قوة الإيمان، وكنا نرى أن الحق انتصر، والنصر لا يكون ماديا فحسب، بل قد يكون من النصر المعنوي ما يزلزل أشدَّ الناس طغيانا.

لكنه في الأخير قرر وقال بصوت عال «بعد اليوم الصلاة مسموحة لمن يريد أن يؤديها – وإن كنا نعلم أن قليلا منكم يؤدي الصلاة– ، ولن نقبل في هذا المركز الاستهزاء بالدين ولا التهكم على الشعائر الإسلامية» كان ذلك نصرا للدورة إذ خاف الكوادر وتقهقر كثيرون بسببه حتى نهايتها.

فالبلاغ هو أقوى السلاح لأنه يخاطب العقل البشري وكينونته، فلم تكن الكلمة يوما من الأيام هي أضعف المواقف وإنما هي كانت دائما أقواها، خاصة إذا نجح الخطيب وضع اليد على الجرح، فكان تبليغ الرسالة بالكلمة والاقناع بالحكمة والمنطق؛ لأنَّ الإنسان مميّز بالنطق ومفضل بالتأثير، ولهذا أصبحت كلمة الحق أمام سلطان جائر أفضل الجهاد؛ لأنها قد تؤدي بصاحبها إلى الذبح. وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم «سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ» رواه البخاري. فالحق دائما هو الأقوى والمؤمن قويٌ من الداخل، وحين ندرك أننا أقوياء من الداخل نستطيع فهم الواقع، وحين نفهم سنستطيع المواجهة، وحين تكون المواجهة ذكية وعلمية ومدروسة ستكون محمودة العواقب مضمونة النتائج.

فقام بوتان وهو يريد كالعادة إلقاء محاضرته عن الاشتراكية العلمية، تكلم عن اشتراكيته المملة، فلم يستمع إليه أحد، وكثرت الهمسات وانشغل الجميع بتعليق الأحاديث التي وردت في الخطبة، والتعليقات التي قالها المسئولون بعدها، قال من خلال خطبته أن الاشتراكية هي خلق إنسان اشتراكي، فعلّق بسرعة وقال: لا يظن عبد القادر أننا نقصد بخلق البشر، ولكننا نقصد بتربية الأفراد كي يصبحوا اشتراكيين فضحك الجميع ضحكا مبكيا.

وكانت الهزيمة واضحة في كل تصرفات المسئولين على المركز الارشادي في تلك الليلة، ثمّ اشتدّ غيظهم وكان ردُّ فعلهم عنيفا. أخيرا استلم المكروفون السيد عبد الله حسن مرة أخرى منزعجا عن تصرفات الطلبة حيال المحاضرة التي كان يقدمها بوتان، وكان الرجل مثقفا عالما وبطبعه حبابا بسُّوما رقيقا يجيِّد مهارة الابتسامة، لكنه هنا مثَل دورا فظا مثيرا حساسا تنطلق منه الشرارة.

قال: لقد ســاءت أخلاقكم، وساءت أخلاق البنات أكثر، ولهذا استحقن العقاب بأن لا نسمح لهن النوم في هذه الليلة، الليل كله عقاب بالنسبة لهنّ، قالها بأسلوب حادّ فيه تعنيف. وأخيرا قال: أما أنتم أيها الأولاد فلستم أفضل أخلاقا من البنات ولكننا نقصد ب (weysha gowrac dibigu haku quus qaatee)

فقام العساكر والمدرسون والكوادر، يضربون البنات بالعصي، ويعاقبون بالجري حتى أغمي على كثير من البنات، واضطروا إلى إرسال طلبات إلى سيارات الاسعاف من المستشفيات الكبرى في مقديشو البعيدة عن المركز ب (١٠٠كم)، ونقل كثير منهنَّ إلى تلك المستشفيات، وصل الخبر المزعج إلى مقديشو، وأصبح الخبر المتداول وحديث الناس، واعتبر الجميع هذه المحاضرة معركة بين الحق والباطل.

وأخيرا جاء الجنرال المذكور وزارنا في قسمنا وطلب من العسكري الذي أمامنا أن يكتب عني التقرير فقال إنه شخصية مثالية في العمل وهو فاجأنا في خطبته، ولا يمكن أن يوجد فيه ما يعكر الصف. ثم جمع الجنرال الحشد قبيل المغرب وكان يتكلم عمّا حدث في الليلة الماضية، وقال نحن نتكلم والذي يريد أن يؤدي فريضة الصلاة فليذهب مع أننا نعتقد أن عدد المصلين لا يتجاوزون أصابع اليد، فخرج الناس بلا استثناء، وبقي وحيدا فريدا مهزوما.

زيارة تفقدية في هرجيسة

زار الأخ عبد القادر شيخ محمود عام ١٩٧٤م حركة الوحدة في هرجيسة، كانت زيارة تفقدية لتوثيق الرابطة بين النشاطين الشمالي والجنوبي وتكامل دورهما في التربية والدعوة والتعليم وتعميق التواصل، وتمتين العلاقة بينهما، ولم نكن نعتقد أنهما حركتين مختلفتين، بل كل واحد منا كان يعتقد أنه زار إخوانه، ويحلل المواضيع مباشرة، ويباشر المشاورة.

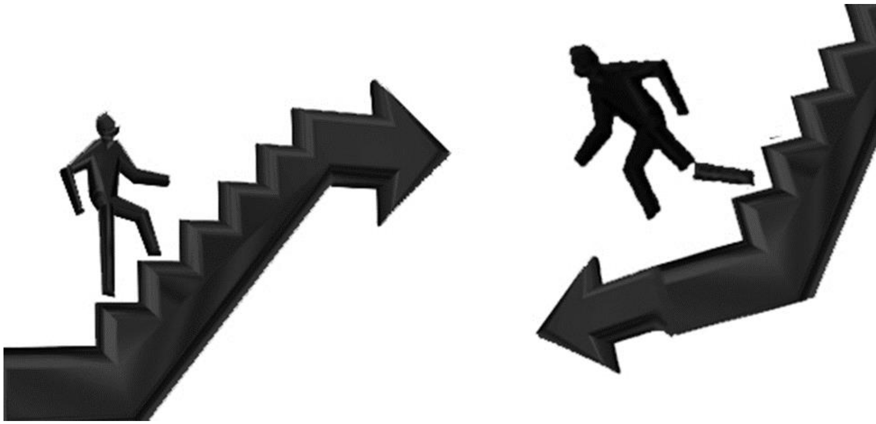
سأل إنتاجاتهم فأعطوه وثيقة كتبت فيها مبادئ الحركة؛ فقرأها ووضعها جانبا، ثم قال: إن هذه الأفكار مكتوبة في ورقة، ولا يمكن إنقاذ العالم بوثيقة، ولكن يمكن إنقاذه بعقيدة عميقة وأفعال سديدة وأعمال رشيدة. فما هي الانتاجات الحقيقية لدى الجماعة حتى نقيِّم العمل على حقيقته؟، ولم تكن الجماعة في مقديشو تستخدم المكتوبات، ولا الشعائر المسجلة، كان العمل كله يجري بالأفعال المحسوسة.

ومن نتائج هذه الزيارة أن أقنع الأخ عبد القادر الإخوة في هرجيسة أن يتخلوا عن المركز، وأن العلَم الذي يرفرف فوق المركز لا قيمة له في هذ الجو العدائي، وأن يحوِّلوا عملهم الإسلامي إلى البيوت وإلى المساجد وإلى مراكز خاصة، بمعنى تحويل التخطيط إلى الخفاء على طريقة الجماعة في الجنوب التي جرَّبت ونجحت،. بعد فترة من هذه الزيارة زار الكاتب هرجيسة بعد رجوعه من السعودية، وكان العمل الإسلامي كله على نسق واحد، وتزامنت زيارته في لقاء سنوي للجماعة، حضر هذا المؤتمر عام ١٩٧٥م، وكانت المحاضرة المخصصة لهذا العام عبارة عن تلخيص جيد من كتاب المعالم لسيد قطب، وكانت محاضرة قوية التعابير شديدة التأثير. وفي جلسات خاصة كان التعليق الذي قدمته للأخوة أن يبتعدوا عن المنبهات كالقات وتقليل القهوة والشاهي، وذلك كان بعد علمي أن أحدا من قيادات الاخوة في

هرجيسة كان يتعاطى القات، علما أن القات لم يكن مذموما عند الناس بل كان يعتقد البعض أنه مقيد للطاعة ، فتمثل النصيحة ووقف أكل القات فورا.

*****

الاضطرابات الداخلية



الاضطرابات الداخلية

إنني مضطر أن أقدم اعتذاري للقارئ الكريم الذي صاحبني في الرحلة الجميلة، فلما تذوّق الأنوار وأحب الرحلة، أفاجئه بفتـنة مُـرَّةٍ وأليـمة ومـفرقة، تابعَ القارئ معي في رحلة الحبِّ والروحانية والجهد والفداء، فلما عاش معي فترة في المثل العليا، فها أنا أفاجئه بفلم مفزع مؤلم مؤذٍ مضطرب، وهي الفتنة الداخلية التي هي من أصعب الفتن ، لأن عوامل الانحدار أقوى من عوامل الارتقاء في الأمم .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٠]

أرجو من القارئ أن يشرب معي ملعقة من العلقم سنحاول تخفيف مرارتها فيما بعد، ونستخدم المثل البوذي القديم «دع المريض يشعر بحبه للدواء وإن كان مرّ المذاق» كما أطلب منه أن يبلع هذا العلقم ويصبر ويقتحم معي العقبة؛ فلا يبكي بكاء الأطفال إذا جرعت الدواء المر، فإذا رضي مصاحبتي في هذه الرحلة الشاقة، أعده أنه سوف يتقيأ سمومها، ويرجع معي سالما معافى بإذن الله، وقد استـفاد كثيرا، ولحكمة يعلمه الله خلق العسل وبجانبه الصِّبر أو الحنظلة.

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله   لن تبلغ المجد حتى تلعق الصِّبْرَ (١)

الصِّبْرُ يوجد إن باء له كُسِرتْ   لكنه بسكون الباء مفقود

فالصِّبر مرٌ مثل اسمه لكن حلاوته أحلى من العسل، فإن صبر الشخص على مشقة قليلا تحولت إلى لذة.

أدعوك أيها القارئ الكريم، أن توتـر أعصابك معي قليلا، لنتعلم معا، كيف نلجم أنفسنا عند

(١) الصِّبر دواء مرُّ المذاق يضرب المثل بشدة مرارته

الاضطراب؛ لأن الناجح في الامتحان عند الفتن هو الذي يحفظ عقله وقلبه من الاضطراب، وإذا توقف الاضطراب زال الاكتئاب.

فالضغوطات مهمة جدا لشحذ الهمم، والتوترات تجعلنا أكثر انتباها للمهمات، وأكثر حفاظا على المشاريع، وذلك إن لم نستسلم وننهـزم أمامه؛ فقد كانت هذه المرحلة في تاريخ الحركة مرحلة «اختبار» و «ابتلاء» ، وكان من المفروض تجاوزها بنجاح، وذلك النجاح أو التجاوز كان يؤهلها للنصر والتمكين، ومثله درسٌ شاق؛ لكنه مفيدٌ للحركات الفاعلة، وقد كانت تلك التجربة عسيرة للأفراد والجماعات، توجب على الجماعات أن يحسبوا لها دائما ألف حساب. فقد تجاوز الأنبياء بصعوبة بعد ابتلائهم بأشد من ذلك، والتاريخ أو السيرة مليئة بمثل هذه الاضطرابات المؤلمة ولكن تجاوزوها بنجاح، وهذه هي الحياة، الكدح والابتلاء والامتحان الشاق، وأفضل مثال ما ابتلاه الله به على إبراهيم عليه السلام فتجاوز الابتلاءات بنجاح منقطع النظير، فاستحق وسام الإمامة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة:]

*****

معروضات في سوق الأفكار

قبل التجوال في سوق الأفكار، يجب أن نحيط علما، أنه أخطر أسواق المنتجات، وأكثرها تقبلا للتزييف والافساد. والعالم الإسلامي أصبح في القرنين الماضيين – ولا يزال– هدفا ثمينا؛ فهو لا ينتج الأفكار ولكنه يستهلكها، وتنجح فيه المؤامرات بدون مقاومة تذكر، بل تصدِّر إليه «النفايات الفكرية» كما شاعت في هذه المنطقة «قراصنة الأفكار» أو «الأخبار» وتعددت وسائل صناعة الأفكار ومنابعها؛ فأصبحوا يصنعون أذهان الساسة أولا، ثمّ بدأوا يتدرجون إلى الشعوب عن طريق الاعلام، فزادت عند الجميع شهية «الفكر الوارد» أو «الأخبار الساخنة»، بينما كثيرا ما كان المسلم الأول يجد أسلافه من نضج في التفكير وتعقل في وزن الأمور .

وكذلك لا ينتج العالم الإسلامي «الصناعة» ولكنه يستهلكها أيضا أو بتعبير آخر يستورد كل ما يستهلك، فتصدَّر إليه جميع أنواع نفايات المصنوعات التي صنعها أعداؤها. ومن أبشع ما قرأت من تلك المصنوعات المستوردة على سبيل المثال، هي التي كانت تجمِّع بين جثث الكِلاب واسقاط الخنازير وفضلات الحيوانات على اختلاف أنواعها في خليط واحد، يسحق ثم يعالج بضروب من المعاملات الكيماوية ومزيج من نكهة اللحم، تنتهي إلى الأنواع المشهورة من المارغرين والزبدة واللحوم المبردة، وإن معظم هذا النتاج الشيطاني يصدِّر إلى بلاد المسلمين الذين ألفوا هذا النوع من الخداع الصليبي والصهيوني، كما يقول الشيخ محمد المجذوب في احدى كتبه. وهكذا صناعة الأفكار، ومن خطورة مؤامرات الأفكار أنها تمشي بخطوطٍ غير مرئية.

فعند الأمم أفكارا وآراء «عفوية» وتقاليد بيئية موروثة، ومن المفروض دراسة الأفكار التي يتلقاها الشخص من البيئة الجديدة باتجاهات الشك، حتى تتحقق له صحتها؛ لأن الأفكار المتواجدة في الأسواق تحتاج أن تلقى نظرة فاحصة للتعرف على جوانب الخطأ والصحة خاصة في العصور التي راجت فيه المذاهب وبضاعة الهوى.

أما الأفكار والأقوال التي تتعلق بالإهانة والاحتقار والهجاء؛ فعلى طالب الحق أن يواجهها بعين الشك والريبة ويفحص بشكل علمي، وإن أبحاث التشكيك والنقد فيها يعتبر من أسس البحث العلمي.

وكنا نجهل – وكانت نقطة ضعفنا- أن بعض أعضاء الحركة سوف يبهرون أمام الموجات الفكرية الخارجية خاصة فيما يتعلق بالأفكار الواردة من العالم الإسلامي أو الأفكار الخارجية التي علبت ووقعت فيها، حتى ولو كانت من صناعة البيئة أو صناعة البيئة الغربية ودسائسها، ولكن الذي حصل كان خلاف التوقع.

كان للبعض قابلية غير متوقعة للأفكار الأخرى، إذ كانوا مصابين بما يمكن أن نسميه ب «الرق الفكري»، ومن جانبنا لم تكن هناك «أزمة ثقة بيننا» بل كانت الثقة التي كانت بيننا أكثر من اللازم. وأخطر ما تكون الأفكار خاصة «الأفكار المنحرفة» والمفاهيم المغلوطة إذا تبنتها ودعت إليها ثم دعمتها سياسة دولة، والأخطر من ذلك إذا دعمت بنصوص دينية، فالسلاطين والملوك وأهل الجاه لهم هيبة في نفوس العامة تضعف معها القلوب، كما لأقوالهم ولأفكارهم هيبة تكسر حصون العقل المحكمة وأبوابه وتنفّذ إليه، وكثير منهم لقوّة تأثيرهم في كثير من النفوس يكتفون في إقرار ما يريدون من الأفكار

والأفعال بمدح الموافق ورفعه حتى يتبعه غيره؛ ليكون مثل منزلته من غير تهديد أو وعيد، وإذا أضيفت بتأييد الوحي أو وجدت قيلا من الشريعة يتضاعف التأثير ويسحر العقول .

وهكذا يرسم خريطة الأفكار في الأذهان وتباع الأقوال ويشترى الأفكار بلا عقود، فأفعال الملوك والكبراء هي من أعظم أسباب سرعة انتشار الخطأ وترويجه، ولهذا السبب أصبحت كلمة الحق أمام سلطان جائر أعظم جهاد. قال الرسول ﷺ «أَلَا وَأَكْبَرُ الْغَدْرِ غَدْرُ أَمِيرِ عَامَّةٍ، أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا مَهَابَةُ النَّاسِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْحَقِّ إِذَا عَلِمَهُ، أَلَا إِنَّ **أَفْضَلَ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**» رواه النسائي

وعلمنا فيما بعد أن للتغرب ضررا كبيرا على العقل والفكر، ومن مضار التغرب والخروج المفاجئ من البلد الأصلي، أن ينتج المواطن المرتزق الذي يجوب الأرض للعمل تحت أيِّ لواء، قابلا بالإهانة، مانحا الولاء لكل جهة. ولذلك الحق مع أولئك العلماء الذين يدعون دائما العودة إلى الأرض الأصلي وهجر (الدياسبرو) بكل مساوئها، بينما نرى (الدياسبرو) هؤلاء هم الذين يقودون الأفكار والمؤتمرات في كثير من البلاد الإسلامية حتى المؤتمرات والندوات الدينية.

كان العمل الحركي يتناول من قبـل بالانسجام التام بمعناه الصحيح والسليم للجماعة، فالجماعة هي عبارة عن كيان اجتماعي شبيه بكيان الجسد، ويتكون من عناصر تتحد حسب نسب معينة، وتفرز تركيـبا معينا يمثل حالة الصحة التي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى، وهكذا كانت الحركة تتمتع في زمن عافيتها اعاده الله لنا. أما إذا اضطربت نسب هذا التركيب ارتفاعا وهبوطا، دخلت الجماعة حالة المرض الذي يهدد سلامتها وعافيتها وانسجامها.

كانت الجماعة لا ترى بأسا بالتحاق الجماعات الإسلامية الأخرى بدون استثناء، بل كانت توصي أتباعها المسافرين إلى الخارج أن يلتحقوا وينضموا إلى أيِّ عمل إسلامي كانت تقول ذلك لسلامة قلبها.

كنا نفضّل في وقتها التوجُّهات الإخوانية لقوة أفكارها ووضوح وعيها على حسب ما تلقينا من كتب قادتها ومفكريها، رغم أننا لم تكن لنا علاقة مباشرة معهم؛ فقد استـقيـنا معلومات كثيرة من كتبهم ومنشوراتهم القديمة، وانها كانت الحركة المؤثرة في زماننا ذاك، وكان يطلق على أيِّ عمل إسلامي مؤثر أنه من نتائج أو تأثيرات الحركة الإخوانية التي انتشرت في القرن العشرين، ولم تكن في بدايتها على صورة حركة ملكية بمفهوم الحركة في زماننا هذا، بل كانت يومها عملا إسلاميا تجديديا عاما، يتعلق بالإسلام كدين وليس كفرقة من الفرق، ولا كمذهب من المذاهب، وذلك قبل تشققها في سجون طغاة مصر العربية، وبعد ذلك التشقق أخذت الحركات كلها منحا آخر ومسميات أخرى مغايرة تماما، فلا الحركة الإخوانية المعروفة الآن لازمت وضعها الأول ولا غيرها، وإذا اختلف الناس وتفرّقوا كان من الأفضل أن يلغوا المصطلح المشترك القديم، وتؤسس كل فئة بمصطلحها الخاص، وهذا أقرب إلى الحقيقة؛ لأن أفكار المصطلح الأول تقاسم بين الفئات المتفرقة وزادت كل فئة بآراء وأفعال من عندها.

*****

المرحلة الأولى من الاضطراب

بدأت المرحلة الأولى في جدة مع الأخوين الطالبين في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة «علي أحمد أبوبكر»، والأخ «محمد يوسف عبد» كان الأسماء في وقتها بلا ألقاب، لكن الأخوين حائزين الآن شهادة الدكتوراه. الأخ (علي) رئيس جامعة مقديشو حاليا، كان زميلي وصديقي في «حمر الثانوية» علاقتنا كانت رحبة، وكان طالبا متـفوِّقا ومهتما في الدراسة، ذو ميول إسلامي، لم يكن يعرف شيئا عن الحركة الشبابية المذكورة التي كنت من روادها، بمعنى لم يشترك في أنشطتها، لكنه كان يتابع العمل الإسلامي العام ومتعاطف معه، وكان يعلق على محاضراتي في الفصل، وكان ذا إطلاع ثقافي جيد. أما الأخ (محمد يوسف) فقد عرفته لأول مرة في أول لقاء في جدة عام ١٩٧٥م، مع بعض إخواننا الذين رتبوا لنا اللقاء.

كانت الحركة كما قلنا سابقا توصي أتباعها المسافرين إلى الخارج بالانضمام إلى أيِّ عمل إسلامي يراه مناسبا ليفيد أو يستفيد تنفيذا لقوله تعالى ﴿ **وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾** ﴾ [المائدة: ٢]، كان الشرط الوحيد الذي كنا نشترط الأعضاء به عند التحاقهم الجماعات الأخرى، أن لا يكشفوا أسرار الجماعة أمام أصحابه الجدد؛ إلا باستشارة القيادة في البلاد، كنا لا نتوقع من التجمعات الإسلامية إلا خيرا، وكنا نرى أن العمل الإسلامي يصبُّ كله في غاية واحدة، وأن المسلمين أمة من دون الناس يسعى لذمتهم أدناهم.

في هذ اللقاء أخبرني الإخوة، أنهم أسسوا حركة إسلامية صومالية إخوانية التوجه، تابعة للإخوان الدولي – حسب تعبيرهم– وأنهم استطاعوا جمع إحدى عشر عضوا في التجمع الجديد، طلبوا مني أن أكون العضو الثاني عشر في هذه الجماعة. قالوا: ما دمنا كنا نعلم نشاطك الدعوي القديم في البلاد –والكلام ل (على أحمد زميلي في المدرسة)– قررنا أن تنضم إلينا لنتعاون على الدعوة.

كنا نعلم هذا النشاط مسبقا لأن بعض الأعضاء من جماعتنا الأصلية انضموا إليهم، فكانت الإجابة المنسقة مسبقا مع بعض الإخوة الذين كانوا في المجموعة كالأخ حسين على د يرشى. فقلت: أحيطكم علما أننا كنا على اتصال بعضكم من قبل، وأننا في الحركة الكبيرة التي سمعتم أنشطتها المتنوعة الهائلة في البلاد، وكنا على علم باجتماعاتكم، وعدد أعضائكم، وأن ستة من هؤلاء الأعضاء المنضمين إليكم كانوا – ومازالوا– أعضاء أصليين في تلك الحركة، إذن أنتم في شباك حركة كبيرة، لكنها شبكة خير، ولا خوف على هذه الشبكة، فالغاية واحدة والهدف واحد. ﴿ **إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾** ﴾.

قلت لهما: بعد المتابعة نحن أيضا كجماعة قررنا أن نتعاون على الدعوة، لكننا وجدنا حتى الآن تزكية ثلاثة منكم محمد وعلى وأحمد رشيد حنفي في السودان، وذلك على حسب نظام الجماعة في قبول التزكية؛ فالجماعة ترجو منكم أن تنضموا الى تلك الجماعة الأصلية بدل تأسيس حركة جديدة، علما أن الجماعة في حاجة إليكم.

قلنا: أما بالنسبة الأخوين الباقيين فسينضمون إلى الجماعة بعد التحاقكم عن طريق تزكياتكم لهما فيما بعد، إذ لا تعقيد عندنا في التز كيات، وما ذلك إلا لأننا لم نستكمل مواصفاتهم بعد، واحتراما لنظام الجماعة وتعليماتها فقط لا غير.

كان الخبر بالنسبة لهما مفاجأة غير متوقعة؛ فالأخوين كما ذكرا لنا التقيا بأعضاء من جماعة الإخوان المسلمين، ولعل فكرة إنشاء جماعة صومالية تابعة للإخوان الدولي جاءت باقتراحهم، فقد قالا لنا أنهما التقيا بعض قياداتها في الأردن وفي الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة التي كانت قلعة إخوانية كبيرة.

ومن جانبنا كنا لا نستسيغ عبارة «الإخوان الدولي» الذي هو اسم فضفاض وجديد بالنسبة لنا، فنحن على علم أنه ليس هناك دول إخوانية تجمّعت في حلف كي نسميهم «دولي» وكنا نستغرب هذا المصطلح، كما كنا لا نحبذ شعارات الدعوة المدعومة بالتعابير السياسية؛ لأننا كنا على السليقة، كما كنا نشعر أن الأنشطة الدولية العلنية معرّضة للتجسس من القوى العالمية المعادية؛ فكنا نتساءل هل هذا المصطلح له حقيقة أم هو خداع شاع بعد التشقق، ونحن من جانبنا اعتدنا تقديم الأعمال هكذا بالصمود والصموت، خاصة ونحن أخذنا تدريباتنا في المرحلة السرية التي تذوقنا بها وتدربنا فيها، لكن علمنا فيما بعد أن هذا المصطلح هو عبارة عن منافسة بالحركات التي تشققت بالأفكار؛ فكان سرعة سيطرت المتأثرين بالحركة الاخوانية القديمة في العالم الإسلامي والتملك بسمعتها كانت تتطلب مثل ذلك الاسم الفضفاض.

رفضوا الانضمام إلى الجماعة إلا إذا وافقناهم جميعا، ومع أننا كنا نشاركهم في معقولية طلبهم، إلا أننا أردنا أن لا يعـقِدا الموضوع إلى هذا الحد، فستة منهم كانوا في الحركة، وإذا قبلوا الانضمام هم الثلاثة لم

يبق إلا اثنان، وأننا كنا على يقين أنهما سينضمان إلينا أيضا عن تزكيتهم بعد الانضمام، فلا تعقيد عند الجماعة في التز كيات، ولكننا كنا نحترم فقط تعليمات حركية. لكن رفضهما القاطع أعطانا تصورا أن الأخوين لا يقبلان الانضمام إلا على مزج الجماعتين لتصبح النتيجة «تقاسم السلطة» وتلك كانت نظرية غير مرغوبة لدينا، وكان الأخ محمد يوسف عبد شديدا كان يمثل في الجلسات موقف «المفاوض المتشدد» أو يلعب مثل هذا الدور. وكأننا مفاوضات دولية في إيجاد حل لمشكلة شبيهة مشكلة الشرق الأوسط المعقدة.

فأصبحنا مضطرين إلى أن نوجّل الموضوع إلى ما بعد المشاورة مع القيادة في الصومال، ولكن الذي حدث أن حوارا ساخنا دار بيننا، أشعرنا الحديث أن الأخوين يتكلمان من عل لا مبرر له، فقد رددا أن العمل الإسلامي سينطلق إلى قفزة غير متوقعة بعد انضمامهم إلى الحركة، لم نتعود على سماع مثل هذه العبارات الفضفاضة التي كنا نعتبرها فخرا.

كان الواحد منا يعمل ويقدم كل جهده بدون ذكر شيء من جهده، وكنا نتصوّر أن العمل والإخلاص سينتجان العجائب، وكنا ننطلق من قاعدة «دع العمل يكبر بمفرده» بل كنا نعتقد أننا نقدم خدماتنا لله وخوفا من مسئولياتنا أمام الله. ثم لم يكن فينا عقدة الاعتماد على الحركات الأخرى، هذه الفكرة التي أصبحت بلية عند كثير من الصوماليين فيما بعد، والتي أهملت تماما «ثقافة الداخل» و«التضامن الداخلي» فمع وجود علماء أجلاء أكفاء مؤهلين يكفي فخرا واعتزازا، شاعت عند البعض أن يرفع الفتوى الفقهية السهلة أو الحركية إلى شخص آخر في البلاد العربية الأخرى، وهو بعيد عن الواقع؛ لأنه

لا يرى فضلا ولا علما إلا لهذا الشخص، ولا يتكلم السلفي مثلا العالِـم الصومالي إلا لتلقينه دروس العقيدة الصحيحة وانتقاد حاد كل شيء.

سافرت إلى مقديشوا وأنا خجول ومحموم ومجروح بالحوار الساخن الذي وقع على شكل جدل؛ لأني كمسئول كنت السبب في هذا النزاع والجدال الداخلي الذي لم نر مثله من قبل، والذي ترك في الأنفس آلاما نفسية لا تطاق، نزلت في مقديشوا في حال أصبح كثير من الإخوة وراء القطبان بالتهم المضللة ك «حركة عميلة للإمبريالية» وأن كثيرين من الإخوة مطاردين من المخابرات، وأن رئيس الجماعة والنشطاء مطلوب القبض عليهم ومختفين عن الأنظار، وذلك بعد اعتقال الشيخ محمد معلم المفسر الكبير وكثير من نشطاء الحركة وروادها.

في هذا الجو المشحون والمطاردة المستمرة، والمحنة الإسلامية على أشدها، والزهو الفاجر في منتهاه، تنفيذا للقرار الاستعماري «تهجير العقول الذكية» من بلادها الإسلامية. كنا مضطرين بتحويل القضية إلى شورى الجماعة. بعد النقاش صدر قرار قبول الإخوة الخمسة في الجماعة، لنتجاوز المحنة والجدل التي سبّبت القضية، إذ لم يكن لدينا وقت كاف لمناقشة المسألة، فنحن مطاردون والمحللون في الخفاء، وحتى القائد كان في مخبئه، وقبلت القرار على مضض.

كان المسئول الأول أدى دوره القيادي في الحركة، وكانت الظروف تجبرنا لتغييره، وكان منصب القيادة شاغرا عندنا نبحث له القائد الكفء، إذ استنفذنا زمن قيادة الأخ عبد القادر شيخ حتى أصبح الشبح المخيف لدى القيادة العسكرية في البلاد، وكنا نريد أن نزيحه عن العيون، ويكمل دراسته الجامعية في أيِّ

مكان نائي في العالم. وكان الأخ عبد القادر شيخ يقترح للقيادة أحد الرجلين «على ومحمد» لسد الفراغ حسب المعلومات الأولية التي وصلت إليه من قِـبَل بعض الإخوة الذين اشتركوا معهما في التجمع.

علمناهم قرارنا الذي يعني قبولهم في الجماعة، وصل الخبر الي المجموعة الجديدة بقبول عضوية الخمسة للجماعة عن طريق الاخوة فرع جدة بقيادة عبد الرحمن أحمد نور ، وذلك قبل رجوعي من مقديشو، ولكنهم من جانبهم لم يقبلا فعليا القرار ولم يرفضاه أيضا، ونحن من جانبنا اعتبرناهما عضوين لهما الحق في لقاء الإخوة، ومناقشة القضايا المصيرية.

بعد رجوعي من مقديشو، قابلت الأخوين، وقالا لي: إنهما أرسلا مندوبا إلى الصومال لتقصي الحقائق، هو الأخ «احمد رشيد حنفي» وأفادهم بتقارير هامة منها أنه التقى أيضا بحركة إسلامية أخرى فعّالة في البلاد، إخوانية التوجه هي «النهضة» ونحن نطلب الآن ومن جديد توحيد الحركتين الشباب والنهضة توحيدا للعمل الإسلامي.

استمعت إلى الاقتراح بانزعاج شديد!، وقلت سبحان الله!! إلى متى هذ النزاع، دوّامة وجدل لانهاية له، مع أننا في أزمة مع الحكومة، قلت أمرُنا لله!!. انتظرت حتى مجيء الأخ أحمد رشيد الذي كان يتعامل معنا بأريحية، سألته شخصيا هل صحيح أنك رأيت حركة أخرى إخوانية التوجُّـه فعّالة في الصومال اسمها «النهضة» قال: لا، لم أقل ذلك، بل قلت لأصدقائي أوقفوا الجدل، وتعاملوا مع العمل الحقيقي، هذه هي الحركة الوحيدة التي رأيت أنشطتها في البلاد، وفعلا هو تجوَّل في داخل الحركة وتزوَّج منها.

من الطبيعي أن نسجل مقولة الأخوين كذبة بيضاء غير مبررة، لا تليق لمسلم فضلا عن داعية، خاصة ونحن كنا نشعر أننا كدعاة مثاليين واستغرابنا كان شديدا جدا!، لكن الفكرة «الوحدة» والاعتصام

ذات التأثير السِّحري تأثر بها بعض الإخوة الذين بهّرهم المصطلح المثير «الإخوان الدولي» وتوحيد القوى الإسلامية أينما كانت، وبعض العبارات الأخرى الرائعة التي كانت متداولة عند الأخوين المذكورين، سحرت بعض الأفراد، كما كان لمصطلح الجامعة تأثيره عند البعض، وأثرا أو استمالا ثلاثة أو أربعة من الأعضاء الأصليين في الجماعة، وخاصة أن موضوع الوحدة هو موضوع عظيم وجذاب «سحري» لكن عندما يستخدمه شخص له نوايا أخرى أو لا يلتزم بالتزاماته ضرره يكون كبيرا إلى حد بعيد، على كل حال عملوا فينا «**هزة**» .

قلت لهما: في إحدى الجلسات أتعبتمونا!، وسنضطر بعد اليوم أن ندقق أكثر أصحاب الألقاب وكل من يدّعي العلم والجامعة والشهادة ؛ فالألقاب ضارة وصعبة، قلنا لهم كنا نعرف أعضاء النهضة كلهم في الستينات أكثر منكم، فهم كانوا أصدقاءنا، وكان يجمعنا همّ الدعوة، والحقيقة التي نحن نعلم أكثر منكم، أن حركة النهضة ليس لها وجود حركي، ولا ينبغي أن نشغل أنفسنا بالسراب، بل وذهبت مع حل الأحزاب في بداية الثورة، كان رئيس هذه الجمعية الشيخ عبد الغني أحمد، والشيخ محمد أحمد جريرى نائبا له، ولا وجود لهذه الحركة في البلاد، وهذه هي الحقيقة مهما كانت مرّة.

قالا: نحن على اتصال مع قائد الحركة الآن وهو «الشيخ محمد أحمد» في الرياض، وبما أننا كنا نعرفه وهو لدينا شخصية إسلامية معتبرة، وكان الكاتب يزوره في مكتبه بالرياض كخبير من خبراء الدعوة الإسلامية في إفريقيا، طلبنا لقاءه، تزامن ذلك مع وصول القائد «عبد القادر شيخ محمود» إلى جدة، جرى اللقاء في فندق البحر الأحمر، كان اللقاء مكونا من خمسة أشخاص: الأخ عبد القادر شيخ، وعلى

أحمد، ومحمد يوسف، والشيخ محمد أحمد ، وكان الكاتب من شهود هذا اللقاء. سألنا الشيخ محمد السؤال التالي:-

س. أن الأخوين علي ومحمد، أفادا أن حركة النهضة مازالت فاعلة في حقل الدعوة، وطلبا منا، توحيد الحركتين مع علمنا السابق بحل الحركة عند صدور قرار منع الأحزاب في بداية الانقلاب العسكري. سألناه أولا ما صحة هذا الخبر؟

الجواب. قال الشيخ هذا الخبر صحيح، والحركة ما زالت فاعلة في حقل الدعوة، ولها أعضاء في أماكن متعددة، ومن أعضائها بعض السفراء، وأنها حصلت تقارير حكومية هامة حتى قبل وصولها إلى الوزراء، وأنها كذا وكذا.

قابلنا الخبر بفتور شديد، وكنا في موقف حرج مع الشيخ، كان ظننا راجحا أن الأمر يحتاج الى مراجعة أكثر، رغم احترامنا الشديد له واستحيائنا منه، أو لعل الأمر ربما فيه تهويل غير مبرر، أو لعلهم بدأوا ترميم الحركة من الخارج، لكننا كنا على يقين أن الحركة إن كان لها وجود فلا وجود لها في الداخل، إذ كنا نعرف أعضاءها وأشخاصها جميعا، وكان لنا علاقة لكل واحد منهم على حدة، وبما أن الشيخ لم يقل لنا في هذا اللقاء أن الحركة فاعلة في الداخل كما ذكرا الأخوين، إلا أننا اعتبرنا الشيخ يوافق خبرهما.

وكنا نتحفظ على الكبار من علماء النهضة لقبولهم أي منصب من الحكومات، وقد استغربنا من قبل قبول الشيخ عبد الغني منصب وزير العدالة في دولة ملحدة يقودها قادة عسكر ملحدة متهوِّرة، كنا نرى ربما تختلفون في بعض المسائل التي لا ينبغي الاختلاف فيها.

إن أمرا آخر معيق للاندماج مع الشيخ محمد بالذات كان حيا في ذلك الوقت، وهو الخبر الذي وجدناه من مصادرنا الخاصة، خلاصته: أن الشيخ تعاون مع المخابرات السعودية في مشروع التنصت بمكالمات الحكومة الصومالية الذي كان يمر سرا على تايوان، وهو الخطوط الأسيوية التي كان يستخدمها النظام العسكري الصومالي، أبعدوه عن المعارضة الصومالية التي كان لها مقر في أديس أبابا وأعضاء في جدة، والنظام السعودي الذي كانوا يعتبرونه عميلا للغرب الرأسمالي، وكما يبدو حكومة تايوان عرضت على السعودية تلك المكالمات إذا كانت مهتمة بها، وكان من الذين تولوا ترجمة الشيفرات الصومالية الغامضة وطلاسمها في المكالمات، المرحوم السيد «حرسي مجن» وكانت تصلنا تلك المعلومة عن طريقه بعلاقته معنا.

كنا نتصور أن الشيخ لعله يرى أنه لا بأس بالتعاون مع النظام السعودي المسلم الذي يحمي الحرمين الشريفين، وكأنّ حماية الحرمين تعطي الملك ومخابراته حرية مطلقة. وكنا نعلم أن وظائف الحكومات ربما لها ضغوطها والتزاماتها الأدبية، مع أن كل المسلمين وكثير من الصوماليين ونحن منهم، كانوا يرون خطورة تهوُّر النظام الصومالي والتحاقه بالكتلة الشرقية الشيوعية، لكن الكرم السعودي كان مربوطا دائما بمكافحة الشيوعية مع موالاة الرأسمالية ، وكنا ضد هذه العلاقة الشريرة، أو على الأقل أن نكون في حيادٍ كامل، وأيضا كنا نرى من جانبنا أيضا أن المخابرات السعودية، ليست إلا مخلبا من مخالب المخابرات الغربية التي أهمها، وكالة «سي أي إيه» السيئة السمعة والتي تضم أكبر مجموعات المواهب عمقا وتنويعا، وبسبب ارتباط الوكالة السرية السعودية أي المخابرات بالظاهرة الاستعمارية، ولم تقدم

يوما للإسلام أسرارا ذا أهمية لمصلحته، كما أنها تعادي كل من يذكر تطبيق الشريعة في البلدان الأخرى. وأن هذا النظام نفسه لا يسمح للمسلمين أن يتكتلوا من أجل أهدافهم النبيلة.

وكنا نكره تقديم خدمات مخابراتية لقوة غربية على حساب قوة أخرى شرقية، والدخول في الحرب الباردة التي كانت ساخنة في ذلك الزمن، وأنها مهزلة ضارة للدعاة إلى الإسلام أن يتيهوا في العمل مع القوتين العدوتين والمتعاونتين على الإسلام والمسلمين، وأنها ليست من مصلحة المسلمين الملتزمين، وكنا نكره للمسلم العمل في الخفاء مع الاستعمار تحت أيِّ مسمى. كما كنا نرى أن مثل هذه الأعمال لن تخلوا من طعنة عقيدة الولاء والبراء.

اكتسبنا هذه الرؤية من الجرعات الهائلة التي تلقيناها قديما من آيات الحكم في القرآن المدعومة بالقسم والحصر والحسم والتهديد الشديد اللهجة والنهي والتعجب، وموقفنا من الحكومة السعودية كان واضحا وبصفة خاصة «قسم المخابرات» كانت كل هذه رؤيتنا وثقافتنا الخاصة، ولم تكن فينا حسن النية التي كان يحملها الشيخ محمد وغيره من الدعاة للنظام السعودي ومخابراته.

توقفت الجلسة عند هذا الحد، ثم قدر الله بعد فترة وجيزة أن جاء الشيخ «عبد الله عمر نور» للعمرة، كان عضوا قديما بارزا في النهضة، وكنا نقدِّره أكثر من غيره، ونعتبره شخصية مخلصة متواضعة ومرنة لا يهاب أن يقول الحقيقة، كان من أوائل من تخرج من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، بل كان أول طالب رقم (واحد) في أول دفعة سجلت في الجامعة، ثم بعد التخرُّج أصبح أستاذا في معهد التضامن الإسلامي في مقديشو، واعتقل خلال النظام العسكري، علاقتنا به كانت جيدة كغيره من المهتمين بالعمل الإسلامي، كان لصيقا بنا أكثر، كثير التردد علينا هو والشيخ «محمد معلم حسن» وهما كانا

عضوين في النهضة، جاء يطالبنا نحن الاثنين أنا و عبد القادر شيخ بالانضمام إلى الجماعة الجديدة التي أسسوها باسم «الصومال الغربي» أو الجهاد في أوجادينيا، رجونا منه أن يعفو عنا هذه الحركة، وعلمناه ما جرى بيننا وبين الشيخ محمد أحمد. شعر الشيخ بالذعر واتسعت حدقتاه، فقال: غريب! ما تقولونه أشبه بأسطورة!، حركة النهضة ذهبت مع الريح، ولم يكن لها وجود من ذلك اليوم التي ألغيت بالقرار الحكومي، وملفاتها كلها كانت عندي.

قلنا له: لعل الحركة تحوّلت إلى السرية بعيدا عنك؟

قال: مستحيل !! ومن حوّل النهضة إلى السرية؟ وذكر عدد أعضائها ومصير كل واحد منهم. في النهاية قال: اعتبروا هذا الخبر خيالا!!

من ناحية أخرى مازال الأخوين علي ومحمد يعتبرهما الآخرون عضوين في الجماعة بسبب صدور قرار قبول عضويتهما سابقا. أما هما فكانا يعتبران أنفسهما أنهما غير ملتزمين في سلوك الحركة ونظامها، وأنهما استمالا بعض الأفراد، وأقنعوهما بوجهة نظرهما، فأصبحوا ممثلين لهما أو مندوبين عنهما، ومن جانبهم مصممين في توحيد الحركتين، ومازالا يحاولان إقناع الأعضاء الآخرين بالمنظمة المجهولة بالنسبة لنا.

تحوّل الحوار من المناقشات العلنية إلى الهمسات، وإلى الجيوب، وإلى تشويه السمعة، والأخبار من وراء النيات، وانتشر الكلام وبدأ ينتشر في الأنفس، وبدأت شائعات تزيد والكلام يزاد فيه وينقص، وأنَّ فلانا قال كذا ولم يقصد إلا كذا، وتفسير الأحاديث التي دارت في الجلسات، وتفسير الأقوال على المزاج، وكلاما كثيرا غير مفيد لا في الدنيا ولا في الآخرة، وتجريح سمعة القائد المحبوب لدى الجميع.

وفي النهاية دخلنا كلنا في متاهات لانهاية لها، وأنفقنا وقتا طويلا في تلك المباحثات مع الشابين المذكورين، ولأول مرة في تاريخ دعوتنا وجد الشيطان مدخلا في داخل الحركة يلعب فيها كأننا نراه. لم يكن لدينا شيئا آخر نشغل الشباب إذ كنا في فراغ وفي غربة. وقد ذمّ الله الجدال. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٨]

تحدثنا عن المحاولات التوحيدية التي دارت بين الجماعة والنهضة في ١٩٦٩م ، وأخبرناهم أننا كنا نحن الذين تراجعنا عن الوحدة، وكان من الأمور التي سبّبت التراجع أن جل أعضاء النهضة، كانوا يعملون في وزارة العدل التي يتفرع منه قسم القضاء، وهي الوزارة التي كانت تنفذ القوانين الغربية التي اعتبرناها قوانين كافرة ظالمة، وأننا رفضنا أن يقود الحركة من يرتزق من هذه المحاكم المشاقة للشريعة كي لا تهتز مصداقيتنا الدعوية التي تكـفِّر الطاغوت أي الحاكم بغير ما أنزل الله.

فقال الأخ على أحمد لا بأس بذلك، ويجوز العمل مع القضاء الذي يحكم بغير الشريعة، فقد كان المرشد العام للإخوان المسلمين الأستاذ الهضيبي مستشارا قانونيا، ومن الغريب أن الكلام العادي يتحوَّل إلى خلاف ونزاع!.

استغربنا الطرح إلى أبعد حد، وقلنا لهما: سمعنا أن الأستاذ الهضيبي كان مستشارا قانونيا سابقا، لكن أقوال وأفعال المستشار ليست سنة وليست بالضرورة أن تكون مطابقة للشريعة، وهذا دليل ضعيف، فالحركة ليست معصومة وقائد الحركة كذلك، ثم لا ندري هل الأستاذ لا يزال مستشارا قانونيا أم لا.

استغرب الأخوين الطرح، واعتبرونا طفيليات تتهم وتتحرش القيادات الكبرى للإخوان المسلمين الدوليين، وطال الحديث حول الأمر. قلنا: إذا كنتم مصممين على هذه الفكرة إلى هذه الدرجة؛ فسوف

تجعلوننا مضطرين إلى مراجعة مفاهيم الحركة الإخوانية اليوم بقيادة المستشار في هذه المسألة، وعلى كل حال لسنا ملزمين باتباع حركات الجماعة وسكناتها، ولكننا ننظر في كل الأمور على أساس رؤيتنا للنصوص. اعتبروا هذه الأفكار مغايرة لزعمنا أننا مع التوجهات الإخوانية.

لم يخرج هذين المصطلحين الدعائيين «التكفير والخوارج» حتى ذلك الوقت إلى النور، بل خرجا مهوّلين ومروّجين من مصر ومن الغرب، ثم صبّ الخليجيون البنزين فيما بعد، لكن هبوب عاصفته كانت قريبة جدا أو حاضرة لكننا لم نشعر، فقد بدأ ترويجه في الصحافة عام ١٩٧٦م الذي أطلق على عام «إرهاصات السلام» مع إسرائيل دفاعا عن العلمانية والمستسلمين لإسرائيل والغرب، وتزامنت عند تصفية الفئة المؤمنة التي أشهرتها الصحافة بالتكفير والهجرة، وفي هذا الزمن وبسبب السلام مع إسرائيل غيّرت كثير من المصطلحات في العالم، خاصة العالم العربي. راجع بالتفصيل كتابنا الرابع في هذه السلسلة «المصطلحات وحرب العقول» .

كان الحديث يدور حول اتهام قائد الإخوان «الهضيبي» بالمنهجية الخاطئة أو المضطربة، وكأنّ الأخوين يدافعان منا الحركة الإخوانية التي كنا نعتقد أننا منهم وهم منا، لم تصلنا تفاصيل أخبار تشقق الإخوان المسلمين في السجون حتى ذلك الوقت، ولم يكن لدينا أيّ علاقة مباشرة مع الحركة الإخوانية إلا ما قرأنا من الكتب التي كانت تطلق عليها كتب الإخوان المسلمين، أشهرها كتب حسن البنا وسيد قطب ومحمد قطب وعبد القادر عودة وغيرهم، وكتب أخرى مماثلة من الدعاة الهنود الذين شرحوا الإسلام على نفس النمط كالمودودي والندوي وغيرهم تلك الحركة الهندية «الجماعة الإسلامية» التي تعرفنا

بعضهم في جدة وحصل بيننا لقاءات بقيادة الدكتور «راو». فكانت علاقتنا مع الإخوان المسلمين فكرية وروحية فقط.

قلنا: لانتهم المستشار لكننا لا نستسيغ في عمل الإسلام مصطلح «المستشار القانوني» وإن كنا نعلم أنه يمثل في مصر مركزا اجتماعيا مرموقا، لكن القوانين الكافرة مرفوضة بالكتاب والسنة، ويجب أن ننطلق دائما من النصوص الدينية، وليس من سلوكيات وأفكار وألقاب الأفراد والجماعات التي تخطئ وتصيب.

فبدأت بيننا مناقشات غير مألوفة، وكنا نتكلم بسجيتنا وبفطرتنا الطبيعية، وعلمنا فيما بعد أن ما كنا نتكلم فيه كانت من الأمور التي طال النزاع عليها بين الجماعة الإخوانية وبسببها تشقـقت؛ فعلمنا أننا كنا في إفرازات الخلافات دون إدراك المغزى، ومن الخطورة بمكان أن تتألم بإفرازات حمّى شديدة التأثير وتجهل أسبابها، ومن ثم لا تعرف كيف تتصرف حيالها.

أصبح الحوار ساخنا، وكأنه أبدى اختلافا في التصور، وصوّرا النقاش كأنهما يريدان أن يفرضا علينا ما سموهما رؤية «الاخوان الدولي» التي تقبل القوانين والتي لم تكن واضحة لدينا ولا لديهم حتى تلك الساعة؛ فأصبح حوارنا حادّا وتصادميا أكثر، بإمكاننا أن نسمي الآن ما عرف بن المعتدلين والمتشددين أو بين المتشددين والمهادنين على حسب تفسير البعض.

والمعنى الذي نحن نريده لم يكن واضحا عند الاخوان في مراحلهم الأولى، كما وضح الأستاذ محمد قطب في كتابه كيف ندعو الناس، وقال: «أنشأ الامام حسن البناء عام ١٩٤٨م سلسلة مقالات بعنوان معركة المصحف، بيّن فيها بوضوح أنَّ أوضاع الأمة ليست إسلامية، وأنها لا تكون إسلامية إلا حين

تحكم شريعة الله دون غيرها من الشرائع. وهذا المعنى بهذا التحديد لم يكن واضحا في خط السير الدعوة الاخوانية الأولى، وكانت بداية مرحلة جديدة من الدعوة، ولكن هذه السلسلة توقفت بسبب قيام حرب فلسطين، ثم اغتيل الامام الشهيد في فبراير سنة ١٩٤٩ م قبل أن يستوعب أتباعه الاتجاه الجديد»

انتهى

*****

. كتاب (صفحات من التاريخ) لصلاح شادي

فلما خرج الكتاب المذكور أعلاه ثبت لدينا أن الأستاذ الهضيبي «المرشد» رحمه الله رحمة واسعة، لم يكن لديه رؤيا واضحة الفرق بين الإسلام كدين سماوي وبين القوانين المدنية والجنائية كما كانت واضحة لدي كثير من العلماء والمؤلفين المشهورين في الحركة الإسلامية، وكما كانت واضحة لدينا نحن في الصومال، لم تكن واضحة لديه حتى وهو في السجن مع أنه كان المرشد العام للإخوان المسلمين، أو كانت رؤيته في القوانين الجنائية سطحية وخاطئة بل غريبة وغير متوقعة، وقد فاجأ المحكمة برؤيته تلك التي تخالف رؤية كتّاب الإخوان المشهورين في هذه المسألة، بل رؤية عامة المسلمين الذين يعتبرون القوانين الغربية كافرة وظالمة وفاسقة، والتي كانت السبب الأول والأخير للمحنة الحالية في السجون والاعتقالات. قال:

أولا: أن القانون الجنائي في مصر يتفق مع الشريعة الإسلامية فيما عدا الربا!

ثانيا: أن القانون الجنائي ولو أنه لا يتضمن الحدود الشرعية؛ إلا أنه من حق ولـيِّ الأمر إيقاف تطبيق هذه الحدود. فلما قال هذين الرأيين الغريبين، انهالت عليه المحكمة أو المحققون بوابل من الأسئلة المحرجة كان منها الأسئلة التالية :-

س١: سأل محمد عبد اللطيف في التحقيق بكم سنة على وجه التحديد اشتغل الأستاذ الهضيبي في القضاء قاضيا أو مستشارا في القضاء يوم ، سنة؟

ج١: الهضيبي: أنا تخرجت عام ١٩١٥م وبقيت في المحاماة لمايو عام ١٩٢٤ م .

س٢: الدفاع: ومنذ ذلك التاريخ أي قانون كنت تطبقه خلال هذه المدة؟

ج٢ : الهضيبي: القانون المدني والقانون الجنائي.

س٣ : الدفاع: المطبقين في الدولة؟

ج٣ : الهضيبي: أيوه (نعم)

س٤ : الدفاع : بطبيعة الحال أقسمت على تطبيقه؟

ج٤ : الهضيبي: طبعا.

س٥ : الدفاع: هل كنت طوال هذه المدة راضي الضمير عن هذين القانونين.

س٦ : الهضيبي: وقد فوجئ ضميري أنا؟

ج٦ : الدفاع: أيوه (نعم)

ج٦ : الهضيبي: فيها بيان.

س٧ : جمال سالم: البيان ده يأخذ كم دقيقة يعني؟

ج٧ : الهضيبي: على كيفك.

الدفاع: إذا كان مش طويل وتحتمله الجلسة أتفضل قوله.

الهضيبي: لا أبدا مش طويل، أنا آخذ مثلا أن القانون المدني يتفق مع الشريعة في كثير من المسائل أو في كل المسائل، يعني نقدر نرجع القانون المدني إلى أصول شرعية، فيما عدا مسألة الربا، فكنت أحكم في مسائل على اعتبار أنها تتفق مع الشريعة في القانون المدني.

س٨ : الدفاع: وهذه الفرعية الربا هل كنت تقضي بها أم لا؟

ج٨ : الهضيبي: في أكثر الأحيان كنت أخلي الناس تتنازل عنها، فلما ما يرضوش يتنازلوا عنها أحكم بها.

س٩ : النيابة: مخالفة للشريعة؟.

ج٩ : الهضيبي: أيوه مخالفة للشريعة.

س١٠ : الدفاع: لأنك أقسمت على ذلك؟

ج١٠ : الهضيبي: أيوه (نعم).

س١١ : الدفاع: وفي القانون الجنائي كله تعازير، وليس فيه من الحدود الشرعية شيء، ولكن الحدود الشرعية متى أوقفها ولي الأمر علينا الطاعة وتطبيق القواعد المعمول بها التعازير؟

س١٢ : هل هذا يملك ولي الأمر؟

ج١٢ : الهضيبي: يملك هذا.

س١٣ : الدفاع: هل أفهم من ذلك أنك طوال خدمتك الجنائية طبقت مالم تقضِ به الشريعة في ظل هذا التفسير وارتاح ضميرك لهذا؟.

ج١٣ : الهضيبي: لا موش كده ما حصلش كذا.

س١٤ : الدفاع: امال حصل أيه؟ أنت طبقت التعازير، والتعازير مش هي التي وردت في الشريعة.

ج١٤ : الهضيبي: لا كل العقوبات التي نص عليها في القرآن والسنة سبعة، كلها سبعة عقوبات من أولها إلى آخرها. (انتهى الاستجواب).

إن هذا الخلل الفكري الواضح هو الذي تسبب في إخراج كتاب **نحن دعاة ولسنا قضاة** الذي لعب دورا كبيرا في تفريق الجماعة وتشويه المفاهيم بين الحركة الإسلامية في وقت حرج، في وقت كان المؤمنون يحتاجون إلى التشبث بالمبادئ والصبر عليها، وكما حاول إزاحة أفكار المفكرين الإسلاميين الذين أفرزتهم الجماعة التي كانت توصف بالمقرر الصواب والمنهج الصحيح والمؤثر.

فلما هاجم الغرب وعملاؤه في المنطقة وشوّهوا أفكارهم وأسكتوهم أي أعدموهم أو تنازع الناس في فكرهم، تبرأت الجماعة بقيادة المرشد «الهضيبي» ومن معه أفكارهم، وألقت المسئولية على كُـتّابها وحدهم ليسلم من تبعات أفكارهم، أو ليجنب الحركة من تبعاتها، ثم أصبحت عادة متبعة عند كثير من الجماعات.

فعند ما تفرز الحركة مفكرا مجتهدا وظهر فكره وشاع، استثمرت أفكاره وإنتاجاته ومجهوداته مادامت توصف بالصواب وتحظى بالقبول عند الناس، حتى إذا تناول النقد أفكاره أو أصاب التطرف تطبيقاتها، أو عودي من الغرب والشرق، تبرأت القيادة من ذلك المفكر إن كان معدوما، وتفصله من الحركة إن كان حيا ومطاردا أو مسجونا.

وبما أن مثل هذا العمل لا يقبله المخلصون؛ فإن الأمر سيتحول إلى اضطرابات وتشققات داخلية، إذ تحولت القضية إلى مزاج بدل العمل الجماعي الذي كان من المفروض أن يوضع على الطاولة للمناقشة بعد احترام جميع الآراء واتخاذ القرار بما يجمِّع لا بما يفرِّق.

وعلّق سيد قطب على هذه المرحلة من تاريخ الحركة وقال: «أشـق ما تعانـيه الحركات الإسلامية الـيوم هو الغـبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول التوحـيد وبمدلول الكفر والشرك في الجانب

الآخر. ويعرف أعداء الإسلام هذه الثغرة، فيعكفون عليها توسيعا وتمييعا وتلبيسا وتخليطا، حتى يصبح الجهر بكلمة «الفصل» تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والإقدام «تهمة تكفير المسلمين» ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم، لا إلى قول الله وإلى قول رسول الله ﷺ » انتهى.

وقال أيضا: « وكون القيادة الإسلامية تخلف رسول الله – في غير التشريع والنبوة طبعا– فإنها يجب أن تكون الصفوة المختارة من صلب التجمع الإسلامي علما و فكرا وخلقا وحركة، فإذا لم تتميز على من تقودهم بالتفوق الفكري والروحي والحركي؛ فأحرى بها أن تكون قيادة لحزب غير إسلامي، وإن من مصائبنا أن تكون بعض القيادات أدنى من قاعدة الحركة الإسلامية منزلة في التصور والفكر والسلوك على وجه خاص، وإن لم تكن القيادة ممثلة الصفوة في التصوُّر والفكر والسلوك؛ فإنها لا يمكن أن تقوم بعمل «قيادة إسلامية» وصية على ارث النبوة. ولا يخفى أن تنظيم الحركة وتنسيقها التربية الربانية الإيجابية المثلة في «التأصيل والتعميق والتوسيع» للوجود الإسلامي لا تتأتي كلها إلا بعلم من أحكام الشريعة، ومعرفة دقيقة للقرآن الكريم والسيرة المطهرة، وبتقوى صادقة تؤثر ما عند الله على المتاع الفاني. وحين القيادة بهذه المواصفات فإن «الحركة» تصبح حركة واعية هادفة نهايتها مرسومة وطريقها مرسوم، لأن القائمين عليها يدركون كيف يجب أن يعمل هذا الدين، ويدركون كيف يقدمون مصلحة الدعوة على مصلحة الدعاة؛ فيأخذ كل امرئٍ دوره، ولا يوجد من لا دور له، ولا يوجد أحد وضع في غير المكان الذي هو له، ويصبح القياس ما يبذل من جهد لا ما يبذل من طاعة وزلفى....، وبديهي أن هذه القيادة بهذه النعوت تطاع في غير معصية ولو فيما خالف الاجتهاد الشخصي إذا كان من الأمور

الاجتهادية لأنها قيادة راشدة » انتهى كلام سيد قطب. وصدق مالك بن نبي في قوله « إن الماء لا يسقي الأرض التي تعلوه ، فإن أردنا أن نهدي البشرية الحائرة على ضوء السراج النبوي ، علينا أن نكون أرفع منها مستوى ، وأعلى فيها قدرا ، وأكثر منها نفعا ، وأزكى منها صدقا ، وإلا اعتبرت خطابنا مجرَّد «ادعاء فارغ وكلام لا يصدق العمل » انتهى .

ولا لوم على الأستاذ الهضيبي لأنه كان حديث عهد بالحركة، ولا تعجب إذا علمت أنه عام ١٩٤٤م استمع إلى بعض شباب قريته حديث عن دعوة الإخوان المسلمين لأول مرة؛ فأعجب بفقههم وتأثر بصدق حديثهم – ثم استمع بعد ذلك لأول خطبة من الأستاذ الشهيد «حسن البنا» وقال في ذلك: «كم من خطب كثيرة سمعت كنت أتمنى كل مرة أن تنتهي سريعا... ولكني هذه المرة كنت أخشى أن يسرع إلينا بأنهاء خطبته .... لقد مضت ١٠٠دقيقة جمع فيها قلوب المسلمين في راحتي يده وهزّها حيث أراد.. وانتهى الخطاب وأعاد إلى مستمعيه قلوبهم.. ماعدا قلبي فقد بقي في يده» انتهى. والثابت في تاريخ الإخوان بعد اغتيال الإمام حسن البنا حصل نزاع وشقاق داخل الجماعة على اختيار القيادة. وفي بادرة من بعض الإخوان لمصالحة القصر؛ فقد تمّ اختيار قيادي من خارج الجماعة ليتولى دور القائد للجماعة بعد الإمام، وأصبح المستشار «حسن الهضيبي» الذي اكتسب سمعة الإخوان. وهذا دليل أن الحركة لم تكن مغلقة بل كانت مفتوحة للمسلمين عموما.

وعودة إلى الحوار مع الأخوين «علي ومحمد» الطالبين في جامعة المدينة، كان هناك ثلاثة من الاخوة الأصليين، استمالاهما، وتأثروا بهما. ثم عقدنا جلسات بغياب الأخوين والاخوة الثلاثة المتأثرين، كنا نتحدث في هذا اللقاء عن كيفية إيجاد حل لإنهاء حالة التوتر القائمة، والخروج مما كنا نراه المأزق أو

المستنقع، تناول الحديث ضرورة وضع حدٍ للجدل العقيم الذي آذانا في هذه الفترة، والتفرغ كالعادة للعمل الجاد، وأن وجود هؤلاء الإخوة في الحركة معرقل. انتهت الجلسة بفصل الإخوة الخمسة من الجماعة لإعادة المياه الى مجاريها، وأن يكون هذا الفصل سرا إلى وقت آخر، وكانت محاولة لإلجام الاضطراب والجدل فقط لا غير.

كان الأخ المرحوم «عبد السلام شيخ» معنا في هذا اللقاء الذي اجتمع فيه أعضاء الجماعة الموجودون في جدة، وكان حديث عهد بالجماعة ومن أهل بيدوا، ومن طلبة المساجد التقليديين، التقى مع الإخوة الخمسة وكشف لهم ما جرى. كان قليل الخبرة في العمل الحركي فلم يستطع يتحمل عبارة الفصل التي كنا نعتبرها العلاج الأخير أي «آخر الدواء الكيّ» ، أو شبيهة ببتر عضو من أعضاء الجسد حينما يخشى من بقائه ضرر أشد من فقده، ليتم بذلك تماسك الجماعة واستقامة أمرها وابعادها عن الفوضى، وكنا نعتبرها حينها نظرية حكيمة إن لم تتعداها عن منطقها الحركي ، وهكذا أصبح عبد السلام من المشكلة بدل أن يحل المشكلة مع الإخوة، وقال لهم أن الجماعة قررت فصلكم من الجماعة سرا، فقاموا بضجة ضد القرار الظالم حسب تعبيرهم، وطلبوا عقد محكمة تثبت الإدانة لكل فرد على حدة.

وعند ما سألنا عبد السلام لماذا كشفت أسرار الجماعة؟ قال لم أكن موافقا على القرار. قيل له: ولماذا وافقت على القرار وقت صدوره؟ قال: ماكنت مقتنعا عند اصداره، وحرام فصلهم من الجماعة كذا في كتاب المنهاج للنووي. كانت ثقافته الفقهية من هذا الكتاب، كما أنه لم يعش مع الحركة طويلا، ولا يستطيع أن يدرك خطورة الاضطراب، بل أصبح طرفا في المشكلة وجالس وهمهم مع الطالبين المذكورين كثيرا.

قلنا: نحن مستعدون لمراجعة القرار وإلغائه، بشرط إيجاد حدٍ للجدال الذي كنا فيه في الفترة الماضية، ولن نستطيع الاستمرار فيه؛ فحوّلنا قيادة اللقاءات إلى الأخ النخلاني رحمه الله من « مركا » والذي كان أكبرنا سنا، مع أنه كان حديث عهد بالجماعة لكنه كان أستاذا في التربية، وكان يعمل وقتها في السفارة الإيطالية في جدة.

بدأ يستمع إلى النزاع والشكاوي التي أدّت إلى الفصل، وبدأت المحكمة باستماع المنازعات والشكاوي، فلان قال كذا برواية فلان، وفلان فعل كذا برواية فلان، وفلان عقد جلسات سرية مع فلان وفلان برواية فلان.. الى آخره، عشنا فترة في هذا الجو الكئيب أو المنازعات التي لم نتعود عليها من قبل، كانت جلسات منهكة للأعصاب، منهم من قال لم أقل، ومنهم من قال: قلت ولكن لم أقصد كذا، ومنهم من اعترف، ومنهم .....وهكذا.

في النهاية ألغينا القرار، وتعانق الجميع وتعوذنا من الشيطان الرجيم، لكنه جاء هذا القرار بعد اجهاد للعقول ورغبة في التخلص من الجدل ، وقلنا نبدأ صفحة جديدة والتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان. وظن كثيرون منا أننا تجاوزنا المحنة بسلام.

وأخيرا قررت المحكمة بقيادة الأستاذ النخلاني رحمه الله وقف موضوع الخلاف الذي أدى إلى هذه الأزمة، قرر وقال: ممنوع ذكر أو نقل هذا الخلاف وإفرازاته إلى أي مكان آخر في العالم خلال الشهور القادمة، والذي يريد أن يخدم لهذا الدين فلديه الكثير فليعمل لله وللدين، أصدر ذلك القرار كقرار حركي ملزم من مما كنا نعتبره قرار محكمة.

التزمنا بالقرار؛ فإذا المرحوم «عبد السلام» يفاجئ الجميع بالسفر المفاجئ إلى مقديشو، ولم يشاور أحدا، وكانت المجموعة الموجودة في جدة مهاجرة تنوي دخول الجامعات، ولم نتوقع رجوعه الى البلاد بهذه السرعة، كان ظننا راجحا أن الأخوين على ومحمد ربما أرسلاه ومولاه لمهمة سرية في داخل الحركة، وذلك بعد ما تتابع الخبر أنهما عقدا معه جلسات خاصة قبل سفره المفاجئ هذا. وكان يظهر عليه دائما تأييده البارد لهما.

سافرت إلى مقديشوا بعد فترة من الزمن لأعمال تجارية ودعوية معا، فعلمتني القيادة المحلية بقيادة «حسين على حاج» أن عبد السلام شيخ بعد رجوعه من جدة، بدأ يثير القلاقل بهمسات سريّة ضارة مع بعض أعضاء الجماعة، بعيدا عن القيادة المحلية، وتركت هذه الهمسات أو التناجي السري أثرا سلبيا على الأفراد، فظهرت منهم نقد حاد وفي وجوههم علامات عدم الرضاء، لأن الله سبحانه قَالَ ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [المجادلة: ١٠]، كان يقول لهم حصل كذا وكذا في الحجاز ، وأن الجماعة تستر عنه قضايا خلافية ساخنة؛ لأنه غير موثوق فيه، يفعل ذلك ولايزال يبث السموم على الأفراد، ويطلب منهم التستر والكتمان، كان يقول بالله عليك لا تذكر لأحد، وكان الأخ يلتزم القسَم الذي اعتبروه حق المسلم على المسلم، مستفيدا من غفلة الصالحين التي كانت الموضة الزمنية، وصل عدد المتأثرين إلى عشرة ولله في خلقه شئون.

أصبحت مضطرا فتح الموضوع خلاف ما قررته المحكمة المذكورة حفظا للوحدة، ولوضع حدٍ للمشكلة المتفاقمة، فأخبرت القيادة المحلية ما جرى في جدة، وأخبرتهم سلوكيات عبد السلام في هذا الخلاف ومواقفه الحركية الغريبة.

طلبت لقاء الإخوة الغاضبين المتأثرين بالخبر والأخ عبد السلام الذي أخبرهم لتصحيح الصورة الخاطئة ولترطيب الجروح. رفض عبد السلام اللقاء واختفى مع أنه كان عضوا في الجماعة، لكن الإخوة العشرة الآخرين حضروا اللقاء. قلت لهم كل ما جرى، وعلّمتهم أن كتم هذا الأمر عن الإخوة في كل مكان، كان سببه القرار الذي ألزمتنا به المحكمة في جدة بقيادة النخلاني، وأننا كنا ملتزمين بقرار حركي، ولم نذكره لأحد حتى لقيادتكم هنا في مقديشو.

قلت: إن خلق جيوب في الجماعة في هذا الجو المتآمر والمتوتر، أمر ذا خطورة كبرى لا تحمد عقباه، فاتقوا الله، واعتبروا سلوكيات عبد السلام هذا سلوكيات خاطئة وشاذة، ومن شواذ سلوكه أنه ذكر لكم أسرارا لم يذكر لقيادتكم، ثم إنه رفض أن يحضر اللقاء الذي هو يعلم أن ملف القضية سيفتح فيه، مستفيدا من غفلتكم ومن طيب قلوبكم.

اقتنع الإخوة العشرة، وتوقفت المشكلة عند هذا الحد، وترك عبد السلام الحركة بعد أن عاتبه الإخوة العشرة الذين أسـرّ بهم الخلافات التي جرت في جدة، واختفى عن العيون، واعتبر نفسه خارج الجماعة خجلا من نتيجة تصرفاته، مع أن جرح عدم الثقة كان قد صاحب البعض حتى النهاية. غفر الله له فقد مات وهو الآن في جوار ربه.

توقفت علاقات الإخوة مع طالبي الوحدة مع النهضة، وثبت أن لم يكن للنهضة وجود، وبدأت المجموعة الخمسة مع الشيخ محمد أحمد تأسـيـس حركة الإصلاح المشهورة التي أفادت كثيرا، ووضعوا أول لبناتها فيما بعد بالرياض، طبقا لما أعلنه الشيخ محمد وغيره في لقاءات صحفية. أخيرا حصلت في

هذا الأمر أخطاء تلحقها التوبة ويمحوها الاستغفار والاستحلال، وعفى الله عما سلف، ونسأل الله التوفيق والغفران.

في خلال هذا الاضطراب لم يستطع بعض الاخوة التعامل مع الحوار المؤذي والجفاء الروحي، فذهبوا مثل أي رجل نبيل، فلا أعلم شيئا أقبح من المراء فهو الحالق للدين، ومنهم من رفض الالتحاق إلى أي حركة حتى يومنا هذا، مع العلم أن التزامهم الديني ربما لم يتزحزح، وأن صداقتهم مستمرة للجميع. وهكذا الجدل والمراء لا يدفع أصحابه إلا إلى المماحكة بالباطل وإثارة البغضاء والشحناء والاختلاف بدل الائتلاف والحب والايثار.

*****

هجرتي إلى الحجاز

بعد إلقاءي محاضرة حادة في «عيل جـالّي» قرب مركا وتكرر اسمي عند المخابرات التي كان ملفي فيها مؤاخذات قديمة في محاضرات أخرى في بوهودلى، قررت الذهاب إلى الحجاز ودخول الجامعة من هناك ، فسافرت إليها بنية الحج والهجرة وطلب العلم، وكنت محظوظا بأن استمعت في أول رحلة لي عبر البحر إلى الحجاز ، ودخلتها حاجا في ديسمبر عام ١٩٧٢ م، وبعد أداء الحج وبداية عام ١٩٧٣م، اشتريت الكتب الثلاثة الآتية من مكتبة في جدة:

١: المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم ل «أبي الأعلى المودودي»

٢: الإخوان المسلمون والمجتمع المصري ل «جمعة أمين عبد العزيز»

٣: سيد قطب خلاصة حياته منهجه في الدعوة والنقد الموجه اليه ل «توفيق بركات».

قرأت تلك الكتب الثلاثة باهتمام بالغ، واكتسبت جرعات تؤيد دعوتنا وأنشطتنا القديمة، فكنا نعتبرهم منوِّرين ومفكرين إسلاميين من الطراز الأول الذين نستقي منهم رؤيتنا الإسلامية.

كنت ألازم مسجدا في جدة تابعا لجماعة «التبليغ» التي كانت نشطة حينئذ في الحجاز، تعرّفت في المسجد على أخ سوداني، قال لي أنه من الإخوان المسلمين في السودان، شارك معي في النقد الذي وجّهت إلى فكرة جماعة التبليغ، وكان نقدا لا يخلوا من وجاهة، خاصة العبارة المكررة عندهم «نحن لا نتدخل في السياسة» أو «من السياسة ألّا نتدخل في السياسة» التي كانوا يستخدمونها حينها في كل بيان، اعتبارا من

أنها أصل هام من أصول الحركة، وقلنا لا معنى لأن تعلن ابعاد السياسة عن الدين، ولا حكمة في تجرُّد المجاهد من سلاحه وجعله أعزل!.

فقال لي نقدك وجيه، وإذا أردت أن تقرأ عن المنهجية الصحيحة لإعادة الخلافة الإسلامية، فعليك قراءة كتاب «منهاج الانقلاب الإسلامي» لأبي الأعلى المودودي، وكنا نقابل من دلنا على كتاب بكل اهتمام، اشتريت الكتيب من المكتبة فقرأته وكأني حفظته في ليلتي. تلك المعلومات كانت عندي، فدار الزمن، ووصلنا عند الحديث الذي دار بيننا وبين الأخوين (على ومحمد) وظهر بيننا وجهات نظر مختلفة في بعض المسائل التي تتعلق بالقوانين، بدأنا نبحث عن الخارجين من السجن من الإخوان المسلمين الذين عاصروا مع الأحداث. سألناهم عن الخلافات التي جرت في المعتقلات. والتقينا مجموعة من العلماء ...... وقابلنا كل من :-

أولا: الشيخ «محمد قطب» رحمه الله رحمة واسعة الغني عن التعريف.

ثانيا: «سيد عيد» رحمه الله ، ذلك الشيخ الكبير ذو حافظة قوية وذهن متيقد، القارئ رقيق القلب، الذي كان من أوائل الإخوان وكبارها ومن تنظيم السري القديم ، كان لديه معلومات غزيرة عن الحركة الإسلامية في مصر قديما وحديثا. تلا علينا سورة يوسف في ركعة مرتلا بقراءة تقلق النفوس وتذيب القلوب وحبّرها تحبيرا ، بحيث لو سمعها داوود لمدحا ولقال: ما أشبه بمزماري! ؛ فعاتبه البعض وقالوا: طوَّلت علينا!!!، فقال: سامحوني؛ فقصة يوسف سلسلة متصلة، وضميري لم يرض أن أغادر يوسف عليه السلام وهو في الجبِّ ولا عند خلوة المرأة التي تطارده ، ولا عند زنزانة السجن، أخليه وين؟.

ثالثا: الأستاذ «مصطفى كامل» عند ما كان أستاذا في جامعة أم القرى، ذلك الشيخ الكبير الذي عاش في حركة الإخوان المسلمين منذ الأربعينات وزامل أو تتلمذ عند سيد قطب في السجن ، وعاش فترة الابتلاء في السجن وتأقلم في المحنة ، وكان لديه معلومات غزيرة عن الحركة والمعركة العالمية.

رابعا: «دكتور عزمي» رحمه الله اخصائي أطفال، ذلك الروحاني التقي الذي كان يضفي على المجلس روح اللطافة والطرافة، وابن أخت العالمين سيد قطب ومحمد، رحمهم الله جميعا رحمة واسعة ، لقيناه مرارا في بيته، ذلك الرجل الذي عاش زمنا في تعذيب السجن الحربي، وكان لا يزال يحسُّ آلام التعذيب حتى مات بها . . . .

وخامسا: قابلت الشيخ محمد محمود صواف في بيته بمكة المكرمة، وحضرت محاضرات الشيخ الشعراوي في جامعة جدة ، واستمعت من الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله..... وغيرهم، ثم قابلنا في جولتنا الفكرية تلك، كل من قيل لنا أنه خرج من السجن ونجح في الابتلاء، ومن جماعة الإخوان المسلمين ومن علماء الصحوة الإسلامية.

كنا نسألهم في هذه الجولة عن تجربة العمل الإسلامي في مصر، وعن شكل الخلاف الذي ظهر في داخل السجون، وما معنى الإخوان الدولي؟ أفادوا جميعا أن الحركة الإخوانية اختلفت في داخل السجن وتشققت فيه، ولم تستطع لمّ شملها، وهناك من تمسك باسم الإخوان وهم المعروفون بالإخوان الدولي بقيادة المستشار الهضيبي، ومنهم من استقل، ومنهم من أسس تنظيمات أخرى بأسماء أخرى، وجميع التنظيمات الاخرى اعتبرها النظام والغرب تنظيمات متشددة.

أما الإخوان الدولي الآن هي التي بقيت عند قيادة المرشد؛ فاعتبروهم الحركة المعتدلة التي من الممكن أن تتحرك أنشطتها بطريقة غير معلنة. ومن أجل حفظ المصطلحات في تلك المرحلة لمعانيها كان من المفروض إلغاء المصطلح المتفق عليه قديما وتغيير الاسم المتنازع عليه إذ لا ينبغي استمراره، إلا أن تختطف مجموعة ما، ذلك المصطلح الأكثر شهرة، ويستغلونه في عمل آخر، أي أن الاسم يمكن أن يستمر مع الاختفاء المضمون القديم، وظهور مضمون آخر مغاير.

وفي هذا التقسيم للإخوان أو بالأحرى هذا الابتلاء للمؤمنين صورها لنا «عماد الدين» في هذا التقسيم في كتابه بعنوان «رحلة إلى الله»، الملخص التالي، فقال:

١- منهم الصادق الواعي الذي زادته المحنة ثباتا وتبصيرا؛ فخرج من السجن وقد تعمّق إيمانه وزاد يقينه وقويت عزيمته، وعرف أنَّ كل وضع لا يحكم بالإسلام لابدَّ وأن يأخذ لونا من ألوان الجاهلية، وأن الدعوة إلى الله ينبغي أن يحملها المخلصون الذين تبرأوا من كل عبودية لغير الله، ورفضوا كل ولاءٍ لغيره سبحانه وتعالى.
٢- ومنهم من ضعف عن ملاقاة المحنة فركض إلى الطغاة يقدِّم لهم الخدمات ويبطش بالأخوة القدامى، ويتسابق مع غيره للنيل من المسلمين والإسلام، ولوَّثوا أنفسهم بالقذارات التجسسية. قلت: قتلوهم من غير حرب ولا ضرب أي فتنوهم عن دينهم.
٣- ومنهم من انكفأ على نفسه ورأى أنه لابدّ من المهادنة، ويكفي أن يصلح الانسان نفسه ويدعو غيره بالكلمة الطيبة اللينة، وألّا يخرج أسماء الشاردين عن الله عز وجلّ حتى لا

ينفروا عن سماع كلمة الله. وهكذا قسّمت المحنة الحركة الإخوانية إلى تلك الفرق، وهذا التقسيم للإخوان كان الحقيقة المتفق عند الجميع.

وعند مطالعتي لكتاب الإخوان المسلمون والمجتمع المصري القديم، علمت أن الحركة في بداية نشاطها أوسعت عملها ومرونتها الاستيعابية إلى حدٍ لا يمكن دوام تماسكها فيما بعد، فقد وصل العدد إلى الملايين.

شـــدّ انتباهي في خلال مطالعتي للكتاب «الإخوان المسلمين والمجتمع المصري» مقابلة الإخوان للملك الشاب فاروق عند تتويجه، وبالهتافات التي قابلوه بها «الله أكبر الله أكبر ولله الحمد» و «الإخوان المسلمون يبايعون الملك المعظم» أو «نبايعك على الكتاب والسنة» و«نطالب إصلاح القوانين» استغربت هذه الهتافات لأنها كانت مخالفة لما كنا نقابل به كل رئيس لا يحكم بالشريعة، وكنا نعتبرهم محللي الحكم للاستعمار، وكنا نقابلهم بالحجج القوية والتعابير القاسية التي تخرجهم من الملة، وفعلا كانت من العبارات التي كنت قرأت للإخوة في محاضراتي التي تقدم الحديث عنها في فصل سابق.

لكن تلك المبايعات الإخوانية لم تستمر طويلا، ولقد كانت الجماعة بحكم نزعتهم الدينية في مقدمة الناقمين على سياسة «الملك فاروق» والناقدين جهرا لمسلكه الشخصي؛ فلما انتشرت الدعوة واعتنقها الملايين من المواطنين، وأخذوا يعلنون في مبادئهم أنَّ الإسلام دين ودولة، وأنَّ الحكم في شرعته بيعة يوليها الشعب لمن يصلح لها، وليس ملكا عضوضا يتوارثه الأبناء عن الآباء؛ فاستشعر ريح الخطر تهب عليه من تأجيجهم، خصوصا عند ما اشتد ساعدهم؛ فصحَّ عزم الملك على مناوأتهم والضرب على

أيديهم، حتى وصل الأمر حل الجماعة وإعدام الإمام على قارعة الطريق نهارا، إضافة إلى عداوة الغرب على البعث الإسلامي. راجع كتاب مذابح الإخوان في سجون ناصر. لجابر بزق

ثم بعد المطالعات المتتابعة علمت أمرين :-

أولا: أن الملك كان موطن رجاء الأمة جمعاء، لأنه كان شابا جديدا ومتدينا، حسب المفاهيم في وقتها، تماما كما كان في الستينات الرئيس عبد الرشيد (شرم أركى) عندنا في الصومال، كما أن كثيرا من القضايا كانت غير واضحة المعالم عند البعض حتى ذلك الوقت.

ثانيا: عند بداية كل عمل عثرات وقلة رؤى وأخطاء، فلا لوم ولا تثريب على المخترعين، فماذا نطلب منهم إذا فعلوا أقصى ما وصل إليهم إدراكهم في زمانهم؛ فلا نحاكم الرجال إلى معلوماتنا ورؤانا وتجاربنا ووعينا، وإنما ينبغي أن نحاكمهم على معلومات عصورهم وإدراكهم في أزمنتهم؛ فقد أحسنوا وأخلصوا وأجادوا حسب ما توفرت لديهم من معلومات ومعارف وإمكانيات.

وقرأت فيما بعد ندامة الأستاذ حسن البنّا على هذا التوسع الهائل، وأنه لو استقبل من أمره ما استدبر، ما وسّع النشاط إلى هذا الحد، وأنه كان يفضِّـل لو كان عنده العشرات من الواعين.

أما المفكران العظيمان سيد قطب والمودودي كانت كل عباراتهما تؤيدان شعورنا، وكل أفكارهما كانت مؤيدة لما كنا ندعو إليه من يوم بدأنا عملنا الدعوي في الصومال، وكأنهما كانا يشرحان شعورنا، أو يكتبان نيابة عنا وعن دعوتنا، فكانا منا، بل كنا منهما في كل ما كتبا، ولذلك قرأنا مؤلفاتهما، وتذوقنا

أفكارهما بل أحببناهما؛ لأنها ترجما عن ضمائرنا، وعرضا أفكارا تنسجم مع عقيدتنا، وتتناغم مع عواطفنا ومشاعرنا.

تعرفت خلال تواجدي في جدة على بعض العلماء الحجازيين أجمعنا تبتلنا في المسجد وروحانيتنا، وكنا نتناول الحديث معهم في قضايا المختلفة؛ فتوارى عن الأنظار أحدهم فجأة، ولما لم أجد سألت أخاه، قلت أين أخوك؟ فحرّك حاجبيه إلى أعلى، فهمت من إشارته أنه اختفى وويل لمن سأله!!.

استغربت استغرابا شديدا، بل كانت صدمة عليَّ ، إذ كنا في الصومال - رغم النظام الشيوعي العسكري القاسي- نتابع المسجونين ونسألهم عن سبب السجن، ثم علمت أنَّ مصطلح المتواري عن الأنظار شائع عند الناس، وأن فلانا المتواري عن الأنظار طبيعي عند الجميع.

كتبت رسالة إلى وزير الداخلية عن طريق مكتب الداخلية في جدة طالبا منه الاقامة بسبب هروبي من النظام الماركسي في بلادي، علما بأني من الشباب المتدينين المعارضين لهذا النظام، وعند ما أخبرت هؤلاء العلماء، نصحوني ألّا أراجع هذه الرسالة، وأن حسن ظني أكثر من اللازم وليس في محله، وبإمكانك حصول إقامة عن طريق السفارة الصومالية أو أي طريق آخر.

وبعد حصولي على الاقامة بواسطة السفارة الصومالية، اشتغلت مع شركة بترولية في المنطقة الشرقية «أمين مستودع المواد الكهربائية» وتحت مدير هندي مسلم، وأن أمين عام الشركة كان أمريكي الجنسية. كنت أفاجئ بطائرات من أمريكا حاملة آلة كهربائية ل (كنترول روم) أو ل (سبس تيشن) (Control Room&substatiln) مثل حجم التلفزيون أستلم للمستودع، فيقولون لي جاءت من أمريكا بطائرة

خاصة. فأغضب وأقول لماذا هذا الجهاز الصغير يكلفنا بطائرة خاصة، أليس هذا المال مال المسلمين؟ لأن حسن نيتي لو قالت السعودية أنت عسكري بلا مقابل لوافقت لحظتي.

ثم جاء مدير جديد أمريكي لمستودعنا، كان شابا مخنثا هزيل الجسم طويل الشعر يعجز عن حمل أي مسئولية، كان يقـتل وقته كله بمداعبة وقتل الذباب، وكان لا يتدخل في العمل ولا يريد أن يتعلم، وليس مستعدا أن يقدم أيّ جهد. أما الهندي المسلم الذي كان مدير المستودع قبله ، وأصبح الآن يعمل تحت هذا الشخص السخيف، كان شخصية جادة مثـقـفة يتقن العمل واللغات، فأتساءل لماذا هذا الأمريكي الكافر السخيف غير الجاد أصبح مديرا على هذا المسلم الكفء الجاد؟

كان الشاب الأمريكي هذا يصوِّر لنا أنه الانسان الحيواني الذي لا يحس ولا يفهم إلا بغرائزه الحيوانية وشهواته، ويحكي لنا عن راتبه الفلكي وعلاواته غير المنطقية، ثم كان كغيره من الغربيـين ثلاثة أشهر يقضي في العمل، ثم يسافر إلى بيروت، ويتمتع باستراحة شهر ويقضي عطلته في أفخم الفنادق فيها، ليأخذ التأشيرة من السفارة السعودية هناك كل ثلاثة شهور مرة على حساب المشروع، وكان يحكي لنا تـنزهاته في بيروت عاصمة الفساد في ذلك الوقت، يقول لم أجد في أمريكا ما وجدت في بيروت، مراهقات من المدارس تتزاحم عليك في الفندق لا يطلبان إلا أن تنام معك في الفندق وتشرب معك المشروبات. وكان ذلك في أوائل السبعينات، وبسبب ذلك الفساد جعل الله بأسهم بينهم شديد.

بدأ هذا الأمريكي يلصق على جدران المكتب التابع للمستودع صور نساء عاريات!. قلت له: ألا تعلم أنك في أرض الإسلام؟ فحرّك كتفيه مستهزئا. قلت له: الأفضل أن تأخذ هذه الصور غير الأخلاقية إلى

بيتك، فضحك مستهترا. وأثار في نفسي مزيجا من الغضب؛ لأن في النفس مزيجا من العواطف والانفعالات والمشاعر.

ذهبت إلى هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في رأس تنورة، قدمت لهم شكوى ضد هذا المفسد الحقير وأخلاقياته الشاذة، قابلني شيخان من مشايخ الهيئة، وبدأت أشرح لهما قصة هذا الرجل الذي لا يعترف للإسلام حكما ولا للدولة السعودية سلطة، كلما أقول لهما كلمات عن هذا الأمريكي، كانا يتبادلان فيما بينهما النظرات الحادّة ثم ينظران إليّ بدهشة!، مستغربين صدق لهجتي وجرأتي وغفلتي، ولسان حالهما يقول «زائر مخلص غافل من كوكب آخر!» كانا يشعران بالحرج والحرج الكبير؛ فالقضية أكبر من اختصاصات الهيئة، وتتعلق بأمريكي من الجنس الأرقى وفي شركة أمريكية ذات حصانة عالية أو بالأحرى مسيطرة.

أما أنا فلا أنظر إلى الموضوع إلا من منظوره الشرعي، ومن منطقي الإسلامي البحت، بمعنى عاطفة إسلامية صادقة لا غير، أليست الشريعة فوق الجميع؟ أليس الله هو الحاكم المطلق هنا في السعودية؟ بعد الاستغراب الشديد، والهمسات بينهما، قالا لي: نحاول زيارة الشركة، لكن أمامنا مشكلة، أكيد أنهم سوف يفصلونك عن العمل ولا نستطيع أن ندافع عن وظيفتك.

قلت لهما لا تهتما بعملي ولا من أين يأتيني رزقي؟ فالرزق مكفول ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٣] وليكن كل اهتمامكما إزالة ذلك المنكر وتلقين درسٍ لهذا الكافر المتغطرس المنحط أخلاقيا.

قالا: سوف نذهب إلى الشركة غدا، لكن لا تعرفنا ولا نعرفك، لا تسلِّم علينا عند وجودنا هناك، وكنت أتساءل لماذا كل هذا التعظيم والخوف من الرجل الأبيض الكافر النجس الذي أراه لا يستحق كل هذا التقدير والاحترام؟ لا يستغرب القارئ شعوري هذا، لأني:-

أولا: من سلالة الدراويش وأحاديثهم النضالية بقيت في ذاكرتي !!!.

ثانيا: من قرّاء اليقظة الإسلامية وشبابها .

ذهبا في اليوم التالي إلى الشركة وقابلا رئيس الشركة وأخبراه الأمر، وكان الأمين العام الأمريكي رجلا يكره المخنثين فتعاطف معهم، وطلب سحب الصور من المكتب وإتلافها، ثم بعد أيام فصلوني عن العمل. فقلت: عرفت قدركم يا مطاوعة، وعرفتكم يا ملوك أنكم نواب الغرب ووكلائهم لا غير.

أصبحت القضية بالنسبة لي «خبرة وتجربة ووعيا» أو بتعبير آخر كتمت عبرة وخبرة في نفسي.

نزهة المؤمن الفكر	لذة المؤمن الصبر
نحمد الله وحده	إنَّ في ذا لمعتبر
إنَّ في ذا لعبرة	للبيب إن اعتبر

ثم اكتملت لي التجربة بعد اعتقالي في جدة والرياض بأمر يتعلق بالحوالة التي اشتغلت فيها، واكتملت لي الخبرة وتوضح عندي موقف الإسلام من الملوك والأمراء الخليجيين، كما تعرَّفت عن قرب على ما يسمى بالحكم الشرعي في المملكة، وذلك بعد تتبعي القضايا التي كان المعتقلون يتكلمون عنها، ودور علماء الشرع في القضايا العامة، واحتكاكي بالمخابرات السعودية خلال تلك الفترة التي لها قصص مثيرة

أخرى لا يستوعبها هذا الكتاب. وإن كنت أشعر بعض شباب المخابرات الجدد فطرتهم الإسلامية والإنسانية التي لم تتلوث بعد بسلوك الجواسيس أذكر من أخبارهما قصتين لطيفتين:

الأول: أدخلوا معنا في داخل السجن الذي كنا فيه شابين سعوديين حديثي عهد بالمخابرات للتأديب، وكنت أظن أنهم أدخلوهم في داخل السجن لتلقي الأخبار من المسجونين، ولكن علمت فيما بعد أنهم يعاقبون بمخالفات تجسسيه. قلت لواحد منهم لماذا سجنوك هنا مادام أنت رجل أمن وموظف عند المخابرات.

قال: تدري أيش سوُّوا؟ ودُّوني في قصر أمير، الله يلعنه!، وقالوا هنا في القصر عاملين فليبنيين يتقاتلان خليك بينهما وراقبهما، والله زعلت وذهبت ونمت في بيتي، وقلت لَيْهْ نحن نحمي دم الكفار لعنة الله عليهم، خلوهم يتقاتلوا!!.

أما الثاني: قلت له لماذا أنت في السجن وأنت سعودي تعمل في المخابرات؟،. فقال: أما حالي، فكان المخابرات يدرِّبونني لأعمالها، فدلوني على بيت، وقالوا لي: هذا البيت مشبوه، وطلبوا مني أن أسجِّل الداخل والخارج، يعني قالوا لي: خليك بوّاب بيت حق الناس!! فزعلت وذهبت ونمت في بيتي، جاءت الدورية فلم تجدني ووجدوني نائما في بيتي وسجّـنوني هنا عقابا لتصرفاتي كما ترى. والشباب السعودي عند ما يتكلم عن جنسيته السعودية كثيرا ما كان ينكر عن تلك الجنسية المنسوبة إلى الأسرة المالكة، قائلين: قال: سعودي؟ ياراجل لست سعودي وعرقي لا ينتمي إلى تلك الأسرة المشبوهة، بل أنا عتيبي أو قحطاني !!.

اجتماع في مكة المكرمة

كان موضوع متابعة المعركة من أهم المواضيع في الجماعة، وكان لها قسم خاص يتابع الأخبار والمجلات باللغات الثلاثة المشهورة عندنا كالعربية والانجليزية والإيطالية، ثم يلخص القسم ما دار في الأسبوع من أخبار ذات مغزى ليتلقى العضو في الجماعة ما يدور في العالم، كما كانوا يقرأون كتبا عن المعركة وعن الغزو الفكري ويستمعون أفلاما عن الجواسيس، ثم كانوا يلخصون الكتاب والفلم ، فيقدمون للجماعة خلاصة ما يفيد في الموضوع. وفي زيارتي لأمريكا زوَّدنا القِسْمَ بعض المعلومات التي كانت لها دور كبير في تنويرنا وتثقيفنا وتزويدنا بالكتب والأفلام والمجلات اللازمة، حملت بعضها منهم حين زرتهم مرتين ، فالإخوة هناك اكتشفوا فئة ألمانية مضادة للصهيونية التي كانت تسيطر صناعة الأخبار، وكان لهذه الوكالة الألمانية منشورات قيِّمة ومجلة وإذاعة في واشنطن لكشف الزيف والغموض المصاحبة لأخبار الأسبوع، وكانوا يطلقون ما ممكن أن نسميه «الخبر المعاكس».

ثم اكتشف قسم متابعة المعركة في الحركة أن المصطلحات المكررة في الإعلام والأخبار، ذات مغزى كبير ووراءه دائما أبالسة بشرية ملثمة صنعت ثمّ روّجت هذا المصطلح لغرض ما، وبهذا الوعي وجدوا أن مصطلح «التكفير» برز فجأة في الاعلام واستخدم فيه بطريقة لا تتحمل اللغة المستخدمة.

فاجتمع كوادر من الجماعة في مكة المكرمة، واستعرضت النقد الموجّه إلى فكر الجماعة، وأن الجيل اللاحق في الجماعة سريع التأثر لكل طارئ ساخن ذي لباس إسلامي، فقررت الكوادر إلقاء محاضرات عن هذا الموضوع وكلفوني بتجهيز وإلقاء تلك المحاضرات في البلاد.

محاضرات حول تجديد المفاهيم [1]

كان الهدف من هذه المحاضرات التي روّجها الكثيرون بأنها كانت تكفيرا مستوردا من مصر ، والبعض الآخر اعتبرها تجديدا للإيمان ، كان الهدف منها مواجهة التفسير المائع للحكم بكتاب الله ، وتحويل الإيمان الصوري إلى إيمان حقيقي وواقعي وقوي ذي شحنة وجدانية دافعة إلى السلوك العملي في عالم الواقع . ثم تطعيم الشباب ضد العواصف الفكرية التي بدأ هبوبها من مصر وغيرها ، والمتزامنة مع ما يسمى السلام مع إسرائيل ، والمدعومة بشبهة كفر دون كفر المنصوبة إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنه. هذه الشبهة التي اعتمدت في هذا الزمن على توهيم البشر أنهم قادرون على التشريع ، وأن هؤلاء المشرعين مهما شرعوا وقننوا لم يتجاوزوا الحدود الإسلامية، وأن كفرهم دون الكفر الأكبر، وشركهم إن وجد شرك أصغر ؛ لأنهم لم يستحلوا هذ الأمر في قرارة أنفسهم. وبالتفصيل أحيل القارئ الكريم إلى كتابنا الآخر (المصلحات وحرب العقول ضمن هذه السلسلة «صرخة الإنقاذ رقم ٤ ».

جاء القرار ببناء قاعدة عريضة تؤمن بالله إيمانا صحيحا ، يقودها أشخاص فائقة التكوين ، ثم تطعيم الحركة من الطوفان الفكري الذي بدأت ملامحه تظهر من طرق شتى «تهمة تكفير المسلمين» وعقد محاضرات تكشف الشعارات الزائفة التي تروجها الصحافة وأتباع الحركات الأخرى ، وتقديم الفهم

[1] أشهرها البعض فيما بعد بالتوحيد والبعض الآخر بالتكفير.

العميق للواقع الإسلامي لعناصر الصف الثاني للحركة الذين انضموا الحركة بالسبعينات وواجهوا في زمن الأفكار والاضطرابات.

كانت المحاضرة تواجه حملة صحفية ظالمة صادرة من مصر وغيرها ، فقد تدفق إلى مصر حملة من أشهر خبراء الدعاية والاعلام في العالم لتشويه صورة «التكفير» والتكفيري بدل «الكافر» وكانت هذه المحاضرات التي وصفها الكثيرون بأنها «التكفير المستورد من مصر» لتزامنها مع الحركة الإسلامية المطاردة عالميا في ذلك الوقت بقيادة الشاب المسلم الثائر «شكري مصطفى» تقبل الله شهادتهم ، فهم الذين أزعجوا المخططين بتسهيل الزواج وتسهيل الحياة ، انها كانت ذلك دعوى تحمل الكثير من المبالغة ، وإن تلك الدعاية هي التي خلقت هذا الانطباع على غير أساس من الواقع.

والحقيقة أننا لم نستورد من مصر شيئا يتعلق في الموضوع ، ولم يكن لنا أيّ علاقة بالجماعة التي أطلقت الصحافة والمتآمرون بالتكفير ، ولم نلق شخصا واحدا منتميا إليها أو متأثرا بها ، مع أنه ليس فينا عقدة من هذه الجماعة التي تلقت من الغرب ومن الطواغيت المحن والإعدامات ، فأيَّده الله وثبته ساعة الشدّة، وإنما كانت هذه المحاضرات محلية، تستقى مفاهيمها من القرآن الكريم ومن السنة بطريقة مباشرة ، وإن كان بعض التأثيرات من المفكرين الإسلاميين الذين واجهوا الاستعمار وأذنابه بمدافع أقلامهم وصلتنا وزادتنا اشتعالا مثل كتب حسن البنا وسيد قطب ومحمد قطب وأبو الأعلى المودودي والندوي وعبد القادر وعودة .... وغيرهم ممن قبلهم، تلك الكتب التي لاقت إقبالا وصدى بالغا في العالم العربي والإسلامي. لا شك أن سلوكيات بعض الشباب أو همت عند البعض صحة المعلومات

التي شاعت عند الناس بما سموهم التكفير ، فظنوا خاطئين أن المصطلح ربما له واقع وحقيقة في داخل الحركة الإسلامية.

خلاصة المحاضرة

سلطنا الضوء على ثلاثة مواضيع :-

أولا: توقفنا كثيرا عند كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» وأن لها معنى وشروطا معروفة عند العلماء عرف في «شروط التوحيد» . وأنها أفضل كلمة قالها النبيون، وأن أيِّ غبش في التصور وفي التوحيد أو تشويه في المفاهيم والاعتقاد أو شذوذ في السلوك أو انهزام في الضمير والروح حولها ، سوف يؤثر على جوهر الإسلام وجوهر الالتزام . فدين الله ليس غامضا، ومنهجه في الحياة ليس مائعا . وأنَّ لا إله إلا الله عند كثير من الناس اليوم صوت يصدر عن الشفتين ولا يصدر عن القلب ، وكلما غاب عن القلب سيغيب بمرور الزمن عن الشفتين.

ثانيا: تحدثنا عن الحكم بالشريعة وأوردنا كثيرا من آيات الحكم في القرآن التي كنا نحفظها عن ظهر الغيب ؛ لأننا كنا نخطبها في المساجد من الستينات ومتمرنين لاستدلالها ، وقلنا أن الحكم بالشريعة هي صياغة الحياة الإنسانية على هدي السماء لتحقيق العدالة والطمأنينة في هذه الحياة ، إذ لا تكون الأمة مسلمة إلا باتباع هدي الله ، كما لا يكون الإنسان إنسانا حقا إلا بشرع الله وعدله ، وأن المشاكل الاجتماعية والاقتصادية وغيرها طبيعي في بيئة لا تحكم بالشريعة ، والمؤمن هو الطبيب يرى مكمن الداء وعنده الدواء ، والناس يرفضونه بل ربما يقتلونه، وهم يموتون تلك الأمراض ، بينما دواء الإنقاذ

حاضرة عندهم. وهكذا الأمة تنخدع بالسراب ولا تشعر بظمأ الفؤاد، وتؤثر الظلام في يدها على الكواكب اللامع في السماء . كما قال الشاعر:

كالعبسي في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

ثالثـا: تكلمنا في هذه المحاضرات عن شطحات بعض المدعين بالتصوف ، وخزعبلات السذج العاكفين على القبور ، والشرك المشاع في البلد كالطواف على القبور والدعاء لغير الله ... وغيرها ، وقلنا يجب على كل مسلم أن يخلص الدين والعبادة لله سبحانه ، وركزنا على مصطلح «الدعاء» والذين يدعون من دون الله التي هنا عبادة، وتوقفنا عند الآيات القرآنية الكثيرة التي تأتي على تلك الصيغة مثل قوله تعالى: ﴿ **قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾** ﴾ [الأحقاف:٤]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ** فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٤]

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ **وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ** وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الحج: ٦٢] ﴿ **وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾** ﴾ [المؤمنون: ١١٧]

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٣]

ثم قدمنا في تلك المحاضرة تعريفا عن مصطلح «الأمة» والأمة الإسلامية بصفة خاصة والتي قلنا يومها ، هي عبارة عن نسيج اجتماعي كالبنيان تتلاحم فيه جميع مكوناته ، الرابطة فيه هي الجنسية الايمانية «جنسية المسلم عقيدته» فيجب أن يكون لها وطنها الواحد الذي لا يتجزأ، وأن المسلمين أمة من دون الناس ، بمعنى على المسلمين أن يرفضوا الحدود التي رسمها لهم الاستعمار رفضا باتا كرفض الكفر بالله والسجود للمخلوق. كما عليهم أن يكفروا بالطاغوت والولاء للكفر ووده . ولا يمكن بأي طريقة أن يكون مؤمنا وفي نفس الوقت يوادّ الكافر.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ومحور أنشطة الأمة وطاقاتها ومقدراتها ، يجب أن يكرّس في سبيل تطبيق أفكار رسالتها التي أنزل الله إليها في داخل الأمة ونشرها في الخارج . فالجهاد في سبيل الله ، والدعوة إلى الإيمان بالله المتمثلين في الأمة الإسلامية . معناه : وقاية الانسان من الطغيان وادّعاء الألوهية ، وتحرير وجدان البشر من كل طواغيت الأرض أيا كان شكله أو نوعه وربطه بخالقه . معناه: مواجهة الظلم في الداخل ، وصد الغزاة من الخارج ، والتحمُّل بتكاليف الحرية .

والنتيجة في هذا العمل العظيم ، هي تحرير الانسان من المخلوقات الأخرى في حالة القوة ، ومن مرض الهوان والرضى برق الأشخاص والأشياء والهوى في حالة الضعف والفقر والتبعية . فلا حدّ لطغيان الانسان حين يتأله ، ولا حدّ لهوان الانسان حين يتعبد لإنسان مثله .

عرَّفنا مصطلح «الأمة»: بأنه كيان يتفاعل مع الحياة من حيث الصحة والمرض والوفاة ، يعتبر الأمة ميتة إذا فقدت تماسكها وتراحمها وتعاطفها ، واستطاع أعداؤها أن يتلاعبوا في عروقها ودروبها يفعلون فيها ما يشاءون ، فإنها جميعا تقصي وتفرق وتتسلل إلى الأقوال والأفعال ؛ فتنثر فيها بذور الشقاق . ومن علامات الأمة الميتة أنها تشتهر بالتصفيق الحادّ لكل خطيب ، وتؤيد كل القرارات التي خطط لها أعداؤها، فتطلب دواءها من عدوِّها، فكانت فرصته لإعطائهم السموم القاتلة ، وترفض الدواء الحقيقي من الطبيب الناصح، فتبتلى بقصر النظر عند مراقبة الأحداث ، وتكون رؤيتها متعكرة وغير صافية ، وعاشت كالخنافس في دنيا الظلام . وهذا انحراف شديد أو «ضلال بعيد» وبعيد جدا على حسب تعبير القرآن ، فعوض أن تعالج الداء بالدواء ، راجت تداوي الداء بداءٍ أشدُّ فتكا.

والمجتمع الميت يمثل بيئة خصبة لتكاثر الأعداء فتغزوه ، وتلك الأمة مشهورة بأنها لا تتعظ بالآيات والمعجزات ، وإذا رأوا كل آية لا يؤمنوا بها، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا . وهكذا «الأمة» تموت ولها أجل كما لكل مخلوق أجل ، والأمة إذا لم تمت تقاوم وذلك دليل حياتها . والجماعات أيضا كالآحاد، بينما الأمم كالأفراد كل منها يعمر أو ينقص من عمره، والأشياء كالأحياء كلها ذات آجال وأعمار في كتاب الله كالإنسان، وكل ذلك بتقدير العزيز العليم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٤] ، وإذا أراد الله لهذه الأمة الميتة الحياة ، بعث إليها حرّكة بعثية جديدة تحييها من جديد ، وتجمِّع عناصرها الحية ، وتنفخ فيها روح الإيمان ، وتبعثها من جديد ، وهذه هي طريقة إحيائها . جاء الإسلام جديدا ، وهو ما زال في فتوته ، وبتلك الجدَّة يفرض نفسه على الواقع .

وعلى الجماعة الإسلامية اليوم أن تكون «لبنة» بعثية من هذا النوع ، لا أن تكون حركة إصلاحية تحاول ترمم القوانين الغربية باسم الإسلام ، إشارة إلى فكرة وهتافات أشاعها الإخوان المسلمون في بداية دعوتهم باسم «إصلاح القوانين».

وهكذا المخلوقات تحيا وتموت ؛ فالأرض مثلا يتفاعل مع الحياة بطريقته الخاصة ، وإذا مات نسميها الأرض «الجدباء» أو «الهامدة» أي الميتة ، وإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت وأحيت ، ثم نفعت وأنبتت من كل زوج بهيج. ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الزخرف: ١١]. والحيوان يتفاعل مع الحياة بطريقته الخاصة، وإذا فقد روحه مات ، فإدا نفخ الله فيه الروح أحيا وتحرك وأنتج ، وهذه هي طريقة إحيائه. وفي العلم الكائنات الدقيقة وجد العلماء أنَّ جسم الحيوان محصَّن ضد غزو الجراثيم ما دام الحيوان حيا ، ولكن بمجرَّد موته (٥-٦) ساعات تتحوَّل جثة الحيوان إلى مستودع للجراثيم والعفونات ؛ لأنه يفقد جهاز ا لمناعة مقاومته للجراثيم.

أما «الأمة» فهي مخلوق خاص لها طريقتها التداولية في الوجود حيا ومرضا وموتا ، والمجتمع الميت يمثل بيئة خصبة لتكاثر الأعداء فتغزوه ، لكن إذا كانت حية تقاوم عدوها ؛ لأن الحياة مازالت موجودة. وخير شاهد ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من «إن الأمة إذا لم تأخذ يد الظالم أوشك الله أن يعمهم بالعقاب» «وأن الأمة إذا لم تقل للظالم يا ظالم فقد تودع منها» أي ماتت وانتهت أمميتها . وعقوبة الأمة عند موتها شديدة ؛ لأن خلافها قانوني ومعاصيها متراكمة باتفاق علني أو ضمني.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود: ١٠٢]

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لو استرخصت من أمري ماذا أنتم فاعلون فيَّ؟ ، فقال أحد الصحابة: والله لو استرخصت لقومناك بهذا السيف. فقال: **أنتم إذن أنتم إذن**. أي أنتم أمة حية ولكم وجود حقيقي. قلت: وذلك دلالة على حياة الأمة الناقدة والآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر وهي ميزة **الأمة الحية عند الإسلام**.

فالأمة المعترف بها عند الإسلام هي **الأمة الحية** ، ولها تعريفها الخاص ، وهي جماعة من البشر ، تتبع حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وأنظمتهم وقيمهم وموازينهم كلها المنهج الرباني. وهي الأمة التي تعظِّم الله بالطريقة المثلى التي تليق بمقامه الأسمى. والأمة الإسلامية بهذه المواصفات قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من ظهر الأرض ، مع العلم أن خامات بشرية فردية متفرقة مازالت ولن تزول إن شاء الله تحتفظ بفطرتها «المعافاة من الوهن».

تكلمنا في تلك المحاضرة عن «دار الاسلام ودار الكفر» وتعريفهما الشرعي. قلنا: كما قال الفقهاء قديما وحديثا أن دار الكفر هي كل أرضٍ تحارب المسلم في عقيدته، وتصدُّه عن دينه ، وتعطِّل عمل شريعته أو تسيطر عليها أحكام الكفر . وأن الفقهاء جوّزوا للمسلم في دار الكفر الموافقة في الهدي الظاهر كاللباس والهيئة لأهل الكفر . وكان في كتاب سيد قطب خلاصة حياته والنقد الموجه اليه لتوفيق بركات، تفصيلا فقهيا رائعا عن دار الكفر ودار الإسلام وموقفهما في الفقه الإسلامي وبيانا شافيا فيه.

وعلى فرض وجود دار كفر ، فقدّمنا صور منهجية ذات دلالات عميقة لمواجهتها ، وقلنا أن المنهجية الصحيحة والمنطقية هي عرض التوحيد على أهل هذا الدار ولهم حرية الاعتقاد لأيِّ دين، إذ ﴿ لَآ

إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

واذا استسلم أهل هذا الدار للدين الإسلامي وحكم الشريعة أو بتعبير آخر قبول «العبودية المطلقة لله تعالى» فالمنهجية الصحيحة هي تنفيذ مقاصد الشريعة تدريجيا بحيث يجب الوقوف عند كل بند حتى يستكمل الوعي فيه والقبول عنده ﴿ لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٢]

قلنا: أن هذه الأمة التي تدَّعي أنها الأمة المسلمة «نظريا» أحاطت بعقيدتهم غيوم من الجهالات والظنون الفاسدة. وعمليا: هي تتحاكم إلى قوانين الكفر ، وأصبحت تألف هجر الشريعة وتمكين الجاهليات ، فاستنتجنا في هذا البحث أنها أمة «ميتة» بمعنى كافرة أو رافضة بهيكلها الأممي ، وبمنزلة الفضة على الدرهم الزائف، ومن ثمّ ، لا فائدة في بذل القوة لإصلاح القوانين الحالية ، فلابدّ من اعداد جماعة بعثية تحدث انقلابا إسلاميا على التصور ، وتجمِّع عناصرها الحية «**كبذرة**» وتربية تلك البذرة واسقائها بالمطر «القرآن» ثمّ تؤسس لهم بعد ذلك دولة على أسس إسلامية أي احيائها من جديد، خلافا لما يرى الآخرون من أنها أمة نائمة. واعتبرناها الحقيقة المرَّة التي هي أفضل بكثير من الوهم المريح. والحقيقة أن كل فكرة أو عقيدة تحمله أمة من الأمم دون أن تطبقه في حياتها ، إن هو إلا حبرٌ على ورق ، أو نصوص تقال بالأفواه ، وهيهات أن تظهر لأفكار أو أقوال آثار ما لم تترجم في حياة الناس إلى أعمال. كنا نرى يومها أن المحاضرة بلورت «الفقه الزمني» بحيث أن المحاضر استطاع أن يضع اليد على الجرح.

وإذا كانت هذه الأمّة اليوم «نائمة» ما كانت مقهورة إلى الأبد من عصابة من اليهود، وما كانت كرامتها مسلوبة قرونا . وفي التاريخ مرّت الأمة الإسلامية مرحلة «المرض» أو «الغيبوبة» التي أدّت إلى النوم العميق ، وحينها كانت ما زالت تحكم بالشرع وتقيم الحدود وتعادي الكفر والكافرين ، وتبعث المجاهدين وتقسم الفيء ، فعاقبها الله بالتتار مثلا وأذاقوها الآلام، فقامت بالألم وبصيحات دعاتها لأنها كانت حية؛ فقامت وهاجت واستأنفت كفاحها، واستعادت عافيتها وأصلحت شأنها وتابت ثم طردت عدوّها . وكان من رحمة الله بعباده أن فرض عليهم عقوبات تنبيهية لتستيقظ القلوب رهبا وترتعد الأطراف وجلا . وعلى كل حال كثرة المقاومة التي قامت بعد ذلك دليل على نوع من الحياة مهما كانت ضعيفة. ونحن نعترف جزئيا أنَّ التجرُّؤ هذه النظرية كانت تمثل صعوبة ذهنية عند بعض الشباب بالنسبة لغموض تفاعل المسار الزمني مع الدعاوي الكثيرة للإسلام في المجتمعات المشهورة ب «المجتمعات الإسلامية» ، لكنَّ الحقائق الدينية تشق طريقها لوحدها ، وأحكامها تؤثر على النتائج دون الالتفاف بالكثرة أو الادعاء .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٠] ، وربما كان من المطلوب عرض هذه الأفكار على الشباب بجرعات كحقن المريض بالجرعات اللازمة من الدواء؛ ليبتعد الشاب غير المتمرس عن الأحكام الجزافية المطلقة والمنطلقة من التركيز الشديد على مصطلح واحد أو التعمُّق به فيضيق في عقله توازن المصطلحات الإسلامية .

ومصطلح «الأمة النائمة» يستخدمها كثير من الناس كما استخدمها كسينجر السياسي اليهودي الثعلب والذي كان يتعالى على الكونجرس وحتى البيت الأبيض، قالها في مؤتمر «كام ديفيد» المعنية بمعاهدة السلام مع إسرائيل فقال موجها نداءه إلى اليهودي المفاوض: «إنني أُسَلِّمُك أمة نائمة فاستثمر ما استطعت نومها؛ فان استيقظت أعادت بسنوات ما أخذت منها بقرون» .

وعودة إلى التدرُّج قلنا يومها ، عند محاولتنا احداث مثل هذا الانقلاب لا بدّ من التدرُّج ، والتدرج عمليا يجب أن يأتي على المراحل التالية وبمراجعة أو متابعة أهل الحل والعقد ، وتلك تبين خاصية المنهج الرباني وطريقته المستقلة الفذة التي اختارها الله لشريعته :-

أولا: فرض الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين والبراءة من الشرك والمشركين والمنافقين «العملاء» . والغاية من الحكم أن يكون الدين كله لله ، وأن تكون كلمة الله هي العليا، وجاء أمر الله موجها نداءه إلى النبي الكريم وإلى كل حاكم مؤمن يهتم بإعادة الحكم الرباني إلى الوجود كي لا ينظر المسلم إلى المسئول عن نظرة الكراهية .

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَـٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَـٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١﴾ **وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ** إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٢﴾ **وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا** ﴿٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣] . والتوكل على الله يوصل ا لمؤمن بالقوة الكبرى بحيث لا يولي أيّ اهتمام للقوة الكافرة وإن أيّ ولاءٍ للكافر ينقض نقضا طبيعيا لولاء الله ولرسوله، ومعنى الولاء يتضمن الطاعة والتعاون والتناصر. قَالَ تَعَالَى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَـٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَـٰنٗا مُّبِينًا** ﴿١٤٤﴾ ﴾ [النساء: ١٤٤]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [المائدة: ٥١]. والمعلوم أن المسلمين الذين لم يهاجروا إلى دار الإسلام التي تحكمها شريعة الله، ويحقق منها وجوده الكامل لا ولاية لهم ؛ لأنهم لم يدينوا دينونة كاملة رغم رابطة العقيدة.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٧٢]. فإن نجحت تلك التجربة وقبلوا شرعية تلك الفريضة «التوحيد» يأتي مباشرة دور الفريضة الثانية «الصلاة» التي هي من حق التوحيد ودلالته.

ثانيا: فرض إقامة خمس صلوات على جميع المؤمنين في اليوم والليلة، وعلى شكل قانون ملزم يترتب عليه العقوبة المنصوصة على الكتاب والسنة، واعتبار تارك الصلاة مجرما يجب معاقبته، وإذا رأى الإمام شخصا ترك الصلاة متعمدا من غير عذر ، وامتنع عن قضائها يستتاب والا عليه قتله على رأي الإمام الشافعي ، أو تعذيبه وحبسه على رأي آخرين. **والنتيجة:** هي إيجاد أمة واحدة متحدة ، خاضعة لشريعة واحدة ، تابعة لرب واحد؛ لأن الصلاة رمز الوحدة والتضامن؛ فان قبلوا تلك الفريضة ، يجب أن نأتي إلى الفريضة الثالثة «الزكاة» التي هي أيضا من حق التوحيد ودلالته.

ثالثا: يفرض الزكاة على الأغنياء ويوزع على الفقراء «قانونيا» لا نظريا، و«عمليا» لا فكريا للأسباب التالية:-

١- لتخفيف الفوارق الفاحشة في التملك المالي ، الأمر الذي يؤدي إلى توزيع ثروات البلاد توزيعا عادلا يحقق الكفاية للجميع.

٢- ولكي تسكت عنهم البطون الجائعة بسبب الفقر الذي أصابها من جراء العجز عن العمل أو عدم تيسير أسبابه.

٣- ولكي لا ينظر الفرد إلى الغني نظرة الحقد والبغض.

٤- ولتمكين روابط المجتمع الإسلامي ، وكل شيء يشيِّد أوصر التآخي والتواد والتراحم ، ويقوِّم مفهوم الجسدية الواحدة للأمة المسلمة ، ويترتب على ذلك كل ما يتعلق بمنع الكنز ورفض المظاهر الترفيهية والتبذيرية، وتوزيع الصدقات والمصالح المرسلة ومحاربة المجاعة والفقر والجوع والعطالة لتوجيه الطاقة البشرية والمال إلى النافع ، ينتج منه الازدهار الاقتصادي الذي يعتمد على حشد مختلف طاقات الأمة في العمل والإنتاج والاستثمار ؛ لأن الزكاة رمز التعاون والتكاتف والإيثار.

ويطلق في الشرع عند تنفيذ هذه البنود الثلاثة ببند «حفظ الدين» لأن العبودية والأممية تحققتا عند البندين الأولين، والتعاون تحقق عند البند الثالث، من هنا يجب بعد ذلك على القيادة تحويل جهد الأمة كلها إلى نشر الدعوة، وتبليغ الرسالة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي طريقنا إلى تنفيذ جميع بنود مقاصد الشريعة الباقية.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي التوعية العامة التي يأخذ كل مؤمن دوره في هذه المرحلة ، حتى يكون الجميع على بيِّـنة من أحكام الله جل جلاله، وهو البرنامج العملي لحفظ هيمنة الدين ، بحيث

يواجه دائما بمجاهرة العباد بالمعاصي. ولهذا يجب على الحاكم المسلم أن يختار « هيئة عليا » تقوم بهذا الواجب الجليل ، هيئة محرقة القلب وعلى مستوى عال من الفهم تخاطب العقل والقلب ، وتخاطب الناس على قدر عقولهم ، لأن هذا العمل هو حرفة المرسلين وصنعة النبيين وهو بركة الوحي. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرمت بركة الوح» . ولو طوي بساط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأهمل عمله تعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة وعمت الفتنة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، وانتشر الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد. وهذا العمل هو الجهاد المستمر في حياة الأمراء خاصة والناس عامة . عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ» رواه مسلم. عَنْ أَبِي هَارُونَ الْمَدِينِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا، وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا؟» قَالُوا: وَإِنَّ ذَلِكَ لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ»

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾ [المائدة: ١٢] ، قال تعالى وهو يصوِّر ه

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ **وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ** وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج: ٤١] .

﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ **تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ** ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٠]

واستدللنا لهذا التدرج أيضا الحديث النبوي المتفق عليه : قَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى اليَمَنِ : «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ ، **فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُّ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِّ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ** ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَّ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، **فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ** ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَّ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ ، **فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ** ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِّ حِجَابٌ» . وفي قوله تعالى: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا** ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥]

ثم تأتي باقي مقاصد الشريعة على مثل هذا الترتيب أو هذا المنوال كحفظ النفس والعقل والمال والنسل والعرض حتى تكتمل هيمنة الشريعة على الدار هيمنة مطلقة ، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله سبحانه. وحينها استحقت تلك الأمة «المنة الربانية» التي وعد الله بها. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ **لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ** وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

والتوقيت يوجب مراعات الأحوال والأوضاع وبمراقبة العلماء والأمراء والعقلاء وأهل الفكر «أهل الحل والعقد» حتى تمّ تنفيذ مقاصد الشريعة جميعا ، ويرجع الأمر كله لله الواحد الأحد ، وتلك هي الحقيقة المفقودة التي كانت تربط الإنسان قديما بالكون الواسع في توازن حكيم ، ثم انقطع خيطها من يوم خلعوا الشريعة عن الأرض.

ويصوِّر ابن القيم رحمه الله تصويرا رائعا هذا التدرُّج فيقول «والتدرُّج هي طريقة التشريع الإلهي فينقل عباده بالتدرُّج من اليسير إلى ما هو أشد منه لئلا يفجأ هذا التشديد بغتة ، فلا تتحمله ولا تنقاد له وهذا كتدريجهم في الشرائع شيئا بعد شيء دون أن يؤمروا بها كلها وهلة واحدة ، وحكمة هذا التدريج التربية على قبول الأحكام والاذعان لها والانقياد لها شيئا فشيئا ، وكذلك يقع مثل هذا في قضائه وقدره مقدر على عبده ، بل لابدّ منه اقتضاء حمده وحكمته يبدأ بالأخف أولا ، ثمَّ رقيه إلى ما هو فوقه حتى يستكمل ما كتب عليه منه » بدائع الفوائد ٣/ ١٨٣

يتبين من هذا أن تعريف «دار الإسلام» هي الدار التي تقوم فيها الدولة المسلمة ودالة على إسلام أهلها لغلبة المسلمين عليها ، فتهيمن عليها **شريعة الله** ، وتقام فيها **حدوده** ، ويتولّى المسلمون فيها بعضهم بعضا ، والفقهاء جميعا متفقون بهذا التعريف ، وقد لخص بعض الفقهاء تعريف «دار الاسلام» أنها هي التي يكون المسلم **عزيزا** فيها!! بحيث يجير أدناهم على من يشاء ، وهي نفس المغزى السابق ، كما اعتبر كثير من الفقهاء أنه تصير دار الإسلام دار كفر بظهور أحكام الكفر عليها.

إن تنفيذ شريعة الله في هذه الدار لا تتطلب من قيادة الأمة «التدرُّج» فهي دار فقيهة في أمر الدين ، ولا استغراب لأحكام الشريعة إذ تعوّد الجميع على أحكامها **معاينة** وليست **مخابرة** فليس الخبر كالعيان ، ويجب عدم الخلط بين ادعاء قوم بالإسلام وبين الحقيقة التي وصف الله بالأمم .

أعتقد أن الخلط بين الدارين دار الإسلام ودار الكفر هو الذي أدى ويؤدي إلى تخبط رهيب في محاولة تنفيذ الأحكام فيهما أو الدفاع عن الأعداء منها ، وأن من المخلفات الرهيبة التي ورثها المسلمون بغياب الحكم الإسلامي هي الاهتمام بالفروع والأشكال ، بدل المغزى والجوهر . وعلى هذا الترتيب يعترف الإسلام فقط هاتين الدارين «دار الإسلام ودار الكفر» أو بتعبير آخر هاتين الأمتين : الأمة الإسلامية والأمة الكافرة. ويقع الاستثناء فقط في دار البغي التي هي جزء من دار الإسلام ، ودار العهد التي هي أيضا جزءا من دار الإسلام ؛ لأنها يعتبر «محمية إسلامية». أما دار « الردة » فهي تدخل تحت حكم دار الحرب وان اختلفت في بعض الأحكام .

إن إحياء الأمة الإسلامية من جديد ، يحتاج منا إلى بعث جديد، وتجهيز بحوث عن إعادة بناء الأمم والجماعات ونهضتها واحيائها، بناؤها الاجتماعي والاقتصادي والعقدي أو الروحي وكل ما تحتاج إليه الأمم لهذا البناء ، ونسأل الله أن يعيد إلى هذه الأمة الحياة ، والبيان محركا فعلا يبعث الأموات وينفخ الحياة وينشر الدفء .

والإسلام منهج كامل لا يمكن تطبيقه إلا في مجتمع مسلم يقام حدود الله فيه وإلا أيِّ زعم آخر يكون ادِّعاء . ولتلك الأسباب كلها يجب أن تكون دعوتنا الزمنية «بعثية» تعطي الأسلوب قوة فائقة وطرافة ممتعة ولذة وجدة ، فقد علمتنا الخبرة أنّ تبديل العقلية ، وتغيير الحياة ، وإلزام النظام ، لا يحدث فجأة

عند الناس ، وأن فكرة البعث أو التجديد لا تحدث إلا عند فئة مختارة من الناس ، وهي فئة المجددين أو المصلحين الذين يغيِّرون الأنفس بالتدريج ومع طول الأناة والصبر. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]

فقوة الدعوة الإسلامية للإنجاب وصنع الرجال ، وإنعاش الروح في الشعوب الميتة كافية لإحياء الأمة من جديد ، فصفة «الأمة المسلمة» تأتي عند الشرع بالالتزام لا بالوراثة ولا بالادِّعاء . ولهذا يجب انتهاج أسلوب الصَّرامة في إثبات العقيدة ؛ لأن كثيرا من المفاسد والانحرافات التي تحيط بوسائل الحرية والانطلاق قد استغرق تعميقها وتكريسها زمنا ممتدا . وهكذا أكدنا أن العقيدة الإسلامية لم تكن يوما مفاهيما نظريا ، ولا زعما قائما على الأوهام ، ولا اقرارا لوضع قائم على أسس أخرى ، إنما كان حكما وعقيدة وحضارة ربانيا قائما على أسسه المعروفة ، وأن القول بغير ذلك زعم كاذب ، ووهم باطل يفتقر للبرهان ، ويعتمد على حجج واهية .

في تلك المحاضرات ولهذه الأسباب كلها أعلنا تراجعنا عن الجيش وانسحابنا من التفكير المختبئ في الضمير ، أي الانقلابات العسكرية الذي بدأنا بتفكيره والتخطيط له من قبل ، كقرار جماعي صدر من الشورى ومن القيادة ، بعد قتله بحثا ودراسة ، وقبل الجميع يومها واقتنع به ، وذلك قبل العاصفة السلفية التي هاجت من الخليج العربي والتي سنتحدث بالتفصيل في فصول لاحقة بإذن الله .

وفي تقويمنا للأمة الصومالية في تلك المرحلة ، عرّفنا أنها أمَّـة «عنيدة» أو «مزاجية» تمشي على هواها ، ويصعب قيادتها ، إذ لا تتقيَّد بنظام ولا تتوقف بحدود ، ورثت من البداوة الطليقة والحرِّية المشبوهة ، فرجالها مثلا ؛ لم يربط لجامها بل تجري لها مقودها ، والزوج الصومالي هائج مائج يريد أن يتخلص من

سلاله وقيوده ، أو كجمل هائم حبله على غاربه . ومن نسائها من يصعب قيادتها ، وكثيرون منها لم تتزوَّج أنفة من أن يتحكم بها زوج ؛ فهي تداري عند نشوزها بالوعظ ، فإن لم تصلح فبالهجر ، فإن لم تصلح فبالضرب ، وليس في سياط التأديب أجود من سوط عزم ، ثمّ تنادي بعد اليأس على نفسها بالحسرة والثبور «يا لَهْوِيْ!» (Ba'y). وحتى في جِمالِها وفحولها لا يترك لجامها، ولا مهمل مقودها ، بل يرخى لها في وقت والطول بيده ، فإذا رآها مالت رُدَّها باللطف ، فإن أنت وأبت فبالعنف!!.

وقد عبَّر ذلك الوصف المناضل الصومالي المشهور محمَّد عبد الله حسن ردا على من عاتب عليه كثرة إعدامه ، فقال: من حكم الصومال ولم يقتل فاق وصف الرجال وربما من كوكب آخر ، فلابدّ أن نبحث له وصفا جديدا من جميع اللغات.

Duullaan goortaan wacaad iga digaysaane
Goortaan idin dareensadana waad iga didaysaane
Sidii deera yaacdaad kurtigiin sii durdurisaane

ولهذا تحتاج هذه الأمة الصومالية تربية أعمق وتدريبا أطول أكثر من أيِّ تربية أمة أخرى.

والحقيقة أن هذه المحاضرات التي أثرت يومها الجميع ، وتلقوها بالقبول ، كانت تعتبر عرض الإسلام بصورته الواضحة النقية ، وكشف كثير من الغموض ، ودحض كثير من الشبهات ، وما كان تكفيرا مستوردا ممن كانوا يسمون التكفير والهجرة ، بل كان مقاومة جريئة مخلصة أمام المشروع المثير الذي ظهر فجأة من مصر ومن المخططين الغربيين «حصر الكفر بالجحود والاستحلال» ثم شحن فيه بطاقة جديدة وغُـلف في الحرمين الشريفين واعتبروا من صناعته ، ومن فكرة أهل السنة والجماعة والسلف الصالح ، بل اقتبسنا المحاضرة من الإسلام نفسه ومن ثقافته وروحه على حسب ما فتح الله لنا منه

مستعينا لكل مفكر إسلامي أدلى دلوه في الموضوع . راجع بالتفصيل كتابنا الآخر في هذه السلسلة صرخة الإنقاذ (مصادر التجمع ومنابع التفرق).

والمؤامرات الغربية لا يمكن تمريرها على أهل الإسلام الا بصبغها لونا إسلاميا وإلباسها ثوبا شرعيا ، دور الإسلام فيها التجميل والتزيين ، وأخطر ثوب وأغمضه هو ثوب «الحرمين» لقداسته . وأقول بشكل مطلق وبصوت عال ؛ أنَّ كل ما أشيع في خلاف هذا الأمر من تكفير وخلافه كذب وبهتان ومن صنع الخصوم .

بدأ سوء الفهم لهذه المحاضرة في وقتها عند أخ واحد هو السيد «محمد عبد الطاهر» الذي فاجأ الجميع عند ما كان الكاتب يقدِّم هذه المحاضرة في بيته بفعل غريب «أساء الفهم فأساء السلوك» وأضاف باجتهاداته الخاطئة والمضطربة ، رجع إلينا في الليلة اللاحقة قائلا «لقد جددت البارحة نكاح زوجتي» تولاها المرحوم معلم محمود ، واستغربنا فهمه للموضوع رغم ثقافته الجيدة ، ولكنه بعد ذلك أصبح الرجل المتقلِّب بين التنظيمات التي بدأت في الساحة ، وكان يمرُّ الحركات كلها مرورا كراما ، واستقرّ أخيرا في «السلفية الجديدة» ولا يزال يلقي محاضرات عن التكفير معتبرا نفسه أنه خبير ومجرّب في الموضوع!، وذكر الأخ عبد القادر شيخ في شأنه أنه أرسل إليه رسالة شفوية يقول فيها أن التقلُّب في داخل الحركات الإسلامية ضررها محدود ، ولكن الكارثة أن يتجاوز إلى غيرهم فليحذر من ذلك .

ولعلَّ من سلبيات المحاضرة التركيز الشديد على مصطلح «الكفر» لم تتحمَّل فهمه بعض العقول التي كان من المنطق إعطائه بجرعات ، وأن من بعض العقول كانت غير ميسر لديها لاستيعاب تلك الاطلاقات ، فخلقت عند البعض هوسا أساء سلوكه مع المجتمع الذي حكم بالكفر . فأضافوا الفكرة

اجتهاداتهم الخاطئة فيما بعد ، وذلك بعد ما تعمَّقوا في بعض العبارات ، وبعد ما عمّ المنطقة الجدل حول مصطلح الكفر وشروطه وموانعه ، فأظهرت النزاعات بما عرف بالصلاة خلف المستور ، وتشكيك الصلاة خلف الإمام غير المعروف وغيرها من التهوسات الذي شاعت عند بعض الشباب ، وسبّب ذلك كما أظن النزاعات المتبادلة بين الأطراف المتنازعة ، فالتشدد في المصطلح الواحد والتعمق فيه سبب من أسباب الانحراف كما قرره بعض العلماء قديما ، والمذاهب أو الأفكار تحيا وتظهر في الأضداد دائما، فإذا تنازل واحد ، تشدد المقابل وهكذا. تلك كانت المحاضرة التي طال اللسان عليها بأنها تكفير مستورد ، وعقيدة خوارج وأهل الأهواء وغيرها كثير ولله في خلقه شئون.

أما موضوع الصلاة خلف الإمام المستور الحال الذي شاع في داخل الشباب في مصر وفي الصومال وغيرها من البلدان الأخرى حلّ في المنطقة بالتطورات التالية:-

أولا: في مصر أدخل في السجن عدد هائل من المتدينين بتهمة أعضاء الإخوان المسلمين المحظورة ، وأفرغ من المساجد من كل ذي خلق ودين ، وخلا الجو لعمال وزارة الأوقاف وللكشافة والغوغائيين ، ولكل من هبّ ودبّ ، حتى طلبت الرئاسة العسكرية أموال الأوقاف لحفظها في مكان آمن أي «عندهم» ، وهي القضية المعروفة في مصر التي أعدمت بسببها وزير الأوقاف الأسبق «الدكتور الذهبي» ، ومن الطبيعي في مصر أن يؤذِّن المؤذِّن ثمّ يذهب إلى حيث شاء لأنه لا يصلي ؛ فيذهب إلى الوزارة في آخر الشهر ليستلم راتبه الشهري منها.

ثانيا: أما الصومال صدر قرار يكمم أفواه الخطباء والوعاظ ، واشترط القيام أمام المصلين برخصة من وزارة العدل والشئون الدينية وذلك بعد تأمين المساجد ، وأصبح المسجد شبيها بمراكزهم الارشادية.

فبعد تأميم المساجد وإعلان أن الدولة هي المسئولة عن كل شيء حتى الدين ، ثم أصبح الأمن «الجواسيس» يطارد من بقي على دينه وتديُّنِه من مراكز العبادة تحت ذريعة الأمن ، مغطاة باسم وزارة العدل والأوقاف، توقف الكثيرون عن أداء الصلاة في المساجد.

ومن المفاجآت فيما بعد أن مات مؤذن أحد المساجد في مقديشو ، وأرادت عائلته بدفنه إلا أن العائلة تفاجأت بحضور رجال من الكنيسة الكاثوليكية يطالبون دفن الجثة في المقابر المسيحية ، محيطين علما أن الرجل كان مسيحيا يخفي ديانته، مستدلين بختم الصليب على ظهره مما أدى إلى تسليمه إلى رجال الكنيسة. وهكذا قام الحكم العسكر وأبطل القوانين التي تضمن الحرية والعدالة وخاصة حرية الفكر والعبادة وفرضت الرقابة على المساجد، فأصبح المسجد غير ما كان.

أنشطة الحركة الشبابية «الأهل» من جانبها أصبحت سرِّي للغاية، وأن الإخوة العشرة مثلا المجتمعين في بيت واحد لا تسمح لهم الظروف الأمنية الخروج من البيت مرة واحدة لأداء فريضة الصلاة في المسجد المجاور ، ثم الرجوع الى البيت لمواصلة العمل ؛ لأن القانون يحرم الاجتماعات ، وهناك مراقبات في الأوساط الاجتماعية ، وهناك أيضا نفور من حال الأئمة الموالين للدولة الملحدة ، ومالت الأنفس إقامة الجماعة مع المجموعة الموثوقة في البيت بعيدا عن الأنظار، وربما أدعم هذه الرؤية بقوله تَعَالَى: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ ٨٧﴾ [يونس: ٨٧] ، فتطوّر الأمر إلى تكفير الأئمة الذين طال لسانهم أكثر من اللازم، ولم يكن المسجد مسجدا كما كان من قبل، فقد سيطر المساجد رجال ﴿مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ ١١٤﴾ [البقرة: ١١٤].

أما بالنسبة لمنهج الحركة مرَّ العهد كله على ما خطط له ودون اشتباك، رغم أن سوء تصرف الملاحدة

وجواسيس الدولة كانت تدعو إلى الاستفزاز والاثارة ، علما بأن أصحاب القضية هم في مرحلة الشباب التي تدعو إلى الاندفاع والتهوُّر ، لكن بحمد الله نجح المربون على تربيتهم التي كانت تعلمهم ضبط النفس والصبر إلى حين. لكن من المؤسف أنَّ عددا من الشباب أو بالأحرى من ذرياتهم تجاوزوا هذه الإشكاليات إلى انحرافات أكبر.

وخلال إلقائي المحاضرة المذكورة دخلنا المسجد المجاور «سِيجَالى» فوجئت أن إمام المسجد اليوم هو الوزير «محمد جوليد» الذي اشتهر من بيننا اسم «المنسلخ» والمصطلح مشتق من قوله تعالى:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا **فَٱنسَلَخَ مِنْهَا** فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٥] ، فرفضت الصلاة خلفه فأصبحت عند الشباب درسا من المحاضرة . وعلى تلك الطريقة طال النزاع في مسألة التوقف مع الأئمة الذين اتبعوا سبيلا غير سبيل المؤمنين ، وبقي البعض على تلك الحالة حتى بعد تدهور النظام ، وتغير الزمان ، وانفصل الجماعة أعضاء بهذا الجدل.

وفي مرور الزمن جاءت صيحة السلفية تعتبر تلك الرؤية بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ، وأفتى في بيئة مكهربة على شكل جدل ، وبدأت استعداء بين المتدينين ، فبدأت ردود أفعال ، وهذا النزاع الأخير لا يزال يتردد على الآذان حتى اليوم ، فلا يرضى البعض أن يصلِّي وراء من يلعنه ويعاديه في الخطاب ؛ فظهرت عند البعض ظاهرة قديمة جديدة «لا أصلي خلف من لا أعرفه» تلك الظاهرة التي واجهت في زمن ابن تيمية وقال عنها «كلام جاهل لم يقله أحدٌ من أئمة العلم».

الفرق بين الحركات السرية والعلنية

التركيز على السرية كان من أهداف المحاضرة ؛ فالعمل السري ضروري، وذو فوائد عظيمة، خاصة في الأوضاع القمعية، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قَالَ رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بِالْكِتْمَانِ لَهَا؛ فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ».

لكن علمتنا التجارب أنه إذا طال زمن السرية، تظهر في داخل الحركة جراثيم فكرية، ومن الضروري عرض الأفكار على الشمس لينكشف الجرثوم الفكري المختبئ في ثنايا الظلام، ليجد التصحيح المطلوب، أو يختـفي حياء، أو يموت في حرِّ الشمس.

فالدراسة السرية تحتاج دائما إلى أكثر من مدرس. فقد يخطئ المدرس الواحد في أجوبته ، ويفتي في جلساته الخاصة، فتعـيش آراؤه الخاطئة تحت الظلام أكثر، وتتحول الطبائع إلى أفكار، فتتجمّد وتتعمق في بعض الجلسات دون بعضها؛ فإذا لم تجد التصحيح الفوري ستتحول فيما بعد إلى جراثيم فكرية، ومدارس مستقلة، وتتعمق أفكاره في مجموعته عند بعض المسائل الفرعية أو الاجتهادية، ثم يتحجَّر الفرع ويظن البعض أنه من الأصول، وربما تحول نظرية أفراد الجماعة الواحدة إلى أحزاب متصارعة متلاعنة ، وهذا ما حدث في الداخل بحيث افتى كل معلم بطريقته الخاصة وذوقه وفي علاقته مع المسلمين الآخرين، ومع مراكز العبادة، ومع المجتمع، وهذا من أضرار السرية إذا طال زمنها.

وبما أن عرض المبادئ على الشمس في الأوضاع المعادية لها تبعاتها الخطيرة، لكنها ضرورية لكل وقت وزمان لكي لا تتبعض الأفكار، ومن ثم تتفرق الجماعة. أمر آخر يتعلق بالسرية أن القوة المتنامية في

الخفاء ستنطلق آخر المطاف وستختزل الرموز القائمة وتعتبره مجرّد أشياء ذات قيمة طفيفة كما ذكرنا سابقا.

لقد كان عرض المبادئ على العلن في الأوضاع المدنية، فاشتهر العمل الإسلامي بصفائه ونقائه، ثم بدأ العمل تحت العلن المتمثل في الدروس التي كان يلقيها الشيخ محمد معلم رحمه الله أمام الملأ، فلم تكن هناك أفكارا طائشة، لأن العمل كان وحدة متنامية ، ولم يكن هناك جدل وتفرق.

والعمل السري قد أظهر فيما بعد بعض الفتاوى غير سارة أو الفتاوي الشاذة عند بعض الشباب ففرقت الأفراد إلى فرق. ولذلك يجب ألا تطول فترة السرية كي لا تتراكم عليها الأفكار أو الفتاوى الطائشة.
هذا إذا كان العمل الحركي السري فكري فقط. أما إذا كان العمل السري قتاليا أو جهاديا على حدِّ تعبير البعض، فالسرية في ذلك الوقت ضرورية ولكنها خطيرة جدا؛ لأن السِّرية في تلك الحالة ذات قوة أسطورية، وليس من اليسير التصدي لها لأنها غير مرئية، ولقيادتها فعل السحر في نفوس أتباعها، فالحاكم السِّري في تلك الظروف هو شخص لا يرى ولا يناقش ولا يراجع، ولذلك تضفي ذاتية على أعضائها فيشعرون أنهم على درجة عالية من الإخلاص، والثقافة العسكرية تركت بصماتها الغريبة على العمل الإسلامي . ومن الممكن أن تكون الدائرة على منفذي أمر الحاكم السري، والحقيقة أنَّ الثقافة العسكرية الغربية المطلقة لها تأثيرها في مثل الحالات. والإسلام دين أوسع من أن يتحكم أمره إمام واحد، والأخطر من ذلك أن يكون قائدا مجهولا واحدا أو من قيادات مجهولين. ومن الخطورة بمكان احتكار حق التعبير عن القضية ا لجهادية وغيرها أو حصرها في محيط رؤية فرد أو أفراد.
أما الحركات المعلنة تحت الظروف القاهرة، فهي تتصادم مع الأنظمة، فإذا أرادت أن تعيش بسلام مع

الاستمرار بالعلانية؛ فمن الطبيعي أن تخفف لهجة خطابها على الذين كفروا أو ظلموا، وستتـنازل عن بعض أفكارها، وبالتالي ستعادي من يرونهم ب «المشاغبين» الذين يعرضون الحقائق سرا أو علنا ولا يخافون في الله لومة لائم، وستكون في النهاية سندا للباطل المسيطر، فمن حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه. وهنا يأتي دور التحذير الرباني قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [هود: ١١٣] ، وإن لم تتدارك الأمر سيؤدي هذا التنازل إلى التفرق والتنازع؛ لأن التنازلات لا تقنع المخلصين من الجماعة فتهتز مصداقية الحركة وتتفرق منه أتباعه.

*****

السِّـــــجن

في سجل التاريخ مليء من الشدائد التي لحقت الأنبياء والمصلحين من الملأ والحكام الظالمين، فآلت بهم إلى الموت أو إلى غياهب السجون وحجر الحريات والنفوس.

وخلال إلقاء هذه المحاضرات المذكورة آنفا، كان بعض الإخوة والأخوات في السجون، دخلوا المحنة ليخرجوا إلينا فيها بعد ذهبا نقيا. والاعتقالات كانت مستمرة، حصلت الاعتقالات نتيجة دراسة مخابراتية بوليسية، كانت تتابع الأنشطة المختلفة التي كانت الجماعة تديرها فترة طويلة، وذلك بعد أن فازت بالمعركة الناعمة، ونجحت فيها، وكان لها الغلبة الفكرية؛ فقد أسكتت الملحدين والمذاهب الفكرية الهدامة كلها، واجتاحت المنطقة بقرآنها ودعائها وصبرها وصلواتها.

وقد ضاع جهد المخابرات أو بالأحرى أضاع الله جهدهم، فلم يجدوا كما كانوا يتمنون أيّ علاقة بهذه الحركة بالقوى الخارجية التي لفقوها كثيرا، لم يجدوا أدنى شبهة بأيِّ علاقة بين الامبريالية عن طريق السعودية كما دندنوا، إذ لم يتخرج من الجامعات السعودية أحدٌ له علاقة بالجماعة حتى تلك الفترة.

وكل ذلك الدَّجل لم يكن مبررا؛ لأنه ثبت أن كل الأحداث التي اتخذتها الحكومة كانت ملفقة بسراب لا ماء فيه، فهللوا أن وجدوا رأس الأفعى، متفرغا لهذا العمل هو الأخ «عبد القادر شيخ محمود» الذي استقال قديما من عمله في شركة الكهرباء، وتنازل عن المنحة الدراسية المجانية وألغاها، ثم رجع إلى البلاد، وتفرَّغ لقيادة هذا العمل، واستنتجوا من ذلك أنه مموَّل من الخارج فهو متزوج وصاحب عيال، وأنه خطب زوجة ثانية. قالوا: من أين يعيل أسرتيه؟ .

وانتهت الدراسة المخابراتية إلى قيام حملة كبيرة بدءا بالرأسين الشيخ محمد معلم حسن الروحي والمنوِّر وعبد القادر شيخ محمود المفكر والمخطط، يليهم كل الناشطين الذين سجلت أسماءهم الدراسة المخابراتية، ويضمهم غيرهم من العلماء والمعارضين الآخرين الذين شاقوا الثورة . فبدأت الاعتقالات، وأدخل كوادر هامة في السجون شباب وشابّات، وخرج البعض من البلاد كي لا يواجهوا الاعتقالات التعسفية، ولإتمام دراساتهم العليا في الخارج، فأصبح النفي أو الإخراج المفاجئ من البلد الأصلي ثقافة وسياحة ومتعة!

والسجن بوتقة تختبر فيه الشخصيات، ومن ثم لا يزيد المؤمن إلا همة وصلابة. وقد تأتي رحمة الله بعباده وسط نيران الحقد عند الأعداء، ولطفه وقهره كله رحمة، فآيات الله في كونه لا تعدُّ ولا تحصى، وقد يخفى عواقب الأمور في صدور أضدادها ، كما أخفى ليوسف عليه السلام عزَّ الملك في ثوب الرق، حتى قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾. فالغرض الأساسي في السجون هو كسر العزيمة، وتحطيم المعنويات، ومحاولة استغلال الضعفاء، وهي كثيرا ما تتحول إلى نتائج عكسية، إذ ليس من السهل أن يتخلى الإنسان عن فكرة أوذيَ بسببها، وضحى بزهرة شبابه وقوته من أجلها. فإذا عذبوه وصقلوه أخرجوا لنا معادنه الثمينة الكامنة فيه؛ لأن الناس معادن كمعادن الذهب والفضة كما ثبت عَن النَّبِيّ ﷺ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «النَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا».

والحقيقة أن الأعداء بعنف بطشهم على الدعاة إلى الله، تولِّد أجيالا من العمل الإسلامي أصلب عودا، وأطول نفسا، وأكثر وعيا، وأشد مراسا من الذين يحاربونهم اليوم، فهم يتولون التربية القاسية التي تنتج

الأشداء على الكفار، وبفعلها هذا لم تدر أنها زادت الإيمان اشتعالا وزادت المؤمنين قوة وصلابة، وأشعلت على طريق الإيمان شعلة يسير على ضوئها موكب المؤمنين. وفي الصبر على الأذى يتبين مواقف الأبطال، وتظهر معادن الرجال، وحلم الله على الظالمين يجعل المظلومين في أعلى عليين. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [محمد: ٣١]

الابتلاء لجانب الله صعب في بدايته، فإذا جاءت زادتها صقلا وصلابة وقربا من الله سبحانه، وأن نتوقع الصد والحرب من نفسك وهواك وطبعك وشيطانك وأهلك وإخوانك، فلنصبر عليهم يأتينا العون من الله سبحانه، ويصير الصعب سهلا، وستتحوّل المشقة إلى لذه؛ فيهيبنا أعداؤنا، أو يساعدوننا، أو يتركوا شـــأننا، وقد يمدُّه الله سبحانه بقدرة فائقة على الصبر ويُعلِّمه الإسلام أن يشكر الله حتى على الكوارث.

فالسجن على علاته من أجمل أيام عمر الداعية وأسعدها، إذ أشرق في القلب أنوار ربانية، وتذوق لذة المحنة فكانت عنده عذب المذاق، كما ذاق محبة لم يذقها إلا الصادقون.

إن يد الطاغوت لم تطق صبرا وهي ترى ثبات المؤمنين، فكانت تتعجل الخطى، فـتزهق أرواحهم ظنا منهم أنها أنهت الدعوة الإسلامية بهذا الفعل. وهذه التربية الشاقة هي التي تصقل نفوس المؤمنين، وتؤهلهم لقيادة البشرية فيما بعد تلك الحقبة الحرجة.

والدراسة المستفادة من السجن الحربي الاجرامي في مصر ومن جميع السجون في العالم العربي، تفـيد أن السجناء الذين تمسكوا بمبادئهم، ولم يتزحزحوا عن مواقفهم، هم الذين عاشوا في السجن آمنين محترمين أكثر من الذين حاولوا التنازل، إلا الذين استشهدوا في هذا السبيل. فالتنازل يؤدي إلى مزيد من

الضغط ليحصلوا على مزيد من الاستسلام، ولا يزيد التنازل الذئب إلا جوعا ونهما، ولايزال يكرر هل من مزيد؟

ولقد أعجبتني إجابة المخابرات الفرنسية عند ما طلبت المخابرات الأمريكية منها تفاصيل عن الموسوي المتهم بالقاعدة فجاءت الاجابة كالتالي: «يتحلى بقدر كبير من المرونة، وأنه ذكي جدا، وشديد اللامبالاة، وبارد، وحاقد، وغير متسامح، ومخلص جدا للأصولية الإسلامية المتطرفة» هكذا جاء التفصيل في كتاب مدير المخابرات المركزية (سي أي إيه) جورج تنت.

وهكذا الصبر على الصِّراع يهب النفوس قوّة ويطهِّرها في بوتقة الألم؛ فيصفوا عنصرها ويضيء، ويهب العقيدة عمقا وقوة وحيوية؛ فتتلألأ حتى في أعين أعدائها وخصومها، فينحاز إليهم ويناصرهم أشد المناوئين وأكبر المعاندين. وهكذا للصِّبر مرارة ولكن مرارته شفاء؛ لأن الصِّبر على مرارة الدواء في البداية يؤرث حلاوة الشفاء في النهاية، ومن كانت بدايته محرقة كانت نهايته مشرقة. ولتوضيح هذه الحقيقة أكثر علينا مراجعة أقوال الخارجين من السجون عموما، ومن السجن الحربي في مصر، وجوانتانامو في كوبا، وأبو غريب في العراق ... وغيرها.

أما ما تردد على ألسنة الأعداء قديما، وورثه بعض خطباء المساجد فيما بعد، من أن الخارجين من السجن كانوا خاضعين لحالتهم النفسية، ووضعهم الخاص في الزنزانات والتعذيب المستمر أنتج مدرسة التكفير والإرهاب والتعصب والانعزالية، تلك الصفة المقصودة لسيد قطب قديما وتكررت فيما بعد لآخرين، فهي كذب وتلفيق وتضليل ولا أساس لها من الصحة، فقد دعت الحاجة إلى استخدام الدعاية ضد المؤثرين الخارجين من السجن، ونسيج الأساطير والافتراءات والتشويه حولهم، وانتشرت تلك الدعاية

بعد بث السموم الدعاية كل من الصهيونية والماسونية والاستعمار، وهؤلاء الخطباء الذين ورثوا المؤامرة لم يعتمدوا أيِّ دراسة علمية أو بحثية أو تاريخية، بل اعتمدوا على الشائعات فقط، وندعوهم أن يراجعوا تلك التلفيقات الابليسية، وإلا فليعلموا أنهم لا يخدمون إلا المؤامرات، فليتوبوا إلى الله قبل أن يموتوا. والحقيقة في الأمر أن الخارج من السجن الناجح في الابتلاء يخرج محترق القلب فيسحر السامعين بخطبه ووعيه ، وكانت من نصيحة داعية «عند ما لا يحترق القلب شوقا والروح عذابا والذهن هما، فلا تتكلم ...... وإلا فلن تجد أحدا يصغى إليك ».

بعد اعتقال المجموعات النشطة في الجماعة التي كان لكل واحد منهم قصص مثيرة أعرضت عن ذكرها لضيق المقام، ورجاء أن يكتب المعنيون الذين عاشوا في تلك المحن، بدأ إخراج عدد آخر غير قليل والذين منحتهم الظروف فرصة الخروج من المأزق، أخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم، ودعناهم بطريقة سرية مرهقة نُسِيَتْ آلامُها وبقيت بإذن الله حسناتها.

ولما برزنا لتوديعهم ❋ بكوا لؤلؤا وبكينا عقيقا
أداروا علينا كؤوس الفراق ❋ وهيهات من شكرها أن تفيقا
تولوا فأتبعتهم أدمعي ❋ فصاحوا الغريق وصحت الحريقا

ثمّ قررت الجماعة «الأهل» توسيع دائرة الدعوة في العاصمة بالذات، وقدَّمت مدرسين لم يطاردهم النظام لخمسة عشر حارة، بدأوا تفسير القرآن في المساجد، مثل « شريف نور شرفو» المشهور ب «أبَّ نور» في مسجد (حمر وين) ، و «مريدي شيخ صوفي» في جامع (شنغاني) و «يوسف فود عَدَيْ» في مسجد (شِـبِسْ) .... وهلم جرا في خمسة عشر مسجدا ..... و هكذا كل أقسام مقديشوا، فبدل أن

كان التفسير في مسجد «عبد القادر» قبل اعتقال الشيخ محمد، سمع دويُّ التفسير في جميع أنحاء مساجد مقديشو، وفي جميع المدارس فانقلب السِّحر على السَّاحر.

توصيات مدير عام الحركة كانت متكررة ومراقبة أن يرتقي المدرسون إلى مستوى لائق للترجمة الصحيحة، مستفيدين اللقبة الصومالية أو الترجمة من العلماء التقليديين، ثم يطالعون بجهدهم الخاص إلى التفاسير المعتمدة، وأخيرا يختمون في مراجعة التفسير «في ظلال القرآن» لسيد قطب، لأنَّ من ميزة هذا الكتاب أنه يصوِّر للقارئ التجليات ومفحم بالروحانيات ، إضافة إلى تصويره الأدبي الحيِّ الرائق والرائع، وتفرُّده في تصوير الواقع ثمَّ براعته في شحن الحماس، علما أنَّ الحماس هو الذي يقود الأشخاص إلى العطاء ، ونوصي لكل مفسر في تلك الطريقة لفائدتها. وأدت تلك التوصية من المفسرين يومها جهدا جبارا للاطلاع والاستماع قبل إلقاء الدرس. فقامت الحكومة الحملة التي أدَّت إلى كثير من الناشطين إلى السِّجن أو السفر المفاجئ إلى الخارج مرة أخرى.

قامت الجماعة محاولة أخرى عن طريق الشيخ « Apa » الحمري المتعاطف مع الحركة رغم ميوله التصوفي، تلك المحاولة كانت تهدف لخداع النظام الذي يقول نحن نقبل أهل التصوف ليتولوا دراسة المساجد، فطلبت الجماعة من ذلك الشيخ أن يحاول إيجاد رخصة لأحد أبناء الطريقة الصوفية هو السيد «مريدي شيخ صوفي» من أفضل المؤهلين لإلقاء الدرس؛ ومن أهل حمر المسالمين، فوجد رخصة لتفسير القرآن في مسجد «أربع ركن » وسط العاصمة؛ فتزاحم الشباب مرة أخرى في هذا الدرس يغطون نشاطهم المتنوع، وأصبح حلقة الوصل بين الشباب واستمرَّ عامين ونصف من سورة الناس إلى سورة

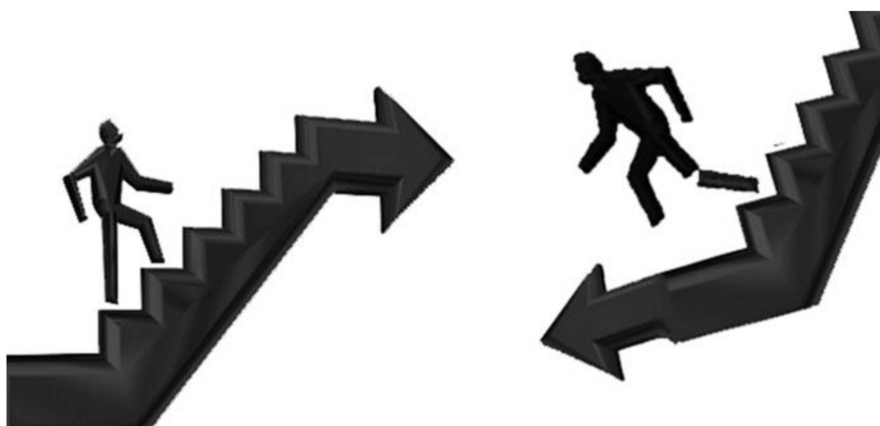
المائدة، بعدها قررت المخابرات وقف الدرس الذي أصبح بديلا عن الشيخ المسجون، مدير المخابرات «جيليعَو» أبلغ «الشيخ مريدي» هذا القرار. فأحيل القضية إلى الشورى ونوقش فيها **رؤيتان:-**

الأولى: كانت تدعم الاستمرار في الدرس متوكلين على الله ورمي قرار المخابرات بالمزبلة، وأضافوا الفكرة تجهيز عشرة من الشباب المؤهلين لتفسير القرآن الكريم يتعاقبون في الدرس بعد اعتقال الشيخ مريدي الأكيد، كلما سجنوا واحدا جلس مكانه مباشرة شاب آخر. تلك الرؤية كان يدعمه الشيخ مريدي وغيره.

الثانية: الرأي الآخر كان يقول نحن تحت حكومة متهورة ظالمة وكافرة تعادي الدِّين كما نعادي الكفر، وكانت العبارة المستخدمة لهذا الرأي في تلك الليلة «لا تخاصم من إذا قال فعل» انتهت المشاورة بالإجماع وقف الدرس. جلس الشيخ مريدي بعد القرار مع مدير المخابرات الذي أمر بوقف الدرس، وقال له: سأعلن الليلة بوقف التفسير بأمرك وأعلن للجمهور بأنك تتولى أمام الله هذا الإجرام. فقال له يجب أن توقف الدرس بلا كلام وبلا إعلام، وهدّد بأسلوب جاف وخطاب عنيف وهو يتبختر وكان يمشي مشية يحسده عليه الطاووس، قائلا: إن لم تفعل سيكون مصيرك إلى السجن. فتوقف التفسير عند هذا الحد ولله في خلقه شئون.

*****

المرحلة الثانية من الاضطرابات



المرحلة الثانية من الاضطراب

أخذ المرحلة الثانية من الاضطراب مرحلتين: مشعل الاضطراب الأول كان المرحوم عبد العزيز فارح غفر الله ذنوبه ورحمه الله. أما المشعل الثاني كانت العاصفة السلفية الغازية، تكاتف هذين المشعلين هي كانت سبب الاضطراب الثاني.

كان عبد العزيز رحمه الله ذكيا بالفطرة ذو جاذبية ساحرة، كان له في قلوبنا محبة وإن كان أصغر منا سنا، وكان عضوا في الجماعة قبل أن يسافر إلى السودان للدراسة، وكان شخصية لطيفة بسُّومة، وكالمعتاد انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين في السودان، ثم تفرقت الجماعة السودانية إلى اتجاهين، وذهب عبد العزيز مع اتجاه حسن الترابي، وعند التفرق والتنازع يتفلسف الإنسان بالأفكار المتنازع عليها، ويقـتـنع بفيروسات الخلاف والنزاع والاضطراب، فتتلاعب به فيروزات الخلاف من حيث لا يدري.

وشارك الأخ عبد العزيز في هذا الخلاف فاقـتـنع وانبهر بقيادته الجديدة الحائزة على العالمية من جامعة سربون الفرنسية الشهيرة، وبدأ يتكلم على طريقته ويحرِّك الأيادي على شكله، فتأثر به أيما تأثر، وتزامن وجوده في السودان صدور كتب تتكلم عمّا سموهم التكفير والخوارج مثل كتاب المستشار البهنساوي، وكتاب للقرضاوي فقرأ الكتابين على ما يبدو، وظنّ مادام أنّه طالب جامعي عليه مسئولية انقاذ حركته الأصلية من التكفير، لكنه رحمه الله حمل إفرازات الخلاف الذي وقع في السجون المصرية إلى الحركة في زمن كانت الجماعة تعمل بنشاط وسرية تامة مع كتمان شديد. ونقل الخلاف والنزاع وافرازاته إلى غير بيئته خطير جدا كحمَّى غير معروفة الأسباب.

رجع إلى الصومال زائرا ومضيفا للدولة، ونائبا عن الجالية الصومالية في السودان، وحضر احتفالات أكتوبر عام ١٩٧٨م، جاء من السودان وهو حامل هدية فكرية إجبارية إلى إخوانه القدامى الذين تربى بأيديهم، والذين كان لهم الفضل في اتجاهه الإسلامي، ونقل إليهم إفرازات معركة الخلافات التي دارت بين الإسلاميين في الوطن العربي، والتي أدت إلى الانشقاقات، وكأنَّ معركته معنا لا تنتهي إلا إذا قدمنا البيعة للإمام الترابي، وهكذا وقف موقفا متصلبا لم نعتد من قبل.

مشـكلة الأخ المرحوم عبد العزيز غفر الله ذنوبه كانت أنه خرج من الصومال، والجماعة تعمل تحت ضغط السرية، يتحرك أعضاؤها فقط في ظلمات الليل وعند ما يحل الظلام، وجد في السودان أفكارا طليقة تعمل نهارا تحت الشمس، تتشاجر الأفكار في النوادي والطرقات. فهناك اليمين وهناك اليسار وهناك طرق الصوفية ، وهناك الإسلاميون المشهورون بالإخوان المسلمين، والشعائر كلها معلنة وأحيانا تصل المشاجرة إلى الاقتتال حتى شاع شعار اليساريين (الشيوعيين) «يمين يا جبان، اليسار في الميدان» وتلك كانت معركة بين اليمين (الغربي) واليسار (الشرقي). وهكذا كانوا يتلاعبون عقول العالم الثالث أو العربي بالذات.

كنا نتلقى أخبار الإسلاميين في السودان، ومعركتهم الكلامية مع الملحدين في الشوارع والنوادي، فقد نقلوا إلينا أخبار فتاة متدينة تستفتح الحوار معهم في النادي العام، فقالت: اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات والقانتين والقانتات، واهلك الكافرين والكافرات والملحدين والملحدات والشيوعيين والشيوعيات والاشتراكيين والاشتراكيات والقوميين والقوميات ...إلخ ، وهكذا كان الحال في السودان، المعركة الكلامية وحرية التفكير كانت في الشوارع وفي النوادي وفي

المساجد، فأصبح عبد العزيز كمن خرج من السجن الانفرادي الكئيب فتحرك في الهواء الطلق، ونسي الظروف التي أجبرت حركته القديمة في بلاده، واعتبر السرية تــزمتا لا مبرر له، بينما النظام سجن كثيرا ولايزال يراقب ويشرِّد البقية التي تعمل تحت السرية، كما اعتبر أصدقاءه القدامى طفيلات لا تحمل ألقابا ولا شهادات عليا من الجامعات. واجه تلك العوامل الأساسية في تكوين الشخصية عبر مراحل نضوجه العقلي والجسدي في الرفض المطلق أو القبول المطلق على أساس المحاكمة العقلية خاصة في البيئة غير المتجانسة، وكثير من مقومات الشخصية في مثل تلك المرحلة تدفع صاحبها لا شعوريا إلى التشبث ب «الوهم» حتى يصبح ذلك الوهم في عرفه بمستوى الحقائق، والشباب بسبب تكوينهم العقلي والجسدي يحتاج دائما من ينقذه من الغرق في بحر الأفكار والأوهام.

جاء من السـودان متمردا على أفكار حركته الأصلية، تدفعه العاصفة الزمنية فوبيا من مصطلح «الكفر والتكفـير» الذي كان حديث الساعة في الإعلام ودوائر النشر واعتبرها حضارة عالمية، فقد حمل بمعركته الفكرية تقليدا لدكاترة قصدوا الطعن بالتكفير المروج يومها إعلاميا فسلك دربهم، جاء لاذعا يتكلم من علٍ، يفرض أفكاره ومفاهيمه التي نقلها من السودان فرضا، شديد الاستهزاء، خاطب الجماعة كأستاذ يؤنب تلاميذه الأشقياء. كان – عفى الله عنه– من أعنف مهاجمي أفكار الجماعة وعلى ما أصبح يقينا من كفر الحكام والرؤساء الذين رموا كتاب الله وراء ظهورهم.

إذا حكمنا التفرق على أنه فتنة يذهب الريح والقوة ، فإن المرحوم – عفى الله عنه– مثّل داهية كبرى له القدرة في عرض ما يفرِّق، واستطاع جمع عدد تأثر في شبهاته، فصاروا يسعون فيما يفرِّق بين المهتمين بالعمل الإسلامي، ويوجب الاختلاف في الدين، وكان من المفروض أن يمتنعوا عن ذلك، ويعملوا فيما

يقوم به الإسلام ويكمل به الإيمان، لأن داء التفرق هو أحد أوجه الاحتلال والاهتزاز الفكري والتربوي، وأعظم مجال لتصيُّد الثغرات، والتحلل من الالتزامات.

لم نتوقع أحدا مسلما عاش معنا فترة من الزمن يصدر إلينا مثل تلك الأفكار الغريبة والمستوردة، والتي كنا نعتبرها ب «فهم مشين» لأنه يحاول افراغ مصطلحا قرآنيا من مضمونه، ولم نتوقع ما كان يفعله عبد العزيز، فقد كنا نرى أنه حامل فكرة يريد تفرقة هذه الجماعة المؤمنة المطمئنة ليزعزع أمنها ويضرب بعضها ببعض وليشيع - كما ظننا -أغراضه النفسية الطامعة لتحويل قيادتها إلى المنظمة التي انضم إليها، فعل ذلك والحركة مطاردة ومتابعة تحركاتها من قبل المخابرات وعشرات من روادها في السجون، بينما عشرات أخرى خرجت مضطرة من البلاد، وكان الانتساب للحركة خيانة يقاضى فاعلها بأحكام عالية.

الهدية الإجبارية

كانت الهدية التي جاء بها الأخ المرحوم عبد العزيز، تتلخص في أمرين:

أولا: حصر الكفر بالجحود والاستحلال، سمّاه بحثا نفيسا راجع فيه ١٨ تفسيرا من التفاسير المعتمدة، قال: اتفقوا وعقد إجماعهم على أن الحاكم الذي لم يحكم بكتاب الله لا يكفر إلا إذا استحلّ أو أعلن الجحود، وأن عبد الله بن عباس رضي الله عنه ترجمان القرآن فسّر بذلك قوله تعالى ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة: ٤٤] وقال كفر دون كفر أو ليس الكفر الذي تذهبون إليه، وقال مستهزئا خرج من هذا الاجماع الأستاذ سيد قطب في تفسيره الشاذ، وقال: إما الكفر

وإما الاسلام ولا ثالث لهما، هكذا بالتهكم!. قال ذلك لأنه كان يعلم أننا على اتصال مع كتب السيد جميعا ومع الظلال، أما هو فقد تزامن في السودان في زمن تجرأ الناس لنقد العالم الجليل، والمفكر العظيم. والمقصود من الاستحلال أنه لا يكفر إلا المكذب بقلبه فقط، أو لا يكفر إلا الجاحد والمكذب لما أنزل الله.

ثانيا: موقفه الغريب من القانون الدولي: قال: أنه علم في بحثه النفيس هذا، ومن المتخصصين في علم القانون الدولي، أنه يعتمد على الشريعة الإسلامية وفقه علمائه في تقنينه بنسبة ٨٠ في المئة . أما ٢٠ في المئة الباقية أخِذت من مصادر غير إسلامية ومن هوى واضعيه، وكنا نعتبر ذلك من أفكار أستاذه حسن الترابي المتخصص في القانون الدولي والذي يتكلم أحيانا بطرق مريبة، وأن عبد العزيز ليس إلا ناقلا منه فقط. هذا الخلط الرهيب الذي يشبه أو يقتبس من خلط رفاعة الطهطاوي المصري الذي رجع من فرنسا، خلطه بين اصول الفقه التي تقوم عليها الاجتهادات الفقهية، وبين الأسس التي تقوم عليها قوانين الغرب التي ترتكز على الهوى والباطل.

قال المرحوم عبد العزيز: ٨٠ في المئة التي أخذت من الشريعة فهي إسلامية بحتة ولا جدال عليها، أما عشرين في المئة الباقية، فإذا طبق الرئيس جحودا بالشريعة واستحلالا يكفر، وإلا يعتبر خطأً وذنبا تلحقه التوبة وتمحوه الاستغفار، كانت فتوى غريبة بالنسبة لنا، ولم نكن نعلم حتى ذلك الوقت دوافع هذه الفتوى ولا مَـن وراءها، وحمَّى المرض مؤذٍ إذا لم تعرف سببه وكذلك الأفكار. ومن القصور في الفكر إهمال الحقائق والبحث عن دلائل يحيي الشك وتنمِّيه على حساب الحق، ومثل ذلك عدم البحث عن سبب الظن والشك وتركه في العقل.

كانت هذه خلاصة دعوته الاجبارية أو بالأحرى فتواه الدينية، والحقيقة أن هذه الفكرة لم يقترحها هو ولا أساتذته في السودان، ولا استنتجه من التفاسير المعتمدة، بل كانت عاصفة عالمية مدعومة من القوى الغربية والقوى الخفية، تناولته الصحافة العالمية ودوائر النشر العربية كالببغاء، وبإسهاب عجيب، ونحن قدمنا من قبل محاضرات لمواجهتها. ومن المعروف أنَّ المدلول الفكري يفقد بريقه عند ما يلمس المحاور دونه حقائق معروفة لديه، فلا يشعرون بالسعادة وهم يستمعون أفكارا ناقصة أو مغلوطة يحاول صاحبها أن يصل من ذاته وموضوعه بسبب مخفية أصوله، وباعتبارات من شخصية متفاضل أو متمايز.

جمعنا له عددا من الأعضاء لمنا قشة رؤيته، ولحسن الحظ كان الكاتب من شهود ذلك اللقاء، تحدثنا معه بهدوء، قرأنا عليه آيات كثيرة وأحاديث وأقوال علماء تثبت إدانة فكرته، كلها انتهت بلا جدوى، ولأنه يعتبر أننا جهال، ولسنا أصحاب الشهادات وليس لدينا تخصصات عالمية في حين كان هو طالبا في الجامعة قسم الإدارة . كان واثقا بنفسه معجبا برأيه، نبرات صوته وإشارات يده وملامح وجهه كانت مستفزة ، وكان يدعم فكرته أحيانا بالقسَم ، وأنه سيتولى مسئولية صحة رؤيته أمام الله، ويقول بلسان الحال «اتبعوا سبيلنا ونتحمل الخطايا والنتائج».

رفضت المجموعة فكرته بإجماع رفضا قاطعا، وأثبتت له غير ما كان يدعو، بل أدانت فكرته ورأيه، ولم يتأثر بفكرته أحد من المجموعة المتحاورة معه رغم حبهم للحوار، بل تساءل البعض مثل عبد الرحمن يوسف أبوبكر من هرجيسة شك في سلامة عقله وقال: هل هو سليم!.

قلنا له: الحقيقة أن القانون الدولي ليس من الإسلام حتى ولو سرق المقننون منه بعض البنود، إنما هو عبارة عن مادة جمعتها العصابات الاستعمارية التي تعتبر أنها المشرعة على من في الأرض، وأنها بهذا مدعية للربوبية، وجمعت هذه القوانين الظالمة لتخدم فقط الرجل الأبيض المستعمر الذي يرى نفسه أنه الجنس الأرقى من البشر. ثم أصبحت هذه القوانين ومجلس أمنها أداة تستخدم الدول الكبرى لفرض سيادتها، ومصالحها على بقية شعوب العالم ولا يوجد من يؤنب.

والقانون الدولي هو القانون الوحشي، ومن أهم قواعده ومفرداته القاعدة الوحشية المشهورة «الحياة للأقوى» وهو الذي شرع أبشع صفقة عرفها التاريخ، هي صفقة بيع شعب بأسره «فلسطين مثلا» لشراذم وافدين غرباء، وبريطانيا صاحبة ذلك القانون، هي الأم التي ألقت إلى العالم بهذا المولود غير الشرعي الذي يحمل في وجهه كل علائم القبح وسمات الشذوذ، تلك الجريمة وأمثالها شرعت بما تسميه القانون الدولي. وهو الذي شرع إبادة أمم كاملة كانوا على وجه الأرض. ولا قانون في العالم اليوم إلا هذا القانون الجاهلي، قانون الغاب، ولا عدل بدون إيمان وبدون مصدر وحيي ثابت.

وهكذا حين يكون مناط العدل في أيدي الجبابرة وأيدي اللصوص، بحيث يجبر المظلوم على الاعتذار لمن ظلمه، وليس هذا إلا ادعاء الثعلب صفة الطبيب المداوي، ومن ثم استيراد هذه القوانين الكافرة أو اعترافها ليس إلا إنكارا لشرعنا الإلهي ووجودنا الأممي، ومن الحماقة أن نعترف بشيء اسمه « القانون الدولي » أو «الرأي العام العالمي» إنما هي وأمثالها صناعة استعمارية إبليسية كاذبة، وأنَّ وراء هذا الدجل أرباب معبودة من دون الله، وأنَّ الاستعمار متفـنن في تجميل المصطلحات لصالحه، مصطلحات براقة

خدّاعة وراءها سمٌ مهلك، لا ينبغي أن ينخدع بها مؤمن آمن بالله ربا وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا وبالإسلام دينا فضلا عن داعية ينذر ويبشر.

وإن هذه القوانين لا تستحق إلا أن نطلق عليها «قانون الغاب» والحكم الجاهلي الذي يسأل سبحانه وتعالى باستغراب استنكاري ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة: ٥٠] ، وأنّ القانون السماوي يخالف مخالفة أساسية بالقانون الدولي ، وقد يلتقي معه في جزئيات عرضية جانبية، ولكنّ الأصول التي تنبثق منها هذه الجزئيات – وهي مجرّد مصادفة أو تشابه ظاهري– مختلفة اختلافا جوهريا، وأن الإسلام لا يعترف للشرعية إلا قانونا نبع من طبيعته ويتمشى مع أذواقه، والتي اصطبغت بالصبغة الملائمة له، ويرفض رفضا قاطعا استيراد القوانين الجاهلية المفبركة، والتي هو خليط من الشوائب والمتاهات الفكرية الغربية، وأن الإسلام عملاق ضخم في كل الميادين، بحيث تبدو المناهج البشرية إلى جواره أقزاما ضئيلة فوق أنها ممسوخة الكيان، وأنه أعز من أن ينتزع منه ٢٠٪ ولا أي نسبة أخرى. وأننا كحركة إسلامية لم نوكلك فهم قول عبد الله بن عباس «كفر دون كفر»، ولكن نريد رأيك في محمد زياد برى وزمرته وأمثالهم الذين يصدون عن سبيل الله، والموالين للغرب المعادين لأهل الايمان.

ومن الغريب أن تدافع القوانين الجاهلية إلى هذا الحد المستميت في هذا الزمن بالذات ونحن تحت حكومة مجرمة ملحدة تتطاول على الله وعلى دينه ومعادية لدعاته. لمصلحة من هذا الجهاد الغريب؟.

قلنا له: أيها الأخ الكريم هذا القانون مهما جمّلته أو مدّحته أو بحثت له قيلا، لا يساوي عند الله شيئا، وأن حكم الإسلام تنبع أحكامه من جزيئيات مصادره وذراته، وأن ترويج هذه النظرية الشيطانية تطعن

عقيدة الولاء والبراء في الصميم، وتهز علاقات المسلمين مع غيرهم، وأشبه ما تكون ب «التدسيس الناعم» وقدمنا له نصائح عديدة، ومناشدة من يرى عواقب الأمور، وطلبنا منه مراجعة مشروعه المشئوم، وبذلنا جهدنا لتهدئة تلهفه فلم نستطع تهدئته، وانتهت الجلسات بشجارٍ عنيف**!!**.

ذهب حرا ورافضا كل ما قيل له، وتحرّك طليقا في عمق الحركة السرية، كان يتصرّف بطريقة غريبة، كنبل خرج من قوسه لا يوقفه إلا أداء مهمته، بينما كنا نرى دعوته دعوة تضليلية مقطوعة الصلة بالحقيقة والمنطق.

بدأ يجمِّع الأفراد ويكشف الأسرار، ويحاضر المجموعات والأفراد سرا وعلنا، كما التقى مع هوامش الجماعة وتحرّك في طول الحركة وعرضها للتأثير في عمقها، ويتخطى كل الخطوط، إما أن ينجح مشروعه وتتنازل الحركة عن رؤيتها وتصورها حيال الحكم بغير ما أنزل الله، وحيال القانون الدولي، وحيال ما سمى ب «التكفير» وإما أن تتفرق وتتنازع وتتلاشى ولا شيء غير ذلك.

عرض على المسئول الأول عبد القادر شيخ، فرض لوائح الإخوان السودانيين المكونة من(١١٤) بندا، طالبا منه أن يفرضها على الجماعة، فلما رفض، شدد الفقرة التي تتكلم عن القيادة وتحديد فترة القائد بمدة أربع سنوات **(فترة رئاسية محدودة)**، فرفض طلبه أيضا. وقال: أنا أرفض هذا القانون جملة وتفصيلا، وإذا نجحت بإقناع الإخوة الآخرين، فإنني سأستقيل من الجماعة**!!**. فقال له قدِّم الاستقالة ونحن نقبل منك، هكذا ببساطة كان يحبذ تغيير القيادة. قال له: القيادة أمر جماعي لا يمكن أن تتصرف بها أنت كما تشاء.

بدأ يؤسس جماعة جديدة على فكره، وبدأ يأخذ البيعة سرا بعشرة أفراد، تأثروا برؤيته كلهم كانوا خارج الحلبة، كان من بينهم الأخ المرحوم عبد السلام شيخ الذي أذهبته سلوكياته، فكشف أيضا أسرارهم، وكان بطبعه لا يتحمل حمل الأسرار، أو بالأحرى لم يكن صندوقا سريا أمينا. فقد قيل أن رجلا قال لصاحبه سأخبرك سرا بشرط أن تحفظ لي ولا تقل لأحد غيري، فقال لست صندوقا مغلقا، إنك لم تستطع أن يكون سرك في قلبك، فكيف أستطيع أن أحفظ لك هذا السر الثقيل؟.

وللتاريخ أقول: أن الأخ المرحوم عبد العزيز فارح كان أول من يضع رأس المعول على وحدة الحركة وحاول هدمها وتمزيق شملها مهما كانت نيته ، فإنما الأعمال بالنيات، فالهدم سهل ونتائجه سريعة ، ولكن الصعوبة كل الصعوبة في البناء . وهكذا دخلنا لأول مرة أجواء التنافس المشبوه بتأثير من اعتبارات شخصية.

شبهة كفر دون كفر هذه، لم تكن جديدة بالنسبة لنا نحن جيل الستينات، فقد تلقيناها في ١٩٦٩م في كتاب شواهد الحق للنبهاني، الذي كانوا يروِّجونه في ذلك الوقت لرد السلفية وابن تيمية والوهابية، لم ترتفع الرواية عندنا إلى مستوى الشبهة، بل استوقفتنا كرواية غريبة على حصر النصوص القرآنية وحسمها، وما توهم إليه من كفر الحكام الذين ورثوا الاستعمار بعُجَرِه وبُجَره. وضعناها جانبا في ذلك الزمن، إذ لم يكن هناك من يستدل هذه الرواية، ولأنها لا تستحق الالتفات إليها في زماننا هذا الذي سيطر على الأمة الإسلامية الاستعمار وفرض الأمة على القوانين الغربية.

أما الشيخ محمد في تفسيره لم يقف عليها ولم يذكرها في تفسيره؛ لأنها لا تتطابق مع حصر وتوكيد الآيات الكثيرة التي تكلم عن الحكم بكتاب الله. وكان من عادته ألّا ينقل الروايات التي لا تفيد السامع ولا

تتطابق مع النصوص القرآنية، ولأن الآيات القرآنية التي تتكلم عن الحكم شديدة الصراحة وواضحة وضوح الشمس. وللأسف الشديد فقد قام فيما بعد بعض علماء الدول، بإخراج هذه المقولة «كفر دون كفر» من مكانها العلمي إلى ميدان الغوغاء لمحاربة مكفري العلمانية والمجتمعات المؤيدة لها.

كان تأثير الحركات الإسلامية في الصومال محدودة جدا في البداية، لكن سرعان ما بدأت تتدفق علينا ما ممكن أن نطلق ب «عاصفة» جديدة، ووكلاء الجماعات المتعددة المتنازعة تضخم حملات إعلامية، وشبهات هائلة وكتب جديدة ومغريات متنوعة، تروِّج بعض الأفكار ترويجا عجيبا خاصة بعد تأسيس الحركة السلفية في الخليج وبعد تشقق الاخوان المسلمين في مصر.

***

المناخ الفكري والزمن

الأفكار لا تنتشر على أيدي أناسٍ لا يملكون الحرية، والطغيان يسلب حرية الفكر ليتمكن من السيطرة عليها بالقوة، ولهذا السبب تحرص الدول الكافرة أن تحارب الإسلام بحكام طغاة مرتزقة من العسكر، وملوك فوق القانون والشريعة موالية للغرب الكافر.

إن تناقضات الحكم العسكر في الصومال ، وكذب الاشتراكية المليئة بالوعود البراقة، وفشل الوعود بالجنة الموعودة «الاكتفاء الذاتي» والخواء الفكري.... وغيرها، ومن ثم الصوت الإسلامي المتنامي، كل ذلك أدى إلى العودة إلى الدين، والالتجاء إلى رب العالمين، فجاء نصر الله، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وتدفق الشباب إلى المساجد وأماكن العبادة، وكثر الإصغاء، فترى القوم شاخصين أمام الشيخ محمد معلم ..... وغيره، كأنّ على رءوسهم الطير؛ فإنَّ كثيرا منهم يريدون إعادة الدرس على مكان آخر، وبدأ كثير منهم يطلب باستمرار من الشيخ الإعادة بالدرس الماضي.

فالأنوار كانت تصدر من مصدر الاشعاع «البؤرة» اختفى «المصدر» - أي الواعظ الوحيد- فجأة بعد اعتقاله، ولا يزال هيّاج الاستماع قائما؛ فنتج من هذا الاختفاء «فاجعة الظلام» فهزّت منطقة «حدّة الأبصار» التي تجعل الرؤية قوية، وأشبه ما تكون أنها كانت كفاجعة موت النبي المفاجئ ﷺ مع الفرق الهائل بين الفاجعتين، ذلكم الفاجعة التي عبّر عنها يومها شاعر النبي حسّان بن ثابت بالأبيات التالية:-

وهل عدلت يوما يوم رزية هالك   رزية يوم مات فيه محمّد

تقطع فيه منزلة الوحي عنهم وقد كان ذا نور يغور وينجد

إمام لهم يهديهم الحق جاهدا معهم صدق إن يطيعوه يسعدوا

فبينما هم في نعمة الله بينهم دليل به نهج الطريقة يقصد

وعند هذه الفاجعة وفي هذا الظلام، طال التفكير حول تقويم الأشخاص الذين كانوا سببا اطفاء مصدر ذلك النور الساطع، وظهر على الشاشة «العداء المفاجئ المزعج» ؛ فكانت الإجابة غير غامضة؛ لأنها تكررت في القرآن الكريم، فتوالت اللعنات على النظام الظالم الذي أسكت وسجن هذا العالِّم الرُّوحي الذي كان مصدر هذا الضوء الباهر، والذي كان يفتح أعين الجميع على آفاق عجيبة وجديدة يخاطبهم بصوته العطوف؛ فتلذذوا روح الإسلام بقوّة وعمق.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة: ٣٢]

وُضِعت تلك القلوب في الميزان فأشبهت القلوب «الغلف» الذين لعنهم الله بكفرهم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [البقرة: ٨٨] ، وقلوب الذين قالوا قديما: قلوبنا في «أكنَّةٍ» وفي آذاننا: «وقرٌ» أي بمنزلة من لا يسمع ولا يريد أن يسمع بل يبدي كراهية السماع لأيِّ خير، وعدم رغبته حتى في رؤيته من يرشدك إلى الخير، فمجرّد رؤيته تنغص عليه لذته الدنيوية، علمنا أن مثل تلك القلوب وُجدت قديما وحديثا وهي من أقسى القلوب.

ورثت الجماعة من هذا الحدث مشاعر جديدة، جعلت الأخ حسّاس للظواهر الجديدة في البيئة، بمعنى اكتسب خبرات جديدة، أدت إلى التنسيق الحادّ التي كانوا يعبِّرون عن حالتهم الانفعالية العفوية، وإزالة المواقف المزعجة أو ما ممكن أن نطلق عليه «التفريغ الانفعالي» أو التنفيس. فقررت الجماعة ملأ الفراغ بوجهٍ جديد، وجلس مقام الشيخ أحد كوادر الجماعة هو الأخ: «أحمد نور عرب» فعلمت الجماعة من مصادر مخابراتها أن رسالة اعتقاله واعتقال القائد جاهزة مع حملة أخرى عامّـه، فقررت الجماعة إخراجه وإخراج كوادر هامة من البلاد.

اعتقلت الحكومة جميع ما سجلته أسماءهم الدراسة المخابراتية على مستوى الجمهورية، إلا من خرج مضطرا إلى الخارج، فأصبح المناخ العام مؤاتيا لقبول أيِّ فكرة، بشرط أن ترتكز على الدين، ومن ثم خلا الجوُّ لكل داعية يستطيع أن يقدِّم رسالة بشرط أن تكون ذات علاقة بالدين، هنا في هذا الجو تدفقت المذهبية على البلد، وخلا الجو لخريجي الجامعات السعودية أو الطلبة الذين لم يتخرجوا بعد، بعد شحنهم من الخليج؛ فتأثر الشباب بهم وبسلبياتهم وذلك بعد أن تولوا الدراسات في المساجد.

فقد كمم النظام الشيوعي الأفواه قديما، وأصبح الكل مضغوط الفكر، وحرية التعبير كانت تحت ضغط عنيف، والحاجة كانت ماسّة لفتح منافذ التنفيس للتعبير، تزامن ذلك مع تراجع الاشتراكيين والقوميين وذلك بعد ما هزّت العلاقة بين الصومال والاتحاد السوفيتي، فأصبحت أفكارهم من الماضي البغيض؛ فانفتح تلقائيا باب «حرية التعبير».

وفي هذا المناخ جاء الأخ عبد العزيز فارح ليقدم رسالته هذه؛ فالتف حوله كثيرون تضمنت من لا أشك في صدق نواياهم. الحركة الأولى ما زالت في سرِّيتها، وليس لها مراكز عامة لرد الأفكار الغازية،

ولم تتبنَّ فكرة الردود في ذلك الوضع المعادي ، ظنا منها أن طبيعة العواصف عدم دوامها. بل اعتبرتها فتنة داخلية ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ [الفرقان: ٢٠] واستنطقت الحديث النبوي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَتَكُونُ فِتَنٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، **وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا، فَلْيَعُذْ بِهِ**».

ومادام أكبر عدد التف حول عبد العزيز كان من أتباع الحركة السلفية الناشئة، اضطرَّ أو اختار المنهج السلفي، وأدبر ظهره على قيادات حركته، ثم أظنُّ أنه توقفت دفاعاته المستميتة عن القانون الدولي، فلم نسمع منه ولا من غيره بعد ذلك، وتخلى هو عن ولائه للحركة السودانية الترابية، واعتبر نفسه سلفيا تصورا وشكلا، فتكلم عن القوانين المخالفة للشريعة السماوية، وأعلن في المساجد أنها قوانين كافرة، وأدى ذلك إلى اعتقاله. وقال أمام المحكمة: لا أعترف بالمحكمة التي لا تحكم بكتاب الله، ومن ثمَّ لا إجابة لأيِّ سؤال توجهها إليَّ، فهل كانت تناقض فكري أم كانت تراجع وتوبة؟ ، ثم أُفرِج عنه بحفظ الله أولا، ثمَّ بسبب الظروف التي كان البلد يمر بها في ذلك الوقت، وبأمور تتعلق بقبيلته الموالية للدولة ومجاورة لقبيلة معادية للنظام. أرجوا أن يجعل الله له التوبة الصادقة والرجوع إلى الحق، ونتمنى له حسن الخاتمة فقد قدَّم روحه لهذا الدين على منهج السلفية واستشهد في سليط مجاهدا تقبل الله منه وعفى الله عنه.

من جهة أخرى نجحت الدعوة الأولى بإنتاج عقول مسلمة تؤمن بالله تعالى، وترفض المذاهب الفكرية الهدامة، لكن كل ما يأتي من العالم الإسلامي من أفكار إسلامية وتأويلات وأقوال، كانت مقبولة لدى الجيل الثاني من هذه الحركة.

فجيل السبعينات من القرن الماضي تأثر بالعواصف الفكرية المغلّفة بالغلاف الإسلامي، حتى ولو كان أصل الفكرة من وراء البحار ومن تخطيط الغرب؛ فتزامنت دعوة المرحوم عبد العزيز مع العواصف الأخرى التي صدرت من الخليج العربي عامة باتجاهها السلفي التي قويّت في الجامعات الخليجية فتأثر البعض بمنهج «السلفية» الناشئة، والبعض الآخر تأثر بمنهج الحركة «الدولية» كما سموهم يومها، تلك التي جاءت من مصر باتجاهها الإخواني أو «الهضيبية» إن صح التعبير؛ فالتقت العاصفتان في الصومال وتزاحمتا ثم تجادلا وتجاذبا فيها، وذهب مع تلك الحركات كثيرون من الحركة الأولى وعفَّ آخرون، وهكذا كانت الظروف مواتية وقابلة للانشقاق.

كان الهدف الأول للجماعة تصدير الرسالة إلى العالم، وكنا نرفض استيراد الأفكار من الغرب، ولم نتوقع يوما أن فكرة غريبة على الإسلام ومغلفة كفكرة «حصر الكفر على الجحود والاستحلال» أو مشروع «حفظ المكتسبات» وغيرها ستهاجمنا من «قلعة الإسلام» أو الحرمين الشريفين.

فالشاب الصومالي المتديِّن الذي كان يتمنى زيارة الحرمين الشريفين يوما، حبا وتقديرا لهما، قائلا: يا رب يا سميع الدعاء يا رب بلغنا نزوره، وكانت تربة المدينة أحبُّ إليهم من العالم كله، فقد ذابت قلوبهم من تلك الزيارة شوقا إلى رؤيته؛ وزيارة أزكى الرياض حيث ينام رسول الله صلى الله عليه وسلم والوقوف أمام قبره المطهر وموطن النور الأعظم؛ فإذا هو يجد فيها منحة مجانية، وتذكرة سنوية إلى بلده ذهابا وإيابا وعلما، فلا يسعه الا الثناء والانبهار، خاصة بعد توسعة الحرمين وتجميلهما بالرخام البراق والمياه الزلال، كما انبهروا أمام العلماء في الحرمين ذوي الهيبة والهندامة و يا سلام!!

أشواقنا نحو الحجاز تطلعت كحنين مغترب إلى الأوطان

فاختلطت عند البعض – حسب رأيي – قداسة الحرمين وهندام علماء الحرم الذين كأيّ عالم في الدنيا «غير معصومين» وأنَّ سلبياتهم أصبحت «غامضة» فرجعوا إلينا متغيِّرين شكلا ومضمونا، ويتكلمون من علٍ ومن مفاهيم السلف ومن عقيدة مغايرة صحيحة سليمة غير قابلة للنقاش.

وكانت قداسة الحرم لها تأثيرها السِّحري، ومن المنطق أن يتأثر المؤمن الصفوة المهيبة حول كعبة الله المشرفة زادها الله شرّفا ورفعة، خاصة عند ما يؤدي فيه فريضة الصلاة أو سنة التراويح أو يطوف الكعبة، فلهذه القبلة اشعاعا روحيا يجذب اليه أفئدة المؤمنين حيث انه ضارب جذوره في أعماق الزمان، وكان الواحد من القوم (الصومال) إذا خرج إلى الحرمين يباهي بذلك بين قومه ويلقبونه ب «الحاج» أو يلقبون الأعوام عام الذي حج الحاج فلان.

كنا نتصوّر أنه لو حصل مكروه سوف نهرب إلى الحرم؛ فإذا بعض الذين زارونا من الحرم لم يهاجموا الأنظمة العلمانية ولا أهل الفسق والفجور، ولكن أصبح شغلهم الشاغل مهاجمة إخوانهم في الدين، وإلى المذاهب الإسلامية المعروفة في المنطقة علما وفقها وعقيدة، واعتبروا ماضيهم خرافة وجهلا!!، وفتحوا معركة داخلية، كما اعتبروا التوحيد طريا مستوردا، ثم تنازعوا فيما بينهم، من له وسام سبق التوريد فلان أم علان؟، وذلك كان بعد مداومة البعض بالجامعات السعودية، وكان بعض الإخوة يزوروننا من نفس الحرم ، ومن نفس الكليات، فكان لهم تعليق آخر مغاير.

أرسلناهم إلى التفقه في الدين، وأخذ تعليم الإسلام وفقهه في أرضه ليتقن اللغة العربية أولا ثمّ يترقى إلى العلم الشرعي، حتى يصل إلينا العلم عسلا مصفى وكاملا موفى ؛ لنستمتع متعا ولذيذا، معتقدين

أنَّ المعرفة المستمرَّة في تعاليم وقيم الدين الإسلامي نجد دائما على راحة البال، فكناّ نشجِّع من بدت علامات النجابة ودلائل الذكاء أن يتفقه في الدِّين من المصدر الأصلي، ولم نتصوَّر يوما أن مثل هؤلاء الأخيار ستصيبيهم عدوى «نون الجماعة» وسيكونون على حساب الاخاء الإسلامي، وقد قال الحكماء قديما «إذا وضعت أحدا فوق قدره فتوقع منه أن يضعك دون قدره ». وحقيقة الأمر أنَّ حجم الأخ لم يتغيَّر كثيرا ، وإنما ظله هو الذي تغيَّر، لعله اقترب النور أكثر من اللازم، فكبَّر ظله، والمطلوب عند الطلبة الابتعاد عن الأضواء خاصة في بداية التكوين .

على كل حال شجّعناهم ليغيِّروا، لا ليتغيَّروا ، ويؤثروا، لا ليتأثروا، تنفيذا لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ١٢٢﴾ [التوبة: ١٢٢] ، فاذا هم يغزوننا كغزوي الروم والفرس، ومن الغريب أن بعض الإخوة بدأوا هجومهم في أول عام دراسي لهم في الجامعة، وذلك بعد ما أصابتهم ازدواجية الولاء، وتحوَّلوا تحوُّل مفصلي، إذ وجدوا علماء أجلاء في الحرمين الشريفين، وليس بالضرورة أن يكون الإنسان في الحرم أفضل من غيره، إذ قداسة المكان شيء، ورؤية العالم وفكره شيء آخر!، لكن امتزجت الرؤيتان عند البعض؛ فوجَّهوا نقدهم كله الى الدّاخل.

وقديما قال حاتم الأصم رحمه الله «لا تغتر بمكان صالح، فلا مكان أصلح من الجنة ولقي فيها آدم ما لقي، ولا تغتر بلقاء الصالحين ورؤيتهم، فلا شخص أصلح من النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه أعداؤه والمنافقون». كما كتب أبو درداء إلى سلمان رضي الله عنهما فقال: هلمَّ إلى أرض المقدسة، فكتب سلمان «إن الأرض لا يقدس أحدا أو إنما يقدس الإنسانَ عملهُ ».

فقلت يومها: حالكم يشبه الذين كانوا فرّوا من الرباط، ثم غزوا المدينة لقتل أمير المؤمنين عثمان، فقال الصحابي الجليل حسّان رضي الله عنه يومها:

أتركتم غزو الدروب وراءكم   وغزوتمونا عند قبر محمد

كانوا هم البانين قبل اختلافهم   ومن لا يـشد بنـيانه يتـهدم

كان من المفروض أن يزيد العلم معرفة تؤدي إلى الأخوة والتلاحم والحب والتكامل، خاصة نحن لم يكن فينا عقدة على مذهب السلف ولا على أَيِّ مذهب إسلامي آخر، بل كنا نعتبر أننا مع السلف والخلف، لكن العلوم المستفادة من الجامعات العربية والخليجية بالذات كان مشوبا بالثقافة المذهبية المفرِّقة، وكان من مسئولياتهم أن يستوردوا من الخليج أفكارا صافية سائغة متخلقين بأخلاق الله. ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [النحل: ٦٦]

ومن ذاك اليوم تغيّرت المصطلحات وظهر في الساحة اتجاهات مختلفة تدعو إلى ما سموهم «العقيدة الصحيحة» وفهم السلف، وكما فهمه السلف، والفرقة الوحيدة الناجية «أهل الحديث» .... وغيرها في النار، وسلكوا طريقا معاكسا لما كنا نراه ، وقلنا كانت تحصل دائما من البشر، وواجهنا «جحود الأبناء الذي هو أشق من عضة الحية الرقطاء» على حسب تعبير شكسبير، فقررنا أن نقبل التحدي، وتذكرنا قول شاعر قديم يصف نفس السُّلوك، فقلنا لا بأس فالمصيبة إذا عمّت خفت،!.

ما زلت أعلمه الرماية كل يوم   فلما قوى صاعده رماني

وكم علَّمته نظم القوافي   فلما قال قافيه هجاني

اغتر البعض بمصطلح البحث ب ١٨ تفسيرا، الذي كرره الأخ عبد العزيز في محاضراته، وتأثر البعض باسم «الجامعي» الذي كان نادرا بيننا حتى ذلك الوقت. كنا نستخدم أسماءنا بدون ألقاب، تماما

كالصحابة؛ فإذا بنا أمام رجال ينادون بحشد من ألقاب التكريم والتبجيل كالسماحة والفضيلة والشيخ والجامعي والدكتور والبروفسور وغيرها مما يوهم التقديس والاسكات.

أخيرا التف حول المرحوم عبد العزيز ومن معه عدد لا بأس به من الجماعة، وعدد أكبر من الهوامش والمؤيدين، وعدد آخر من العاصفة السلفية ، وأقنعوا الاخوة حركة «الوحدة» في الشمال مع أنها لم تدم كثيرا معهم، وانضم إليهم عدد لا بأس به من الشعب وحتى المخابرات، إذ لم يدققوا من يدخل فيهم، بل اختاروا طريقا آخر، جمعوا أكبر عدد ممكن تنافسا للجماعة الأصلية؛ فكوّنت جماعة باسم «الاتحاد الإسلامي» ولا أدري حتى اليوم ماذا أقنعهم بهؤلاء العلماء الذين التفوا حوله، خاصة وأنه كان يشدد في خطابه ما سماه إسلامية قيادات الدول والقانون الدولي المعمول عالميا والذي كان لا يستسيغه السلفيون في الخليج حتى ذلك الوقت. والتفسير الوحيد عندي لتأثر هذه الفكرة هو هذا العدد الهائل المتفرغ لهذا العمل، والمتخرجين من الجامعات الإسلامية أو المداومين لها مقابل الصفاء الروحي والغفلة الصالحة التي كانت شائعة في ذلك الزمن .

في هذا المناخ المتوتِر حاولت سلطات الثورة – وطبقا لمبدأ فرِّق تــسد– أن تستغل الوضع، لكنها كانت فاقدة المصداقية الفكرية؛ لأن مذهبها العلماني أصبح من الماضي البغيض، الذي اكتشفت سوءته بعد إدباره؛ فتلاشت دفاعاته. ولأن المناخ الفكري المتاح الآن لا يقبل إلا الأفكار ذات الصلة بالدين.

هنا جاء دور من يرث الجماعة علنا، فلابدّ أن يكون الوارث العلني إسلاميا مؤثرا أولا وقبل كل شيء، فالقيادات الأولى لم تزل ترى ضرورة استمرار سريتها رغم الشقوق والكشوف التي ظهرت على السطح، واختارت منهج السكوت والانسحاب من الجو المتوتر والمتضارب الذي تحت النظام المعادي

لكل ما هو إسلامي، واختارت نظرية حفظ التصور والقلوب من الطوفان الفكري المؤثر والوارد من الخارج منتظرة تهدئة العاصفة لأن من طبيعة العواصف أن لا تدوم طويلا.

تزامن هذا الأمر مع زيادة عدد الخريجين من الجامعات الخليجية أو المداومين المتأثرين بأساتذتها والذين اشتهروا بتصعيد النبرة الدعوية، وتزامنت أيضا مع المشاريع المشبوهة مثل «استئصال ورم التكفير من المتدينين في العالم الاسلامي» وهو مشروع يعطي حرية مطلقة للعلمانيين الموالين للغرب، ثم نـشر ما سموه عقيدة السلف التي تحارب البدع والخرافات والقبور والجن بدل الكفر والالحاد والطغيان والظلم والدكتاتورية ، أو الملكية العضوضة، حاملا معه تعصبا مذهبيا ضيق الأفق منعدم التخطيط، وكان من مفردات أفكاره؛ روح البداوة القادمة من الجزيرة بسطوتها المالية وفقهها البدوي القادم بكل قسوة وعبوس صحراء نجد، وهؤلاء هم أصحاب العقيدة الصحيحة. والمنهج الفكري أو المذهبي المتبع هو بناء حركة إسلامية لا ترى أعداء للإسلام سوى إخوانها وجيرانها من المسلمين؛ فتوجِّه ضدَّهم كل طاقاتها، وأخطر من ذلك أن القرار ات لا تنبع من العقول المتحاورة إنما تنبع من حيث يأتي الريال.

والغريب أن بعض الاخوة الذين درسوا تلك الجامعات مع هؤلاء كان تقويمهم خلاف ذلك، معتقدين أن الدراسة الموجودة في المقرر لا تستحق كل هذا التبجيل وهذا الاستعلاء. وتكررت في الجلسات عبارة السلف القديمة «كفى بالمرء علما أن يخشى الله تعالى، وكفى بالمرء جهلا أن يعجب بعلمه أو عمله». والمطلوب العالم الذي يتخذ قراراته بناء على العلم والشرع لا بناء على طبيعته وطبيعة بيئته ومشاعره وأحاسيسه، أو بيئة شيخه وقدرته المالية ومشاعره كذلك وأحاسيسه.

إن مصطلح التكفير الذي كان يمثل قديما التحذير من خلود النار، استخدم هنا كمصطلح هجائي مثل الإرهاب الذي هو رعب وذعر وفظاعة، وقال المؤرخ الغربي المشهور «أرنولد» «الهجاء عندنا هو شريعة القصاص من المجرمين الذين لا تناهم يد القانون القصيرة، فلا يؤثر منهم نصح أو تحذير، فهو ينشر على الناس مخازهم ويجعلهم أضحوكة بحيث لا يرجو من وراء عمله أن يصلحهم أو يطهرهم» إ هـ.

والهجاء المتفحش تتمتع به الأذواق الغليظة، وقالوا إن لم تستطع يدايَ أن تنالك سـيدركك هجائي!!. وباستطاعة الإعلام الثرثار أن يقبِّح أيّ مصطلح كما يشاء، وهكذا حصل مع مصطلح «التكفير» قديما و«الإرهاب» أخيرا. ثم بدأ موضوع فتح الأحزاب في البلاد كل حزب بما لديهم فرحون، وتأسيس الجماعات ذوات الأسماء المتعددة، والمختلفة الاتجاهات، والمتنوعة القيادات، على كل حال نشب خلاف حاد وساهم صغر أعمارنا وجفاء بيئتنا، فعجزنا عن احتوائه .

*****

القرار الأخير

بعد ثلاث سنوات من النزاع والجدال، وبعد سنوات من اعدام الثقة تلقي بظلالها، أصدر المسئول الأول «عبد القادر شيخ» قراره الفردي وكتب رسالة حسم قال فيها «لا يخفى عليكم ما آل إليه أمر الجماعة من نزاع وجدال واختلاف وتشرذم، وبناء على ذلك قال: أقرر أني بعد اليوم لن أعمل مع من أختلف معه في التصور والمنهج». واستغلَّ كثيرون هذه الوثيقة لتأسيس حركات مستقلة أسسوها قبلها لكنهم استخدموها كمبرر. وقد رأى البعض أن القرار الفردي عند الاضطراب ضرره كبير بل يوحي للجميع أنَّ قائد الحركة يتصرف كحاكم مطلق، وتكون فرصة للمشاغب وسيئ النية، ومثل هذا العمل يزيد الاضطراب ويخلق عند القاعدة أزمة ثقة. ولم يكن الشيخ موفقا لكتابة هذا القرار إلا إذا حصل إجماعا من الجماعة، وأعتقد أنها كانت من أخطائه القيادية، لكن المدان هي الحركة التي لم تكن لها برنامج عملي لتدريب قياداتها وتنمية مهارات القيادة أو التدريبات اللازمة للقيادة خاصة إذا ارتفع السقف وتغيَّرت الأحوال، فلا يستفيد المدير من الحركة، ولذلك من الصعب أن نلوم أيِّ قائد؛ لأن يتعلم من أخطائه قبل فتح معاهد لمثل هذا التدريب.

عاصفة السلفية

وهنا تتكرر علينا الأسئلة لماذا هذا التفرق الذي ابتلي بالعمل الإسلامي في العالم وفي الصومال بالذات؟، ولماذا التفرق أصبح موضة زمنية؟ ولماذا الحركات الإسلامية في الصومال تتفرق وتتبعثر كالبصل دائما، وما دور السلفية الخليجية الناشئة في هذا التفرق؟

الإجابة طويلة وصعبة وغامضة، وهي التي تدفعنا أن نقف على أصولها خلال الحديث عن نشأة حركة الاتحاد الإسلامي أو مصطلح «عاصفة السلفية» بمختلف انتماءاتها، وأهل السنة والجماعة والعقيدة والثقافة المفرقة الذي تكلمنا فيه بإسهاب في كتابنا الآخر : في سلسلة صرخة الإنقاذ ٣ (مصادر التجمُّع ومنابع التفرق). وهي المسألة التي تكلفنا أن نكتب عن السلفية عموما والاتحاد الإسلامي الصومالي خصوصا، إذ ليس من عادتنا أن نقف على العثرات كثيرا، وكنا نؤثر السلامة وأن لا نكون طرفا في النزاع، لكن هذا الأمر يدفعنا أن نحاول فك أسرار ذلك الطلسم ليجد القارئ جوابا كافيا من هذا السؤال الوجيه، ولكي نجد حلا لأكبر مشكلة في الساحة الإسلامية وهي أزمة « النزاع» والجدل الذي أدى إلى «التفرق» والذي أدى ويؤدي أيضا إلى الفشل وذهاب القوة ، والنظر إلى السلفية الزمنية نظرة نقدية بوصفها عملا إنسانيا يحتمل النقد ولا يعلو عليه. والله المستعان على ما سنحاوله من بيان.

كانت ظاهرة نشأت بفعل عوامل خارجية؛ لأنها كانت امتدادا للحركة السلفية التي هاجت من الجزيرة العربية و أسِسَت في الخليج ، وهو المذهب الذي يتستر بمذهب السلف، وهي مستوردة منها، مليئة بتأثيرات العوامل الخارجية، والوقوف على تلك المؤثرات يكشف لك الفاعل الحقيقي، ومتأثرة بسمعة العرب السيئة للتناحر، وبعقلية المنطقة «إزاحة الملك ووراثة مكانته» أو «الانقلاب» الذي شاع في كثير

من مناطق العرب، أو «الأيدلوجية العربية الخاصة» التي تحض على التنابذ والتي تجيد التجزئة وليست على الالتئام، على منوال الملوك ورؤساء العرب الذين اشتهروا عبارة «اتفقت العرب بألّا تتفق» ولم تؤسس السلفية في الصومال بفكر محلي، وهناك الفرق بينهما؛ لأن التأسيس المحلي يحلل الأزمات الداخلية، وتنتهي النتائج المرحلية بعقلية محلية حرّة مستعينة بالوحي، بينما المستورد غازٍ على أهل المنطقة، ويطلب إفساح الطريق له، وإذا لم يجد المقاومة سيطغى على الجميع، ويتصرَّف كدكتاتورٍ غازٍ على بلدٍ لم يجد من يقاومه، أو كجنرالٍ انقلب على الشرعية فتضخم وتجنن بالتصفيق، وكذلك الأفكار الغازية.

أنشأت حركة السلفية باسم «الاتحاد» فماذا يكون لو انضموا إلى الحركة القديمة، علما بأن إتمام بناء الآباء خير مائة مرة من إنشاء البناء من الأبناء، فضلا عن أنه جزءٌ من الحق الذي لهم علينا القدماء والوفاء، فهم الذين فتحوا آذانهم ونصروا أعينهم، فهم حسنة من حسناتهم شعروا أو لم يشعروا، وهم الأصل الأصيل، والنور الدليل، والفهم المستقيم، والعلم القويم، وما تركوا في آثارهم من فجوات طفيفة لا يقتضي منا تخطيهم والاعراض آثارهم وتجاربهم النفيسة. وكان هناك مثل صيني قديم «إذا أردت معرفة الطريق أمامك فما عليك سوى سؤال الذين سبق أن قطعوه من قبل» .

قادت السلفية الجو العام الإسلامي العلني، فما من دعوة توفر لها قدر من الدعاية المناسبة أو التمويل؛ إلا استطاعت اجتذاب الأنصار لها، بصرف النظر عمّا تحمله من رؤى.

تدفق الشباب لهذا الاتجاه كالسيل الجارف، أو بايعوا الاتحاد تحت تأثير «حمّى السلفية» التي كانت تمر كعاصفة تجتاح المنطقة؛ لأنها أصبحت الصوت العالي الذي يلقي أفكاره بالعلن في زمن كمِّمت الأفواه،

وأيضا وُجِدَ دعما من منظماتٍ وهيئات، والتدفق الزلال ضرره أكثر من نفعه؛ لأنه يؤدِّي دائما إلى الاضطراب والتفكك؛ فكان المحتم أن تنبت بذور الشقاق داخل الحركة، ولأن الدعاية السيئة التي كان يشيعها منشطوها كان لها تأثيرها. وكانوا يتوسعون توسعا أفقيا لا نوعيا، إذ أن التفوق النوعي يحتاج إلى رعاية ومتابعة؛ فلابدّ لمن غرس أن يتعهدها، وهذا ما كانت تفتقره تلك الحركة.

ودول الخليج عامة والسعودية ومن معها خاصة كانت تمدّ الحركة السلفية الناشئة بقوّة دافعة، وكانت ذلك الدفع ضرره كبير لحركة ناشئة لم تكن لها أية تجارب سابقة أو حنكة إدارية، يقول المثل العربي الشهير «أول الغزو أخرق» وهو مثال يضرب بقلة التجارب. سقطت السلفية في الفخ المذهبي الذي يكاد يتحوّل إلى نموذج ناجح لتقسيم الجماعة الواحدة إلى فرق متناثرة تناثرا متتابعا متدرجا يصعب وقفه.

فرّقت تلك الحركة التي بذل الإخوة كثيرا من الجهد والعرق لبنائها وأمضت كثيرا من وقتها وفكرها فيها، وفقدت الحركة الأصلية عن ثمار انتصارات أحرزتها من قبل بمشقة. تزامنت تلك العاصفة المفرِّقة مع هدف اليمين المتطرّف المتصهين في أمريكا، هو إشعال حرب أهلية في عموم المنطقة الإسلامية، وتمزيق الحركات الإسلامية، ونجحوا في تحقيق الجزء الأكبر من هذا الهدف الخطير.

فهل كان هناك علاقة بين هذا التزامن وذلك الهدف، أم هذا التزامن كان قدري؟ لا أستبعد أن هذا الهدف كان له تأثير ما في العملية، سواء كانت الفئات على علم ذلك أم خُدِعت فيها؛ لأنه لا يخفى على العاقل علاقة الولاء بين الولايات المتحدة وقيادات الخليج، كما لا يخفى على أحدٍ ولاء علماء السلفية لملوك وأمراء الخليج الضعفاء، علما بأن الأقوياء لا يرغبون بالشركاء، بل يفضلون الضعفاء الذين

يدينون لهم بالولاء الأعمى. فقد قرأنا تقارير عن مؤسسة «راند» الأمريكية البحثية التي تقدِّم التقارير للمحافظين الجدد، تقول المؤسسة «يجب دعم المعتدلين لمواجهة المتطرفين» و «متابعة الجماعات الإسلامية والتغلغل في داخلها وبث النزاع فيما بينها» انتهى. راجع بالتفصيل كتابنا الآخر في تلك السلسلة رقم (٣) مصادر التجمع ومنابع التفرق.، و رقم (٢) (الهيمنة الغربية على الخليج ودورها السلبي على الصحوة الإسلامية).

الإيجابيات: من الناحية الفكرية والعلمية كان هناك فوائد كثيرة؛ لأن الحركة كانت تعمِّق العلاقة العربية الصومالية أي التعريب، وكلما تعمقت الأمة في هذه العلاقات وتثقفت باللغة العربية وفي ذلك فوائد لا تعد ولا تحصى؛ لأن اللغة العربية حصن حصين أكيد للإسلام. فحركة السلفية عموما والاتحاد خصوصا قدمت كثيرا، فتحت مدارس وأسّست مراكز، وبنت مساجد، ووسعت التدين الشكلي، وعلّمت القرآن وأسمعت الحديث كثيرا، وتعرّف الناس من خلال دعوتهم علوم الحديث، وأئمة أجلاء على المذهب الحنبلي، وقادت المؤسسات الخيرية الكثيرة، وتفرعت منه فئات عديدة منها مجاهدة وأخرى مهادنة وغيرها، والحمد لله على الإيجابيات. وجزى الله الفاعلين خيرا. وعفى الله عن السلبيات.

أما السلبيات: فمن الناحية التنظيمية تحركت الجماعة بعشوائية غير مصقولة وغير متينة، غير واضحة الأهداف والوسائل، وجمعت أعدادا هائلة غير متجانسة، فلم تتماسك فأدَّى هذا الخلل إلى انفصال بعد انفصال وإلى تشرذم متتابع لم تحمد عقباه، ولا يزال العمل الإسلامي يعاني من ذلك التمزق.

قاد تلك الحركة حسب - تقويمنا- رجال لا يملكون خبرة تاريخية في العمل الدعوي، ولم يكونوا قياديين بالفطرة، ولم يكونوا يحملون ثروات العمل الإسلامي وتجاربه القاسية التي مرّت بها الدعوة في العقود الماضية؛ لأن تعيين الأمير أو الزعيم يشكل جزءا لا يتجزأ من بنية أية جماعة، ولأنَّ أية جماعة أو مؤسسة فضلا عن دولة تحتاج إلى قيادة حكيمة وخبيرة وناصحة، ومنصب الإمامة يقتضي الحرية والاستقلالية فلو كان القائد مقلدا لحمل الناس على مقتضى تقليده وموجب نظره الواهي في تعيين من يقلده ، ولا يستضيء بعقول العقلاء ويستبين برأي طوائف الحكماء ولا يمكن أن يستثمر لباب الألباب، والمقلد تابع غير متبوع مثل عبد مملوك لسيده ليس أمره بيده ، فكيف يرعى وهو راعي. وأيضا من شروط الامامة أو القيادة: الفطانة والكياسة ؛ لأن الغرض منها جمع الآراء المشتتة ، وارتباط الأهواء المتفاوتة، والنظر في مغبات العواقب وتهذيبه بالتدريب في طرق التجارب ، وإذا كان حرا ويستضيء برأي الحكماء والعقلاء حريٌ بأن يتخرج إذا تدرب وتهذب .

وأظن أن الشهادة الجامعية فقط والمصطلح الادعائي الهيلماني «السلفي السني» وحدهما، كانا السببين الوحيدين لترشيح القيادة المؤهلة، وكان معظم المتخرجين من تلك الجامعات الخليجية أو المداومين آنذاك يفتقرون إلى الخبرة التنظيمية والدعوية وحتى الفكرية لظروف الزمن التي كان يمر حينها الخليج، كما أنه لم يتقدم للقيادة ممن عاش مع الحركة الأصلية؛ لأنهم تربوا على الاخلاص والطاعة؛ فأصبحت القيادة الجديدة تعاني الإفلاس السياسي والإداري بسبب البروز المفاجئ، وظهر على السطح قصور معيب في فهم الواقع الدولي المحيط؛ فأثر هذا القصور على جميع تحركات العمل الحركي.

فالبداية الخاطئة تقود غالبا إلى نتائج خاطئة، ولن تكون الخبرة فورية أيا كان نبوغهم، والتجارب ليس لها نهاية والمرء منها في زيادة، وما من أحدٍ يكون منتجا في محطته الأولى، وكل وعاءٍ بما فيه ينضح، وأن تبديل العقلية، وتغيير الحياة، وإلزام النظام، لا تحدث فجأة عند الناس، وكانت الحكمة المشهورة «لا حليم إلا ذو عثرة ولا حكيم إلا ذو تجربة». ولا بدّ من المراجعة في مثل هذه الأمور عند بداية بعث أيِّ عمل إسلامي ، فالتجربة ليس لها غاية والعاقل يستزيد فيها إلى ما لا نهاية. ومسألة بناء حركة أو أمة أبعد أعماقا وأو سع آفاقا من مثل تلك الهيّاج السريع.

من الملاحظات التي سجلناها تاريخيا أن قيادات الاتحاد كثيرا ما كانت تتردد في القرارات، تأخذ القرار المصيري أو يأخذ لها الشباب المتحمِّس بعد إيصال الشباب إلى نقطة الغليان تعقبه الانسحاب المفاجئ من المعركة، أو توافق على القرار غير المدروس أو تتساهل مع قرار هؤلاء الذين يستندون إلى الاندفاع العاطفي فينهارون عند أول لحظة، ثم تتراجع القيادة عنه عند عنفوان تنفـيذه ، بينما معظم الشباب لا يزال مدفوعا بطاقة الشباب والرغبة الجامحة بالشهادة، التي وصلتهم الرؤية أن يعمل الإسلام في حياة البشر بطريقة سحرية غامضة الأسباب؛ فكانت النتيجة «الحصاد المرّ» أي التفرق وانهيار الثقة؛ لأنها أسِست على أنها حركة تضامنية عاطفية كلها، وكانت الجماعة تتحرك بعشوائية لا مثيل لها في عصر التنظيمات، والقرارات العكسية هي نتائج طبيعي للقيادة العاجزة.

وكانت نتيجة ذلك الحصاد المرّ أن أوصل هياج بعض الشباب إلى مرتبة «اللاعودة» وهي درجة خطيرة قد يتلاعب الشيطان فيها ببعض القلوب وإلباسه أكبر الكبائر ثياب أعظم القربات. أعتقد أن السِرَّ في

فشل الكثير من التحركات هو أنها كانت تسترشد بتصورات ناقصة ، ومشاورات غير دقيقة ، واجتهادات خاطئة جلها منقولة من الخارج.

اشتكى الكثيرون عن انطفاء الروحانية وانخفاض الحب في الله الذي كان هيّاجا في الفترة الماضية، واعتبر البعض الحب الهياج الذي عاشت الجماعة في دعوتها الأولى أنها كانت ثوران وقتي وحماس شبابي يفتقر بالعلم والمعرفة فزال مع زمنه علما أن تبريد الحماس الإسلامي كان موضوعا دوليا.

لم يكن لدى الجماعة الوليدة أية استراتيجية قادرة على مواجهة التحديات، وكأنها أرادت أن تتعلم بالأخطاء كغيرها من الجماعات، لكنها لم تتعلم رغم مرورها سنوات من الإخفاقات والتجارب، مما أدى إلى دخول معارك غير متكافئة وبدون إعداد يذكر، وبدون تخطيط؛ فأصبحت سنة متبعة أو موضة زمنية عند الإسلاميين الصوماليين الذين جلهم خرجوا من عباءة السلفية فيما بعد، ولذلك من الصعب أن نسمي تلك الجماعة «حركة» بل غلب عليها طابع الفوضى الحركي.

كان الرخاء الزائد والجلي الذي كان ينعم به كل من اختار منهج السلف سلط الضوء على مظاهر التباين الاجتماعي وزرع بذور الشقاق. الأمر الآخر المغاير كان النقطة المركزية للتعليم الديني في الخليج عامة والمملكة خاصة، بدأت تركز على طاعة الملك، وأصبح العلماء أكثر مسايرة، حتى أن سعيد الفقيه المعارض يقول «واستعملوا الدين للسيطرة على الشعب ونجحوا في تحويل أيٍّ معارضة أو خلاف سطحي مع العائلة المالكة إلى جريمة نكراء».

من الناحية الفكرية سلطت الجماعة الأضواء على مسألة الأسماء والصفات وبالذات الأحدية، وتضخيم الفروع المعقدة الكلامية التي نشأت في قرون متأخرة بين علماء الكلام، والأشياء الناشئة من اختلاف

اجتهاد المجتهدين، والذي فرّق بين المسلمين من ألف عام، فكان من ضمن الثقافة التي أوردوها من الخليج بدون تكرير!، وكانت أفعالا وألفاظا منقولة من صفحات الكتب القديمة، وقاموسا من الأسماء الغريبة ك (جهمية وجنية وقدرية ومرجئة وحلولية وخارجية واتحادية ومجسمة وممثلة ومعطلة ومؤولة ....وهلم جرا، وقصص لا حصر لها) . وكلها جماعات إسلامية قديمة أطلقوا عليه «الفرق الضالة» وكانوا يكررون تلك الأسماء في عنوان «دروس العقيدة» حتى يكون الحديث قد فقد سياقه، وانصرف المستمعون إلى شيء أسهل في التناول والفهم، بل كانوا مجرد نقلة للجدل القديم بثوب جديد، كان من المفروض أن يوضع في «الغربال» لكي يميَّز منه ما يقبل وما يرد.

وخلافا لذلك ظهرت في المساجد والنوادي محاضرات حول «أين الله؟» و «رؤية الله في الجنة» و «القرآن غير مخلوق» والبحث عن «الذات»، وعن «المجاز»، و «أحاديث الآحاد في العقيدة» وكل ما يتعلق بمخلفات الفلسفة وعلم الكلام الذي أسس لتضليل العقول التفكير وانشغالها بالغموض قديما، واستيراد تلك العلوم مع عدم القدرة على تنقيتها من مضمونها المذهبي والزمني ومع غياب «الحصانة الفكرية» بحيث لم يعد يشغل هؤلاء المتخرجين من هناك أهمية وحدة الصف واجتماع الكلمة ، فكان كثير منهم يصبُّ الزيت على نار الافتراق والتنازع بين الدعاة، فكانت انتكاسة وتنازلا عن بعض معالم المنهج الإسلامي العام.

ومن هنا وُجِّهت العقول إلى صراعا مذهبيا، ولم يشهد التاريخ القديم والحديث صراعا مذهبيا أو مناطقيا جاء بخير، وبما أن البداوة هي المنطق المتداول هنا في بلاد الصومال أيضا أصبح التفرق سهلا، كما دل التاريخ الماضي أنه لا قدرة في طبيعة البدو للاتحاد والتماسك.

أفضل وصفٍ أنها كانت حركة غازية، أفكارها وسلوكياتها غير قابلة للنقاش، والغاية مصادرة المساجد ومراكز العبادة وتحريرها من الأشعرية والاخوانية والتبليغية والصوفية والتكفيرية والحركة الشبابية القديمة، والنشاط كله موجَّه إلى الداخل لإشعال حرب دينية في ا لمنطقة، بينما تخطيط الكفار كله موجَّه إلى تفتيت حركات البعث الإسلامية، تلاقي عجيب وغريب!!!.

والصراع في الإسلام مسموح فقط إذا كان بين الحق والباطل ومن أجل نصرة الحق، والنزاع بين المسلمين محظور والسبب المفضي إليه محرّم، ومن الغريب أن مثل هذا الصراع كان في أوجه عنفوانه!. ثم بدأت الهجمة الشرسة على علماء الأمة قديما وعلى المفكرين الإسلاميين حديثا، بدأت بالشتم العلني والتعالي كشأن البدوي وعرب الصحراء كلهم يحمل فكرة عالية عن نفسه، ثم وزعت كتب ومنشورات أصدرتها السعودية بكميات هائلة جلها موجه ضد نجوم «الدعاة» والمفكرين الإسلاميين المجددين المعاصرين الذين اغتالتهم الشياطين بالمؤامرات كحسن البنا وسيد قطب وعبد القادر عودة والشاب الجريء مصطفى شكري ... نموذجا، وكذلك المجددين القدماء كالأشاعرة وعلماء السلوك ... وغيرهم. وأخيرا استخدم سلاحا لفرض المذهب، بينما قيادات الحركة القديمة التزمت الصمت حيال مهاجمة الحركة، وتشويه سمعتها ب «التكفير والخوارج» لتضيق الخناق على أنشطتها، وتهويل الأفعال أو الأخطاء الفردية وتكبير المجهر على السلبيات دون الإيجابيات، وكل تلك الدعايات كانت من صنع الخصوم، وقد كان بعض السلف يقول: «ظلم لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما تعلم منه وتكتم خيره» ولم يكن ذلك الصمت دليلا على الرضا بل كان منهجا مختارا بسبب الظروف التي كان العمل الإسلامي يمرُّ في تلك المرحلة.

ولهذا كثير من أعضاء الحركة ذابوا مع المذهب الجديد، والبعض الآخر أفصح الطريق للعاصفة الجديدة لتأخذ دورها التضليلي في زمنها ، وكانت الأذن مصدرهم الوحيد لتلقي المعلومات. وبالرغم مما قامت به حركة السلفية من تأثير إيجابي في الساحة ومن أنشطة دعوية مباركة فإن أسلوبهم في الدعوة كان غريبا في وقته يجب مراجعته.

وهكذا انتشرت السلفية في كثير من البلاد خاصة الصومال. وقد ساعد ذلك الانتشار أنه ليس لدى الشباب وعيٌ بالأبعاد السياسية والمذهبية للمسألة، فتعاملوا عاطفيا مع السلف والسلفية؛ لأن الانتساب إلى السلفية شرف!. أعتقد أني سأكون قد أضأت شمعة للناس من أجل أن نفهم الواقع الذي نعيشه، ولمحاولة المراجعة عما يفرّق ولا يجمِّع.

وعند ما نتحدث عن الخلافات العقدية الماضية يجب أن نسردها كتراث سالف مضى زمانه وأسبابه، ودفن تحت أنقاض القرون الغابرة. لكن حصل غير ذلك وضُخِّم الجدال؛ فحوّل هذا التضخيم الأنظار من العدو الحقيقي الواقعي إلى أعداء وهميين، وخلق صراعات جزئية تافهة وتِرداد جدل عقيم وضئيل؛ فاختفى العدو الحقيقي وراء هذا الدخان الكثيف، كما ضخم الخلافات بين أهل العلم وباعد بين المسلمين، وأوهم اختلاف المعبود!.

*****

المشاريع الهادفة

أولا: المشروع حصر الكفر بالجحود والاستحلال

أصل هذا المشروع صدر من الغرب عن طريق العلمانيين الأتراك، وكان مشروعا قديما استعماريا بحتا، بل كان مؤامرة ، ثم انتعش في مصر التي كانت تمثل مركز الثقافة في العالم الإسلامي، وذلك في زمن الاستعمار البريطاني وما بعده، ثم حوِّل إلى الخليج العربي في السبعينات من قرن العشرين مضخما مع مشروع القذر «السلام مع اسرائيل» ، ومنها صدر إلى العالم الإسلامي بعد الطفرة المالية في الخليج، والغاية من المشروع تعني عدم تكفير حكام المسلمين الموالين للاستعمار أو التستر العلمانيين في العالم الإسلامي، وتوهيم الناس أن الكفر لا ينطبق على أحد إلا إذا اعترف أن كفره مستقر في ضميره ومعترف في نفسه، وإلا هناك قاموس من الشروط والموانع. راجع بالتفصيل كتابنا الآخر في تلك السلسلة رقم ٤ (المصطلحات وحرب العقول)

ثانيا: مشروع حماية المكتسبات

أما مشروع «حماية المكتسبات» فهو مشروع خليجي بحت، يدعو إلى تخويف الأمة الخليجية من غضب القيادات الملكية، وتطمين الشعوب على التبعية الدائمة، موهمين أنهم سيفقدون الاستقرار والوظائف إذا لم يسلكوا طريق السمع والطاعة للأسر المالكة، وحمل السلفيون كمبدأ إلى العالم الإسلامي كله لمواجهة أيِّ ثورة محتملة على الأوضاع القائمة، ونسبت تلك الفكرة إلى السلف الصالح ومذهب أهل السنة والجماعة ..... يا للمغالطة!!! .

وحماية المكتسبات أمرٌ له معقوليته الشكلية، لكن لا ينبغي أن يكون على حساب الدين والشرف، وحماية المكتسبات في الإسلام لها حدود، فمثلا ممكن أن يتعاون المسلمون بالخير، فيتأخر الذي يمد المال لمشاريع الخير أو صاحب المصالح تجاملا مع الذي يمد المال كالدول أو الهيئات، ويتقدم آخر لقول الحق والبطولة. أو يتأخر الجبان ويتقدم الشجاع لقول الحق فلا يعيبه الجبان أو صاحب المصالح لمصلحته.

اتكأت الجماعة على تلك القواعد العرجاء «حصر الكفر بالجحود والاستحلال» و«العذر بالجهل» و «وحماية المكتسبات» التي تعني تسخير الدين، واستغلال عواطف المسلمين من جماهير الأمة؛ ليقفوا موقفا معاديا لما يسمونهم المتطرفين الإسلاميين، وهم في الحقيقة يدافعون عن الغرب ومصالحه في المنطقة بوعي أو بغير وعي، ويبررون مؤامرات الموالين للغرب، وأيُّ دين يمكن أن يبرر حماية المكتسبات جهلها المطبق بمبررات تلك المكاسب التي لم تصنعها، وإنما صنعت لها مما غيب وعيها عن ما حدث ويحدث؟.

وخلقت الدراسة دفاعا مستميتا لإيجاد علة تخفيف الكفر عن الأمة والدولة. فأشهرت على الألسن كثير من الشبهات مثل حديث ذات أنواط الذي قَالَ: ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا يُونُسُ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، أَنَّ سِنَانَ بْنَ أَبِي سِنَانٍ الدُّؤَلِيَّ - وهم حلفاء بني الديل – أخبر أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا وَاقِدٍ اللَّيْثِيَّ يَقُولُ - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمَّا افْتَتَحَ رَسُولُ اللهِ مَكَّةَ، خَرَجَ بِنَا مَعَهُ قِبَلَ هَوَازِنَ، حَتَّى مَرَرْنَا عَلَى سِدْرَةٍ الْكُفَّارِ: سِدْرَةٌ يَعْكِفُونَ حَوْلَهَا، وَيَدْعُونَهَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ، هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «إنكم لتركبن سنن من قبلكم، الله أكبر إنها

السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنوا إسرائيل لموسى حينما جاوزوا على قوم يعكفون على أصنام لهم أجعل لنا إلها كما لهم آلهة. ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. قالوا: لم يكفِّرهم!!.

وقوله تعالى حكاية عن الحواريين ﴿ إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢ ﴾ [المائدة:]، قالوا شكوا في قدرة الله ولم يكفرهم عيسى بذلك بسبب جهلهم، ومن أمر أهله بحرقه بعد موته خشية من عقاب الله ثم ذر رماده في اليم، وأن رسول الله ﷺ لم يكفر معاذا بسجوده للنبي، وأن من سجد لغير الله لم يكفر إن كان جاهلا، وشبهات كثيرة كلها تنتهي ب ...... لم يكفِرهم.

وبما أن الرسالة التي كانت تقدمها الدعوة الأولى إلى الأمة كانت تركز الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ والاستسلام المطلق لله جل جلاله، ومواجهة الطغاة وتحرير الشعوب من التبعية؛ فإن الدعوة السلفية ركزت على أن الأمة بخير مادامت تقول «لا إله إلا الله» وتصلي وتصوم أو يقام فيها الشعائر التعبدية، يقولون في بيئة لا ينفذ فيها مقصدا واحدا من مقاصد الشريعة الإسلامية وتحت حكومة العسكر التي تكفر وتستهزئ بالله والدين وتعادي المؤمنين. إضافة إلى ضوضاء وجدل وغبار المعارك يغشي على حقيقة القضية وغطت عليه بظلال من الدخان، فأصبح التوحيد المعنيُّ على هامش الصورة.

وأفرزت هذه التربية الناقصة أخيرا، دعاة مخلصين يتبعون ببساطة الصدفة العابرة، يجاهدون في سبيل الله، ويدخلون المعارك الحامية مع المجتمع معتبرين بذلك رفع علم الجهاد، ثم إذا وضع الحرب أوزاره؛ فإذا هو منهزم ومستعدٌ أن يشترك مع المنظمات المعادية للعمل الإسلامي، ويصبح وزيرا أو أمينا سريا للنظام المحارب للدين، ولا فرق عنده بين هذا وبين أن يشارك المنظمات الأمنية الدولية، أو الحكومات المحلية التي تعادي الدين، ثم إذا هو يدندن بمصطلح «الارهاب» و «التكفير» تماما كما كان يقال له من قبل حين كان مجاهدا، وتكون هذه آخر مرحلة له في التدين وفي المساجد وأماكن العبادة والدعوة إلى الله، ... وهكذا حصل، وبهذا طعنت عقيدة الولاء والبراء في الصميم وهزت علاقات المتدينين، ثم ظهرت هشاشة الفكر المتدين، وكثر التفرق كما كثرت التقلبات نسال الله العفو والعافية.

وبما أن قيادات الحركة كانوا يشعرون أنهم ليسوا أعداء على الأنظمة، تحرّكوا بحرِّية وعلنية تامة في الثمانينات من القرن العشرين، وخرقوا السرية، وظنوا أن الحبل متروك على الغارب مما أدى إلى اعتقالهم ومحاكمة بعضهم بالإعدام؛ فتدخل الأمير عبد الله وكان هو ولي العهد السعودي في ذلك الوقت، فأدى هذا التدخل إلى إفراجهم.

أشعلت الجماعة الجديدة (الاتحاد قديما والاعتصام حديثا ومن تفرّق من عباءتها) الصِّراع والتنافس لكسب الأنصار والمؤيدين فهزّ الكثيرون لها الرؤوس، ووجدت الجماعة الجديدة أتباعا كثيرة ولم يعلموا أن التدفق السريع خطير على العمل الحركي، ثم خلق هذا التنافس أجواء تنافسية غير حميدة عمدت على نشر الأسرار للتشفي، ولكسب مزيد من المؤيدين، ودخلوا معركة من طرف واحد مع الحركة الأصلية.

وهذه المعركة الكلامية، أفادت المخابرات وتسللت الجواسيس فأدت دورا هادما في داخل العمل الإسلامي، وفي ظل الحركة الجديدة، وحققت عملية الاختراع كثيرا من أهدافها، كما قال الشـــــــــاعر:

إذا ضاق صدرُ المرءِ عن سر نفسه ❋ فصدرُ الذي يستودعُ السرَّ أضيق

انتشرت الأسرار في لمحة عين، بينما كانت الجماعة الأولى تربي أعضاءها بكتم الأسرار، وظهر في السّاحة وكالات أنباء متنقلة تنشر الأسرار مجانا؛ فتلقفته المخابرات بتلهف شديد وزادت فيها بتلفيقات، وقالوا قديما: «من عرف سِــرَّك أسَـــــرَك»

كانت المخابرات ومن وراءها تتابع ما كان يجري في داخل الحركة الإسلامية من تطورات بعناية، وفتحت قسم متابعة الحركات الإسلامية في الصومال وغيرها، وكانت ضغوطا تفوق بكثير طاقة بلد متخلف قليل السكان، محدود الثقافة، أتعبت طاقاته الفكرية القوى الشيوعية القاتلة والخانقة، وهي غير قادرة على استيعاب الصدمات ومقاومتها؛ فتلاشت دفاعاته أمام الضغط العنيف. في هذه المرحلة قادت الجماعة عاصفة أفســدت الوحدة وبعثرته إلى فئات عديده ولا تزال تتبعثر وتتشتت، وندعو إلى نشطاء هذه الحركة أن يستغفروا الله من ذلك ويدعوا إلى الوحدة والتضامن في العمل الإسلامي، وأن يتجنبوا من الثقافة المفرقة.

وانقطع عنها المدد الحي الذي يمنحها الحيوية والفاعلية؛ فتجمّدت روحانيتها وفقدت تماسكها، وكررت محاضرات لينة يابسة دافعة الأذى عن الحاكم، ثم انهارت عند طرح الآراء المثيرة للشقاق، ظهر

لون جديد من الانحرافات في قبول الشائعات «سمّاعون للدعاية» فأصبح جيل السبعينات والثمانينات مهيئا للهزّات مستعدا للاضطراب، قابلا لتلقي الأقاويل. وقد قال شاعر قديم:

يكفي من البرق شماعه ❋ وحسبك من الشر سماعه.

والحقيقة أن الأستاذ محمد قطب رحمه الله كان على حق حين قال في كتابه كيف ندعو الناس «إن ظاهرة التنازع والشقاق والتشرذم التي تحيط بالعمل الاسلامي اليوم تحمل دلالة معينة، وأن هناك نقصا في تربية الاخوة الإسلامية في نفوس العاملين في حقل الدعوة، ونقصا في التجرُّد الحقيقي لله» إ. هـ.

كان هناك عدد كبير من المتفرغين للدعوة يتلقون رواتبهم الشهرية من الخليج، وإن كنا نعترف دورها الكبير في تخفيف مرارة البؤس والفاقة التي كانت شائعة في المنطقة، وكانت مفيدة لإشباع حاجاتنا الأساسية وحياتنا المعيشية، كما انتشر بفضل تلك الرواتب في البلاد علماء يلقون دروسا مجانية؛ لكن اعتبرت الجامعات وكلاء لهم أو سفراء الجامعة في المنطقة تقبل تزكيتهم فيها.

فالشيخ الذي يدعو إلى انضمام الحركة هو نفسه الذي يدفع المنح الدراسة في الجامعة الفلانية؛ فأصبح الشرط «البيعة أولا!» فتزاحم الناس على الانضمام إلى الاتحاد الجديد وغيرها من الحركات المانحة كالإصلاح، فاعتبرت قياداته نصرا عظيما ملأ المنطقة زهوا، ولا شك أن في تلك الجماعتين «الإصلاح والاتحاد» - رغم الاختلاف- منقولتين من العرب كماهي، وحاملتين من سلبية ثقافة العرب المتفقة بألّا يتفقوا، واستلموها كفكرة صافية نقية لا تحتاج تبريد ولا تكرير!!. يمتلك الحاكم أو الشيخ سجايا «الملكية» التي تعني أن يقبل الحاكم أي وجهة نظر تؤيد ما قرره هو بالفعل.

وقد كان لقيادات الاتحاد هم الوحيدون الذين كان لهم التزكية لجميع مقاعد المنح المخصصة للصومال في جامعتي «المدينة المنورة» و «مكة المكرمة»، وكانت محجوزة لهم ولجماعتهم، بينما جميع مقاعد المنح المخصصة للصومال في جامعة «الامام» في الرياض كانت فترة من الفترات محجوزة لجماعة الاصلاح.

وكنا نظن أن حجز المنح المخصصة لوطن على جماعة وليدة لا يعني إلا أن الدولة المانحة هي التي تموِّل هذه الجماعات بطريقة كاشفة. فمدير الجماعة أو وكيله قد يقبل تزكية شخص ولكن حجز جميع المقاعد لفئة من الفئات غير الحكومية، أمر لا يتجرّأ عليه وكيل في جامعة ولا وزير في دولة حسب ظننا، إلا إذا كان الأمر متعلقا بالقيادة العليا في البلد وبمخابراتها السرية. والأغرب من ذلك أن هذه الحركات لا تدفع المنحة للطالب إلا إذا قدم الطالب البيعة للحركة قبل شرحه للمنحة، فالمنح لأتباعها لا غير، مما يشكك في عدالة ونزاهة هذه القيادات.

ماذا ستفعل هذه القيادة إذا كان الأمر يتعلق بقيادة وطن؟ هل هم يعتقدون طريقة الأحزاب في العالم الغربي؟ وأين العدل العام؟، وقد وُجهت بالفعل دعايات ضد بعض الإسلاميين حول هذا الأمر وضد آخرين من ذوي الصلة بتوزيع المعونات يتهمونهم باحتجاز المنح والمعونات الكثيرة الواردات لجماعتهم مع أننا لا نستطيع الاطمئنان إلى كثير من تلك الدعاوي.

وأكبر مشكلة وأخطرها تأتي بعد ذوبان الأنشطة الإسلامية في المؤسسات الرسمية التي تموِّل المشاريع الخيرية وغيرها. ومسألة التمويل للمشاريع الخيرية التي اشتهرت في العالم ب «السحر الحلال» هي أشد نقاط الضعف عند الجماعات الإسلامية بثغراتها الأمنية وضغوطها الفكرية. فالمال وما أدراك ما المال؟ «فضل الله» ونعم المال الصالح للرجل الصالح، لكنه في نفس الوقت «فتنة الدنيا». عَنْ كَعْبِ بْنِ

عِيَاضٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ». رواه الترمذي وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وخطورة الذوبان في المؤسسات المالية تكمن في أن ذوبانها «بطيء» و«غامض» لا يراه إلا المخلصون وأصحاب البصيرة المتخصصين في علم الاجتماع، وعلينا ألا ندّعي العصمة إلا إذا تعرضنا للفتنة. نسأل الله العفو والعافية.

الحركة القديمة لم تكن يقظة لمواجهة الطارئ الهائج، وحصل شيء يشبه «التفويض» إذ قد يخون الأمين ويغش الناصح، وكانت الحركة تحسن الظن بالجميع، ولم يكن لديها قوّة رادعة ولا قوّة مادية لردع الآراء المثيرة للشقاق، بمعنى لم يكن لدى الجماعة سياج وقائي كاف لردع الاضطرابات الداخلية التي لابدّ لكل تجمُّع بشري أن يحدث فيه، ولم تتوقع من الاخوة إلا خيرا، وواجهت الأمر بالحيرة، ولم يكن هناك ما عُـرف بلغتنا المحلية (kheer waxkaama dhibee shar u toog hay)

وكان من المفروض أن تقيم الجماعة الأصلية ميزانا تقيم عليها حياتها في مأمن من اضطرابات الأهواء واختلاف الأمزجة، وتصادم المصالح والمنافع، وذلك الضمان الوحيد للحركات من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التي تحيق بها في معترك الأهواء، ومضطرب العواصف، ومصطخب المنافسة، وحب الذات. فكانت هذه المنافسة غير المألوفة أولى بوادر الانشقاق الذي سيظهر فيما بعد في الصف الإسلامي على الساحة الصومالية. لم تصل درجة ا لوعي عند قيادات الحركة الأصلية حتى تبني أمورها وفق خطط ذات احتمالات عدة، ومن ثمَّ لم تحسب الحسابات للمفاجآت والمستجدات. وهذا درس هام لكل من يريد بناء أمة أو حركة.

فقد ثبت عن النبي ﷺ «عَنْ زِيَادِ بْنِ عِلَاقَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ عَرْفَجَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ، فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ»، وكان هناك نقص مثل هذا الوعي ساعده أمران:

١- أن الحركة كانت تمر في مرحلة سرية ليس لها سلطة عند الأتباع إلا ما كان في ضمائرهم.

٢- خروج الجيل الأول من البلاد بحيث خلا الجو لكل داعية خير، ولكل راغب فتنة، ولكل وكيل لمذهب أو حركة.

انتشرت الغيبة والنميمة، وأحبّ البعض أن يأكل لحما ميّتا، ولم يكرهوا أن يقدّموا لغيرهم غذاء عفنا كريه الطعم واللون والرائحة «الغيبة» فذهب البعض مدبرين عن العمل الاسلامي ككل، وهكذا عندما يرى الفرد أنه مدعوٌ أكثر من جهة، يصعب عليه أخذ القرار الذي يميِّز بين من يعادي ومن يتعامل معه، خاصة إذا كان كل داع يستدل بكم من النصوص الشرعية، وقد روي عن بعض الحكماء: «أن كدر الجماعة خير من صفوِ الفرقة». وقد أعطى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الأخوة قدرها وأوصى بها وقال «إذا رزقكم الله عزّ وجل مودّة امرئ مسلم فتشبثوا بها».

القيادة المحلية لم تسمح للأعضاء «المرونة الفكرية» وضيّقت الأعضاء على مساحة الحوار مما أدى الكثيرين أن يبحثوا إلى ملجئ آخر أكثر مرونة؛ فتحوّلت الجماعة إلى عامل طرد أكثر من عامل جذب للعقول المتميزة.

***

أزمة الخلافات

بدأ الخلاف وهنا ظهر الملثم المجهول «الشيطان» نعوذ بالله من كل مجهول مختبئ في أيِّ مكان، فالشيطان كاللص لا يدخل إلا البيوت المليئة بالذهب والفضة. نشط الخلاف الفكري بين العاملين في الحقل الإسلامي، فترك آثارا سطحية الجذور في نفوس الفرقاء.

ثم بدأ الاضطراب الفكري الذي يدفع الكثيرين إلى التبعية؛ فظهرت في المنطقة جلسات منهكة للقوى والأعصاب في مناقشات عقيمة، شبيهة بالجلسات التي حيرت العقول في زمن «المأمون» وبدأ البعض بنقاش حادٍ حول الذات القدسية سبحانه، معتبرة أنها تدعو إلى مذهب جديد، فاهتزّت الجماعة داخليا، فلا تكثر الزلازل إلا على الأراضي المشققة كما يقولون. فالخلافات الدينية جرى تضخيمها عمدا، وكان من أسباب الخلاف الرئيسي هجران النصوص، والاهتمام بالتأويلات والفتاوي وأقوال الآخرين قديما وحديثا، ولحسن الحظ لم نشترك من هذا الجدل وحفظنا قلوبنا وعقولنا منه، ولا نزال نعتقد أنه لا يوجد أفضل من سلامة القلب.

إن قلة الخوف وذهاب الروحانية، تجعل عقل الإنسان بيئة خصبة للقلق الفكري والانحراف والاضطراب، ومن ثم شهدت المنطقة ترويج أخبارا مجهولة المصدر لتدنيس صورة البعض؛ فشهدت الجماعة انهيار الضوابط الداخلية؛ فأصبحت الأذن مصدر الرئيسي لتلقي المعلومات، وانتشرت ثقافة التفتيت والتجزئة؛ لأن الفرقة قد عصفت ريحها فمزَّقتهم شرَّ ممزق، مما جعل المشاكل مستعصية الحل.

لم يتحمل البعض مرارة الخلاف؛ فقد كره البعض هذا الخلاف وتمنو الخلاص منه، لكن المحاولة لم تنجح؛ فكان منهم من ذهب إلى غير رجعة، ومنهم من ذهب بهدوء مثل أيِّ رجل نبيل، وربما ذهب البريء مع المذنب؛ فأوقات الفتن يضعف أثر الطيبين وينشط المشاغبون. وأصبح خروج من جماعة إلى أخرى ولادة، يتذوّق بها، أو بالأحرى يتألم الخارج آلام المخاض أو الانفصال عن جسمه الأصلي بل عن روحه؛ فانهالت عليه «الكراهية» وظنّ أو جمّله الشيطان أنه تحرّر من أغلال ذلك التنظيم؛ فقد انقشعت الغشاوة عن عينيه، وبدأ يبصر الأشياء على حقيقتها، ومن هنا تبدأ عليه فكرة «التعاظم» ويكون بارعا لفت الأنظار إليه وتصوير عظمته وتحقير كارهيه؛ لأنه مجرّب، ومناقشاته كلها محمومة، والحقيقة غير ذلك فهو مريض بعدوى «غيظ المقاطعة» وخرق حدا من حدود الله ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ ۝١٠٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۝١٢﴾ [الحجرات: ١٢]. وَعَنِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَحَاسَدُوا، **ولا تقاطعوا، وَلَا تَدَابَرُوا،** وَكُونُوا عِبَادَ اللهَّ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ»، ومن ثمَّ هو معذب في الداخل، وفي النار عذاب اسمه عذاب التفرد ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ [الشعراء: ١٠١] ، ولا تفرُّد مع مؤاخاة الصالحين المؤمنين. وهكذا خرج الرجل فعادى إخوانه في الله لا غير!!. فهو معذب داخليا، ويحسُّ في نفسه مرارة تقطيع الأواصر، علما أننا في زمن إذا أغضبت أحدا صار عدوا في الحال.

وفي الحديث النبوي الشريف «الأرواح جنودٌ مجندة» يقول ابن جوزي في تفسيره ويستفاد من هذا الحديث «أن الإنسان إذا وجد من نفسه نفرة ممن له فضيلة أو صلاح فينبغي بأن يبحث عن المقتضى لذلك ليسعى في إزالته حتى يتخلص من الوصف المذموم».

وما المرء إلا بإخوته كما يقبض الكف بالمعصم

ولا خير في كف مقطوعة ولا خير في الساعد الأجذم

ولو عاد هذا المريض إخوانه ووسّع قلبه للمؤمنين لاستعاد عافيته، ولدخل الجنة ولوجد الله عنده؛ لأن قلب المؤمن يسع للمؤمنين أحياء وأمواتا. عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، قَالَ: جَاءَ أَبُو مُوسَى إِلَى الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ يَعُودُهُ فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: أَعَائِدًا جِئْتَ أَمْ شَامِتًا؟ قَالَ: لَا، بَلْ عَائِدًا. قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: إِنْ كُنْتَ جِئْتَ عَائِدًا، فَإِنِّي سَمِعْتُ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا عَادَ الرَّجُلُ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، مَشَى فِي خِرَافَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسَ، فَإِذَا جَلَسَ غَمَرَتْهُ الرَّحْمَةُ، فَإِنْ كَانَ غُدْوَةً صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنْ كَانَ مَسَاءً صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ» صحيح رواه أحمد والبيهقي. وهكذا لو زار إخوانه بصدق النية لزالت كل عقبة ولو كانت مثل الجبل. وقال شاعر رقيق المشاعر:

ما ذاقت النفس على شهوة ألذَّ من حُبِّ صديق أمين

من فاته ودُّ أخ صالح فذلك المغبون حق اليقين

وأخيرا: لا راحة ولا سكن إلا أن يرجع الفرع إلى الأصل؛ لأن ألذُّ الأشواق ما كان بالتبادل، وفي التقاء القلوب، وفي رحاب المحبة والمساواة تنتفي الآلام وتلتئم الجراحات، ثمّ تتحوَّل إلى رابطة روحية قوية.

وفي النهاية: الملام هو العالِـمُ الذي أرسل الطالب، وما الطالب إلا رسول مغلوب على أمره ينقل ما يؤمر به المرسل، ويحمل ما يكلف به. هذا العالم الذي يسوؤه أن يرى منافسا لفرديته، فيعتمد سلوك المهاجمة والنقد المطلق متلذذا بلذة التفوق. وكانت إجابة إخوان الطالب الذين قاطعهم «**أكرمتنا فملّكتنا ثمّ أعرضت عنا فاعتقتنا**» ونسأل الله سلامة الصدر.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٩]

يا أخي إذا أحببت غيرنا فلماذا تكرهنا وتجافينا؟ خاصمتنا وأنت أحوج ما تكون إلينا، وفي النهاية مُدْ يدك للمصالحة ونحن أغنى ما نكون عنك. وإن قدر لكم أن تعودوا إلى مركزكم بعد طول فراق واشتياق، يكون جمالكم جلالا. وأخيرا «أحبُّكم إلينا من كفانا مئونته» كما قال قديما عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه.

وفي النهاية كانوا حزبا واحدا فأصبحوا أحزابا، وفرَّقوا جمعهم ومزَّقوا شملهم بآراء متفاوتة وعقول متهافتة ، وانقسموا على أنفسهم؛ فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم، وأذاقوا عذاب التفرق والتفرُّد مما أدى ويؤدي إلى المقاتلة والمحاربة.

من سوء الحظ أن الحركة الأصلية في وضعها القديم لم تكن مهيّأة لمواجهة هذا التحدي الرهيب والمموّل والمدفوع من وراء البحار، والمقنّع بالقناع الإسلامي. وكان من الأسباب أن كوادر جيل الستينات خرج من البلاد لإتمام المراحل الجامعية، والذي بقي في البلد لم يستسغ الخلاف والجدال، فأصبح الجيل اللاحق (جيل السبعينات) ضحية للهزات الفكرية العنيفة، وضحية لصراع الأيدولوجيات؛ فافتتن

بالخلاف عدد كبير من أعضاء الجماعة، وعدد آخر من مؤيديها، تحرِّكهم العاطفة الصادقة (غفلة الصّالحين)؛ فتتابع الدعاة المتفرغون إلى البلاد، وأعجب بقياداتهم الجديدة في الحرمين الشريفين.

فالتقليد يهز الشخصية، والعين المبهورة لا ترى إلا الأضواء، وتفخر عن السّواد الذي يحجبه الضوء اللامع، ونحيط علما أننا لن نجد في الإسلام «طبقة النبلاء» ولا «بابوية فيه» بل أخوة عامة ومساواة تامة. ومن الغريب أنه لم يكن هناك طمع خليجي لسيطرة الصومال وتطبيق الشريعة فيها، كما لم يكن هناك طمع ملكي لبسط نفوذ الحكم إلى البلاد الأخرى كالصومال، فلمن كانت تلك الخدمة المفرقة يا ترى!!.

ثم نتج من ذلك الانبهار بالتجهيل والتبديع لإخوانهم، وعلى كل عالم في البلاد؛ وقياس الجاهل على العالم من أفسد القياس ، وذوو النفس الدنيئة يجدون اللذة في التفتيش عن أخطاء العظماء. والإعجاب بالشخصية الجديدة يدفع الأتباع تلقائيا إلى محاولة التشبه به شكلا ومضمونا، وحين تكون العلاقة بالمربِّي علاقة «إعجاب» مقرون بالحب والتقدير وقد أخذت رسوما معينة أقرب إلى التقديس، أو منزلة النبي المعصوم من الخطأ؛ فالأتباع عادة عندهم قابلية للغلوِّ والاستعداد للتعصب.

وفي هذه المرحلة النفسية لم يهتم أحد من المتأثرين بهذا الاعجاب قيمة الوحدة العمل الإسلامي في بلده، بل أصبح الكثيرون وكلاء من شيوخ متعددة متضاربة في البلدان الأخرى؛ فتفرقت الفئة الواحدة إلى فئات، وتبعثر العمل الإسلامي إلى عدة فرق، كل فئة بما لديها فرحة، وكان الضرر أقل إذا انضموا إلى حركة واحدة، ومن الحكمة «إن لم تبن فلا تهدم». فتذكرت يومها أقوال الشاعر حنظلة رضي الله عنه الذي قال فيها:

عجبت بأن خلفهم هادم كفى   فكيف إذا خلفهم ألف هادم

عجبت لما يخوض الناس فيه   يرمون الوُحدة أن تزولا

ولو زالت لزال الخير عنهم   ولاقوا بعدها ذلا وانكسارا

من الغريب أن السلفيين ضربهم التعالي واستصغار شأن الآخرين أو احتقارهم؛ لأنهم قد عثروا واطمأنوا على الطريق الصحيح، والمنهج الصحيح، والعقيدة الصحيحة، بعد أن لبسوا أفكارهم ثوب الدين ؛ فكانت المكافآت التي حصل عليها أتباع السلفية، الجلوس مع الملوك والرؤساء أتباع الغرب، وذلك بالخدمة الجليلة التي قدموا للمشاريع الهادفة، التي تهاجم المتشددين والتكفيريين، مما أدى إلى الاستلام من الهبة الملكية وتكريماته، فصفق الكثيرون إعجابا بهذا الكرم، بينما هو قد عادى أحبابه وإخوانه في الله ثمَّ فرّقهم وشتتهم، فتكررت على ألسنتهم كثيرا من الألفاظ المفرِّقة مثل «بدعي» و «تكفيري» و «خارجي» و «جهادي» و «أشعري» و «صوفي» و «معتزلي» و «أهوائي» و «قرآني» ......وغيرها وأسماء ما أنزل الله بها من سلطان كلها في داخل المسلمين. وهكذا الايغال في الأفكار الدقيقة يعمي عن الكبيرة. والحقيقة أن مثل هذه المصطلحات التاريخية يُعدُّ في منتهى التجني على التاريخ. وتسبب فيما بعد قيام الصراع على أشده بين الحركات، وكسب العناصر المحايدة التي ضاقت ذرعا من هذا النزاع، ووجد الدعاة السلفيين فعلا، أذنا صاغية.

فروّجوا فتاوي علماء رسميين مطوِّقين بالسلاسل المذهبية، ويمثلون أحيانا دور تلبيس الحق بالباطل اغترار بما يرون من بهارج القول وأغلالا في أعناقهم، يقودونهم بها إلى حيث شاءوا، من غش العامة باسم الدين، وجعلها مستبدة لهؤلاء المستبدين، ووجوب طاعة الظالم وجوبا دينيا تحت تبريرات واهية،

ولذلك كان العلماء العاملون قديما يهربون من قرب الأمراء المسلمين المستبدين، أشد ما يهربون من الحيات والعقارب والعفاريت، فضلا عن الموالين للأعداء. ومن أخلاق العلماء المتانة في الدين دون تساهل، وهم الذين كانوا يتخذون قراراتهم على العلم والشرع لا بناء على طبيعته ومشاعره وأحاسيسه.

تكدّست الثروة عن طريق الهيئات الخيرية، وفتحت الأبواب لاستقبال الأموال المتدفقة بحفاوة. ولا شك أن حاجة المال كانت كبيرة كما قلنا، لكن كان على خبز الصدقة شيء من السم!، وكان من المفروض الاستفادة من فضل الله، ثم التفادي عن ضرر هذا السم، وأصبح ذلك من أصعب الأشياء، ومن الأمور التي لطخت نقاء الدعوة عند العامة. ونحن نعلم أن من الصعوبة بمكان الحيلولة دون جعل الدين وسيلة لمكاسب دنيوية خاصة إذا زاد إقبال الناس عليه.

ثم بدأت طبقة المظليين المفاجئين ليقودوا العمل الإسلامي؛ ليسيطروا عليه أو يفرِّقوه إلى فئات عديدة لتذهب ريحهم، ثم قام مصطلح «العلماء» فضُخِّم إلى أبعد حدود، وأصبح مجرد جهاز لتأمين إسلامية الملوك والسلاطين على حساب المطاردين المؤمنين (المتشددين) أو التكفيريين حسب التعبير الشائع عند الجميع أو الإرهابين حسب تعبير الساسة والغرب. وكان العلماء دائما بمثابة الطعم (النكهة) بسياسة الملوك والسياسة الملتوية أو الغامضة سواء عن سلامة نيتهم أو قلة درايتهم بأهداف السياسة الخفية.

ومن الملاحظات التي سجلناها، أن بعض أصدقائنا القدامى أرسِلوا كدعاة مبعوثين إلى العالم بعد تخرجهم من الجامعات بأوامر يطلقون عليها «سامية» أي صادرة من الملك مباشرة، وليست الهيئات الدينية المسئولة عن الدعوة؛ فيفاجأ مدير الدعوة بتسجيله في قائمة الدعاة في الغرب والشرق بأمر سامي!!.

خروج الشيخ محمد معلم وبعض الكوادر من السجن

خرج الشيخ محمد معلم من السجن عام ١٩٨٢م بعد أن قضى ٦ سنوات في الزنزانة ، أفرج بعد أن تفرّقت طلبته إلى فرق متناحرة متنازعة، فبدأ التفسير مرّة أخرى في مسجده، لأنه كان يمثل في حينها «الرمز العلمي» الذي تألف على مائدته أطياف الإسلاميين كافة، واجتمع عنده عدد ممن كانوا يرون أنهم أعداء إلى الأبد؛ فاجتمعت معه اللجنة الأمنية الرئاسية.

قالوا له: نحيطك علما أن قرار وقف دروس التفسير صدر من المجلس الأعلى للثورة، فالمطلوب منك وقف دروس التفسير إلى الأبد.

قال الشيخ: إنني لا أحسن إلا هذا التفسير فلماذا أنتم متضايقين من كلام رب العالمين؟ قالوا: بعد اعتقالك تفرقت الجماعة إلى فرق متناثرة متدابرة؛ فلما بدأت التفسير، سجلت المخابرات أن جميع الفرق اجتمعت مرة أخرى عندك في التفسير، وتوقفت الدعاية والوشاية التي كانت تجري بينهم، والحكومة يهمها هذا التفرق، لتجد ما يجري في الساحة. هكذا صارحوا معه، وإن كانت صراحتهم عارية من اللياقة.

وقال لهم: حسب علمي أن الحركة الإسلامية تخطط للمستقبل البعيد، وليس لديها أجندة جاهزة للحكم في هذا القرن؛ فهل أنتم تريدون أن تدافعوا الحركة الإسلامية من أحفادكم؟ قالوا: نعم هم أعداء الثورة ونحن ضدهم!!

أما قيادات الجماعات الجديدة؛ فقد ضاقت ذرعا بالشيخ العظيم الذي اشتهرت سمعته، واعترف بفضله الأعداء قبل الأصدقاء، وحاولوا أن يجعلوه نسـيا منسـيا، وانتشرت فيما بينهم عبارات «أمِّي في العقيدة» عبارة اشتهر بها وكررها (حسن طاهر أويس) الذي تأثر بالعاصفة السلفية ثم شاعت فيه وفي غيره «أشعري العقيدة» و «متصوف» وغيرها من العبارات التي اعتبروها مهينة. خلافا لما ورد عن النبي ﷺ «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِّ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ(١)، وَلَا الْجَافِي عَنْهُ(٢)، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ» رواه أبو داوود: كتاب الأدب باب: أنزلوا الناس منازلهم .

وأيُّ جهل ذلك الذي يدفعهم لتجاهيل مكانته، فقيمته الحقيقية إنما هو عند الله، وليس في ذلك إهانة له إذا كان في ميزان الله كريما مهتديا داعيا. عن عبادة بن صامت رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليس من أمّتي من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف عالمنا»(٣). كان المتزايدون قد حاولوا تشويه الصورة التاريخية لتلك الشخصيات الهامة في هذه المرحلة؛ فما علينا إلا أن نرفض مثل هذا التشويه شكلا ومضمونا. وكانت هناك سياسة تؤجج تلك الحملة وتغذيها بالوقود، وإن كثرة اشغال العقول بعيوب المخالف وتعظيمها تحيي الفكر الذين يدعون إليه، وتستر عيوب الأفكار والأشخاص بالأشغال عنها بعيوب من حولها. لم نكن نتصوّر وقتها ، أن مثل هؤلاء العلماء المعاصرين وقبلهم النووي والعسقلاني وأبو حامد الغزالي .... وغيرهم. لم نتصور أنَّ أولئك الذين عمّقوا الإيمان في قلوبنا والذين كانوا يدخلون قلوبنا بدون استئذان، وأصبحت أفكارهم جزءا من دمنا

(١) المفرط في اتباعه حتى يحرجه إلى اكفار الناس كتعنت الخوارج.

(٢) المضيع لحدوده

(٣) أي يعرف لعامنا حقه.

ولحومنا بل من قلوبنا، سينقلب عليهم بعض طلبتهم، وكنا في حيرة من أمر تلك الفئة وأفكارها، تلك الفئة التي ألبست المذهب الحنبلي ثوب الدين. أعتقد أن التقدير الذي كان يكن لهما الجميع جعلاه هدفا طبيعيا لانتقادات الحساد.

منهم من كان يسأل الشباب أسئلة تعجيزية لإثبات جاهليتهم، ولابأس أن نذكر مثالا نشطا آخر هو الأخ العزيز «عبد الله علي حاشي» الذي كان مرجوا عند الجميع، وذلك قبل تخرجه من الجامعة ونذكر تلك الأمثال تحاشيا أن يكون التعميم عشوائيا، وكان يُحرج الشباب بأسئلة تعجيزية مثل :-

س١- هل تعرف أصح الأسانيد؟

ج١- فيقول الشاب «لا» بالطبع؛ فيجيب (أصح الأســانيد عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم).

س٢- هل تعرف ترجمة الإمام البخاري؟

ج٢- لا أعرف، فيفحمه ويستنتج بجهله، ويقول كيف تتكلم عن الكفر والإيمان والحكم، وعن موقف الإسلام من الملوك والرؤساء، وتفتي للناس وأنت لا تعرف قواعد المصطلح ولا قواعد علم الجرح والتعديل؟. كان يعتمد على الضعيف فيضربه ضربة هائلة يطير لها قلب القوي فيستسلم له، أو كان يختار تلك الأساليب في الهجوم المباشر ليظهر تفوقهم عليهم ، وكان واقعا تحت تأثير الشعور بالتبعية لآراء مذهبه الجديد والتعالي عليهم، متمردا على أفكار حركته الأصلية.

وإذا استدل الشاب حديثا يقال له هل تعرف درجة الحديث سندا ومتنا؟ فيخجل الشاب الداعي المؤثر وأصبح الاستدلال بالأحاديث النبوية صعبا عند الشباب.

لقد أصاب الكثيرين مرض ازدواجية الولاء، فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات التوجيه، وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجِّه الآراء والأفكار. والهوى: هو الذي يجعل كل صاحب وجهة يصير عليها مهما تبين له وجه الخطأ فيها؛ فيرجِّح الذات. ثم نتج من ازدواجية الولاء مرض التجهيل، لم يقتصر التجهيل على أتباع الحركة ولكنه انتقل أيضا إلى عرفاء الأمة قديما، وعلماء البلد وأعيانه، والمفكرين المشهورين، وعمت الساحة مصطلحات فضفاضة مثل الشيخ والفضيلة والجامعي والدكتور والسلفي والسني وغيرها. وهذا الغرور في التحصيل والعلم يدفع هؤلاء إلى انتقاد كل ذي علم ومعرفة واحتقاره.

إن إخواننا الذين أرسلت الجماعة إلى العالم العربي، والتحقوا بالجامعات الإسلامية في الخليج بصفة خاصة، وكنا نشجعهم أن يتفقهوا بالثقافة الإسلامية، ولم نكن نوصي لهم شيئا، إذ كنا نعتقد أنهم نفر منا يدرسون لنا الدين في البلاد الإسلامية، ويتفقهون لنا لا علينا، وما كنا نخاف عليهم أبدا بل كنا نجلهم اجلالا عظيما.

يا ويحَ أهل العلم كيف تأخروا   والسبقُ كل السبقِ للجهال

فكانت المفاجأة أن انقلبوا ضدنا، وحاولوا نقدنا وتفريقنا ومقاطعتنا، وإطفاء مصابيحنا، إذ وجدوا في البلاد العربية علماء وحركات وجماعات وهندامات ومذاهب متفرقة متلاعنة، فتأثروا بهذه الفيروسات المفرقة، ونظروا إلى ماضيهم وإلى معلميهم بعين الازدراء، إذ دخلوا في متاهات التفرق

والتلاعن التي بين الفرق المختلفة؛ واستطاعت الجماعات المتخرجة من الجامعات الخليجية الولوج بكل انسيابية في العديد من المساجد عبر البلاد، فنقلوا هذه الجراثيم المفرقة إلينا، وكانوا يكررون على ما سموهم بالجرح والتعديل، وتـفننوا باستخدام الألفاظ الجارحة الشائعة في الجامعات الخليجية بالذات، وأضافوا ثقافتهم بألفاظ جارحة، مثل ليس بشيء، موضوع، ضعيف، كذاب، لا يعتدُّ به، جاهل، من أهل الأهواء، من الفرق الضالة.

وبالجملة رجعوا إلينا وهم يكرهوننا ويعادوننا، ويسمّوننا بأسماء مقبّحة عندهم كالجهّال، وحدثاء الأسنان، وسفهاء الأحلام، مرددين بفئات إسلامية قديمة كالأشعرية والصوفية والمعتزلة والخوارج، ثم مصطلح «التكفير» المروّج والمضخَّم في الاعلام وغيرها، ولكل منهم التزاماته نحو منظمته التي أرسلته وموّلته واختارته لهذه المهمة، ومن هنا استحال النقاش العلمي وأصبح ضربا من الدفاع عن الذات، وحتى الموعظة انقلبت الى تجريح؛ فنعوذ بالله من الغلوِ والغرور. وكان ذلك ضربة مؤلمة لآمال الحركة لم تفق منها حتى اليوم. وأراد الذين أطلقوا المصطلح «التكفير» على الحالة الإسلامية في الصومال نوعا من الصراع، وفي تقديري أنَّ إطلاق ذلك المصطلح لم يكن يعبِّر عن واقع موجود بقدر ما كان معبِّرا عن أمنيات من أطلقه وروَّجه، إنما كان يوجد توصيف دعوي فقط.

وكانت النتيجة أن خرج جيل جديد يحبون الظهور والفخفخة ومظاهر الأبَّهة ومجالسة الرؤساء والملوك وعلماء السلطة، وقيادات الجامعة، وقد أساءت تلك المبالغة إلى سمعتهم، وجعلتهم موضع تندر. عبَّر تلك الحالة الشاعر الذي قال:

ودخلت فيها جاهلا متواضعا		وخرجت منها جاهلا مغرورا

ودخلت فيها جاهلا متواضعا		وخرجت منها جاهلا دكتورا

وهكذا تلقت الجماعة منهم «جزاء سنمار»، وأقاموا في البلاد فيما بعد حروب أهلية دينية مشتتة ومفرقة كما سيأتي في فصول قادمة. **وجزاء سنمار**: هي حكاية عربية مشهورة عن المعماري «سنمار» الذي ما إن أتمّ بناء قصر «الخورنق» للنعمان بن امرؤ قيس، أحد ملوك المناذرة حتى رماه من فوق القصر ليلقي مصرعه، فذهبت مُثلا على الجحود. وتداولها العرب بقولهم لمن يجحد «لقي جزاء سنمار» . على كل حال عاش هؤلاء الدعاة فترة نشوة انتصار زائف ودامت لحظات خاطفة أشبه ما تكون بالفرح الزاهق. وهكذا الجامعات الحالية أخرجت لنا جامعيا يتشرب بفرع من فروع العلم يصل إلى درجة الفناء في ذلك العلم ، وهو ملاصق ذلك العالم ، ولا يسمع إلا بإذن ذلك العالم ، ولا يرى إلا بعينه ، ولا يتكلم إلا بلسانه ، ويعيش انفعالات ذلك العالم ، فتحولت الجماعات المتخرجة إلى آلات لإنتاج الأفكار النمطية .

وقد قوّم الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة تقويما رائعا صدر من قلب عالم واع غيور أستاذ متجول في الجامعات الإسلامية، قوَّم المستوى ، وهو يقارن بين همم العلماء القدامى وبين مستوى دراسة جامعاتنا الإسلامية. قال في كتابه صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل ص١٠٩ «يدرسون فيها أربع سنوات، وأغلبهم يدرسون دراسة صحفية فردية، لا حضور ولا سماع، ولا مناقشة ولا اقتناع، ولا تطاعم في الأخلاق ولا تأسي، ولا تصحيح لأخطائهم، ولا تصويب ولا تشذيب لمسالكهم، ويتسقطون المباحث المظنون السؤال من مقرراتهم (المختصرة)، ثمّ يسعون إلى تلخيص تلك

(المقررات)، ثمّ يسعون إلى اسقاط البحوث غير الهامة من (المقررات)، بتلطفهم وتملقهم لبعض الأساتذة، فيجدون لدى بعضهم ما يسرُّهم، وإن كان يضرُّهم، وبذلك يفرحون. وبعد ذلك يتغالون بضخامة الألقاب، مع فراغ الوطاب، ويوسعون الدعاويَ العريضة، ويُجهِّلون العلماء الأصَلاء بآرائهم الهشة البتراء، وينصرفون الأقوال الشاذّة لتجانسها مع علمهم وفهمهم، ويناهضون القواعد المستقرة، والأصول الراسخة المتوارثة، ولم يقعدوا مقاعد العلم والعلماء، ولم يتذوقوا بصارة التحصيل عند القدماء! ولكنهم عند أنفسهم أعلم من السابقين!! ما أجمل أيام كانت بيوت الله تعالى مقر التعلم والتعليم!!. ويشهد المراقب للحال العلمية اليوم: كثرة متزايدة في الجامعيين والجامعات، وفقرا متزايدا في العلم وأهله، وضحالة في الفهم والمعرفة، ونقصا كبيرا مشهودا في العمل بالعلم! وهذه مصيبة من أدهى المصائب! والله المرجوُّ أن يلهم المنوط بهم أمور التعليم في البلاد الإسلامية، أن يتبصّروا بالأمر، ويتداركوا هذا الخطر قبل تأصُّله وإزمانه، واستفحال آثاره» انتهى كلام أبو غدة.

لقد وضح لنا المشكلة رحمه الله رحمة واسعة، وفتح الطلسم الذي أشكل علينا أسبابه وفهمناها وزال عنا الحيرة؛ فظهر السرور على وجوهنا؛ لأننا عرفنا السبب فبطل العجب؛ فالحمد لله على السداد، ما أطيب فرح الفهم على القلب والنفس!، وما أجمله على الوجه والعين! وصدق من قال: «الفهم شعاع العقل!» وما أروع البيان. قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾ [الرحمن: ٤] . وأشاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيمة البيان وأعلى قدره ورفع شأنه. عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ عُمَرَ، أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ رَجُلَانِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَخَطَبَا، فَعَجِبَ النَّاسُ لِبَيَانِهِمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» - أَوْ قَالَ: «إِنَّ بَعْضَ الْبَيَانِ لَسِحْرٌ».

ثم تطرّق إلى همومه وحرقته في الحالة العلمية للمبتعثين إلى بلاد الغرب والشرق من بلاد الكفار والأعداء للإسلام وأهله، قائلا: «فإن الناجي من براثن مكائدهم الخفيّة والظاهرة في العقيدة والخلق والتفكير والسلوك قليل، وكم من أبنائنا وشبابنا من وقع في حبائلهم، وذهب في سبلهم، ورضيهم قادة وسادة، ونزع بالتالي من ديار الإسلام إليهم! وتوطن بلادهم مسكنا ودارا، واختارهم على أهله أهلا وجارا، وهو يظنُّ بنفسه أنه يحسن صنعا،! نعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن الكفر بعد الإيمان!. وهناك غير واحد من أبنائنا وشبابنا المتعلم، من تأثر بهم تأثرا كليا أو جزئيا! ورجع إلى بلده وهو يريدهم أن يكونوا في أفكارهم وعاداتهم سادة عليه، وقادة له ولولده ولبلده!. وأما تحصيل العلم منهم على وجه الأمثل، فما أقله في كثير من المبتعثين؟! وما أكيد الغربيين والشرقيين للدارسين المسلمين، يعطونهم مبتور العلم مع كبير الألقاب؛ فيعودون لديارهم بمعلومات ضحلة! فالأمر لله من قبل ومن بعد والله ولي المؤمنين. وأخيرا يقول إنا لله من طلبة هذا العصر الذين يستعجلون قرع (الجرس)! ليخرجوا من الدرس المؤقَّتِ بخمسين دقيقة! في ألين الأوقات راحة، وأفضلها نشاطا، وأجمعها ذهنا، من قاعات مبرّدة صيفا، ومدفأة شتاء، فيخرجون من قاعة العلم يزحم بعضهم بعضا! كأنهم يفرُّون من حريق، أو ينطلقون من سجن ظالم قتال». انتهى.

وقد أعلن البروفسور «أرنولد لون» الغربي في كتابه معترفا بحرقة الشيخ ، «أن عصرنا هو عصر عقدة الشهادات. فالماجستير والدكتوراه ما أصبحت غاية في حد ذاتها لشبابنا. ولكن كل شيء ينسي هذه الحقيقة ، وما هي إلا حروف الأبجدية الأول لبداية المعرفة ، والمعرفة لا يمكن تخزينها في زجاجة

الماجستير والدكتوراة ، إن هي إلا نظرية مزيفة ، جامعاتنا هي فقط مؤسسات علمية لإعداد الطلبة ليتعرفوا على كيفية التحصيل العلمي والمعرفة » (١)

*****

(١) ص ١٩٢ Rovol Against reason Prof.

الانشــقاقات

تفرقت الجماعة وبدأت الانفجارات الداخلية تزداد يوما بعد يوم، وأفرز الفكر الغير المتزن أشلاء متناثرة هنا وهناك. فازدادت العواصف الجامحة هياجا، وتعددت الأسماء في وقت لا يستطيع مهتم في أمر الدعوة أن يعلن كلمة حق إلا إشارة وتلميحا.

ثم تشققت الحركة إلى عدة طرق المعروفة لدى العام والخاص، وأدخل الكل دلوه إلى هذا البئر المتدفق، فوجد الجميع منها حظه من أتباع الصحوة، وتطلع الكثيرون إلى منصب القيادة. قالوا: هؤلاء الذين حققوا كل هذه الانتصارات بهذه الفترة الزمنية القصيرة طلبة مثلكم، فلماذا لا يعلن لنفسه دعوة خاصة به يتولى قيادتها هو، ويطلب لها التمويل من العالم العربي، أليست تلك « فرصة العمر!! » فأصبح من الممكن لأيٍّ أحد أن يركب موجة من موجات الأفكار المساعدة لرغبات الزعامة؛ فعند ما تظهر موجة الأفكار والتحركات، تعددت الدعاية التي تكثر الجماعات والتحزبات.

وعند السخرية والاستهزاء وإظهار عيوب المخالفين، والتنديد بها، يتجمعون شذوذات الأفراد، ويسهل العصيان والمخالفة ونزع الثقة والأمانة فيهم. كثرت الحركات، سواء منها ما يقوم على الحق أو ما يقوم على الادِّعاء، حركات ولدت في ظروف رد الفعل والفوضى الحركي، وهذا ما يمكن أن يكون قد انطبق على ما حدث في ذلك الزمن.

والطعنات الانفصالية التي أصابت الحركة ثم أصبحت فيما بعد عدوى عامة؛ فتعددت الفئات، وحاولت كل حركة بناء نفسها على حساب حركة الأم، وادعت كل جماعة باسم الصحوة الإسلامية الصومالية وإن كانت منها، وحاولت كل فئة تشكيك هيبة الحركات الأخرى؛ فأصبحت المذهبية

الشائعة هي السلاح البرّاق الذي يمكن به ضرب الوحدة الإسلامية، وأصبحت شبيهة بالنعرة القبلية، وفتح باب المراء والجدال، وتذكية أوار الفرقة والخلاف، وتسويق الآراء الشاذة التي مزقت الأمة، وجمعت بين التخطيط والتخبيط، وركوب دابة العصبية والهوى، وكانت النتيجة أن تفرّقت الجماعة إلى فئات، علما بأنَّ كل فئة كان لها ايجابياتها الدينية من توحيد ودعوة وصلاة وصيام وحج وغيره، فالإيجابيات لا تفرق ولا جدال عليها، بينما ركزنا في هذه العجالة السلبيات فقط ؛ لأنها هي المفرقة التي يجب على الجميع أن يفقهوها لكي يتخلصوا منها ، لكننا لا نركز على تلك السلبيات فقط عند تقويمنا لأي حركة بل يهمنا الإيجابيات أكثر من تلك السلبيات.

ولهذه الأسباب روي أن عيسى عليه السلام مرَّ مع الحواريين على كلب ميِّتٍ منتن ، فقالوا: ما أنتنَّ هذه الجيفة ، فقال عيسى عليه السلام: « ما أحسن بياض أسنانه ؛ تنبيها إلى أنه ينبغي أن يذكر من كل شيء أحسنه » . وفي النهاية تفرقت الحركة إلى الاتجاهات التالية:-

. **« الاتحاد الإسلامي » ،** قاد الجوي العلني العام، وانضم إليها خليط من الناس لكثرة المتفرقين لهذا العمل، وازدادت شعبيته بسبب ما تقدمه من دراسة إضافة إلى مساعدات سخية من دول الخليج، ولمرونة الحركة وتوسيعها، أصبح الفكر الرائج، والدعاية السيئة التي نسجتها حركة الاتحاد كان لها تأثيرها. ومع الفوائد الكثيرة التي أنتجتها، إلا أنه كان لها ما بعدها من التفرق والتمزق ودخول حروب غير مجهّزة وغير واضحة المعالم، وارتجال الجهاد ثم التراجع عنه عند عنفوان تنفيذه، وعرف بذبذبة الأفكار والقرارات، ثم تفرقت بحكم الطبع إلى فئات مختلفة ، ونحاول نسلط الضوء على نقاط الضعف لكل حركة، فإن عرفت نقطة ضعفك أو أهدى إليك غيرك فقد قطعت شوطا طويلا في طريق العلاج،

ورحم الله امرئ أهدى إليَّ عيوبي، ومن الطبيعي أن يكون لكل حركة أخطاء لأنها بشرية تخطئ وتصيب وانقسمت الجماعات إلى الفئات التالية :-

. « **السلفية القديمة** » التي انتهت إلى « الاعتصام » المعروفة ما لها وما عليها، وهي جماعة مشهورة تلاصق الحكماء والأنظمة دائما مما يوهن أفكارهم ويضعف حماس مؤيديهم ؛ لأن الأنظمة الحالية بعيدة كل البعد عن الإسلام كدين وعن العدالة كقانون ، وعن الأهداف العامة التي توحد الأمة، يعادون جميع الأنشطة الإسلامية الأخرى ، ويسمون الكل بأسماء من عندهم يقولون الخوارج والتكفير والمتطرفين الإرهابيين أو المقاتلين ، تماما كما يقول الغربيون أو الساسة الموالية للغرب، مما يؤدي إلى الاهتمامات المشتركة مع أهل الكفر للعمل في الاتجاه المضاد الذي يعيق العمل الإسلامي. ومن أخطائهم معادات «الحماس» علما أن الحماس قوة انفعالية احساسية تؤدي إلى الإنتاج العظيم ، وأن المفاهيم بدون إحساس وحماس وعمق تكون مفاهيم وأفعال جوفاء ، والغريب أن معادات الحماس قضية دولية .

. **منها « السلفية الجهادية »** أو «الشباب المجاهدين» والتي قامت بعاطفة انفعالية إسلامية تفتقر إلى حسن التدبير والتنظيم وحساب العواقب، واعتمادها على فقه العصر المملوكي فأدت إلى الشطط والتخبط. ورغم تحمل أعباء الجهاد والقتال في هذا الزمن المليء بالغدر والخيانة وموالاة الكفار؛ ورغم البطولة ومواجهة المجرمين الموالين للأعداء والكفار مما يستدعي أحيانا «الجود بالنفس» التي هي أقصى غاية الجود ، فإنَّ نقطة ضعف تلك الفئات الجهادية التي لم تنجح لـمّ شملها هي:-

أولا: تركيزهم على شاب يعلو بنفسه فوق مستوى الحياة ، محاولا أن يطير على أجنحة الخيال إلى عالم عقلي مثالي يعلو على الجميع ، فيقرر «**بدعة الانتحار**» ، واستخدام أسلوب العنف فقط في الجهاد ، فينخدع الشباب بتلك المثاليات حتى يقدموا أنفسهم ضحايا مجانية ووقودا تشتعل ثم تنتحر يوما واحدا، وما تريد نيله بالقتال ربما يسهل عليك بلوغه بالابتسام، وأن العفو عن الإساءة هو انتقام رقيق. وبما أننا نرى وجوب مراجعة «بدعة الانتحار» نرى أيضا أن الكفر وصد عن سبيل الله، وجريمة الاستيلاء على الأرض بغير حق، واذلال الشعوب الإسلامية، واخراجهم من ديارهم، وتفتيت قواهم، أكبر عند الله .

والحقيقة أن العربدة الغربية عامة والأمريكية خاصة ، هي التي تخلق القنبلة القابلة للتفجير في أي وقت، بحيث لا يجرؤ أحدٌ من المسلمين أن يعارضه لمصداقية من فجَّره، بل بإمكانه أن يفجِّر العقول لقوة خطابه، علما بأن الجهاد هو ذروة سنام الإسلام ، فالشباب المسلم بسب الظروف المحيطة مستعدون نفسيا ، ومتوقدون فكريا ، ينتظرون التوصية والإرشاد ورسم خطط السير بحكمة وحنكة وذكاء.

ثانيا: اعتقادهم أن طريق الجنة فقط في فمِّ المسدس، ويهتمون فقط بالحوادث اليومية، وترى أو تسمع من تصرفاتهم «الخبر العاجل» أو الانفجارات، ويرون أن حل الخلافات والمشاكل فقط في فم البندقية وافراغ الدم غير آبه لمن يموت في تلك الحادثة، مبعدين من حياتهم الشورى والعمل الجماعي وحشد الأمة والعمل بالفكر والإقناع والدعوة بالحكمة والقول الحسن، والتخطيط والاستمرار في الحياة الإيمانية، بحيث لا ينبغي أن يكون باعث الجهاد ناشئا عن انفعالات نفسية أثارتها أسباب جزئية ، قد

تؤدي إلى تفتيت القوى الفكرية والعقدية التي تنظم الأفراد في سلك كتلتهم البشرية الواحدة ، والتي ينجم عنها وحدة عاطفية تؤكد روابط الكتلة البشرية وتدعم تماسكها.

. **ومنها « السلفية الجديدة »**. وهي فئة أخرى أسِسَت في الخليج بتخطيط وأوامر حكومية بعد حرب الخليج ومستوردة منها كما هي ، عرّفت نفسها بالوسطية، وقوّمها البعض تنازلية، اختاروا مصطلحا مشتركا عاما « السلفية » بينما سمّى الآخرون «السلفية الجديدة» ومن نقطة ضعفها أنها تعمقت في تقديس الحكماء والأمراء، وترى في القتال عبثا وفي المقاومة استحالة، ومخالفة الملوك والرؤساء فتنة وبغيا، وأخذت فهما خاطئا في البطولات، وهي حركة أخذت خطوات أكبر إلى الملوك والأمراء، يبارك فكرها في الغرب والشرق، فنسأل الله السلامة، ومنها سلفية قديمة وأخرى معتدلة أو وسطية ... ومنها... ومنها .. الخ، وهكذا تشققت السلفية وفي طريقها إلى التفكك، إذ لا يلد الانفصال إلا الانفصال، وبدلا من أن يأخذوا طريقا إلى التضامن، ينزوي كل واحد منهم مكتفيا بلعبته الحزبية، ممزقا شمل المسلمين تمزيقا بعد تمزيق؛ فالجماعات كالأفراد تتآكل بالتدريج ما لم تبحث عن شملها المبعثر، وما من حركة الا تفرقت الى فئات متعددة. على كل حال أعتبرها فكرة وهمية ؛ لأن المقصود بالحقيقة عموما هو اتفاق الفكرة مع الواقع وترجمته على حقيقة الواقع.

. **ومن تلك الحركات « حركة الإصلاح »** جاهد لإيجاد قسمه من الغنيمة مدعيا بمصطلح الإخوان المسلمين، يهتم بالثقافة ومشاركة الجوي العام والانتخابات، واغتنم قسما لا بأس به، ولم تسلم هي أيضا من التشقق، ورغم دورها في التشقق وانقسامها إلى عدة فئات ؛ إلا أن ضررها كان أقل من غيره لطابعها السلمي، وسياستها العامة، ومرونتها الاستيعابية. لكن نقطة ضعف الإخوان أو الإصلاح

حسب رأيي ورأي كثير من المفكرين الإسلاميين هي مداهنة الدساتير العلمانية والتبني القانون العالمي ثم رفع شعار «الديموقراطية» والدولة المدنية ذات مرجعية دينية، مما يعني المداهنة مع الباطل، والمداهنة دليل الذل وعلامة الجبن وبداية الهزيمة.

. **حركة « آل الشيخ** » طلعت من بين المجموعات، والشيخ المذكور هو الشيخ « محمد معلم » رحمه الله ، جمع تلك الفئة قبل وفاته على نمط حركي ، وأصبحت من الحركات المتفرقة التي ظهرت في الساحة، وقالوا: نحن إخوان المسلمين فلم يعتبروا الإخوان المسلمين بالدوليين وإنما الاخوان القديم أيام حسن البناء وعبد القادر عودة وسيد قطب وغيرهم الذين اشتهروا وقادوا الحركة قبل التشقق وبعد ابتلاءات في السجون، فاذا تشققت أيّة جماعة، المصطلح القديم المشترك يتلاشى وأفضل حلٍ إلغاؤه.

. **خرجت فئة أخرى شبابية** تتصرف بطريقتها الخاصة، ذات منهج مُنفِر، ولها فقهها وفهمها للمسائل وسلوكها الخاص، تعمَّقت وركزت في مصطلح «البراءة » قبل تقديم أيّ دعوة، وعمّمت الكفر على كل فرد على حدة ، وهي نظرية غريبة وفقه أو استنتاج خيالي، وظهرت كرد فعل مما كان يجري في الساحة الدعوية من تلاعب في المصطلحات كالكفر والتكفير والايمان والجهاد والحكم وغيرها، سماها البعض ب «التكفير» وهي الفرقة التي بدأت تصيغ أفكارا واجتهادات لها، وتبلورها ثم نسبتها إلى علماء ومفكرين إسلاميين آخرين، سماها البعض ب «التكفير» وإن كنت أعلم أن هذا المصطلح دعائي أكثر منه فكري. ولا أظن أن هناك فئة إسلامية تعترف به أو تقبل تسميته، وعلى كل حال معاملاتهم الاجتماعية فيها خلل منشور على البلاد، ومن أغرب ما وصلنا عنهم تفريقهم بين الزوج وزوجته والوالد وذريته بعلة «الكفر» ثم عقد زواج لغيره، وهم هؤلاء الذين استنبطوا من فقههم بتحريم

الذبائح عند تلك الأمة المنتسبة إلى الإسلام ، بينما معروف عند الإسلام بحل زواج وطعام حتى أهل الكتاب.

عَنْ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه : « إِنَّكُمْ نَزَلْتُمْ أَرْضًا لَا يَقْصِبُ بِهَا الْمُسْلِمُونَ إِنَّمَا هُمُ النَّبَطُ، – أَوْ قَالَ: النَّبِيطُ – وَفَارِسُ، فَإِذَا شَرَيْتُمْ لَحْمًا فَسَلُوا، فَإِنْ كَانَ ذَبِيحَةَ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ فَكُلُوهُ؛ فَإِنَّ طَعَامَهُمْ حِلٌّ لَكُمْ » أنتهى. فالبراءة والتبرُّؤ هو المنهج أو العنوان المركز والمكرر عندهم أكثر من اللازم، وبما أنَّ البراءة ورد في حوار بعض الأنبياء مع أقوامهم الذين كفروا كفرا صريحا؛ إلا أنه كان يأتي آخر مرحلة في العمل الدعوي الذي استغرق العمر كله، أو كان النتيجة الأخيرة في المعركة أي مرحلة المفاصلة.

قال تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ۝٤ ﴾ [الممتحنة: ٤]

﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ۝٨٩ ﴾ [الأعراف: ٨٩] ،

أما المعاملة البارزة عند الأنبياء قبل تلك المرحلة النهائية كانت جاذبة وحسنة ؛ لأن الدين المعاملة.

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: تَكَلَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ كَلِمَةً فِيهَا مَوْجِدَةٌ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ تُقِرَّنِي نَفْسِي أَنْ أَخْبَرْتُ بِهَا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَوَدِدْتُ أَنِّي افْتَدَيْتُ مِنْهَا بِكُلِّ أَهْلٍ وَمَالٍ، فَقَالَ: ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ نَبِيًّا كَذَّبَهُ قَوْمُهُ، وَشَجُّوهُ حِينَ قَدْ آذَوْا مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَصَبَرَ جَاءَهُمْ بِأَمْرِ اللهِ، فَقَالَ: وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ: «اللهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

والرسالة الخاتمة كان لها شأن أبعد ، كلها رحمة وغفران وعدل، ومعاملة رائعة كقول النبي صلى الله عليه وسلم يوم رجوعه من الطائف، (فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهَّ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَّ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

والخلاصة: الويل لشاب عامي قليل العلم والفقه لا يتهم نفسه في واقعه ، ولا يريد أن يذكر أو يستعين من هو أعلم منه، ثم يتصرف بتخبطاته، فليست الدنيا فريقا صغيرا، ولا مدرسة ضيقة، بل الخير والعدل والتفاؤل أوسع من خيال من ضاقت به الدنيا ، ولم يرَ على الحق إلا نفسه أو من شابهه.

والمطلوب بكسر الحواجز مثل العزلة والشك في الناس والخوف منهم وعدم الثقة ثم اقتحام العالم للتأثير. فالمرونة أقوى من القسوة ، والمؤمن الفطن لا يتكبر على الواقع ولا يتجاهله ولكنه يتعامل معه كما هو ، ويأخذ دوره ، لأن من لا يواجه مع المخالف لا يعرف مقدار ما عنده من قوة ، وثقة المنعزل يضعف بمجرد المنازلة ؛ لأنها قوة معزولة عن التمرين والحيوية والمجادلة ، والقوة الضعيفة تنال قدرا من القوة وإعادة التقوية والتهدئة بمجرد التمرين ، وقد يلاقي أفكارا تقنعه بنقصه وضعفه وتبعيته .

والإسلام دين عام للبشرية حكمته وتوازنه رائع إلى حدٍ يدعو إلى الدهشة. فمرونة الرسول صلى الله عليه وسلم متعددة في مواقف كثيرة منها: مثال عظيم في السيرة. وهي جرأة نفاق عبد الله بن أبي ، مقابل عفو وحكمة نبوة وهي قوله صلى الله عليه وسلم ما رأيك لو تحدث الناس إن محمدا يقتل أصحابه ،

مقابل غيرة الابن على محارم الله ، مقابل أمر النبي صلى الله عليه وسلم ببر الوالد المنافق وحسن صحبته ... وغيرها كثير.

. « **المستقلين** » **طلع نجم آخر** سمى نفســـه المستقلين أو المتفرجين، وهي عبارة عن أعداد لم ينضم إلى أيِّ حركة، دليلا بالتفكك واعتبروا أنفسهم من الصحوة. وكل أدلى دلوه على البئر، فوجد منه شيئا ولو يسيرا، وحتى المخابرات وجدت نصيبها من الإسلاميين وأدى دوره ، وفتحت مكتب خاص لمتابعة الحركات الإسلامية. وغيرها ...... كثير.

. « **حركة الأهل** » التي بقيت بعد قياداتها على طريقتها وفكرتها الأصلية أو الطبيعية ، والتي ربما لم يؤثر الجدال بأفكارها، والتزمت الصمت حيال التفكك والنزاع ، وهي عبارة عن بقايا من تلك الحركة القديمة ، حاول خصومها اشهارها وتسميتها ب « التكفير المعتدل أو المتزن » علما بأنهم رافضين تلك التسمية التي لم يعترفوها، وأخذوا منهج حفظ العقل والقلب من طوفان النزاع والتفرق معتبرين أن الجدل نتيجته حتمية وهي الفشل وذهاب القوة ، ولذلك ترى جل أتباعها ، وجوب دعوة الوحدة والاعتصام بجميع الحركات الإسلامية لتواجه معا الحضارة المضادة ، كما ترى وجوب وقف الحرب الداخلي وجوبا شرعيا.. لكن الخوف من المشاركة في أمر الدعوة موقف ضعف وانزواء ، والمشاركة موقف ثقة وقوة وجرأة ، والمطلوب كسر الحاجز واقتحام العالم للتأثير. وفي أصعب أوقات الحصار للنبي صلى الله عليه وسلم كان يخرج للحجيج يقابل الناس ، ويكشف عنه وعن أتباعه التهم التي يلصقها الناس.

- **وأغرب دلو وأفحشه** كان الذي ألقاه في الساحة «القاتل المحترف» الشريف محمد ابن جمال الليل، كان من الأشراف ذوي لون العرب، ومن والدة صومالية سمراء اللون ، فأصبح لونه أسمر مثل لون أمه وأخواله ، ومات أبوه في صغره، وكان أحد أعيان أسرة الأشراف «شريف عقيل» يعاديه ويسميه قبيح الوجه!، وأنه ليس من الأشراف وليس له الحق أن يرث أموال الأشراف فعزم على الثأر، وقتل شريف عقيل نفسه وأسكته انتقاما في تصرفاته الظالمة، وذلك كان في عام ١٩٥٩م تقريبا، فحُكِم عليه المؤبَّد في حينها، ثم خرج من السجن بعد أن قضى فيه وقتا طويلا، وبعد أن تعلم في السجن وتحوَّل إلى قاتل محترف يزعم أنه أصبح متدينا إلى حد الاسراف؛ فتزامن الرجل تلك الاضطرابات في عام ١٩٨١م، وارتبط بالطليعة الشبابية، وواجه بعقليته القتالية، ودلل دلوه الاحترافي، فربح أعضاء من الشباب الذين كانوا يرون أن الجهاد والمواجهة مع الحكومة والمخابرات أمرٌ لا بدَّ منه، وأسسوا طليعة سموها «الطليعة المجاهدة» وجد تلك الفئة غنيمة له، وأدخلهم في معركة أصبحت الضربة القاضية التي أنهت تمنياتهم.

والرجل كان ينتقم من الذين اعتبروه ذا نسب مغموز، وهم الأشراف، لكن بعض الأشراف يرفضونه كما ذكرنا، فطالب من أهله نصيبه من الميراث، فلم يلق إلا السخرية والاستهزاء، ناقم على الإرث المجهول الذي لم يورثه إلا عارا؛ فحاول أن يواجه الحياة بجرأة، وأراد أن يقتل أكبر عدد ممكن من الأسرة ؛ لأنه نشأ بين أناس اعتبروه مجهول النسب، هذه النشأة قد أثرت علي نفسه وجعلته يحقد عليهم ؛ فدخل تلك الحلبة المضطربة بهذه العقلية الثأرية، وأدلى دلوه، وذلك كان بعد أن تكونت فئة كل تفكيرها الجهاد أو القتل والانتقام والقتل والقتال على رموز النظام والمخابرات بصفة خاصة.

قال: سجلوني مجاهدا مخلصا من الطراز الأول، وتبعه أو ساعده أفراد من الشباب المتحمسين، ومن «الطليعة المجاهدة» فانضم إليها. فقال: الجهاد ضرورة ملزمة ويحتاج إلى مال وسلاح، وأنا أضع مالي كله تحت تصرف المجاهدين، لكن المال محجوز عند أخي الكبير؛ فطلب منهم المساعدة لشراء بندقية، ربما جمعوا له مبلغا فاشتري بندقية، أو كانت البندقية عندهم فقتل به رجلا آخر من أعيان الأسرة، وكان معه شخصان من الطليعة المذكورة عند تنفيذه العملية، ثم اختفى!!، وتباكى المجاهدون لرحلتهم الجهادية، فقبض الاثنان (أبشر وإبراهيم) الذين كانا معه واعتبرت المحكمة مشاركين في الإجرام وأعدما شنقا، فالقانون الوضعي لا يحمي المغفلين كما يقال، كما حكمت المحكمة بآخرين من تلك الطليعة بآجال أخرى مختلفة، فنحن في زمن غريب من ليس له عقل يوازن به الأمور يصبح ضحية للمتآمرين في ملبسه ومعيشه وتهييج كلامه.

حاول بعض رجال المخابرات تعميم الإجرام على كوادر الحركة وضربها أكبر عدد ممكن من الأعضاء، وبقدر من الله لم تنجح المحاولة؛ لأن الرجل قتل رجلا من الأسرة قبل ذلك، وكان قاتلا محترفا معروفا عند الشرطة وعند المحاكم، ومن ثمَّ وقاهم الله سيئات ما مكروا). (انتهت قصته).

هكذا تشققت الجماعة كل واحد منهم يراعي فكرته ومنهجه ومجموعته فيما يقول أو يكتب، ولم يستطيعوا على وحدة صفوفهم، ذلك لأنهم لم يكونوا فرقة واحدة، بينما كانت حركة اتحاد الشباب قديما والتي اشتهرت فيما بعد ب «الأهل» نواة يتجمع حولها كل المؤمنين، وليس معنى ذلك هزيمة الإسلام؛ فالواهمون المهزومون يظنون أو يعتقدون بأن الإسلام هو أهله الحاليين متناسين أنَّ قوة الإسلام في

جوهره وروحه، وأن الانتشار العفوي للإسلام هو سمة من سماته على مرِّ التاريخ، وذلك لأنه دين الفطرة.

ولا ينبغي أن يفهم ذلك على أنه إشادة مطلقة أو تزكية عامة لتلك الحركة القديمة سواء لمسلكها ومواجهتها وحلها لما واجهت وإدارة شئونها؛ فلا شك أن تلك الإدارة اعتراها الكثير من المآخذ المنهجية والسلوكية والإدارية. على كل حال اتسمت العلاقات بين أعضاء العاصفة السلفية الناشئة والحركة القديمة بالهدوء، وساعد ذلك رؤية الإخوة القدامى التي ترفض المواجهة داخليا وتهتم بالسلام الداخلي.

وعودة إلى السلفية وبما أننا نعتبر السلفية عموما والاتحاد الإسلامي خصوصا، عملا من أعمال الإسلام، ومحاولة جادة لخدمة الدين، ولها ما لها وعليها ما عليها، ومن ثروات العمل الإسلامي وتجاربه؛ إلا أن الضرر المنهجي على التضامن الإسلامي كان كبيرا وضارا جدا!، فقد اعتاد الإسلاميون بعد هذه الدعوة، «المذهبية المفرقة» والخصومات أو التحرشات بينهم أو التضارب الذي لا نهاية له، بحيث أصبحت مسألة التوحيد مستعصية الحل، وأصبح التفرق موضة زمنية. ولا معنى لأن تبني كثيرا ثم تهدم كل ما بنيته في يوم وليلة، كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا.

أعتقد أن جل مشكلة الإسلاميين الصوماليين في ذلك الزمن كانت تكمن في التقليد؛ فلما تقلدوا أصبحوا لاحقين بحكم الطبع، ثم بدأوا التناول ما يطبخه غيرهم، فترى أن شخصين أو حركتين اختلفتا أو تفرّقتا في الخليج وفي مصر مثلا أو حتى اختلاف المذاهب قديما، فإداهم يختلفان ويتفرقان هنا في الصومال، ففي كل حركة من تلك الحركات تفرقت إلى عدة فرق، وهكذا من يضع نفسه في منزلة

الموهوب لا يستطيع معارضة الواهب؛ فقد قيل قديما «الموهوب مسيّر والواهب مخيّر» فأدى ذلك التقليد الأعمى إلى «التشوش الفكري» والتـشوُش دائما مجلبة الاضمحلال، فالأخذ من الغير أو النقلة الكلية تحتاج إلى دراية عميقة؛ فقد قال الإمام الأوزاعي رحمه الله «من أخذ بقول المكيين في المتعة والكوفيين في النبيذ، والمدنيين في الغناء، والشاميين في عصمة الخلفاء فقد جمع الشر» (١). إن النظرة الفاحصة في تاريخ الأمم، واستقراء أحوالها تبيّن لنا أن التقليد بين أمة وأمة، وبين قوم وقوم، تحدث بينهما من التشابه والتفاعل والانصهار ما يضعف التمايز والاستقلال في الأمة المقلدة، وتجعلها مهتزة الشخصية، وبهذا تفقد مقوِّماتها الذاتية وميزاتها الطيبة، وتعيش عالة على غيرها.

فالتعليم والتمويل كان يأتي من الخليج بشكل الصدقة؛ فالتهمنا خبز الصدقة؛ لأننا كنا في حاجة ماسة إلى هذه الصدقة، فأفادتنا الصدقة نسبيا، ورفعت مستوى بعضنا الثقافي والمعيشي؛ فكانت نافعة لنا من هذه الناحية، فالمال من فضل الله ونعمه، ولكن كانت هذه الصدقة ضارة لنا إلى حد كبير من الناحية الأخرى؛ لأنها فرّقت كلمتنا، وأضعفت وحدتنا، وقطعت روابطنا، وأبعدت ما بين طوائفنا، وخلفت فينا كتلا صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب، كل فئة ترفع لواء فئة من فئات البلدان الأخرى؛ فكثر فينا الممثلون والسفراء، وازداد المعتمدون. وأعظم دليل على ما تقدم، ما ابتلينا من تباعد الأفكار، واختلاف الآراء، وكثرة المنازعات، فأدى ذلك كله إلى الاضطراب والفشل وذهاب الريح، وهذه هي نتيجة المردود المالي السلبي.

سؤال وجيه: ما الحل؟ وهل هناك حل لأزمة أو كارثة (التفرق) ؟

(١) أنظر نزهة الفضلاء ٦١٩

الجواب نعم: لأنه لا ينبغي أن نفقد الأمل ، ولأن أكبر القتلة قاتل الأمل. والحل هو مراجعة ذلك الخلل كله، واعتبار العمل الإسلامي عملا جماعيا، أمره شورى بين أهله جميعا، ونجاحه في توحيد مؤمنيه، والجار الجنب أحق من غيره وأقرب إليك من البعيد، كما يجب علينا أن نقف كثيرا على مصطلح «الإخلاص» وأن نزيل العمل الإسلامي من الأوهام والعادات والمصالح والمطامع والامتيازات، وأن تتكتل المجموعات لتنظيم جهودهم باتجاه واحد، وبذلك يمكن أن نغيِّر الآراء، وهذا التغيير يمنحنا المعرفة والشعور بالقوة، ينتج منه التفاهم والتعاون مع الاخوة المخلصين الآخرين ممن أشربوا نفس النوايا الطيبة للمصالحة والعمل معا، وعند ذلك فقط قد سلكنا الصراط المستقيم واعتصمنا بحبل الله المتين وهدينا الى الصراط المستقيم. **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴿١٠١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠١]

*****

المؤثرات الخارجية

المؤثر الأول: مسألة الخلاف العقدي والمذهبي

إن أكبر أزمة سلبية أثرت الحركات الإسلامية، هي نقل ظاهرة التعصب العقدي والفقهي الذين كانا قديما أكبر المشكلات الإسلامية حساسية، ونقلهما على أساس من الصدام بدل معالجته على أساس من الحوار المحترم والتعاون المشترك والتفاهم. راجع بالتفصيل كتابنا «مصادر التجمع ومنابع التفرق».

وبما أن المذهب الحنبلي الشائع مذهب هام من المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة عند المسلمين، ويجبر الفقه الإسلامي من جوانب هامة ولا يستغنى عنه، ودوره كبير وعظيم في فرملة القياس عند ما تجاوز الحد المطلوب أو ظلمه أحد. فقد قيل «القياس مظلوم كم من الباطل ارتكب باسمه» وأنه اشتهر بالدعوة إلى التمسك ب «النص» ؛ إلا أنه لم يكن يوما من الأيام المذهب الوحيد عند المسلمين كما يريد أن يصوِّره البعض، بل كان متهما بقلة الفقه وسطحية الفكر عند بعض الفقهاء القدامى، وأن حصر العقيدة الإسلامية ب «السلفية الحنبلية» غباوة طارئة ما بعدها غباوة، وظلم للتاريخ ما بعده ظلم.

وبما أن كثير من آراء المذاهب لا تختلف عن بعضها الا في تفسير نقاط ثانوية من الشريعة والشعائر، وتعتبر اجتهادات بشرية غير معصومة؛ إلا أن المذاهب الفقهية أو العقدية في هذا الزمن، ليسوا على صفاء الصورة التي كانت المذاهب عليها أيام الأئمة الأربعة، بل تطوّرت المذاهب فيما بعد إلى فرق،

واختلفت وتباعدت وتلاعنت وكفّـرت بعضها البعض، وأصابها تطورات الأزمنة وغبارها؛ فغطى عليها غلاف الزمن وغباره، وحتى لو حاولنا تنظيفه من هذا الغبار؛ فإن آراء العلماء في أزمنتهم ليست بالضرورة أن تكون صالحة لزماننا ولكل زمان ومكان. فالمذاهب خرجت من بيئات لها ظروفها الإيجابية كما لها ظروفها السلبية.

وأن المذهب السلفي الحنبلي المؤثر مثلا تطوّر في بلدان عدة، والمتتبع لتاريخ العراق يشم من السادة الحنابلة المتأخرة، بعض الآثار أو السلبيات التي اشتهرت المنطقة بها، وعندما ظهر نجم المذهب في العراق في القرن(......) انتــشـر فيه ما عُـرف بالحسبة الشبابية المفتوحة، والمتعلقة جلها على الصوّر التي كانت في أيامهم خاصة بالشعائر الوثنية، والاختلاط بين الرجال والنساء، واللبس، والشكل؛ فأصبحت أولويات المذهب فيما بعد.

جاء في تاريخ ابن الأثير ما يلي:- «أن الحنابلة أحدثوا فتنة كبيرة بين الناس عندما عظم أمرهم في بغداد، وقويت شوكتهم، وصاروا يكسبون من دوار القواد والعامة، وإن وجدوا نبيذا أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء، واعترضوا في البيع والشراء، ومشى الرجال بالنساء والصبيان؛ فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذي معه من هو؟ فأخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة، وشهدوا عليه بالفاحشة؛ فأزعجوا بغداد» إ. هـــ.

ثم انتشر المذهب في النجد، واكتسب من هناك شيئا من جفائها وبداوتها مقتبسا من سلبية حركة الوهابية التي اشتهرت بالنضال والعداء واقصاء الآخر؛ فانتقل إلى العالم الإسلامي بعد الطفرة الخليجية في السبعينات، مدفوعا وممولا في هذه المرّة من دول موالية للغرب، فلا يخلوا من تشويه بعض

المصطلحات وقضايا الساعة، كالخلافة والملك والموالاة، والمعاداة، والجهاد، والنقد، والتقويم، والكفر، والتكفير، والحكم والعدالة والتملك وغيرها. فطبائع العراقيين المعروفة في التاريخ التي لم يجد حكامها حلا إلا مواجهتها بالقسوة والقتل، ممزوجا مع غلظة وبداوة وعبوسة النجديين، هذا الخليط الطبائعي الكيماوي سُفِرت وقدِمت إلينا بالتعالي على طبق من ذهب، فامتزجت مع قبلية ومثالب الصومال الشبيهة، تنتهي إلى عقلية غير مبادرة. ثم لم ينتشر المذهب كمذهب من المذاهب الأربعة المعروفة عند المسلمين، بل جاء هذه المرّة وهو يغزو على المذاهب الفقهية والعقدية الأخرى، مطالبا إفساح الطريق له، فقسّم الأمّة بين متأثر ورافض معاد، وخلق جوا من النزاع الذي أدى ويؤدي إلى الفشل وذهاب القوة.

لا ينبغي أن نتهم النيات، فلعل المتأثرون بالمذهب الحنبلي «السلفي» أرادوا حسم الخلاف بالفقه الحنبلي السلفي السني، لكن النتيجة أصبحت أن تحوّل النزاع بين أتباع الديانة الواحدة إلى آراء فقهية وعقدية قديمة لكن ربما متساوية أو متقاربة، فخلّفت جدلا عقديا خطيرا، وجدلا فقهيا مفرِّقا، ومازال الجدل يدور حول الاستواء والاستيلاء، والفرق بين الحقيقة والمجاز حول الذات القدسية، وحول البسملة جهرا وسترا، والسبابة تسكينا وتحريكا، والقنوت رفضا وإثباتا، والنية إعلانا وإخفاء، والبرقع واللحية وجوبا ومندوبا، والسبحة منعا ورفضا، والتجمع للدعاء بعد الصلوات المفروضة منعا وإلزاما.....إلخ.

ولقد أحسن الإمام مالك الفقيه المثالي رحمه الله، حينما أراد الخليفة منصور حسم الخلاف الفقهي بكتابه الموطأ، اعترض عليه الإمام مالك وقال: «يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا؛ فإن الناس قد سبق لهم أقاويل،

وسمعوا أحاديث وروايات، وأخذ كل قوم ما سبق إليهم، فدع الناس وما اختاروا أهل كل بلد منهم لأنفسهم » إ هـ.

هذه هي الرؤية الفقهية الحكيمة التي تترك الأمّـة لتتمتع بمقارناتها الفقهية وآراء علمائها لتخرج من بينها التوازن في أفعالها وبين تشددها ورخصها. أشـهرت الدعوة السلفية في المنطقة إمامين جليلين هما الإمام أحمـد بن حنبل صاحب المذهب، والمنظر العظيم شيخ الاسلام ابن تيمية، وكثيرا ما استخدم بعض فتاوي الإمامين إلى غير ما أرادا لهما ظلما وبهتانا.

فالإمام أحمد صاحب المذهب اشتهر بالنقد الحاد أمام الظلمة، كما اشتهر بالرفض القاطع استلام الأموال من ملوك المسلمين بعلة ظلمهم وجورهم، وكانت دعوته من أصلب الدعوات وأقومها، ونقده من أشد النقاد عند أئمة الجور، ولم يكن في ذلك من المسلمين من يتجرّأ على موالاة الكفر والكافرين.

أما ابن تيمية الحنبلي الحراني المنوِّر البارز للفقه السلفي، اشتهر بالدعوة إلى الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان جريئا على وجه الخصوص في إدانة القادة المسلمين جرّاء تقاعسهم عن دعم الإيمان الحقيقي بالإسلام والشريعة والحض عليه، وهو الذي صـدّ المغول الذين أشـــهروا إسلامهم وقال: «لا يكفي لصحة إسلامهم مجرّد إعلانهم اعتناق الإسلام» وحين رفعت جيوشهم المصاحف على أسِـنّة السـيوف أثناء حصارهم لدمشق، كان ابن تيمية رحمه الله رحمة واسعة هو الذي رفع صوته محذرا من هذه الخديعة، واصفا إياها بأنها محاولة لغدر الإسلام تحت غطاء التظاهر بالإيمان به. وقال: «لو رأيتموني في صفهم لا تشكوا كفري وخروجي من الملة» فهل يجوز أن يكون مذهبهما مداهنا من والى

الكفر وموّل العدوّ وناصره، وحرّم الجهاد، وعادى المجاهدين؟ إذ تكررت في الأزمنة الأخيرة ممن ينتسبون إلى هذين الشيخين ويضخمون أفكارهم بالسلف الصالح كله.

المؤثر الثاني: الألقاب والإجازات والشهادات العليا:

فقد نُـــقِـــل إلى البلدان الأخرى رجالا متخرجين من الجامعات، حاملين بحشد من ألقاب التكريم كالسماحة والفضيلة والعلامة والدكتور وغيرها. وما أعظم الرسول سيد الخلق وهو ينهي عن المغالاة في تقديسه، وهو يرد على الرجل الذي بالغ في مدحه – وهو أهل لكل مدح- فيقول ﷺ «**لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ**» والعجب كل العجب أن ندرج أسماء سادة الصحب الكرام عمر وعثمان وعلي وسعد وسعيد وزبير وبلال وأبو هريرة..........إلخ ، هكذا دون ألقاب، بينما نحن لا نقبل النداء إلا بهالة من التقديس وحشد من ألقاب التكريم، ونكرر عبارة الشيخ والعلامة والعلماء والسادة والأقطاب، وإمام الائمة وشيخ الإسلام وشيخ المشايخ والعالم ، فتكون عقبة على النصيحة، فمن هو المتكلم حتى يصحح العلامة؟. أعتقد أنه مؤثر خطير وعقبة على الحوار والمناقشات والشورى. والحقيقة أن قضية الألقاب لم يكن لها جذور بل طرأت على المسلمين متأخرة وفي ذلك الوقت المتأخر ظهرت الألقاب في الساحة الإسلامية مثل الشيخ والعلامة وشيخ الإسلام وإمام الأئمة وحجة الإسلام ومفتي الثقلين وإمام المحدثين .... وغيرها.

زار هشام بن عبد الملك في الحرمين وقال: ائتوني برجل من الصحابة، فقيل له لم يبق من الصحابة أحد، فقال: ائتوني أحد التابعين، فأتي طاؤوس اليماني؛ فلما دخل على هشام خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم أمير المؤمنين ولم يكنه وجلس إلى جانبه بغير إذنه وقال: كيف أنت يا هشام؟، فغضب من ذلك

غضبا شديدا حتى همّ بقتله. فقيل له أنت في حرم الله وحرم رسوله لا يمكن ذلك. فقال طاؤوس ما حملك على ما صنعت؟ قال: وما صنعت؟ فاشتدّ غضبه وغيظه، وقال خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تسلم عليّ بإمرة المؤمنين ولم تكني. قال: أما خلع نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعها بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات فلا يعاتبني ولا يبغض عليّ. أما قولك لم تسلم عليّ بإمرة المؤمنين، فليس كل المؤمنين راضين بإمرتك فخفت أن أكون كاذبا. أما قولك لم تكني فإن الله عزّ وجلّ سمى أنبياءه فقال: يا داوود و يا يحيى يا عيسى وكنى أعداءه ب ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾

ثالــثا: المؤثر الخارجي الثالث هو الهيمنة الاستعمارية على الخليج العربي وتأثيرها السلبي على الصحوة الإسلامية عامة والصومالية خاصة، ونقدم ذلك المؤثر على شكل كتاب مستقل لتعم الفائدة، ونريد لهذا التوضيح تبرئة المبادئ الإسلامية ومن العمل الإسلامي من مؤثرات الهيمنة الاستعمارية في الخليج وموالاتها وخططها ومخلفات تأثيرها.

تمَّ ولله الحمد

في جرووي الصومال

بتاريخ ٢ يناير عام ٢٠١٦م